١

في رأس السنة الرابعة قبل الألف الثالث...

نحو توثيق العرى بين المسيحية والإسلام

فيما تقترب الإنسانية من الألف الثالث، وقد بلغت الحضارة المادية أوجها بازدهار العلوم والتقنيات المتطورة، وسقطت في الوقت نفسه الحلول المادية لقضايا الحياة والكون، يبدو الرجوع إلى المنابع الروحية أمراً متحتماً فرضته جاذبية الفراغ.

فالصراع الذي دام طيلة هذا القرن بين العقيدة الماركسية والاتجاه الليبرالي في مختلف الميادين، أدى بعد انهيار الشيوعية إلى ما يعرف اليوم بـ«العولمة» (mondialisation) التي شرعنت تسلط الأخطبوط الرأسمالي على العالم، وهو ما يمكن تسميته «احتكار الظلم» من جانب القوى الصناعية الكبرى.

ولم يتمكن ذوو الإرادات الحسنة، إلى الآن، من تقليص التفاوت الفاضح بين الشمال والجنوب وتضييق مهواه السحيق بالعقاقير الإنمائية المادية، لأسباب متعددة لا مجال إلى شرح تعقيداتها في هذه العجالة، لكنها تعود أساساً إلى تلاشي التعاون الدولي عبر الأمم المتحدة وغيرها من الهيئات والمنظمات العالمية، في معترك التصادم السياسي بين مراكز القوى، كما تعود إلى الأزمات الكيانية التي يتخبط فيها «عالم الأغنياء» من جهة، كالبطالة وأكلاف الضمانات وارتفاع مستوى الشبع إلى حد الجشع، وإلى الأزمات الكيانية التي يتخبط فيها «عالم الفقراء» من جهة أخرى، كفساد الحكام وفوضى الإدارات وشيوع الأوليغارشية ومغامرات الجند.

إزاء هذا الاختلال الذي يشبه الفلتان في مفاصل «النظام العالمي الجديد» والياف جسده المخلّع، ونظراً لسقوط الإيديولجيات المادية الإلحادية مع جدار برلين، فقد عادت النواة الإنسانية الحضارية القائمة على ضفاف المتوسط، إلى التفتيش قبيل نهاية الألف الثاني، عن مواصفات «المدينة الفاضلة» في تراث الألف الأول، أي إلى الحلول التيوقراطية المسيحية والإسلامية لمشكلات الوجود.

وإذا كانت هنالك فئة مستنيرة من العلماء والمفكرين المسلمين والمسيحيين تنشط عبر المؤسسات الدينية العليا أو في إطار الحلقات الحوارية أو حتى على صعيد المطارحات الشخصية، لبلورة القواسم

المشتركة بين الديانتين، فإن ذلك النشاط الباحث عن كلمة سواء[1] لتأسيس «كمال اتصال» بين المسيحية والإسلام يصطدم في المقابل، نظرياً وتطبيقياً، بدعوات انطوائية واغلة الجذور في تقيع التعصب، تجعل العالم المعاصر المشرف على الألف الثالث يتدثّر منطق الحروب الصليبية وجدلية الرد بالتكفير على التكفير، محدثاً بالتالي «كمال انقطاع» بين الديانتين.

وقد شهدنا خلال حرب لبنان، وحرب البوسنة، وحرب أرمينيا وأذربيجان، وحرب الروس والشيشان - وكلها حقول تجارب لما قد يندلع من حروب أشد وأدهى في مناطق أخرى من العالم القديم - تفريجاً عن كروب وأحقاد همدت براكينها ردحاً بفعل المسكنات الواعدة والفراديس المصطنعة، ثم عادت فانفجرت وتأجّجت حالما خاب أملها بالعدالة في الامبراطورية الاشتراكية العظمى، وأملها بالرخاء في الامبراطورية الرأسمالية الأعظم.

كذلك شهدنا ونشهد صداماً دراماتيكياً خطيراً بين العنف الذي ينتحل صفة الإسلام في بعض الأقطار العربية، والإلحاد المتنكر بزي الحضارة المسيحية في الغرب. وقد ذهب أولياء ذلك العنف، بعد الجرائم التي ارتكبوها ضد الرهبان والعلمانيين والأوروبيين في الجزائر أخيراً، إلى دعوة الرئيس جاك شيراك لاعتناق الإسلام وأسلمة فرنسا، وكأنما أراد هؤلاء في غلواء حماستهم، على اختلاف الزمن ومعطياته وظروفه الموضوعية، أن يتشبهوا بالنبي محمد عندما بعث برسالتيه الشهيرتين إلى قيصر وكسرى يدعوهما إلى الإسلام.

ولا مشاحة في أن الحقد «المتنصرن» الذي بلغ أوجه ضد المسلمين في البوسنة لم يكن أقل ضراوة من هذا الحقد «المتأسلم» ضد أوروبا، وكذلك حقد القيصرية الجديدة في روسيا ضد المسلمين القفقاسيين وطلائعهم الشيشان، الذي تحاول موسكو تغليفه بغشاء الحرص على أمن الدولة الاتحادية وسلامة كيانها في وجه الحركة الانفصالية.

الأصولية والحوار

هنا لا بد من تقرير واقع، وهو أن المستفيد الأكبر من صراع الغلاة، مسلمين ومسيحيين، في الحرب الروحية البادرة الدائرة اليوم، هي الأصولية اليهودية التي كانت بالأمس القريب أيضاً، المستفيد الأكبر من صراع الغلاة الشيوعيين والرأسماليين في الحرب المادية الباردة.

قلت الأصولية اليهودية، لأن صفة الأصولية أكثر ما تنطبق على غلاة اليهود المتشددين الذين يصلون الحركة

الصهيونية بالجذور التوراتية والتلمودية العائدة إلى ألوف السنين، والتي يختلفون اختلافاً أساسياً في تقويمها لكنهم يربطونها جميعاً بأرض الميعاد، في حين أن معظم المؤمنين بالديانة اليهودية هم في أعماق ذواتهم الفردية كوسموبوليتيون يعتبرون التعاون في حالة الانتشار أسلم عاقبة من التآكل في حالة التجمع، وينظرون إلى أرض الميعاد داخل هذا العالم نظرة المسيحيين والمسلمين إلى الفردوس الموعود خارج هذا العالم، لأنهم - أي اليهود - لا يؤمنون بالحياة الأخرى.

وكما مر على اليهود أكثر من قرنين أيام الحروب الصليبية أمنوا خلالها شر المسيحيين وتجاوزات المسلمين، كذلك يعمل غلاتهم اليوم، بعدما تجمعوا في إسرائيل وأوصلوا إلى السلطة عناصر تحتكر امتيازات اليهودية أكثر مما تؤمن بها، على تنشيط الصراع بأي وسيلة بين المسيحية والإسلام لإخضاع اتباع الديانتين والتحكم بمصائرهم، أو على الأقل اجتناب أذاهم.

أما ما يتحدثون عنه من أصولية مسيحية أو إسلامية فلا يستند إلى أساس، لأن ما يشرط الأصولية في طبيعتها الاحتكارية وخصوصيتها النرجسية هو الرفض المسبق للآخر، وليس في المسيحية أو في الإسلام شيء من ذلك، بل أن هنالك فقط بعض حالات التشدد والتعصب التي تختلف كلياً عن الأصولية المنهجية الرافضة للآخر رفضاً افنائياً قاطعاً.

ومهما يكن من أمر، فإن الصراع بين العقائد الدينية من شأنه أن يورط العالم في حروب وأهوال تفوق إلى حد بعيد ما أحدثه الصراع بين العقائد الدنيوية، لذلك تبدو الحاجة إلى الحوار العقلاني الهادئ والرصين في هذه المرحلة من عمر الحضارة الروحية الإبراهيمية أكثر إلحاحاً منها في أي وقت مضى.

والحوار يعني في الدرجة الأولى اعترافاً بالآخر واستعداداً مسبقاً لمسايرته في تنازلات معقولة لا تمس جوهر العقيدة. وهو شرط يبدو مستحيلاً في نظر اليهودية التي ترفض أي تنازل أو اعتراف بالمسيحية والإسلام متسلحة بأسبقيتها التاريخية. فهي أقدم الديانات التوحيدية وقد نشأ السيد المسيح في كنفها واعترف بتراثها الروحي ورسالة أنبيائها داعياً إلى تحريرها من صنمية الغلاة المتسلطين عليها، فتآمروا عليه ونكّلوا به وصلبوه على ما يقول تلاميذه في الأناجيل، و﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم... بل رفعه الله إليه﴾(٢) على ما يقول القرآن الذي لا ينفي نية الصلب وإن كان ينكر فعل الصلب تنزيهاً للمسيح.

لذلك دأبت الأصولية اليهودية طيلة ألفي سنة على رفض السيد المسيح وإنكار هويته وبالتالي مجمل رسالته، وكان هذا

الموقف سبباً أساسياً في اضطهاد العالم المسيحي لليهود اضطهاداً منهجياً خلال قرون.

وعلى أن العديد من المفكرين اليهود بادروا إلى اعتناق النصرانية بعد التنازلات الكبرى التي صدرت عن الكنيسة الكاثوليكية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وخصوصاً بعد المجمع الفاتيكاني الذي عقد عام ١٩٦٢ في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين وأعلن بموافقة ما يزيد على ٢٤٠٠ أسقف من أمراء الكنيسة تبرئة ذراري اليهود من مسؤولية الصلب التي يتحملها آباؤهم الأوائل ممّن عاصروا السيد المسيح.

وعلى أن انفراجات واسعة طرأت على العلائق المسيحية ـ اليهودية بفعل هذا القرار، كما اعتمد البابوات اللاحقون مبدأ التساهل مع اليهود خلافاً للأعراف والتقاليد الكنسية الصارمة، بحيث أقدم البابا الحالي يوحنا بولس الثاني على الاعتراف بدولة إسرائيل مستأخراً أي قرار بالنسبة لأورشليم التي تدعي إسرائيل إنها عاصمتها الأبدية، كما اعلن أنه سيحتفل سنة ٢٠٠٠ بصلاة كبرى يشارك فيها المسلمون واليهود إلى جانب المسيحيين على طور سيناء حيث أملى الله وصاياه العشر على موسى...

فإن ذلك كله لم يكن كافياً لاستدراج اليهود إلى أي اعتراف شكلي أو جوهري بالسيد المسيح، إن لم يكن بصفته الإله المتأنسن، فعلى الأقل بصفته نبياً مرسلاً على غرار سائر أنبيائهم. إن شيئاً من ذلك لم يحدث، وهو لن يحدث إطلاقاً على الأرجح، لأن الأصولية المتعصبة التي حكمت مصائر الشعب اليهودي عبر التاريخ لا تزال ترسم سلوكه في أيامنا هذه وتحدد مفاهيمه حيثما كان.

والذي ينطبق على العلاقات المسيحية ـ اليهودية في هذا المجال، ينطبق أيضاً على العلاقات الإسلامية ـ اليهودية، إذ لا يعقل أن يعترف اليهود بنبوءة محمد ما دام قد اعترف قرآنه الإلهي بالمسيح اعترافاً يتجاوز صفة النبوءة تجاوزاً نوعياً.

بين المسيحية والإسلام

انطلاقاً من هذا الواقع الاكتفائي المنغلق الذي تعمل الصهيونية على ترسيخه في اليهودية بكل ما أوتيت من سلطان، تعين أن تبقى هذه الديانة مستعصية على أي حوار مع الديانتين الأخريين اللتين يبدو التفاهم بينهما واجب الوجود لدرء الأخطار المحيقة بهما، وهي أخطار ناشئة عن مطامع دنيوية سرعان ما تستدرج الحكومات والشعوب إلى نزاعات خطيرة لا سبيل إلى التكهن بمداها.

ولكي لا يقع ذلك مثلما وقع في

الأزمنة الغابرة ولا يزال يتهدد المسلمين والمسيحيين إلى يومنا هذا، لا بد أن نشهد للحقيقة جميعاً بلا استعلاء ولا محاباة ولا تحفظ، فنقول بتجرد كلي أن المسؤولية في نفور المسلمين من المسيحية على أنها مؤسسة دنيوية وليس في كونها ديناً سماوياً، إنّما تقع تاريخياً على السلطات الكنسية شرقية وغربية، لأنها أغفلت طيلة ألف وأربعمئة سنة عبر مجامعها المسكونية كافة، أي اعتراف جوهري عقائدي بالإسلام ونبيه، إلى جانب اعترافها السياسي والموضوعي بكيان الجماعة الإسلامية وحرصها على صداقة المسلمين والتعامل والتكامل معهم دولاً ومؤسسات وشعوباً.

فالإسلام يكرم السيد المسيح إكراماً لم يحظ بمثله أي نبي من أنبياء الله على الإطلاق.

إنه ﴿عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾[٣] و﴿قول الحق﴾ هنا يعني ﴿كلمة الله﴾، وهو ما تقول به المسيحية نفسها.

ثم إنه ولد من روح الله وهو كلمته كما في الآية: ﴿إنَّما المسيح عيسى بن مريمَ رسولُ اللهِ وكَلِمَته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه...﴾[٤] أي أنه منبثق من الله، وهو ما تعنيه المسيحية بقولها إنّه «ابن الله»، وتقصد بالتأكيد ابنه بالروح، لأن الله لم يولد ولا يلد على طريقة البشر.

وهكذا يعترف الإسلام بأن مريم حبلت بلا دنس، وكانت عذراء بتولاً، ﴿قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيا. قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيِّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضيا﴾[٥]. وهذا ما تقول به المسيحية وتعتبره سراً من الأسرار الإلهية المقدسة.

ولا ننسَ أن مريم هي المرأة الوحيدة التي ذكرت باسمها في القرآن، فتبوأت بذلك منزلة فوق نساء العالمين. كما أن عيسى المسيح يحتلّ في كونه من روح الله منزلة متقدمة في القرآن على سائر الأنبياء، باعتبارهم بشراً يوحى إليهم، كما في قوله للنبي محمد نفسه: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾[٦]، أو ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾[٧]، أو قوله: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم...﴾[٨].

ولذلك كله، ظل موضع استغراب إلى يومنا هذا في العالم الإسلامي، أن تقف الكنائس والمؤسسات المسحية جمعاء، موقفاً لاإرادياً غامضاً من الرسالة المحمدية ونبوءة الرسول العربي، مع أن المسلمين كانوا طوال الزمن الغابر وما يزالون يؤمنون بأن السيد المسيح قد اعترف بالنبي محمد ورسالته، على ما ورد في الآية الكريمة: ﴿وإذا قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل

إني رسول إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[٩].

مسالة الاعتراف بالإسلام

ولكن المؤرخين الثقات يردون الاستنكاف المسيحي في مسالة الاعتراف بنبوءة محمد بن عبد الله إلى أسباب سياسية لا علاقة لها بالعقيدة والإيمان. وفي راي هؤلاء أن الامبراطورية البيزنطية التي كانت تسيطر عند ظهور الإسلام على شرق المتوسط وجنوبه ويمتد نفوذها إلى الحجاز واليمن، قد هالها أن يتطاول عربي أمّي طريد من أهل مكّة على قيصر ملك الملوك، فيدعوه إلى دين لم يسمع به من قبل، ثم يعلن حرباً لا هوادة فيها على القياصرة والأكاسرة، ويستولي على ممتلكاتهم من سور الصين إلى المحيط الأطلسي، فيعزل الدولة البيزنطية العظمى في مدينة القسطنطينية وبعض الأناضول.

وقد تضامنت روما تضامناً مصيرياً مع القسطنطينية، خصوصاً بعدما اقتحم الإسلام شبه الجزيرة الإسبانية وامتد احتلاله إلى وسط فرنسا حيث تمكن «شارل المطرقة» أن يوقف زحفه على أوروبا في معركة «بواتييه» عام ٧٣٢م.

القضية ارتبطت إذن من القرن السابع الميلادي بالواقع السياسي والعسكري. وحتى بعد الشقاق الكبير بين الكنيستين الشرقية والغربية عام ١٠٥٤م. ظل الإسلام هو العدو الأول للأمم المسيحية فلم تتوقف الحروب بينه وبين تلك الأمم إلا فترات زمنية محدودة. وقد تخلل ذلك حروب صليبية استمرت أكثر من مئتي عام. ثم جاء الفتح العثماني وسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ يكرس الحقد والتنافر ويجدد مسلسل الحروب والنزاعات خمسة قرون إلى يومنا هذا.

أما وقد أصبح الطابع المسكوني للحوار بين المذاهب والأديان في نهاية هذا القرن، سمة بارزة للتوجه الكنسي، خصوصاً في عهد البابا الحالي يوحنا بولس الثاني الذي انفتح انفتاحاً كلياً على الأرثوذكسية وقدم تنازلات لليهودية لم تكن تحلم بمثلها، كما خرج من أسوار الفاتيكان فزار عدة بلدان في مناطق مختلفة من العالم بينها دول إسلامية، داعياً إلى التضامن الإنساني في مواجهة الظلم والعنف والإلحاد... فهل يجوز أن تظل المسيحية عموماً، والكنيسة الكاثوليكية خصوصاً، على هذه المسافة الدهرية وهذا الموقف الجامد من الإسلام؟!

وهل هناك ما يمنع قداسته، وهو الذي أدهش الأزمنة المعاصرة بنظرته المستقبلية ونزعته الإصلاحية المتحررة

من كوابيس القرون الوسطى، من عقد مجمع مسكوني شامل يضم أمراء الكنائس المسيحية جمعاء ويعلن أن محمداً رسول الله، وذلك على غرار المجمع الفاتيكاني الذي أعلن تبرئة اليهود من الصلب؟!

ألا يستحق محمد بن عبد الله الذي عرّف مئات الملايين في آسيا وأفريقيا بعيسى المسيح بن مريم، وأوصاهم بتكريمه وتقديسه على أنه من روح الله، كما حطم الأصنام وهدى الناس إلى عبادة رب العالمين وأعطى الأمان لأهل الكتاب، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر..

ألا يستحق محمد العظيم هذا أن يكون على الأقل، بالنسبة للسلطات الكنسية، في مصاف حزقيال وإرميا واسحَق ويعقوب وموسى وداود من أنبياء اليهود؟ أو حتى في عداد القديسين من أهل الصلاح والخير والإيمان الذين طوبتهم الكنيسة وتوليهم المسيحية كل احترام وإكرام؟!

إنه مجرد نداء في سؤال يحفزه التمني. فالمسيحيون والمسلمون المخلصون يرفضون بعد اليوم أن يعلّموا أولادهم الحقد والكراهة، كما يرغبون في محو صورة الماضي المأسوي إلى الأبد.

وأسأل الله ألا يقابل أهل الحل والعقد هذا النداء بالصمت في رأس السنة الرابعة قبل نهاية الألفين، كي لا نلج الألف الثالث حاملين في نفوسنا مرائر البغضاء وأوزار الدماء.

١٩٩٧/١/١

---

(١) يعود العلامة السيد محمد حسين فضل الله في دعوته الحوارية دائماً إلى ما ورد في الآية الكريمة: ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله...﴾ (سورة آل عمران: ٦٤)، والقصد بذلك هو البحث عن القواسم المشتركة بين الديانات.

(٢) سورة النساء: ١٥٧ و١٥٨.

(٣) سورة مريم: ٣٤.

(٤) سورة النساء: ١٧١.

(٥) سورة مريم: ٢٠ و٢١.

(٦) سورة الكهف: ١١٠.

(٧) سورة الإسراء: ٩٣.

(٨) سورة الأنبياء: ٧.

(٩) سورة الصف: ٦.

٨

كلام يقرأ بالمقلوب

* لأننا بحاجة إلى الوحدة الوطنية الحقيقية التي تصهر المجتمع صهراً كاملاً وتقتلع منه جذور الطائفية، يجب الا نكتفي بمنع الزواج المدني وتحريمه في لبنان، بل يتعين الا نعترف بأي زواج مدني يعقده اللبنانيون واللبنانيات في الخارج، وأن ننبذ هؤلاء ونعتبرهم في حالة زنى يعاقب عليها القانون(...).

* ولأننا طهّرنا السياسة من الخساسة، والإدارة من الفساد، والنظام العام من الفضوى، والأخلاق الاجتماعية من الإباحية والانحلال، فأصبحت جمهوريتنا جمهورية أفلاطون، بحكامها العدول، ومؤسساتها الديموقراطية المثالية، واقتصادها المزدهر، وشعبها المتضامن الآمن الواعي المثقف... لذلك يجب أن نمنع رجال الدين وزعماء الأحزاب وعلماء القانون وأجهزة الإعلام من التدخل في السياسة، لكي تظل على مستواها الرفيع من الصدق والنزاهة والكياسة(...).

* ولأن دستورنا كتاب منزل أوحى به الله سبحانه وتعالى، ومخضه آباؤنا واجدادنا عبر الازمنة مخضاً ذكياً متواصلاً حتى استوى بنصه وقصّه على عرش الكمال، وبات يصلح لكل اوان... لذلك لا يجوز أن نسقط منه أي حرف أو نعدّل أي فقرة على الإطلاق، إلا إذا قضت بذلك مصلحة نظامنا العريق وحكامنا الخالدين الذين يستمدون سلطانهم من رب العالمين(...).

* ولأن أمين نخلة الذي قيل إنه «أديب العرب» و«أمير الصناعتين»، كان طُمطُماني اللسان رُطَيْني البيان، عروبته وعربيّته من قوارير، وأسلوبه يخدش اذان الشعارير الزنابير، فقد وجب أن يعاقب على قصائده الخالدة، كالتي القاها في الذكرى الأولى لرياض الصلح (ايار - مايو ١٩٥٢) وأمام تمثال رياض (تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٥٧)، أو في تكريم الأخطل الصغير ومبايعته إمارة الشعر (حزيران - يونيو ١٩٦١)، أو ذكرى شاعر الارز شبلي الملاّط (كانون الأول - ديسمبر ١٩٦١)، أو غيرها من المناسبات الوطنية والقومية، كما وجب أن يهان لأنه من طبقة الفحول شعراً ونثراً، وذلك في مهرجان للقرائح المرصودة سماه الشاعر شوقي بزيع في ملحق «النهار» الأخير «ليلة اغتيال أمين نخلة»

فأصاب كبد الحقيقة المؤلمة!

ونحمد الله في أي حال، لأن الأمين العظيم كان أوفر حظاً بالتكريم عندنا، من زميله القديم نابغة العصور أبي الطيّب المتنبي الذي أطلقوا اسمه على سوق البغايا في مواخير بيروت، وزميله العلاّمة النهضوي الشيخ إبراهيم اليازجي الذي نصبوا له تمثالاً في المبولة العمومية!

* ثم، لأنّنا نعمل بخلاف المبدأ القائل أن العجلة من الشيطان والأناة من الرحمٰن، ونؤمن بفضيلة الخطأ وتفضيله على الصواب، كما نحرص على سمعتنا العالمية في توخي الدقة واجتناب التجاوز، فقد ضربنا ضربة لازب، ورصدنا العاصفة من سنام الغارب، وعبّأنا الأيدي القادرة والعيون الساهرة، فقبضنا على المجرم الموصوف لا على ابن عمّه، واكتشفنا المنفذ الحقيقي وليس ابن خالته، وصادرنا عينة بشرية مؤلفة من عشرات المتهمين كيفما اتفق، ثم أعطيناهم بكل سرور شهادة حسن سلوك، ورددنا إليهم حريتهم واعتبارهم بالتقسيط، فغدونا في نظر العالم الذي راهن في مؤتمر واشنطن على فعالية قوانا الذاتية، كمن يغربل البحر أو يقبض على الريح(*).

* * *

هكذا نحن ضد المنطق وضد الحقيقة وضد الاحترام، نقرأ كتاب الوجود وشرعة الأخلاق ومفاهيم الحرية والسلطة بالمقلوب، من يائها إلى ألفها.

وكنت أعتقد أننا خصصنا فوق ذلك وحدنا بالكذب والتكاذب دون سائر الأمم حكومات وشعوباً، حتى ظهرت عبقرية جديدة تفوق عبقريتنا اللبنانية والعربية المتواضعة في الهرب من وجه الحقيقة، هي عبقرية الناطق باسم أعظم دولة في العالم، الذي أظهر الإدارة الأميركية، من خلال تعليقه على الجريمة الإرهابية المنكرة التي مزقت عشرات الأبرياء في انفجار دمشق ليلة رأس السنة، وكأنها مصابة بمرض «السكيزوفرينيا»، أي ازدواجية الشخصية.

فقد كان السفير نيكولاس بيرنز من الخفّة في تصريحه بحيث اضطر إلى تكذيبه في اليوم التالي، تاركاً في أذهان الأجهزة العالمية الراصدة لتوجهات واشنطن أقبح صورة عن التشويش اللاحق بمواقفها السياسية في مرحلة انتقالية بين ولايتين.

وفيما كانت أصابع الاتهام، ولا تزال، تتجه إلى إسرائيل، الدولة الأوسع شهرة بارتكاب المجازر، والتي تبدو المستفيد الوحيد من وأد عملية السلام في ركام الأشلاء ونقيع الدماء، جاء كلام الخواجة نيكولاس، وهو يطلب دليلاً حسياً على أن أجهزة الكيان الصهيوني متورطة في الحادث، كمن يفترض أن هنالك ضحايا ماتوا من الرشح في منطقة مصابة

بالطاعون.

لقد أعاد المستر بيرنز إلى ذاكرتنا حكاية الشيخ بشارة الخوري مع سفير بريطانيا الذي جاء يؤكد أن الانقلاب الذي أطاحه عام ١٩٥٢ ليس من تدبير الإنكليز، فأجابه الشيخ الرئيس بأسلوبه اللاذع الساخر: «نعم. نعم. يا سعادة السفير. الحق على الطليان».

وكدنا نقول، كما في كل مرة يصدم فيها الإنسان العربي بالرأي الصغير الصادر عن الراعي الكبير: صدق بيرنز ولو كذب!

وكدنا نعتقد أن الذي فجّر أوتوبيس الموت في دمشق، هو دولة بعيدة عنا بعد التحفظ عن ديبلوماسية نيكولاس الفاشلة، فنقول له على طريقة الشيخ بشارة: «نعم. نعم. يا سعادة السفير. الحق على موزامبيق!!».

١٩٩٧/١/١٥

(*) يقصد الاعتقالات العشوائية التي قامت بها السلطة لمجرد الشك والظن بفريق من أنصار العماد عون و«القوات اللبنانية» عقب الاعتداء على باص يقلّ عمّالاً سوريين في محلة طبرجا، وتبيّن بعد حين أن لا علاقة لهم بذلك الحادث فأطلق سراحهم.

تقريب الحرب يبعدها

يوماً بعد يوم تزداد لهجة نتنياهو عنفاً وتحدياته استشراء، حتى ليبدو وزراء الحروب في حكومته أمثال شارون وايتان ومن لفّ لفّهما أشبه بالحمائم الوادعة، يقفون بصمت كأن على رؤوسهم الطير.

فهل هو فعلاً يريد الحرب؟ أم أنه يهدد بها أعداءه لتجنب حدوثها في قلب دولته؟

إن رئيس حكومة إسرائيل يعرف تماماً أن الهجوم على سوريا مغامرة خطرة سوف تلحق بجيشه وشعبه خسائر فادحة، حتى ولو كانت دولته متفوقة عسكرياً بفضل التقنيات الأميركية المتطورة. فسوريا ليست أرضاً سائبة منزوعة السلاح، ولا هي فريسة عزلاء تؤكل بسهولة. ثم إن أي اعتداء على سوريا سوف يعمم النزاع المسلح في المنطقة بأسرها، ويهدد السلم العالمي إنطلاقاً من البلقان العربي.

ويعرف نتنياهو كذلك إن تكرار اجتياح لبنان كما حدث عام ١٩٨٢، سيكون بمثابة كارثة حقيقية بالنسبة لإسرائيل. وإذا كانت الدولة العبرية قد خسرت في ذلك الإجتياح أكثر من الفي جندي وضابط وظلت تخبط في الرمال المتحركة اللبنانية سبعة أشهر، مع أنها كانت تواجه قوة عسكرية واحدة هي منظمة التحرير الفلسطينية خلال تلك الحرب التي انتهت بإنسحاب خجول إلى الشريط الحدودي، فإن الإقدام على خطوة متهورة من هذا النوع في الظروف الراهنة سيكون صفقة خاسرة تلحق بالعدو أضعافاً مضاعفة من الأضرار البشرية والمادية والمعنوية التي يصعب تعويضها مهما تكن التضحيات في مستقبل منظور.

ذلك أن لبنان اليوم لم يعد ذلك اليتيم الذي يتذابح في بيته الآخرون. فهو ينعم بالسلم الأهلي من جهة، ولديه من جهة ثانية، دولة يتعرض أداؤها للطعن والإنتقاد أحياناً، لكنها موجودة، متكاملة ومتماسكة. كما أن لديه جيشاً وطنياً في أعلى درجات الكفاءة الميدانية والتعبئة المعنوية، ومقاومة نوعية شديدة المراس أنزلت بجيش العدو المحتل في الأعوام الخمسة الأخيرة خسائر جسيمة تفوق ما خسره ذلك الجيش في جميع حروبه مع العرب باستثناء حرب ١٩٨٢ الآنفة الذكر.

ثم إن أي إعتداء على لبنان ستعتبره

سوريا إعتداء عليها، وستنخرط حكماً في المواجهة، الأمر الذي يستتبع ما سبقت الإشارة إليه من تعميم للنزاع المسلح في المنطقة.

يضاف إلى هذا الواقع اللبناني الجديد المتعلق بعناصر الصمود، أن المجتمع الدولي ينظر اليوم بإهتمام بالغ إلى مستقبل لبنان، ويعتبر أعماره وعودته إلى الحياة الطبيعية المستقرة، بعد النكبات المريرة التي حلّت به، مدخلاً إلى سلام الشرق الأوسط وازدهاره. فليس من قبيل المصادفة إطلاقاً أن يدعو رئيس الولايات المتحدة ثلاثين دولة مليئة على صعيد المال والأعمال، إلى مؤتمر يعقد في العاصمة الأميركية بالذات ويخص لبنان بالمليارات من التوظيفات والمساعدات للأعوام الخمسة المقبلة، وذلك تنفيذاً لما تعهدت به واشنطن في «تفاهم نيسان» (ابريل) بعد عملية «عناقيد الغضب» العدوانية الإسرائيلية. كما إن زيارة الرئيس الفرنسي جاك شيراك للبنان مرتين خلال ستة أشهر من العام الماضي، لم تكن هي أيضاً بعامل صدفة. وهنالك مؤشرات ودلائل أخرى تؤكد أن معظم القوى الدولية الرئيسية سوف لن تسمح بإعادة لبنان إلى غرفة العناية الفائقة إكراماً للطامعين به.

لذلك كله يرى خبراء السياسة الإسرائيلية أن التهديدات العشوائية التي يطلقها نتنياهو بإتجاه لبنان وسوريا، والتي تزامنت مع التصعيد المبرمج للعمليات العسكرية في الجنوب، ومع الجرائم الإرهابية التي لجأت إليها المخابرات الإسرائيلية في دمشق وطبرجا قبيل مطلع السنة الجديدة، إنما تستهدف منع الإسرائيليين من التورط في حرب أهلية داخلية، وذلك بإفتعالها حالة من الذعر في المجتمع الإسرائيلي والمجتمعات العربية معاً، تجعلها عاجزة عن أي قرار مصيري بإنتظار الحرب السادسة بين إسرائيل وجيرانها.

فالوضع داخل إسرائيل يحمل في تعقيداته كل عناصر التفجير. وهنالك أخطار حقيقية تهدد نتنياهو شخصياً، بحيث أن العديد من الديبلوماسيين الغربيين والمعلقين السياسيين في الصحافة الإسرائيلية نفسها يلمحون إلى أن هذه السنة الأولى من حكمه قد تكون الأخيرة، ويعللون ذلك بالأسباب والوقائع الآتية:

أولاً: يبدو في نظر الأرصاد المطلعة في الغرب، إن الحاخامين المتعصبين وأنصارهم من المتطرفين والمستوطنين، قد انقلبوا انقلاباً جذرياً على نتنياهو بعدما أوصلوه إلى السلطة مستعملين كل وسائل الزور والإكراه، حتى فاز بعدد ضئيل جداً من الأصوات لم تجرؤ المحكمة العليا على اعتباره مطعناً يبطل انتخابه بسبب الإنتقام

الذي أنذرها به الحاخامون. وقد تهالك هؤلاء بقضهّم وقضيضيهم على دعم الرجل لأنه ابن أبيه صهيون نتنياهو سكرتير جابوتانسكي الصهيوني المتطرف الذي اعتنق مبادىء هتلر وتحالف مع النازية في الثلاثينات(١). لكن كل الدلائل تشير إلى أن الحاخامين الأصوليين الذين جاؤوا «بملك اليهود» كما حرصوا على تسميته في أول عهده، قرروا إزالته عن المسرح، لأن اعتناقه بعض الواقعية في تعامله مع «القضية» جعله يرفض طريقة «مسعدة» التي يؤمنون بها(٢).

ففي ١٩٩٦/١٢/٢٥، إتهمه الزعيم الديني المتشدد الحاخام صموئيل حيفر رئيس حركة «عباد» الأصولية في تصريح إذاعي، بأنه خرق اتفاقاً عقد بينهما بواسطة شارون عشية الإنتخابات، يقضي بعدم التنازل عن أي شبر من الأراضي الفلسطينية المحتلة لأنها «ملك إسرائيل»، وعدم السماح، أيا كانت الضغوط، بما يساعد على قيام دولة فلسطينية في المستقبل. ومما قاله الحاخام المذكور أن مجرد البحث في إمكانية الإنسحاب من الخليل يعتبر خرقاً من جانب نتنياهو لهذا التعهد.

ولا يستبعد المراقبون أن يكون لهذا الموقف الصادر عن زعيم حركة دينية رئيسية متطرفة لعبت دوراً أساسياً في وصول نتنياهو إلى الحكم، علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالمحاولة الإجرامية التي قام بها الجندي نوعام فريدمان يوم رأس السنة الميلادية لإرتكاب مجزرة في الخليل على غرار المجزرة التي ارتكبها سلفه باروخ غولدنشتاين سنة ١٩٩٤ في الحرم الإبرهيمي، والجريمة التي ارتكبها ييغال عمير سنة ١٩٩٥ بإغتيال رابين، وكلا الرجلين في أي حال من إتباع هذا الحاخام «القديس»!

كذلك لا يستبعد المراقبون أن تكون القنبلتان المصنفتان من الدرجة الثانية واللتان انفجرتا في تل أبيب بتاريخ ٩/١/ ١٩٩٧، من صنع انصار الحاخامين المتطرفين للإيقاع بين نتنياهو والسلطة الفلسطينية إيقاعاً غير قابل للإنهاض، ومنع التوقيع على الإنسحاب من الخليل بموجب إتفاق يرفضه عشرة وزراء في حكومة نتنياهو ويهددون بالاستقالة إن هو أصر عليه، لانهم يخافون إنتقام المتعصبين والمنحرفين الدينيين، فيما يخاف نتنياهو من جهته إن هو سايرهم في رفض الإتفاق المذكور، أن يثير غضب الكثرة الساحقة من الشعب الإسرائيلي الذي يطلب السلم بأي ثمن، وغضب اليهود الأميركيين الذين يدعمون الرئيس كلينتون، ويعتبرون خلع بيريس في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٩٦ بواسطة الحاخامين المتطرفين، ضربة قاضية لمشاريع الاستثمار التي

كانوا ولا يزالون يحلمون بها في العالم العربي.

ثانياً: كشف استطلاع للرأي أجرته صحيفة «يديعوت أحرونوت» مؤخراً، أن ٥١ في المئة من الإسرائيليين يتوقعون حرباً أهلية بين العلمانيين وغلاة المتدينين.

والواقع أن هؤلاء العلمانيين الذين يشكلون أكثرية تقدر بـ ٧٠ في المئة من الإسرائيليين، سواء في حزب العمل أو تكتل ليكود أو في صفوف الجيش، بدأوا يدركون الخطر الذي يمثله المتطرفون الدينيون على الكيان الصهيوني منذ اغتيال إسحق رابين، فانتقلوا تدريجياً من حالة الصمت والترقب السلبية إلى حالة الجهر والتحدي، وسجّلت خلال السنة الماضية صدامات عنيفة بينهم وبين المستوطنين الذين يقودهم الحاخامون، كما أقدموا على أعمال إرهابية وتصدوا للأصوليين الغلاة في مناسبات عدة.

وأقرب الشواهد على هذا التحرك، القنبلة الحارقة التي ألقيت في أول تشرين الأول الماضي على منزل عائلة ييغال عمير قاتل رابين في هرتزيليا فدمرته كلياً، والقنبلة المماثلة التي ألقيت قبل ذلك بأيام معدودة على حضانة أطفال تديرها غيئولا عمير والدة القاتل المذكور. ثم المسيرات الصاخبة التي قامت في ٤ تشرين الثاني احتفالاً بالذكرى السنوية الأولى لإغتيال رابين، والشعارات التي رفعت بالمناسبة، وكلها يحرّض على الإنتقام من الأحزاب الدينية وإسقاط نتنياهو الذي دعت السيدة ليا رابين أرملة رئيس الوزراء الأسبق إلى قتله في تصريح عنيف نشرته يومها صحيفة «جيروزاليم بوست».

* * *

ولعل أكثر ما يعبّر عن هذا المناخ المتأجج بالحقد، هو التصريح الذي أدلى به شمعون بيريس لدى اجتماعه بياسر عرفات في نابلس عقب حوادث النفق الدامية في القدس والضفة الغربية. فقد جاء في هذا الحديث الذي نقلته وكالة رويتر قول بيريس بالحرف الواحد:

«إن الشعب الإسرائيلي لن يمر مرور الكرام بالتدهور الحاصل على كل صعيد، والذي يجب أن نضع له حداً. لكننا لا نستطيع تسمية القوى التي ستضع ذلك الحدّ. وهي ستظهر قريباً في أي حال عن طريق العصيان المدني أو غير ذلك مما لم نشهد له مثيلاً من قبل!».

وقد فسّرت الأوساط الديبلوماسية هذا الكلام بأنه دعوة سافرة إلى انقلاب عسكري. فالتذمر كبير في صفوف الجيش الذي يستنزف يومياً في الجنوب اللبناني، فيما يرفض معظم ضباطه القيام بعملية عسكرية واسعة ضد لبنان وسوريا في الظروف الراهنة للمحافظة على كرسي نتنياهو، وهم يعربون عن هذا التوجه بلسان وزير الدفاع إسحق موردخاي الذي

استبعد مراراً وفي مناسبات مختلفة، احتمالات قيام حرب بين سوريا وإسرائيل.

في غضون ذلك لا تزال التعليقات في الصحافة الأوروبية وفي الصحافة الإسرائيلية أيضاً، ترسل إشارات واضحة إلى من يقرأ بين السطور، بأن الرئيس كلينتون الذي يبدي اهتماماً متزايداً بالتوفيق بين النقائص في وكر العواصف، سوف لن يكون منزعجاً من حدوث انقلاب عسكري وقائي في إسرائيل، يعيد قطارالسلم الأميريكي إلى سكّتة، كما يردّ الإعتبار لصديقه شمعون بيريس، وذلك عن طريق حل الكنيست وإجراء انتخابات جديدة.

١٥/ ١/ ١٩٩٧

---

(١) لا بدّ للسيدة مادلين اولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية التي تعود أصولها إلى بولندة وتشيكوسلوفاكيا، والتي كانت طفلة في زمن الإجتياح الهتلري لأوروبا، أن تعرف بدقة، وهي التي تؤمن بمواعظ التاريخ، إلى الدور الإزدواجي الخطير الذي لعبه جابوتانسكي واتباعه أمثال إسحق شامير وصهيون نتنياهو بين الصهيونية والنازية على حساب المستضعفين من نزلاء المعتقلات والأفران. ولا بدّ أن تقف عند هذه الذكرى في تعاملها مع رئيس الحكومة الإسرائيلية.

(٢) طريقة «مسعدة» تعني الإنتحار. ومسعدة قلعة لغلاة المتعصبين اليهود كانت قائمة على الضفة الغربية للبحر الميت. وقد هاجمها القائد الروماني تيتوس عام ٧٣ ميلادي بعد استيلائه على أورشليم، وأنذر حاميتها بالاستسلام، لكن الحامية فضلت الإنتحار. ولا تزال عقدة الإنتحار هذه على طريقة مسعدة تتحكم بغلاة اليهود إلى يومنا هذا.

١٦

جامعة أم فاجعة؟!

بعيداً عن جرافات العاصمة، ومشاريع الإنماء الكبرى، وغبار الورشة التي قيل إنها «أعظم ورشة للعمران في العالم»، تتجه أنظارنا إلى الجامعة اللبنانية، فنكتشف أقبح ورشة للإنسان في العالم، ويحضرنا المثل الصيني القائل: «لا يستوي بناء الحجر إلا على مداميك البشر»...

ذلك أن جامعتنا الوطنية ليست جامعة، ولا هي وطنية، على الإطلاق!

إنها ليست جامعة، ولن تكون، ما دامت لا تستوفي الشروط الأساسية والمقومات الكيانية للجامعات.

وهي ليست وطنية لأنها لم تصهر عناصرها المتغايرة فكراً وانتماءً، سواء في صفوف الطلبة، أو الهيئة التعليمية، أو الجهاز الإداري.

فالجامعات الكبرى لا تنشأ بقرار حكومي أو مرسوم جمهوري عادي، كما أنشئت الجامعة اللبنانية في الخمسينات، لأنها ليست مصانع أو فنادق أو مستشفيات للقطاع العام، يكفي أن تؤمن الدولة أرضاً صالحة لتشييد مبانيها، ثم تستورد لها التجهيزات الآلية الضرورية، وتستخدم في إدارتها وتشغيلها أهل الاختصاص، لكي تؤدي المهام الموكلة إليها على أكمل وجه.

والجامعات الكبرى ليست فقط مجامع كليات تمنح شهادات في العلوم النظرية والتطبيقية، أو في العلوم الإنسانية كالفلسفة والأدب والتاريخ وغيرها.

وهي ليست كذلك مستوعبات لادعياء الثقافة من طلاب الوظائف، معلمين أو متعلمين، ولا إصلاحيات رادعة واقية تروض طموح الشباب وتكبح جنوحه وتلبي حاجته إلى التحرر من الكبت النفسي والعاطفي والجنسي، فيما تزوده بالعلم الناقص، وليكن بعد ذلك ما يكون!

إن الجامعات الكبرى التي يفاخر بها الأوروبيون أمثال السوربون وكيمبريدج وأوكسفورد وهايدلبرغ وليبزيغ وغيرها، أو التي يفاخر بها الأميركيون أمثال هارفرد وبرنستون ويال وباركلي إلخ... لم تنشأ هكذا كيفما اتفق، بإرادة حاكم أو قرار وزير، بل جاءت نتيجة مخض العصور ونضج المجتمعات وتألق العبقريات، وهي تتمتع باستقلال تام ولا

تخضع لأي جهاز حكومي، ولها حرمتها وعصمتها الموازية تماماً لحرمة المجالس النيابية وعصمة المؤسسات الدستورية العليا.

ولكي تستحق معاهد العلم وصروح المعرفة أن تسمى وتصنف جامعات، يتعين أن تتميز بمواصفات أقلها:

١ - أن يكون لها تاريخ. فجامعة الأزهر في القاهرة مثلاً، المتخصصة في علوم الدين واللغة هي أقدم جامعة في العالم (٩٧٠م)، وكذلك سائر الجامعات الدينية في البلاد الإسلامية كالنجف في العراق، وقمّ في إيران، والزيتونة في تونس، التي نشأت عنها جامعات مدنية علمانية فيما بعد، إنما تعود جميعاً إلى القرون الغابرة وتستمد سلطانها الشرعي ومرجعيتها الافتائية من تاريخ طويل في التعامل مع الشؤون الدينية والمذهبية كافة.

وتعود الجامعات الأوروبية الرئيسية هي أيضاً إلى الزمن الوسيط: السوربون (١٢٥٣م.)، أوكسفورد (١٢٧٢م.)، كيمبريدج (١٢٨٤م.)، هايدلبرغ (١٣٨٦م.)، ليبزيغ (١٤٠٩م.)، فيما تعود الجامعات الأميركية الكبرى إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وجميع هذه وتلك إنما عنيت أساساً بشؤون الدين المسيحي واللاهوت، ثم تطورت باتجاه سائر العلوم والآداب.

٢ - أن تكون حافظة للتراث. أي أن تكون لها مكتبات أثرية متراكمة عبر الأزمنة تتضمن وثائق تاريخية ومؤلفات ومخطوطات نادرة، وأن تضم بين مبانيها شواهد عمرانية دهرية كالجوامع والكنائس والكاتدرائيات التي تحتسب في إرث الحضارة الإنسانية.

٣ - أن تكون حاضنة عبقريات. أي أن تكون رعت وتعهدت العديد من النابغين المتفوقين وشجعت أعمالهم في مختلف الميادين فأغنوا حوزاتها الثقافية بكشوف العلم الرائدة وروائع الفكر والأدب والفن.

٤ - أن يكون لهذه الجامعة أو تلك مركز رئيسي في بلاد منشئها، ينظر إليه على أنه المنطلق والمستقر، ولا بأس أن تصدر فيما بعد عن ذلك المركز فروع تتوزع طبقاً للنمو السكاني وتوافر المؤهلين للاختصاص العالي في المناطق والأقاليم، أو في البلدان الأخرى المناسبة.

* * *

ولا يحمل كلامي هذا على محمل التعجيز، فالكل يعرف أن لبنان جمهورية حديثة العهد بالكيان السياسي والاستقلال، ولا يعقل أن نطلب من جامعته الفتية معجزة الكمال في حين أن الجامعات العالمية الكبرى لا تدعي ذلك، وهي حتى بعد تأدية رسالتها بأمانة خلال قرون، لا تزال تعتبر نفسها في طور التكامل.

ولكن إذا كان لبنان يرغب في

الحصول على جامعة، وهو لا يملك عناصر تكوينها بحيث تصبح ذات منزلة عالمية أو إقليمية مرموقة، فلا يعني ذلك أن تعويض المستحيل المنشود بالممكن الموجود، على علاته، يضمن الوصول إلى الهدف المقصود»، بل إن العمل بذلك يزيد المسألة تعقيداً.

وليس أدل على هذه الحقيقة من الحالة الزرية المتردية التي تتخبط فيها الجامعة اللبانية، والمشاكل المزمنة التي يعانيها الوضع الجامعي في لبنان بوجه عام.

فالمسألة في أساسها مسألة عقائد ومفاهيم وانتماءات سياسية وطائفية متباينة داخل المجتمع اللبناني، فعلت فعلها في تقرير الواقع الجامعي منذ القرن التاسع عشر، ثم أخذت تنفعل سلبياً بتوجهات ذلك الواقع نفسه، حتى أصبح التعليم العالي ورماً سرطانياً خطيراً يهدد بتهديم الكيان الوطني بدلاً من تدعيم أركانه.

وذلك أن لكل جامعة أو كلية جامعية خاصة في لبنان أهدافاً سياسية أو عقائدية أو دينية، والكل يعمل تحت عنوان التعددية الثقافية، وعوض أن تؤدي الجامعة اللبنانية المهمة المزدوجة التي وجدت من أجلها، وهي التفوق النوعي على الجامعات الخاصة من جهة، واستقطاب الأجيال الجديدة في بوتقة مثالية للانصهار الوطني من جهة ثانية، وعوض أن تكون الجامعة اللبنانية تلك الشمس المنيرة الساطعة التي تحجب سائر الكواكب وتدفعها نحو التقهقر والتلاشي... أخذت تتلوث تدريجياً بسموم التفرقة، وتتحول إلى مستنقع آسن تتصارع في وحلته نوازع التطرف وتيارات الانحراف، قانعة بالنتاج الضحل والمستوى الدون في معظم معاهدها وفروعها، متخلّفة باستمرار عن المؤسسات الجامعية الأخرى.

ولا غرو أن يكون الأمر كذلك ما دامت الجامعة خاضعة للدولة ومرتبطة بها على الصعد المالية والإدارية والسياسية. فكما أن الناس على دين ملوكهم كذلك تحذو الجامعات حذو الدول التي ترعاها، ويصيبها ما يصيب تلك الدول من حوافز الازدهار وبوائق الانهيار.

ولا حاجة بنا إلى التذكير من خلال معاينة الواقع، بأن الدولة اللبنانية كانت عند نشوء الجامعة، ولا تزال إلى اليوم، مجموعة إقطاعات سياسية ودويلات طائفية عشائرية متكالبة على المصالح في النادي السلطوي، أكثر منها كياناً مركزياً متماسكاً يعمل بمبادئ الحق والعدل في سياسة الرعية وتأمين مصالحها طبقاً للوكالة التي حصل عليها من الشعب.

لذلك كان من البديهي أن تبتلى الجامعة اللبنانية بآفات التدخل السياسي وصراع مراكز القوى ومناطق النفوذ، على

غرار ما ابتليت به الإدارة الحكومية، وأن تنتقل إليها أوبئة الفساد والتواكل والبداوة الإجرائية بالعدوى. وكان من البديهي أيضاً أن تعاني الجامعة ما تعانيه من شح في الموارد، وشعور دائم بالغبن، وأن يتم تقويم أساتذتها وعمدائها ومديري كلياتها على أساس التوازنات السياسية والطائفية لا على أساس الكفاءة والإنتاجية والأولويات الأكاديمية المجردة. وكان من البديهي أخيراً أن تقصر الجامعة اللبنانية طيلة نصف قرن عن تسجيل اكتشاف واحد ناتج عن البحث العلمي، أو نظرية فلسفية رائدة، أو أثر أدبي خالد يضاف إلى التراث الإنساني أو حتى إلى ملف الثقافة العربية، على ضآلة محتواه في الأزمنة المعاصرة.

أمام هذا الإفلاس المعيب والمشكلات الجامعية المتفاقمة والمتراكمة عاماً بعد عام، وفيما تزداد الحاجة إلى إنشاء المدينة الجامعية المستقلة الشاملة إلحاحاً، وتبدو عملية الإصلاح مستعصية أكثر فأكثر ـ اللهم إلا إذا قامت حركة ثورية فوقية تنفض هذا المرفق الحيوي من رتابة وجوده النباتي المتخلف، وتعيد بناءه على أسس قابلة للحياة ـ أمام هذه الصورة القاتمة الشائهة يؤلم المفكرين المخلصين والجامعيين المدركين لجوهر القضية كبير الألم، أن تواصل الدولة علاج المرض بالمسكنات والحلول الجزئية والتدابير الموقتة، في هروب دائم إلى الأمام يقذف بالهموم والأخطار الماثلة إلى جيوب خلفية من التجاهل والتناسي.

ويقيناً أن هذه الحركة الثورية لا يمكن أن تأتي من طريق الإدارة الحالية للجامعة، مع ثقتنا برئيسها الدكتور أسعد دياب واهتمامه الجدي بإيجاد الحلول الموضوعية لإقالتها من عثرات الماضي ومزالق الحاضر، كما لا يمكن أن تأتي من طريق وزارة الثقافة والتعليم العالي ذات الصلاحيات والإمكانات المحدودة، بالرغم من الجهود الصادقة التي يبذلها الوزير فوزي حبيش الذي يملك الاختصاص الإداري والقانوني الرصين، مضافاً إلى التجربة التنظيمية الناجحة، وذلك من خلال تنكبه المسؤولية بالمستوى الخلقي المنزه في مجلس الخدمة المدنية وهيئة التفتيش المركزي.

فلا يرجى من دولة عجزت عن إدارة الهاتف وشؤون البريد والبيئة ومياه الشفة والإنماء الزراعي، وقصرت حتى عن تأمين الجباية ومراقبة الأسعار ومكافحة البطالة وإنصاف ذوي الدخل المحدود، إلخ... أن تتمكن من إصلاح جامعة أنيط بها البعث الوطني، وصهر المجتمع اللبناني الجديد صهراً وحدوياً مثالياً، وإدخال لبنان إلى الألف الثالث بالعدة الثقافية والعلمية والخلقية المرموقة.

* * *

لذلك، ربما كان الحل الأمثل للجامعة اللبنانية هو التخصيصية، شرط أن تتم في إطار يضمن ويعزز انتماءها الوطني، فتصبح على الصعيد القانوني «مؤسسة خاصة ذات منفعة عامة». وليس المقصود بذلك إطلاقاً تغريب الدولة عن الجامعة، بل تحرير الجامعة من كوابيس الدولة مع الاحتفاظ برعاية الدولة لها مادياً ومعنوياً. ومن شأن تدبير كهذا أن يسقط عبء الجامعة المرهق عن كاهل وزارة الثقافة والتعليم العالي، فيصرف هذه إلى ما أولاها إياه القانون من صلاحيات الرقابة على انشطة الجامعات الخاصة والاهتمام الجدي بالشؤون الثقافية الأخرى ذات الوجوه المتعددة.

وانطلاقاً من هذا التوجه يمكن إنشاء «هيئة وطنية عليا» للجامعة اللبنانية ذات مجلسين:

* «مجلس أمناء» يتألف من اختصاصيين جامعيين وشخصيات علمية وثقافية لبنانية مشهود لها بالنزاهة والتفوق، يرأسه وزير الثقافة والتعليم العالي، ويتم تعيينه باقتراح منه يوافق عليه مجلس الوزراء.

* «ومجلس أوصياء» يتألف من بيتوتات مالية ومؤسسات مصرفية وشركات كبرى لبنانية، وهيئات اقتصادية وطنية، بالإضافة إلى ممثلي الوزارات المعنية بالشؤون المالية والاقتصادية في الدولة. ويشرف مجلس الخدمة المدنية على تعيين أعضاء هذا المجلس الذين ينتخبون رئيسهم، وذلك بموافقة مجلس الوزراء.

وفيما يعنى «مجلس الأمناء» بالشؤون الأكاديمية في الجامعة، يعنى «مجلس الأوصياء» بشؤونها المالية، ويتلقى الهبات والمساعدات من الدول الصديقة والشقيقة والهيئات والمؤسسات الإقليمية والدولية.

كل ذلك في حدود قانون حديث متطور، ينظم العلائق بين المجلسين، يضعه فريق من الحقوقيين والخبراء الجامعيين ويصدر بمرسوم يصدق عليه المجلس النيابي، فتتم في إطاره تصفية الماضي الكئيب وتأسيس الجامعة الوطنية الجديدة على صخرة لا يزعزعها إضراب ولا يعطلها حرد، ولا تعبث بكوادرها البشرية مطامع ومصالح وعصبيات.

وحذار أن يسبقنا التحول التاريخي القائم عند أبواب القرن الحادي والعشرين في محيطنا وفي العالم، كي لا تكون جامعتنا غداً، وهو لناظره قريب، لعنة الماضي في ذمة المستقبل وضميره.

٢٢/ ١/ ١٩٩٧

مشروع حرب في جزيرة

من هو المستفيد من إثارة البركان الهامد في قبرص منذ ٢٢ عاماً؟

إنه السؤال الذي ارتسم في الأذهان مع بلوغ التوتر حده الأقصى بين أنقرة وأثينا، وذلك عقب إعلان الحكومة القبرصية اليونانية إبرام صفقة مع روسيا الإتحادية لشراء ٢٠ بطارية صواريخ (أرض - جو) من طراز (س - ٣٠٠) يبلغ مداها ١٥٠ كيلومترا.

فقد جاء رد الفعل التركي سريعاً وحاسماً، حيث بادرت تانسو تشيلر وزيرة الخارجية التركية إلى التصريح بأن تركيا «لن تسمح بامتلاك اليونانيين القبارصة لهذا السلاح المتطور»، كما هدد رئيس الحكومة نجم الدين أربكان بالتدخل العسكري في الجزيرة، وأوفد رئيس أركان الجيش الجنرال إسماعيل حقي كارادادي إلى جمهورية قبرص التركية الشمالية حيث يرابط ٣٠ ألف جندي تركي منذ العام ١٩٧٤.

وكان من الطبيعي أن تعلن اليونان بلسان وزير خارجتها تيودور بنغالوس وقوفها إلى جانب حكومة نيقوسيا اليونانية، وأن تدافع بقوة عن حق جمهورية قبرص اليونانية «المستقلة والمعترف بها دولياً - باعتبار أن تركيا هي الدولة الوحيدة التي اعترفت بجمهورية قبرص الشمالية التركية منذ إعلانها سنة ١٩٨٣ - في امتلاك الأسلحة التي تراها ضرورية للدفاع عن نفسها».

وفيما حذرت موسكو الحكومة التركية من الإقدام على أي «عمل عسكري غير محسوب العواقب» في قبرص، مؤكدة أن الصواريخ المباعة إلى القبارصة اليونانيين هي صواريخ دفاعية لن يكون لها أي تأثير على التوازن الاستراتيجي القائم بين تركيا واليونان في بحر إيجه وجنوب شرق أوروبا، أعلنت كل من واشنطن ولندن وباريس معارضتها للصفقة المذكورة التي قال الناطق بلسان الخارجية الفرنسية أن من شأنها «الإخلال بميزان القوى في منطقة شديدة الحساسية»، كما بادرت الولايات المتحدة إلى إرسال الوسيط الديبلوماسي كاري كافاناه لتعطيل صواعق الإنفجار المتوقع بين دولتين عضوين في حلف شمال الأطلسي.

وقد نجح الوسيط الأميركي في

وقف التدهور، حيث أكد للجانب التركي، بعد اجتماعاته المكثفة مع كل من رئيسي الدولتين القبرصيتين كليريدس ودنكطاش، واتصالاته الحثيثة بكبار المسؤولين في أثينا وأنقرة، أن نشر الصواريخ الروسية لن يصبح ممكناً إلا بعد مرور ١٦ شهراً، وذلك لاعتبارات فنية تقنية، وهو ما أكده بدوره السفير الروسي في نيقوسيا.

ولكن الاتراك، سواء في الجزيرة أو في القارة، تلقوا هذه التاكيدات بمنتهى الحذر والشك، لأنهم لا يثقون بمزاجية البراغماتية الأميركية منذ انهيار الإتحاد السوفياتي، وهم يتوجسون مما يمكن أن تكيد به الصهيونية وما يمكن أن تورط فيه تركيا من مهالك، خصوصاً بعدوصول أربكان زعيم حزب الرفاه الإسلامي إلى رئاسة الحكومة والشرخ الذي أحدثه في صفوف اليمين بتحالفه مع حزب «الطريق القويم» ورئيسته تانسو تشيلر التي فضلت بواقعيتها النسوية المرنة أن تكون الثانية في السلطة على أن تكون الأولى في المعارضة.

* * *

ولا بد لنا في تقصي الحقائق والوقوف على خلفيات الأزمة الحالية من العودة إلى جذور المشكلة لجلاء انعكاساتها على المستقبل القريب. ففي رأي أنقرة أن الإنقلاب الذي قام به القوميون اليونانيون القبارصة عام ١٩٧٤ لإزالة الأسقف مكاريوس عن رئاسة قبرص، إنما تم بتأييد أمريكي، وأن الرد التركي باجتياح الجزيرة في ذلك الحين، وفصل قطاعها الشمالي المحاذي لتركيا والذي تسكنه أكثرية تركية عن قطاعها الجنوبي الذي تسكنه أكثرية يونانية، إنما تم بموافقة الإتحاد السوفياتي الذي تدخل في الأوان المناسب، وبعد فشل المحاولة المدعومة من أميركا، فعلق حسم القضية بنشر قوات الأمم المتحدة بين القطاعين.

ويتضح من خلال التقارير الصحفية والديبلوماسية العائدة إلى تلك المرحلة، إن الإدارة الأميركية كانت مستاءة إلى أبعد مدى من سياسة الأسقف مكاريوس صديق الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، لانه نجح في تطبيق مبدأ «الحياد الإيجابي» بعد انتصارات المقاومة القبرصية «إيوكا» الموالية له وحصول قبرص على استقلالها.

فقد تمكن مكاريوس الداهية المحنك أن يفيد من الإحترام الذي تفرضه مسوحة الكهنوتية لتعطيل مطامع كل من تركيا واليونان في الجزيرة بمنتهى البراعة والحذق، وإبعاد قبرص في الوقت نفسه عن محاور الصراع الدولي في الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي، كما أقام علاقات ود وصداقة مميزة مع جارتيه مصر وسوريا، وهي

سياسة لم تكن ملائمة إطلاقاً لمصالح الصهيونية وإسرائيل،فعملتا على إسقاطه بواسطة هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركي النافذ في ذلك الحين.

ويذكر خبراء المسألة القبرصية أن نجم الدين أربكان كان وزيراً في الحكومة التركية يومذاك، وقد عرف بميوله الإشتراكية ردحا من الزمن قبل أن يعتنق الحركة الإسلامية ويؤسس حزب الرفاه. ويقول بعض الديبلوماسيين العرب المعتمدين في أنقرة خلال تلك المرحلة، إنه هو الذي توسط لدى موسكو باسم الحكومة التركية، كي لا تعترض على تدخل الجيش التركي في الجزيرة، ولو لبضعة أيام، بحيث تتمكن العملية العسكرية من تحقيق أهدافها.

* * *

يضاف إلى هذا الجفاء القديم بين الإدارة الأميركية وأربكان أن الرجل تمكن خلال بضعة أشهر في رئاسة الحكومة أن يدفع بلاده نحو اتجاهات تعتبرها الولايات المتحدة مناقضة لاستراتيجيتها، ويعتبرها معظم الاتراك، بمن فيهم الكماليون والعسكريون الموالون للسياسة الأميركية، ملائمة لطموحاتهم القومية، ومشاعرهم الدينية، وموقعهم الجغرافي، والتزاماتهم التاريخية.

فقد انفتح انفتاحاً سياسياً واقتصادياً هادفاً ومميزاً على إيران، العدو الأكبر لأميركيا وإسرائيل، وأسس لعلائق متوازنة مع النظام العراقي بعد كوابيس حرب الخليج، كما رمم الجسور المقطوعة بين تركيا والدول الإسلامية في آسيا الوسطى والشرقين الأوسط والاقصى، وبعث التعاون مع مصر من مطاوي النسيان، ونجح في استرداد ديون هالكة تزيد على ٤٠٠ مليون دولار من ليبيا بعد زيارة جريئة لها أقامت الدنيا واقعدتها، خصوصاً في واشنطن التي تعتبر القذافي ديدبان الإرهاب العالمي. كذلك تمكن من تخفيف حدة التوتر مع سوريا بالرغم من عقدة حزب العمال الكردستاني. وأخيراً كان سكوته المعبر على التعاون العسكري مع إسرائيل خير إيحاء بعدم الرضا جعل العسكريين الغلاة يبرمون بما أبرموه من اتفاقات مغايرة لإرادة الأمة في هذا المجال، ويميلون إى حصر مفاعيلها في نطاق محدود.

هذه التحولات الأساسية التي خرق بها أربكان ناموس التأييد المطلق للسياسة الاميركية والتي أزعجت واشنطن، عبأت حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين ضد تركيا. وكان من الطبيعي أن تنشط القوى الصهيونية في الغرب لتعزيز هذه التعبئة، فوجه البرلمان الاوروبي انتقادات حادة إلى انقرة وامتنعت دول الاتحاد الأوروبي عن مساعدة تركيا، كما أثيرت بوجه الاتراك مسألة حقوق الإنسان في

الصحافة ووسائل الاعلام نظراً لعمليات القمع الدامية التي يمارسونها في تعاملهم مع الأقليات الكردية، وبلغ النفور الأوروبي من الاتراك حدا جعل وزيرة الخارجية تانسو تشيلر تقول في تصريح علني: «لا أرى سبباً لهذا التحامل سوى أننا مسلمون!».

* * *

وكان من الطبيعي على صعيد آخر أن تفيد حكومة قبرص اليونانية من أجواء التوتر السائدة في العلاقات بين أنقرة والحلفاء الغربيين، فتسعى بكل وسيلة إلى كسر حصار السلاح الذي فرضه الغرب عليها وتعوضت عنه مرحلياً بإبرام معاهدة دفاعية مع أثينا.

وقد شجعتها الصناديق الخاوية في روسيا الإتحادية على ابتياع السلاح منها بأسعار مخفضة، فكانت أولاً صفقة الاربعين دبابة (ت - ٨٠) الروسية الصنع التي أضيفت إلى ثلاثين بطارية صاروخية (أرض - جو) من طراز «ميسترال» تعهدت فرنسا بتسليمها إلى القبارصة اليونانيين باعتبارها قصيرة المدى تؤمن لهم دفاعاً جيداً ضد الغارات الجوية دون أن تخل بالتوازن العسكري في الجزيرة. ثم جاءت صفقة الصواريخ الروسية الأخيرة من طراز (س - ٣٠٠) البعيدة المدى تنذر بانفجار برميل البارود.

فالاتراك يعتبرون هذه الصواريخ التي يصل مداها إلى ١٥٠ كيلومترا تهديداً مباشراً لترسانتهم الحربية القائمة في جنوب البر التركي، وهم يخشون عملية عسكرية مفاجئة يقذف خلالها الجيش القبرصي اليوناني المعزز بعدد لا يستهان به من الخبراء العسكريين اليونانيين، بالحامية التركية المرابطة في قبرص الشمالية إلى خارج الجزيرة، ويعلن بالتالي ضمها إلى اليونان، خصوصاً بعد التظاهرات التي قام بها القبارصة اليونانيون خلال الصيف الماضي عند الخط الفاصل بين الدولتين القبرصيتين في نيقوسيا، وأدت إلى مصرع شابين يونانيين برصاص الجنود الاتراك. وتعتبر تركيا هذه التظاهرات بمثابة تحديات ومؤشرات على ما تبيته اليونان للجزيرة من مصير.

وتنظر أنقرة من جهة ثانية بمزيد من القلق إلى الإحتكاك الذي يحصل بوتيرة متكررة شهرياً بل أسبوعياً، بين سلاحي الطيران والبحرية التركي واليوناني في بحر إيجه والجزر اليونانية المتاخمة للشواطىء التركية الغربية، وهي تحمل أثينا مسؤولية هذا الإحتكاك والأخطار الناجمة عنه. ولا يستبعد المسؤولون الأتراك أن تقدم اليونان على مغامرة عسكرية ضدهم بهدف السيطرة المطلقة على قبرص والجزر المتنازع عليها في بحر إيجه، مستغلة كونها عضوا في

الإتحاد الأوروبي الذي تحظى لديه بتأييد واسع، وباعتبارها في الوقت نفسه ورقة ضغط في يد الولايات المتحدة لتحويل تركيا عما يسميه المعلقون في الصحافة العالمية «بطموحاتها التوسعية الموروثة عن الامبراطورية العثمانية».

بقي أن الاميركيين الذين تمكن وسيطهم كافاناه من نزع فتيل الإنفجار لمدة ستة عشر شهراً، يعلنون أنهم مصممون على إيجاد حل نهائي للمسالة القبرصية في غضون المهلة المشار إليها، وذلك عن طريق الأمم المتحدة بإنشاء دولة فدرالية يتعايش فيها القبارصة اليونانيون والأتراك بسلام، وهو حل يرى المراقبون أنه من المثالية بحيث يصعب تطبيقه كما يحتاج إلى رجال منزهين يمتازون بشخصية مكاريوس ودهائه، وإلى إعداد طويل مسبق يغسل نفوس الاتراك واليونانيين من أحقاد متراكمة عبر خمسة قرون من تاريخ فتح القسطنطينية إلى يومنا هذا.

فهل يدخل اليونانيون والأتراك في سباق خطير لتقصير المهلة المحددة بحرب وشيكة تسقط الأقنعة عن جميع الوجوه، وتلهب نيران المنطقة من جزيرة العنب والنخيل بعدما تمكنت أميركا من أخمادها في الخليل؟

وهل تكون طوالع الأيام أضغاث أحلام في «مفكرة الأيام»؟

لست أدري. لكنني أثق بالمثل القائل أن أول الغيث قطرة وأول الرقص حنجلة...

١٩٩٧/١/٢٩

نقطة الصّفر

تبذل الديبلوماسية الغربية والإسرائيلية جهوداً حثيثة، بعضها في العلن ومعظمها وراء الكواليس، لإقناع دمشق بأن اتفاق الخليل بداية دليل على انعطاف خجول من قبل نتنياهو باتجاه الواقعية يتعين تثميره إيجابياً لاستئناف مفاوضات السلام. وتجتهد واشنطن، عبر الصحافة وأجهزة الأعلام، في إبراز التصريحات التي أدلى بها شمعون بيريس، خصم نتنياهو الأكثر تشدّداً داخل إسرائيل، وأقرب الأبعدين من أعداء العرب إليهم، وهي تصريحات أعلن خلالها بيريس تأييده للاتفاق، وقال إنه مطابق لما تم التفاهم عليه في أوسلو، كما حرص على التأكيد أنه لم يكن أمام رئيس الحكومة الإسرائيلية إلا خياراً واحد هو الحل الذي اعتمدته الحكومة السابقة.

كذلك يبرز الأعلام الصهيوني بحماسة بالغة أعراب ياسر عرفات عن رضاه التام بالنسبة للإتفاق، وامتداحه «القرار الإيجابي» الذي اتخذه نتنياهو في موضوع الخليل، وتفاؤله الكبير في إنجاز عملية السلام على المسار الفلسطيني قبل الموعد المقرر في أواسط ١٩٩٨.

يضاف إلى ذلك كله، الترحيب الذي لقيه الإتفاق من جانب الرئيس كلينتون ومعظم رؤساء الدول والفاعليات السياسية في الولايات المتحدة وخارجها.

ولا يخفى على الإرصاد الديبلوماسية المجرّبة إن كل ما يلعلع من أبواق الدعاية لهذا الإنجاز وما يراق من حبر التفاؤل به والتبريك له، إنما ينطوي على استدارج سوريا إلى موقف أكثر مرونة على أساس المنطق الآتي:

* ما دام نتنياهو قد تراجع بالنسبة لاتفاقات أوسلو التي أنكرها في البداية واعتبرها لاغية، فلماذا نصرّ على الإفتراض سلفاً أنه سوف لن يتراجع عن موقفه الرافض للانسحاب من الجولان؟!

* وما دام قد بدأ يلتزم سياسة بيريس في موضوع الأراضي الفلسطينية المحتلة، فلماذا لا نفترض - على الأقل من الناحية النظرية - إنه سوف يلتزم في النهاية تعهدات سلفه خلال المفاوضات السابقة بالنسبة للجولان ويستأنف هذه المفاوضات من النقطة التي وصلت إليها؟!

* وما دام أهل «القضية المركزية» في نزاع الشرق الأوسط، أي قضية

فلسطين، قد سجلوا بارتياح انضمام نتنياهو إلى رأي خصمه بيريس بعد معارضته له، فلماذا يصر السوريون واللبنانيون على تنفيره وتكفيره وتقبيح ما أتاه من عمل في الخليل رضيت به السلطة الفلسطينية، ولو كان ضئيلا؟

* * *

لقد فهمت دمشق هذه الرسالة بالتأكيد، وقرأتها بالعدسات المكبّرة مراراً، وربما سلّمت جدلاً ببعض نقاطها، لكنها لم تنخدع بما تضمنته من منطق افتراضي يقضي بالتنازل عن الحق مقابل توقعات وتكهنات تعد بالبدائل في أجل غير مسمى، وهي ترد على ذلك بمنطق آخر يستند إلى ثوابت الأعراف الدولية التي اكتسبت صفة القانون بطول الممارسة، ويختصر بالآتي:

* ما دامت المعاهدات والإتفاقات الخطية والشفوية التي تعقدها دولة إسرائيل معنا أو مع أي فريق آخر، عرضة لانكارها والتنصل منها بمجرد تبدل الحكومات في الدولة العبرية، فمن يضمن لنا أن استئناف المفاوضات مع نتنياهو ابتداء من «نقطة الصفر» سوف لن يعيدنا إلى هذه النقطة عينها، فيما لو توصلنا معه إلى اتفاق لا يرضي أي نتنياهو جديد قادر على الإطاحة بنتنياهو الحالي؟ فهل يعقل أن نظل ننتقل هكذا من صفر إلى صفر؟!

* لقد أعلن بنيامين نتنياهو تكراراً منذ توليه الحكم في إسرائيل، إنه لن يتخلى عن الجولان لأنه بحاجة إلى المياه المتوافرة فيه، ولأن مرتفعات الجولان حصن طبيعي مميز للدفاع عن دولته. ولو سلم المجتمع الدولي بهذه المقولة لوجب أن يوافق على احتلال أي دولة لأراضي دولة أخرى مجاورة بالقوة، وذلك لمجرد أن تكون الدولة المعتدية بحاجة إلى مخزون المياه أو غير المياه مما تملكه الدولة المعتدى عليها، وأن تكون بحاجة إلى موقع الأراضي المحتلة لتعزيز قدراتها الدفاعية!

* فيما يتمسك نتنياهو بالجولان وكأنه منطقة إسرائيلية تطمع سوريا في انتزاعها منه، وفيما يعمل شارون على توسيع المستوطنات القائمة في الجولان ويباشر تأسيس مستوطنات جديدة على أرضه، يدعو وزير الخارجية الإسرائيلي دايفيد ليفي سوريا إلى استئناف المفاوضات انطلاقاً من المبادئ والأسس التي بررت اشتراكها في مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ (!!!) متجاهلاً بأسلوب ماكر يستغبي الآخرين أن أول مبادئ مدريد التي تحدث عنها هو تنفيذ قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ اللذين قضيا بإنسحاب دولته إلى حدود ٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٧، أي مبدأ «الأرض مقابل السلام». وقد بات هذا التناقض الناشئ

عن خلل في توزيع الأدوار بين زعماء ليكود الذين يزايد بعضهم على بعض، العنوان الأبرز لسياسة الحكومة الإسرائيلية الحاضرة التي يصعب الركون إليها بعدما فقدت الحد الأدنى من الصدقية والإلتزام.

* أما أن يكون الفلسطينيون في الداخل قد طاوعوا القوة الغاشمة وقنعوا بالقسمة الضيزى تحت تهديد البنادق الإسرائيلية، فهو ليس موضع استحسان قدر ما هو موضع استهجان، خصوصاً عندما يقال أن أهل القضية موافقون!.

فهل وافق فلسطينيو الشتات الذين يبلغ عددهم سبعة ملايين ويحملون في قلوبهم فلسطين، سواء أكانوا متجنسين بجنسيات أخرى أو غير متجنسين.. هل وافق هؤلاء على تسوية الخليل أو حتى على تسويات أوسلو؟

إنّ أحداً لم يأخذ رأيهم في ما جرى. وكل ما يعرفه العالم عنهم أنهم يئسوا من العودة وتعاهدوا على استئناف النضال والتفاوض مع القدر.

* وأما «القضية المركزية» في نزاع الشرق الأوسط التي ارتأت منظمة التحرير أن تكون في مرحلة معينة محصورة بفلسطين، فقد أصبحت اليوم قضية لبنانية سورية عربية إسلامية مسيحية أممية عالمية جامعة تشمل حتى مصر والأردن الدولتين الوحيدتين اللتين أبرمتا معاهدة صلح في الشرق العربي مع نتنياهو ودولته.

* * *

الحقيقة أن «القضية المركزية» في نزاع الشرق الأوسط لم تكن يوماً فلسطينية ولا عربية ولا أممية دولية، بالرغم من كل إفرازاتها المشؤومة على هذه الصعد جميعاً.

إنما كانت، ولا تزال، قضية شعب لا يؤمن بالعيش المشترك مع الآخرين، وأمة تعتبر نفسها فوق الأمم الأخرى، ودولة تخاف أن يعرف العالم مفهومها «للأمن»! كما ترفض أن يكون لها حدود، لأن الحدود الجغرافية في نظرها حادث تاريخي يمكن أن يتبدل بفعل حادث آخر، وكل ما تبدله الحوادث قابل للزوال.

١٩٩٧/١/٢٩

خواتم الطلاسم...

«إن الله لا يكتب إلا بحروف مستقيمة ولكن السطور كثيراً ما يريدها منحرفة»

مثل إسباني قديم

عام ١٩٩١، صدر عن دار «الريّس للكتب والنشر»، مجموعة خواطر لأنسي الحاج عنوانها: «خواتم».

وفي مطلع السنة الحالية ١٩٩٧، صدرت عن الدار نفسها مجموعة أخرى من خواطر أنسي بعنوان: «خواتم ٢».

الكتاب الأول وقعت عليه مصادفة في باريس عام ١٩٩٢، وقرأته في ليلة واحدة، ثم عدت أقرأ فيه ليلة بعد ليلة روائع سفر التجديف على خبائث الحَضَر وقبائح العصر.

أمّا الكتاب الثاني، فقد أهداه إليّ صاحبه منذ أيام، فقرأته في ليلة واحدة هو أيضاً، وساعود أقرأ فيه ألف ليلة وليلة، وأغمضه على قروح الزمن في قلبي.

* * *

لا أعرف مصدر الأفيون الذي ختم بهذه «الخواتم» على فكري واحتبس إرادتي في حلقاته المفرغة، ولا عهد لي قبله بسحر يتعتع القارئ في مدار الكلمات وحَومة أضدادها الشرسة حتى ينجذب انجذاب الدراويش إلى ملأ آخر.

ولو قيل لي إن السرّ يكمن في «الحداثة» أو «التحديث النثري» أو ما أشبه ذلك من تسميات يطلقونها على «بضاعة الموضة»، لأحرقت الكتابين وقضيت غماً.

فإن بيني وبين «الحداثة» بمفهومها الفوضوي بحراً مالحاً مراً، وإن يكن لي في عداد روادها أصدقاء من ندامى الروح وأنداد الشباب طالما شفعت صداقتي لهم في كتمان أسفي لما يتخرّصون به من قلزمة، وما تنضح به آثارهم من هلس يدّعون أنه تجديد، ويتناوبون في ملكوته الباهت على كرسي مخلّع يؤثرونه على عرش البلاغة وملكها العريض.

وأنا في الحقيقة لا أخاف الموت لأنه «كالليل الذي هو مدركي، وإن خلت أن المنتأى عنه واسع». ولكنني أخاف الموت «بغيره». «فمن لم يمت بالسيف مات بغيره»، كما يقول أبو الطيب. وهل يكون «بغيره» هذا إلا الهذر الذي شاع منذ أعوام الستين وتواصل إلى يومنا، في أمّة لا تقرأ، وإذا قرأت لا تفهم، وإذا فهمت لا تنتفع؟!

ألا رحم الله أمين نخلة الذي كرّموه فرجموه فالعَجمات الصمّ التي لو رجم بها حليم دمّوس لنهض من غيابة قبره واتهم

سعيد عقل! ولكن ألف سلام على سعيد الذي أغرب في شعره ولم يهذر، وألف رحمة على حليم الذي قنع بما رزق من طروح الخيال ولم يدفع بحماره الأعرج إلى الجوزاء. فقد دخلت يوماً على أمين أوائل السبعينات في الدار التي استأجرها من آل الحص على مقربة من الكلية البطريركية، بعدما ترك داره العامرة في شارع أبيه رشيد نخلة بمحلة زقاق البلاط. وكان بين يديه «ملحق النهار» وفيه «كلمات...» التي يكتبها أنسي الحاج. فقلت له: ماذا تقرأ في هذه الورقة الجهنمية؟! قال: «أقرأ هذا الولد الألمعي الذكي. لو كنت مكان أبيه لصفعته «برسالة الغفران» كي يستقيم بيانه على النغم. أما المعاني فهي تسلس القياد في سياق النغم كالغواني الحسان كلما استوقف المنشد القمر وصاح: ياليل...»

ثم أردف: «هل تعرفه؟ قلت: أعرفه. قال: «عجيب. أنا لا أحب هذا النمط من الكتابة، لكني أوثره على نمط الدبّاغين والصبّاغين والحدادين!» قلت: ماذا تعني؟ قال: «الدبّاغون هم الذين ينقلون العبارة من دلالتها الأصلية إلى دلالة حضارية مميزة، كما تُنقل جلود الحيوان من وضعها البدائي إلى شكلها الصناعي، ولكنهم يعجزون عن استعمالها في الموقع اللائق عندما يكتبون، لأنهم دباغون وليسوا مصممي أزياء! أما الصبّاغون، فهم الذين يخلعون على التعبير طلاء وهاجاً ما يلبث أن يبهت ويبوخ، خصوصاً عندما يتدبره الصباغ وهو في عجلة من أمره، فيختصر الرقص بالحنجلة و«البَشْرف» بالدوْزنة! وأما الحدادون، فهم الذين يشتقون العبارة من مقلع مرصود وكهف مهجور من زمن الجاهلية، ثم لا ينفكون يقلّبونها تحت مطارق التقويم والتطويع والتكثيف والتجويف حتى تتحول غرابتها إلى إعاقة فلا تصلح بعد ذلك لقوارض الورق من الأقلام الرهاف!»

* * *

كنت أحضر خميس مجلة «شعر» باعتباري ساهمت في تأسيسها مع يوسف الخال عام ١٩٥٧. وكان يجمع بيننا ود قديم وكلف بالأدب والشعر. ويوم عاد من الولايات المتحدة أوائل الخمسينات وأخبرني أنه عازم على إنشاء مجلة تعنى بالشعر، أكبرت مسعاه وبذلت كل ما أستطيع لإنجاح ذلك المشروع، فاتصلت بمعظم الشعراء البارزين في لبنان، وزرت بدوي الجبل في دمشق فحجزت قصيدته الخالدة «اللهب القدسي» التي سلّمها فيما بعد إلى نسيبه أدونيس وصدرت في العدد الأول من المجلة، ثم كتبت إلى صالح جودت وعزيز أباظة في مصر، وإلى شفيق المعلوف وشعراء العصبة الأندلسية في البرازيل، ومهدت للحدث المنشود بالوسائل الإعلامية التي كانت مقتصرة على الصحافة في ذلك الحين.

لكن الخيبة جاءت أكبر من الأمل بعد

صدور الأعداد الأولى. فإذا بيوسف الذي كان شاعراً أصيلاً يعد بالكثير، وهو ما يشهد به قراء مسرحيته الشعرية «هيروديا» وغيرها من قصائده المنشورة في صحف الوطن والمهجر، إذا به يعتنق البدعة السوريالية الفرنسية فجأة ويتقمص شخصية سان جون بيرس الذي قال فيه الجنرال ديغول: «لا أعرف إذا كان سان جون بيرس يفهم ما يقوله سان جون بيرس!!» قلت إن الود والشعر كانا يجمعان بيننا، فسقط الشعر عند «منعرج اللوى»، وسلم الودّ المقيم، حتى بكيته مرتين: الأولى يوم دخل باسمه ورسمه موسوعة «لاروس» العالمية لأنه خرج من دائرة الشعر العربي، فخسرت فيه الضاد شاعراً عبقرياً مبدعاً. والثانية يوم رحل فخسرت فيه أخاً حبيباً وصديقاً وفياً لو كتبت يوماً بعض ما خصّني به من خوارق نظرته إلى الحياة والكون، والأدب والشعر، والأحياء والأشياء، لانقلب السحر على السحرة الذين قتلوه رجماً بالرقيم الأسود.

باسم ذلك الود المقيم إذن، كان يوسف، رحمه الله، يدعوني عفو المصادفة إلى ندوة الخميس التي يحييها مع رعيله الذائع الصيت من شعراء «الحداثة» وفي طليعتهم انسي الحاج الذي اشتهر بعثنونه الرشيق وسكونه المتستر على غليان السريرة، وقد سماه أحدهم في تلك المرحلة «هو تشي منه»، فقال يوسف: «إنه الثورة خلف نظارتين».

كان فعلاً هو الثورة على صهوة جواد اسمه «الملحق»، يصول به ويجول رافعاً بنود «الحداثة» التي انتشرت انتشار «الدَّقّة الجديدة» ـ كما يسمي الحجازيون التقليعات الغربية ـ في الشام والعراق ومصر، وانتقلت بالعدوى من مجلة «شعر» و«ملحق النهار» إلى الجرائد والمجلات الناطقة باسم القومية العربية والحركة الاشتراكية، فبات كل من استمسك بعمود الشعر في تلك المرحلة كافراً، وكل من جاهر بوجوب العودة إلى الأصالة زنديقاً.

وكانت «النهار» طليعة الركب في المسيرة الثورية المجلجلة، عبر صفحاتها الثقافية، وذلك بحكم انفتاحها القديم على كل جديد، والتزامها التاريخي الصارم بمبدأ الحرية. وأقول هنا بكل حرية، في جريدة الحرية، أن معظم ذلك الجديد كان يصلح للقمامة، كما كان بعض الحرية أسوأ من العبودية! ولكن الناس يحبون الجديد ويحبون الحرية، بالرغم من علمهم وإدراكهم من «أن الحب ما قتل»... وهم يستعذبون الانتحار بالحب، ويفضلونه على أبدية التحديق في رتابة الفراغ.

* * *

وبعد، لكي لا يقال يوماً إنني عدوّ ما أجهل، عكفت ضحى العمر كله على قراءة نتاج «الحداثة» في مصادره المطبوعة جمعاء، فتعرفت إلى ما هبّ ودب في بابل

الطواويس والعقبان والتماسيح والغربان، مستعيناً صبر أيوب على ما كان، بلا ترجمان، واكتشفت إني لست ضد التجربة في ذاتها، ولكني لا أقرّ الحداثيين على الأسلوب الذي اعتمدوه في تحرير الشعر من قوالبه العائدة إلى زمن آخر، لأنه يصيب اللغة العربية في صميم عبقريتها وقدس بيانها.

فقد تراءى لهم، في ما تنكّبوه من همّ التجديد والتحديث - وربما كانوا صادقين - إن عمارة الشعر التي شيدها السلف على قواعد جمالية موصوفة غدت أثراً هندسياً نافراً، بعدما قامت حولها عمائر ومعالم ودساكر في المدينة العصرية مبنية على أسس هندسية وجمالية مختلفة. الأمر الذي تعينت معه إزالة ذلك التنافر والتناقض من البانوراما. وعوض أن يقبلوا على تطوير تلك العمارة بالتشذيب والترميم دون التخريب والتهديم، أقدموا على نسفها وإزالتها من أساسها، ثم ابتنوا في مكانها بمواد أولية غريبة عن المحيط، صرحاً آخر مكتوم الهوية مجهول النسب، لا هو قديم يفاخر بجلاله وكماله، ولا هو جديد يباهي بروعته وجماله.

لذلك أخلص إلى استنتاج يشاركني فيه الكثيرون ممن يرفضون هذا الأسلوب، وهو أنه إن كان لا بد لنا من تغيير العباءة الدهرية التي تقتلنا فيها رائحة أجسادنا، فلا يعني ذلك أن نستبدل بها الريدنغوت أو نعتمر قبّوعة فرنجية ونلبس تنورة اسكوتلاندية ونحتذي جزمة كاوبوي، أو نمشي حفاة عراة تحت كاميرا التاريخ.

* * *

بعد هذا المطاف الذي قادتني إليه «خواتم» أنسي استطراداً، أقول بصراحة أن ما قرأته في «الخواتم» هو نثر شعري يفوق الى حدّ بعيد ما قرأته في الكتب الأخرى التي صدرت لأنسي الحاج، باستثناء «كلمات...» فقد كانت مجموعة «كلمات، كلمات، كلمات» جسر العبور، من حداثة اللعب والانفعال، إلى رجولة الفكر ونورانية الإبداع اللذين تكاملا أداء وإيقاعاً في «خواتمه» الأولى والثانية.

في شعره النثري، من «لن» إلى «الرأس المقطوع» و«ماضي الأيام الآتية» وغيرها، كان يلهو ويعبث في حديقة سان جون بيرس. أما في نثره الشعري الذي تجسده «الخواتم» فهو يجلس على أريكة پندار وطاغور وريلكه وجبران.

أنصح من يصلي بقلبه لا بلسانه أن يقرأه. فهو قاموس جديد في البلاغة لا يحتاج إلى قاموس.

١٩٩٧/٢/٥

أولاً وأخيراً، «لبنان أولاً»

بعد تسعة عشر عاماً من احتلال إسرائيل للشريط الحدودي وصدور القرار ٤٢٥، ظهرت في الأفق دلائل جدية على إهتمام دولي رفيع المستوى بوجوب تنفيذ هذا القرار من جانب إسرائيل دون قيد أو شرط.

ففي رأي بعض المراقبين المتصلين بالإدارة الأميركية، أن شعار «لبنان أولاً» هو في الأساس عنوان لسياسة واشنطن في الولاية الرئاسية الثانية، وقد سرقته الأرصاد الصهيونية من البيت الأبيض وأطلقته بواسطة أعلامها في الخريف الماضي، منسوباً إلى نتنياهو، ومقترناً بشروط يرفضها لبنان كما ترفضها سوريا، وذلك بقصد إسقاط المشروع سلفاً وتحميل بيروت ودمشق مسؤولية ذلك الإسقاط أمام المجتمع الدولي.

ويقول هؤلاء المراقبون أن الإدارة الأميركية شعرت مباشرة، بعد فوز نتنياهو على بيريس، وتصريحاته الأولى حول عدم استعداده للتنازل عن شبر واحد من الجولان، أن العملية السلمية برمّتها معرّضة للإنهيار.

فالرد السوري لم ينتظر طويلاً، بل جاء على الأثر يؤكد بلسان السيد عبد الحليم خدام أن أي مفاوضات مع الحكومة الإسرائيلية الجديدة يجب أن تنطلق من النقطة التي وقفت عندها في شباط (فبراير) ١٩٩٦، وأن تأخذ في الإعتبار الوعد الذي قطعه إسحق رابين، وبعده شمعون بيريس، بالإنسحاب الكامل من مرتفعات الجولان والعودة إلى الوضع الميداني الذي كان سائداً في ٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٧.

منذ تلك اللحظة، أدرك البيت الأبيض، بحسب المراقبين المشار إليهم، أن استئناف المفاوضات على المسار السوري الإسرائيلي أصبح شبه مستحيل، وأصبح لا بد للراعي الأميركي بالتالي أن يستنبط «فعلاً جديداً» في تحرّكه الديبلوماسي يعتق الفريق الإسرائيلي من موقفه المتسرع، والفريق السوري من رده المتشدد، كما يلائم المصلحة الاستراتيجية لكل منهما.

وقد تعين أن يكون هذا «الفعل الجديد» مشروع «لبنان أولاً»، ولكن على أساس انسحاب إسرائيل من الجنوب والبقاع الغربي دون قيد أو شرط، مع

تكليف الجيش اللبناني دون أي قوة عسكرية أخرى، مسالة حفظ الأمن في المنطقة الحدودية، وتوكيله وحده بتأهيل سائر القوى المسلحة، وفي طليعتها جيش لبنان الجنوبي، وعناصر المقاومة بفصائلها المختلفة «للانضواء الطوعي في الجيش النظامي أو الإنخراط البديل في الحياة المدنية».

ويضيف هؤلاء المراقبون أن خطة الإدارة الأميركية لحظت في الوقت نفسه، أن يتزامن إعلان إسرائيل عزمها على الإنسحاب من لبنان، مع دعوة موجهة من نتنياهو إلى سوريا للعودة إلى طاولة المفاوضات على أساس مبدأ «الأرض مقابل السلام» وتنفيذ القرارين ٢٤٢ و٣٣٨، وعلى أساس ما تعهد به رابين وبيريس من إنسحاب إلى حدود ١٩٦٧، ولكن شرط التفاوض المسبق على أمرين أساسيين ترى الحكومة الإسرائيلية أن «التطور التاريخي» هو الذي فرضهما على الأوضاع الراهنة وليس طموح الدولة العبرية، بعد مرور ثلاثين عاماً على حرب ١٩٦٧، ونحو ربع قرن على حرب ١٩٧٣، وهما: أولاً، أزمة المياه الحادة التي تعانيها المنطقة بأسرها اليوم والتي تجعل إسرائيل بحاجة ماسة إلى بعض مخزون الجولان من هذه المادة الحيوية، وثانياً، تطور وسائل الحرب الحديثة التي تجعل إسرائيل، بعد انسحابها من الهضبة الاستراتيجية، بحاجة ماسة إلى آلية أمنية وقائية ضد أي هجوم مباغت.

* * *

كان هذا مشروع «لبنان أولاً» بصيغته الأميركية. لكن مجرد تحريفه وإعلانه من جانب المراجع الصهيونية في الولايات المتحدة وإسرائيل، أفسد الخطة الأميركية وترك المفاوضات معلقة، خصوصاً مع تأزم العلاقات الإسرائيلية - الفلسطينية حول مصير الخليل.

ويقول العارفون بدقائق المرحلة الإنتقالية أن التبديل الذي أجراه الرئيس كلينتون في إدارته العليا، والضغط الذي مارسه على المجتمع الدولي لعقد مؤتمر «أصدقاء لبنان»، متصلان إلى حد ما بذلك «الفعل الجديد» الذي تمكن اللوبي الصهيوني من تعطيله، وإن بصورة مؤقتة.

ولكن نجاح دنيس روس في حل مشكلة الخليل، شجع إدارة كلينتون على تحريك المسار السوري - الإسرائيلي انطلاقاً من «لبنان أولاً» بالصيغة الأميركية، وبأسلوب لا بد أن يختلف في عهد أولبرايت عما كان في عهد كريستوفر، لأن الوزيرة الأميركية الجديدة مقتنعة بديبلوماسية «المحدلة» أكثر منها بديبلوماسية «المكوك». فهي لن تقوم بزيارات إلى المنطقة على طريقة سلفها، كما أنها تؤثر التفاوض السري المركز والمتواصل بواسطة دنيس روس وفريقه -

حتى وإن استهلك وقتاً أطول ـ على الحوار العلني الاستعراضي الذي يستعجل التفاؤل بالحلول الوشيكة، ويبتلى عند أول هزة بانتكاسات مفاجئة.

وتخلص المصادر العليمة إلى أن هنالك مؤشرات تؤكد التصميم الأميركي على فك الإرتباط بين المصير اللبناني المرتبط بالقرار ٤٢٥، والمسار السوري ـ الإسرائيلي المرتبط بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨، وذلك برضا كل من سوريا وإسرائيل اللتين لا مطامع إقليمية لهما في لبنان تتعدى «مصالح حيوية» تكفل الواقع حتى الآن بتأمين العائد منها إلى سوريا في لبنان، ومن شأن انسحاب الجيش الإسرائيلي من الأراضي اللبنانية أن يتكفّل تأمين العائد منها لاحقاً إلى إسرائيل في لبنان.

وتؤكد المصادر أخيراً أن الولايات المتحدة مرتاحة ضمنياً إلى تحرك الديبلوماسية الروسية المرتقب عقب مؤتمر عمان الأخير للسفراء الروس المعتمدين في المنطقة، وإلى تحرك الموفد الأوروبي ميغل آنخل موراتينوس، لأنهما يساعدان على إذابة الجليد المتراكم بين سوريا وإسرائيل. لكنها تعوّل بالدرجة الأولى على مشروع «لبنان أولاً» بصيغته الأميركية الحافظة لحقوق الجميع. ولذلك شجعت البابا بوسائطها اللوجستية الفعالة على زيارة لبنان في مطلع أيار (مايو) المقبل، كما أوصت كوفي عنان، الذي كانت لها اليد الطولى في انتخابه أميناً عاماً للأمم المتحدة، بالتشدد في موضوع النفقات التي تحتاجها القوات الدولية في جنوب لبنان، فاضطر مجلس الأمن، في معرض تجديده لتلك القوات حتى نهاية تموز (يوليو) ١٩٩٧، إلى إصدار بيان مستقل خاص، للمرة الأولى منذ ١٩ سنة، يركز فيه على «الحاجة الملحة» إلى تنفيذ القرار ٤٢٥ «بحذافيره»، أي إنسحاب إسرائيل بلا قيد أو شرط من جميع الأراضي اللبنانية المحتلة.

٥/ ٢/ ١٩٩٧

معمّر القذافي ودعوة المسيحيين إلى الإسلام

كلنا مسلمون...
فمنّا من أسلم لله بالقرآن.
ومنا من أسلم لله بالإنجيل.
ومنا من أسلم لله بالحكمة.

انطون سعادة

ليس غريباً أن يدعو العقيد معمر القذافي المسيحيين اللبنانيين والعرب إلى اعتناق الإسلام، بمقدار ما هو غريب كل الغرابة أن تحدث هذه الدعوة في بعض الأوساط ما أحدثته من بلبلة وانفعال.

فقد استمعت إلى الحديث الذي خصّ به الزعيم اللّيبي زميلتنا ماغي فرح ونقله تلفزيون (MTV) ليلة الأحد في ٢ شباط (فبراير)، ولم أر فيه ما يسيء إلى المسيحيين أو يجرح شعورهم بحيث يستدعي كل هذه الضجة وتلك الردود الصادرة عمّن يرصدون المناسبات العارضة لابتزاز العواطف.

فالعقيد القذافي قائد عربي يؤمن بالإسلام، ولديه نظرية خاصة تتجلى في مؤلفاته ومطارحاته الفكرية مثلما تجلت في حديثه الأخير، وهي أن لكل قوم دينهم الذي ينبثق من شخصيتهم القومية ويلائم حياتهم الاجتماعية وثقافتهم وتاريخهم والظروف الموضوعية لوجودهم وطموحهم. وهو انطلاقاً من هذه النظرية يؤمن بأن دين العرب هو الإسلام، وبالتالي يستغرب ألا يكون جميع العرب مسلمين، وأن يكون بعض العرب في لبنان وغيره لا يزالون يعتنقون المسيحية.

إنه رأي نحترمه بصرف النظر عن سداده أو كساده في التقويم العلمي المجرد، مع العلم أنه لا يحسن الجدل في موضوع كهذا بالغ الدقة والحساسية، على صفحات الجرائد أو تحت عدسات التلفزة، لأنه أولى بالحُرُم الجامعية، والمحافل الأكاديمية المغلقة. وكنا نتمنى لو أن العقيد القذافي تجنّب الخوض في هذه المسألة بطريقة أو بأخرى، كي لا تخرج عن إطارها الفكري والفلسفي فتخضع لتأويل السياسيين من ذوي المنافع والاتجاهات المغرضة.

وليس الرئيس اللّيبي في أي حال أول من فكر في دعوة المسيحيين العرب إلى الإسلام، فقد كانت تلك إحدى أمنيات المسلمين الأوائل، لكنهم أحجموا دائماً عن

إعلانها بصيغة الدعوة المباشرة كي لا يحمل ذلك على محمل الضغط والإكراه.

ومعروف أن الخلفاء الراشدين عاملوا المسيحيين العرب معاملة مميزة ورعوا حرماتهم ومناسكهم وكنائسهم رعاية السلطان العادل المتسامح. ذلك أن النصارى كانوا أرقى العرب حضارة قبل الإسلام وأسرعهم إلى المعروف وأرفقهم بالمستضعفين من أبناء جلدتهم وأوفاهم للذمم وأحفظهم للمواثيق. وقد اعتنق المسيحية من القرن الثاني الميلادي وحتى ظهور الإسلام في القرن السابع، معظم قبائل الشام والحجاز واليمن والعراق، وفي عدادها كندة ومذحج وطيّ ولخم وغسان وقضاعة وتميم ومُزَيْنة وأسد وكنانة مضر وذبيان وعبس وقيس عيلان إلخ...

وقد سارعت هذه القبائل إلى دخول الإسلام لسببين: الأول أن النبي محمداً ضرب الطاغوت القرشي الوثني الذي كان متعاوناً مع اليهود في اليمن وحضرموت وظفار، والذي أذل تلك القبائل واستعبدها بالسلطة المالية. والثاني أن نصارى العرب لم يجدوا في الدين الجديد ما يناقض دينهم على الإطلاق، نظراً إلى ما نص عليه القرآن من إكرام للمسيح وأمّه العذراء التي حبلت به من الروح القدس، فوفدوا على الرسول واعتنقوا الإسلام.

ومما عزز هذا الانتماء المسيحي العربي إلى الإسلام نزول الآية الكريمة: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنّ أقربَهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون﴾[1].

وبعد وفاة النبي لم يكن بقي خارج الإسلام إلا قبائل معدودة أهمها تغلب وغسّان. وكان الغساسنة النصارى الذين ينتسب إليهم معظم المسيحيين العرب المعاصرين في بلاد الشام، منتشرين يومذاك في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، يؤلفون الكثرة الساحقة من سكانها ويقيمون أطيب العلائق مع إخوانهم في الجزيرة العربية. وعلى أنهم كانوا يدفعون ضريبة الحماية لأمبراطور بيزنطية ويقاتلون الفرس المجوس تحت رايته بأكثر من مئة ألف سيف، فقد كان يعتبرهم رعايا من الدرجة الثانية لأنهم آمنوا بمذهب يعقوب البردعي أسقف الرها الذي قال بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وعرفوا باليعاقبة. فلما ظهر الإسلام وجدوا فيه تعبيراً عربياً عن جانب أساسي من نظرتهم إلى المسيح، وتوجه ملكهم جبلة بن الأيهم إلى مكة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب للاعتمار واعتناق الدين الجديد.

ويروي المؤرخون القدامى أن جبلة كان يطوف بالكعبة عندما داس بدوي على

مطرفه المذهب، فجدع أنفه بالسيف! وشكا البدوي أمره إلى الخليفة الذي أرسل في طلب جبلة وقال له: «كانت لك امتيازات الملك في الجاهلية. أما اليوم، فقد سوّى الإسلام بينك وبين هذا الرجل. فأما أن تسترضيه ويسحب دعواه، وأما أن يفعل بك ما فعلت به!»

وحاول ملك الغساسنة إرضاء الرجل بمبلغ كبير من المال، لكنه أبى. فاستعظم أن يسمح لذلك البدوي بجدع أنفه أو حتى بصفعه، وغادر مكة ليلاً مع حاشيته لاجئاً إلى القسطنطينية حيث عاش بقية عمره يطارد الحسرات حتى وافاه الأجل.

ولا شك في أن الفاروق عمر بن الخطاب نظر إلى المسألة بعين الحكمة السياسية، فأغضى على فرار جبلة وحرّاسه وأهله، وهو لو لم يكن موافقاً على ذلك المخرج لما استطاع الملك الغساني أن يفلت من قبضته. ذلك أنه كانت للغساسنة النصارى من أهل الشام والبلقاء منزلة خاصة عند المسلمين. فقد جنّدهم البيزنطيون في جيش هرقل لرد الاجتياح العربي، لكن وجدانهم القومي غلب وجدانهم الديني، فتركوا جيش الروم والتحقوا أفواجاً بخالد بن الوليد في معركة اليرموك، وصحبوا عقب ذلك عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس. ويقول المؤرخ الفرنسي العلامة غودفروا دي مومبين في كتابه «محمد»[٢]، أن بطريرك أورشليم سفرونيوس كان يعرف العديد من فرسانهم، وقد اضطلع هؤلاء بدور بارز في المفاوضات التي أدت إلى تسليم الفاروق مفاتيح المدينة، فدخلها الجيش العربي دون سلاح.

والجدير بالذكر أن بني غسان وبني تغلب كانوا معفيين من الجزية، وهم من «المؤلّفة قلوبهم» الذين أوصى القرآن بإسعافهم من مال المسلمين[٣]. وقد ألغى الخليفة عمر هذه المساعدات المالية بعدما قوي الإسلام ولم يعد بحاجة إلى سيوفهم، لكنه لم يفرض عليهم الجزية عموماً، بل أن التغلبيين والغساسنة ظلوا يتمتعون بمنزلة مرموقة في صدر الإسلام حتى زوال دولة بني أمية، وكانت لهم دالة على الخلفاء والأعيان. والكلّ يذكر مفاخر الأخطل التغلبي في مجلس عبد الملك بن مروان التي كانت تبلغ حد الوقاحة أحياناً، فيقابلهاامير المؤمنين برحابة صدر، هو الذي يملك الدنيا في ذلك الحين من سور الصين، إلى سهوب فرنسا. ومن تلك المفاخر قوله منكراً تعاليم الإسلام:

ولست بصائم رمضان يوما
ولست بآكل لحم الأضاحي
ولكني سأشربها شمولاً
وأسجد عند منبلَج الصباح

أو قوله:

إذا ما نديمي علني ثم علني
ثلاث زجاجات لهنّ هديرُ
خرجتُ أجرّ الذيلَ زهواً كأنني
عليك، أمير المؤمنين، أميرُ

* * *

وبالعودة إلى السيرة النبوية يتضح للباحث الموضوعي أن الرسول نفسه كان يؤثر المسيحيين على سائر أهل الكتاب ويوصي بهم خيراً. وقد نزل مراراً بالأديار المنتشرة في بادية الشام خلال رحلاته مع قوافل عمه أبي طالب، وهو بعد فتى يافع، وتعرف إلى نفر من الرهبان الأماثل المتنسّكين في الصحراء، كالراهب بَحيرا (سرجيوس) الذي كان يبشر بالمسيحية، والراهب نسطور في بُصرى أسكي شام، وغيرهما. ومما قاله الراهب بحيرا لأبي طالب عندما رأى محمداً معه وهو في الثانية عشرة من عمره: «إني أرى سمات النبوءة في وجه ابن أخيك هذا. ثق وتأكد أنه سيوحى إليه ويكون له شأن عظيم».

ولا ننسَ أن الرسول وصحبه وجدوا في النجاشي المسيحي خير نصير لهم على القرشيين الذين كانوا يضطهدونهم. وقد لجأ الكثيرون منهم إلى الحبشة، ورفض النجاشي تسليمهم إلى سادة قريش يوم أرسلوا إليه الهدايا الثمينة مع عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد المخزومي طالبين استرداد المسلمين، فقال للمبعوثين: «خذا عني هدايا قريش، وقولا لسادتها أنني لا أقبل الذهب من عبدة الحجارة، ولن أتخلى عن هؤلاء المسلمين الذين يعبدون الله، ويؤمنون إيماني بالمسيح بن مريم». ويقال أن النجاشي اعتنق الإسلام، وكان يأمر بتلاوة سورة مريم في مجلسه كل مساء، ويبكي مع الأساقفة والأعيان عند سماعها. وقد أشار القرآن إلى ذلك في معرض ثنائه على النصارى حيث يقول: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين﴾[٤].

ثم إن العديد من الرهبان والأساقفة العرب كانوا يفدون على الرسول من أطراف اليمن وتهامة والعسيرين والشام والعراق فيكرمهم ويحسن ضيافتهم في المدينة المنورة التي لجأ إليها مهاجراً. وقد جاءه أساقفة نجران للاستماع إليه والبحث معه في شؤون لاهوتية. فلما حان وقت صلاتهم استأذنوه للانصراف، فقال مشيراً إلى مسجده: «هذا المسجد هو أيضاً بيت الله، وتستطيعون تأدية صلاتكم فيه». وقد صلى يومها أساقفة نجران في مسجد الرسول، وهو امتياز لم يحصل عليه أحد من غير المسلمين قبل ذلك ولا بعد.

أما عهدة عمر بن الخطاب لأهل

إيلياء (أي القدس)، يوم دخلها دون قتال ولا حرب، فتعتبر في جوهر غايتها اقتداء بالرسول العربي الكريم وما أوصى به من رفق بالمسيحيين وارعاء لهم وحفظ لحرماتهم ومقدساتهم. وقد جاءت هذه العهدة تتمة للعهدة النبوية الشريفة التي خص بها الرسول، ومن بعده جميع الخلفاء والملوك في الشرق العربي، رهبان دير الطور في سيناء. ويقول المؤرخون أن السلطان سليم الأول العثماني حمل نصها الأصلي إلى الأستانة سنة ١٥١٦، وأعطى مقابلها أولئك الرهبان الذين كان معظمهم من العرب وبعضهم من الروم، عهدة نشرها المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف في مجلة «الآثار» عام ١٩٢٧، ومما جاء فيها:

«هؤلاء الرهبان المنقطعون في دير طور سيناء، عهدنا بعد عهد النبي عليه أفضل الصلوات وأزكى التحية، أن لا يدخل عليهم أحد يشوّشهم أو يعارضهم أو يقف في طريقهم، وأن يسامحوا في الحقوق والرسوم والاحكار والمقاسمات والأعشار والمقاطعات على بساتينهم وكرومهم وثمارهم ونخيلهم وزيتونهم وحقولهم بالبلاد الطورية والمصرية والشامية والطرابلسية، وإن لا يعارضهم أحد في أوقافهم في جزيرة أقريطش (كريت) وجزيرة قبريس (قبرص)، وأن يسامحوا بالحقوق والرسوم الديوانية على كل ما يصل إليهم من النذور والصدقات التي تحضر عن طريق الثغور الإسلامية في البحر والبر. فإن لهم وسيلة استشفاع بقوله عز وجلّ: ﴿إن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾»... إلخ.

* * *

هكذا يبدو جلياً أن جميع الحكام والزعماء المسلمين في مختلف الأزمنة والعهود تشبهوا برسول الله واقتدوا بتسامحه المأثور في معاملة المسيحيين العرب، فلم يحرجوهم يوماً في دينهم، ولا أذكر أن أحداً طلب منهم اعتناق الإسلام، بل تركت لهم حرية القرار المطلقة في ذلك، عملاً بما نص عليها القرآن من أنه ﴿لا إكراه في الدين﴾(٥).

وحتى السلطان صلاح الدين الأيوبي، لم يمسّ المعالم والآثار المسيحية في القدس بعد انتصاره على الصليبيين الدخلاء وملوكهم، بل ردّ مفاتيح الكنائس والأديار إلى أصحابها من نصارى العرب وأمّنهم على أرواحهم وأرزاقهم وشعائرهم.

لذلك كله، وما دامت وقائع التاريخ تؤكد هذا الالتزام الإسلامي الصارم بحماية المسيحيين العرب وحرية عبادتهم، فلا نعتقد كما تبادر إلى بعض الأذهان القلقة، أن العقيد القذافي الذي يملك ثقافة تاريخية تبدو ملامحها في مؤلفاته، قد تعمّد خرق العرف، الذي

أصبح قاعدة في هذا المجال، أو نقض الالتزام الشريف الذي أصبح جزءاً من السنّة. لكنها، على الأرجح، فكرة عرضت في سياق الحوار بصوت عالٍ، فجاء صداها أضخم بكثير من حجمها ومداها.

١٢/ ٢/ ١٩٩٧

---

(١) سورة المائدة: ٨٢.

(٢) M. Gaudefroy - Demonbynes: «Mahomet»; Paris 1957, p.200.

(٣) ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم...﴾ (سورة التوبة: ٦٠).

(٤) سورة المائدة: ٨٣.

(٥) ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الكفر من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ (سورة البقرة: ٢٥٦).

العبرة من «بيبي غيت»

أيالا حسون الصحافية التابعة للتلفزيون الرسمي الإسرائيلي (القناة الأولى)، أثارت في وجه بنيامين نتنياهو الذي اشتهر بلقب «بيبي»، عاصفة إعلامية بدأت الصحافة في الغرب تسميها فضيحة «بيبي غيت» قياساً على «ووترغيت» و«إيران غيت» وغيرها من فضائح الرؤساء الأميركيين.

الحكاية وما فيها أن رئيس الوزراء عقد صفقة مع حزب «شاس» الديني الذي يملك ١٠ نواب في البرلمان، قضت بتعيين محام مغمور من جماعة «شاس» يدعى روني بار - أون في منصب المستشار القانوني للحكومة - وهو من أهم المناصب القضائية المعنية بمحاسبة السياسيين في إسرائيل - وإطلاق يده في الضغط على المحاكم المختصة لتبرئة زعيم حزب «شاس» الوزير السابق آرييه درعي من تهم الفساد والإختلاس التي يلاحق بموجبها منذ سبعة أعوام، وذلك مقابل حصول نتنياهو على تأييد الحزب المشار إليه لإتفاق الخليل.

هذا على الأقل ما أعلنته الصحافية إيالا حسون في حديث متلفز مؤكّدة أنها تملك المستندات اللازمة لإثباته أمام المراجع المختصة.

وقد استتبع التقرير الصحافي المشار إليه وضع الشرطة القضائية يدها فوراً على الملف بأمر من المدعية العامة إدنا أربيل، لا سيما وأن وزير العدل السابق يعقوب نيمان كان قد استقال من منصبه في آب (اوغسطس) ١٩٩٦ لاتهامه هو أيضاً بتغطية فضائح آرييه درعي واستعمال نفوذه لدى الأجهزة القضائية في سبيل تبرئته.

وسرعان ما أخذت المسألة حجم كرة الثلج وتوالت مفاعيلها بسرعة مذهلة:

* في أقل من ٢٤ ساعة أقدم نتنياهو على إقالة روني بار - اون بعد تمرير إتفاق الخليل في الحكومة والكنيست بتأييد من حزب «شاس»، وعين مكانه أحد ابرز رجال القانون في الدولة العبرية إلياكيم روبنشتاين الذي يتمتع بإحترام الأوساط السياسية والإجتماعية كافة، وذلك لاسترداد ثقة الرأي العام بالحكومة بعد الصفقة المعيبة التي عقدها مع الحزب الديني.

* لم تكتف الأجهزة القضائية بهذا

الإجراء، بل توسعت في التحقيق مع المسؤولين عن القناة الأولى، ووجهت اتهامات بالفساد والتزوير إلى أفيغدور ليبرمان رئيس مكتب نتنياهو، كما استجوبت رئيس مكتبه السابق ديفيد اغمون الذي استقال أخيراً لأسباب قال إنها شخصية، ولم يقنع بذلك المحققين الذين يعتقدون أن استقالته تعود إلى رفضه الموافقة على عمليات مشبوهة.

* لا يزال التحقيق في القضية يجري تحت الأضواء الإعلامية الكاشفة. وقد أعلن نتنياهو أنه سيقدم على تحويل القناة الأولى مؤسسة خاصة لأنها ـ على حد زعمه ـ ناصبته العداء وتؤيد حزب العمل. لكن أفيغدور كهلاني وزير الداخلية أكد من جهته أن ثبوت التهم الموجهة إلى رئيس الوزراء ستؤدي حتماً إلى استقالة الحكومة.

* * *

هكذا يحاسب المسؤولون، جميع المسؤولين، بواسطة القضاء، وأمام الرأي العام، في دولة عدونا.

لقد كان مجرد اتهام دون أدلة، وجهته صحافية ناشئة في محطة تلفزة تملكها الدولة، كافياً لزعزعة الرجل الأقوى في إسرائيل، وتهديد حكمه بالإنهيار، وسوق وزرائه وأعوانه ومستشاريه إلى التحقيق.

أما عندنا في دولة الزندقة الديموقراطية، فإن خمسة أيام متوالية من العرض التلفزيوني المباشر للفضائح والتهم والطعون، بلسان خمسين خطيباً مصقعاً لم تكن لتحرك ساكناً أو توقظ نائماً في قبور الأحياء، وقصور الأموات.

فالنيابات العامة التي يصطك رجالها المخلصون من نهج مزاجي يكبح صولتها المتحفزة، ترهيباً أو ترغيباً، كلما شعر أنه مهدد، ثم يتخذها مع سائر القضاء درعا واقية لحمايته من التشهير، فيلوك أصحاب ذلك النهج عبارة يجهلون ما توحي به من تدخل في شؤون السلطة القضائية، حيث يرددون في كل مناسبة حسما لنوازع الإعتراض المستنير: «المسألة أصبحت في يد القضاء. إسألوا القضاء»... هذه النيابات العامة، قلما اندفعت بروح المغامرة إلى مبارزة السلطة السياسية والتصدي لتجاوزاتها بسلاح القانون، في جزيرة محذوفة من خريطة العالم يتنازعها أنصار السلطان وكبير الياوران.

* * *

قال لي مسؤول صغير التقيته في مناسبة اجتماعية: «إنني أقرأ ما تكتبه في «النهار». حتى الآن، كل ما تقوله لا يعنينا. أكتب ما تشاء، فنحن لا تهمنا كتاباتك، لأننا نعمل ولا نقرأ. ولكن إذا علّيت صوتك أكثر، فعندها لن تلوم إلا نفسك!».

بالتوكيد إن هذا المسؤول الصغير قادر على التنكيل بمستضعف مثلي عبر

الوسائل والأجهزة التي يملك، حتى إذا لم أستجب لرغبته وأخرس، فكّر بما هو أشد من ذلك وأدهى.

وهنا أقول بمنتهى الألم والحسرة والمرارة، أنني تمنيت في تلك اللحظة لو كنت أيالا حسون الإسرائيلية التي تهز كلمة منها حكومة نتنياهو العنيف الجبار، ولم أكن ذلك الكاتب اللبناني العربي الذي لا تخدّش كلماته نعل «من هو» الذي ينظر إلى الشتيمة كأنها مطر الربيع، وإلى الإهانة كأنها نسمة الصيف، ويقول مع أوليائه المترهلين في مقاعدهم. «القافلة تسير والكلاب تنبح».

* * *

عندما بدأ السجال دون سابق إنذار بين رئيس مجلس النواب ورئيس الجمهورية، وقد وقف رئيس الحكومة يتفرج، قال لي أحد المراسلين الأجانب: «الحرير يبتعد عن صراع المطرقة والهراوة كي لا يصيبه أذى».

ولما تحولت المعركة إلى مجلس النواب سألني ضاحكاً: «ما دام الحرير لم يسلم من المطرقة، فهل تبادر الهراوة إلى نجدته؟».

قلت: لا أدري، فالعلم في ضمير الغائب.

١٢/ ٢/ ١٩٩٧

في التطبيع وما إليه

حتى لو تحقق السلام العادل والشامل بين إسرائيل وجيرانها، فمن الصعب جداً، لكي لا نقول من المستحيل، أن تتمكن الدولة العبرية من الاندماج الوجودي التام في محيطها العربي والإسلامي - وهو ما يسمونه تجاوزاً بالتطبيع - للأسباب الآتية:

١ - لأنها دولة قومية عنصرية دينية مستعلية بفوقية الاختيار الإلهي.

٢ - لأنها تتألف من عناصر وأقوام غريبة عن هذه المنطقة تجمعت من أطراف الشتات وتوطنت هنا بالقوة.

٣ - لأن الحرب هي الوسيلة والغاية في حماية وجودها على أرض مصادرة يملكها آخرون.

٤ - لأن هذه الأرض المصادرة لم تكن عند نشوء الدولة خالية بل عامرة يسكنها أصحابها منذ بدء الخليقة دونما انقطاع، وهم ليسوا مجتمعاً بدائياً متوحشاً معزولاً، بل أهل حضارة عريقة ذات إسهام تاريخي مشهود في التمدن البشري.

٥ - لأن الحرب التي نشأت الدولة فيها وبها لا تزال مستمرة من نصف قرن وستبقى إلى أجل غير مسمى، ما دامت حرب وجود أو عدم قوامها إبادة الآخر، وليست محدودة الأهداف تنتهي في أجل مسمى بمصالحة ما بين الغالب والمغلوب.

٦ - لأن كل مهادنة أو مطاوعة أو مفاوضة أو مشروع تفاهم أو سلام بين حكام هذه الدولة وحكومات المنطقة، هو في نظر شعوبها قناع من أقنعة الحرب الإفنائية التي تظهر بوجوه مستعارة، سياسية، أو اقتصادية، أو إنمائية. إلخ...

٧ - لأن هذه الدولة ألغت كل وجود يهودي عربي أو شرقي تعايش هنا مع الحضارة العربية الإسلامية خلال قرون قبل وجودها، وظهرت بلغتها العبرية المتحفية وعاداتها وتقاليدها الدهرية وقوانينها التوراتية العائدة إلى أزمنة البداوة، وكأنها نيزك اجتماعي وثقافي فريد هبط على شرق المتوسط من كوكب آخر.

* * *

إزاء هذا الواقع الذي لم يعرف التاريخ له مثيلاً، لا بد من الإجابة عن أسئلة خطيرة أساسية تفرض نفسها قبل الحديث عن التطويع السياسي والاقتصادي الذي يسمونه تطبيعاً، وهي

تتوارد بالصيغ الآتية:

● بعد السموأل بن عادياء، أو بالتعبير العبري «صمويل بن أوفيديا»، الذي عاش في القرن السادس الميلادي، من هو اليهودي الذي قال شعراً بالعربية، مع أن اليهود كانوا يعيشون حياة آمنة ومرفهة في ممالك الإسلام؟

● وبعد موسى بن ميمون الطبيب والفيلسوف اليهودي الشهير الذي عاش في القرن الثاني عشر - ومن غريب المفارقات أنه هجر الأندلس وأقام في القاهرة أيام الصليبيين وأصبح طبيب عدوهم صلاح الدين الأيوبي - بعد ابن ميمون هذا صاحب «دلالة الحائرين» الكتاب الذي أحدث دوياً هائلاً في زمانه، من هو الكاتب الأديب أو المفكر الفيلسوف، أو العالم المرجعي اليهودي الذي كتب باللغة العربية؟

● في العصور المتأخرة والأزمنة الحديثة، عرف الغرب الذي كان متخصصاً في اضطهاد اليهود، عبقريات يهودية أغنت تراثه وأسهمت إسهاماً كبيراً في نهضته، أمثال الفيلسوف سبينوزا، والموسيقي ماندلسوهن، والشاعر هاين، ورائد الفكر الاشتراكي كارل ماركس، والفلاسفة برغسون وبرانشفيك ومايرسون ودوركهايم، والشاعر كافكا، ومؤسس علم النفس الحديث فرويد، وغيرهم وغيرهم من نوابغ اليهود الذين تضيق بآثارهم المكتبات المعاصرة. ولكن لماذا لم يحظ الشرق الذي كان منبت اليهودية بأثر واحد من تلك الآثار بالعربية أو الفارسية أو أي لغة حية من لغاته؟

● ثم بعد قيام دولة إسرائيل، من هو المفكر أو الكاتب الإسرائيلي الذي ألف بالعربية أو بأي لغة أخرى من لغات المحيط، حتى ولو لم تكن مؤلفاته وكتبه مطابقة لرأي العرب في النزاع القائم بين الدولة العبرية وجيرانها؟

* * *

أن التأثر والتأثير المتبادل على الصعيد الثقافي هما الشرط الأساسي لتطبيع العلائق بين الأمم. وثمة حقيقة لا مراء فيها وهي أن معظم الفئات الواعية في العالم العربي والإسلامي متأثرة إلى حد ما بالفكر اليهودي منذ عهد بعيد، وذلك من طريق التوراة والزبور[1] وغيرهما من الآثار الدينية اليهودية التي يعتبرها المسلمون والمسيحيون سماوية الإيحاء تندرج في عداد المراجع الروحية المتصلة بتراثهم، ثم عن طريق الثقافات الأوروبية والأميركية التي انطبعت في حدود معينة بنتاج المفكرين والعلماء والأدباء اليهود.

ولكن هنالك في المقابل حقيقة أخرى تسقط جميع محاولات التوفيق والتطبيع الثقافي دفعة واحدة، وهي أن الإسرائيليين لم يتأثروا على الإطلاق بأي وجه من وجوه تراثنا العربي الكريم،

وكانهم تعمدوا جهل ما يختزنه من روائع الفكر وكشوف العلم والمعرفة وأساليب الحياة، في ملايين المجلدات المخطوطة والمطبوعة. وكل ما تحسّن لهم أن يقتدوا به ثقافياً هو رقصة «هزّ البطن» التي وجدوها نافعة لغاياتهم، فعلّموها غوانيهم، وحاولت بعض الفرق الإسرائيلية التي تدّعيها أن تباري راقصات مصر في هذا الفن الدخيل المثير للغرائز والذي جاءنا مع التتر والمغول من عمق السهوب الآسيوية في زمن الانحطاط، فعرضت رقصاتها في القاهرة على سبيل التطبيع الثقافي بالطبع (...) وقال أحد الصحافيين الظرفاء: «إنها بضاعتنا رُدّت إلينا في هودج راحيل».

ولعل أول من فهم أهمية التبادل الثقافي في عملية التطبيع وأدرك استحالته في الظروف الموضوعية الراهنة، هو الياهو بن اليسار أحد أبرز الخبراء الصهاينة في الشؤون العربية، وكان أول سفير إسرائيلي دخل القاهرة بعد معاهدات كامب دايفيد، فمما قاله مبرراً طلب نقله وعودته إلى تل أبيب:

«لقد تعرفت في مصر إلى سياسيين ورجال أعمال ومدراء بنوك وتجار وصناعيين وحرفيين وسماسرة، من جميع الفئات والطبقات، كانوا يسعون وراء مصالحهم. لكن ما يؤلمني كبير الألم هو أنني، طيلة عامين من وجودي في القاهرة، لم يطرق بابي مثقف مصري واحد»!

* * *

أما التطبيع الذي يمكن استحداثه بالضغوط الدولية، فيظل في أي حال تطبيعاً مصطنعاً يجزي على ابتسام بابتسام، أو شبه تطبيع يقوم على أدب المراسم والتكاذب الديبلوماسي، كما هي الحال بين حكام القاهرة أو حكام عمان وحكام إسرائيل.

ولو تمكّن هذا التطبيع السياسي بشق النفس أن يحمي بعض أشكال التطبيع الاقتصادي والتجاري والسياحي، باعتبار ما يوفره التعامل المادي من أرباح ومغريات لفئة محدودة من أبناء قارون وقورح[٢]، فإنه يبقى عاجزاً كل العجز عن تطويع إرادة الشعوب.

والشاهد الأقرب على ذلك ما حدث في ٨ كانون الثاني (يناير) الماضي عند افتتاح معرض الصناعة الإسرائيلية في عمّان.

فقد تنادى الأردنيون من أطراف البلاد إلى تظاهرة كبرى ومسيرة صاخبة نحو المعرض بقصد مهاجمته وتدميره، مما استدعى تدخل قوى الأمن بأكثر من ألفي عنصر لمنع الكارثة، ولم يتمكن سفير إسرائيل من افتتاح المعرض إلا بعد ساعتين من الموعد المحدد، الوقت الذي استغرقته قوات الحماية لتفريق

المتظاهرين.

ولعل أبرز ما سجله المراسلون الأجانب في هذه المناسبة كما في مناسبة تدشين الخط الجوي بين عمان وحيفا، غياب جميع الشخصيات الأردنية الرسمية عن الاحتفالين، وحضور ما لا يزيد عن مئتي رجل أعمال من أصل عشرة آلاف وجهت إليهم الدعوة.

وقد علّق مدير إحدى الشركات الإسرائيلية المشاركة في المعرض على أجواء المقاطعة بالقول: «أظن أننا أخطأنا العنوان. فنحن نحضر افتتاح ثكنة عسكرية!».

مرحبا تطبيع...

١٩/ ٢/ ١٩٩٧

---

(١) الزبور هو الاسم العربي القديم لمزامير داود.

(٢) قارون (في القرآن) وقورح (في التوراة) هو ثري كبير اضطهد موسى فعاقبه الله بتجريده من ثروته، وهو مضرب المثل في طغيان المال وجبروته.

حكاية نبش الكنوز

تتسابق المصارف الكبرى في أوروبا الغربية على فتح اعتمادات بمئات الملايين من العملات الصعبة للتعويض على ورثة اليهود ضحايا المحرقة النازية المزعومة في الحرب العالمية الثانية.

فبعد الملفات العديدة التي خضعت للابتزاز الصهيوني طيلة نصف قرن، ومن أبرزها ملف التعويضات الألمانية لإسرائيل، وملف محاكمات النازيين السابقين أو الذين تعاونوا معهم من الأوروبيين، ومعظمهم شيوخ طرقوا أبواب التسعين...

بعد هذه الملفات التي لا تزال الصهيونية تتعهدها بالعناية الفائقة لإذكاء روح الانتقام جيلاً بعد جيل، فاجأ «المؤتمر اليهودي العالمي» و«الوكالة اليهودية» الدولة السويسرية منذ بضعة أشهر بملف جديد هو ملف الحسابات السرية الخاصة التي فتحها اليهود خلال الحرب وقبلها في بنوك سويسرا بالعملات المختلفة، وأطنان الذهب التي أودعوها تلك البنوك، باعتبار أن سويسرا كانت ولا تزال دولة محايدة.

وقد وظف اللوبي الصهيوني قوّة عظمى في هذه القضية كما جرت العادة، فضغطت بمنتهى الحزم على الدولة السويسرية وأرغمتها على رفع السرية المصرفية للمرة الأولى في تاريخها، والكشف عن تلك الحسابات أمام المحققين للتعرف إلى حجم الودائع العائدة نظرياً إلى يهود المحرقة المفترضة والتي تكتمت المؤسسات المالية السويسرية على وجودها منذ العام ١٩٤٥.

وسرعان ما تبين للمحققين، كما يزعمون - ومعظمهم خاضع للنفوذ الصهيوني - إن الإدارة الألمانية في عهد هتلر كانت هي أيضاً تودع المصارف السويسرية الذهب الذي تصادره من اليهود وغيرهم في الدول الأوروبية المحتلة ويقدر بمليارات الدولارت. وقد وجه المحققون أصابع الاتهام إلى مصرفي سويسري كبير سابق هو فرانسوا جينو الذي تقول مصادر التحقيق أنه كان الرأس المدبّر لإدخال الذهب النازي إلى سويسرا بواسطة شبكة سرية من العملاء؛ الأمر الذي دفع بالرجل إلى الانتحار في ٣٠ أيار (مايو) الماضي،

وهو في الثمانين من عمره.

وانطلاقاً من هذا التوسع في الموضوع، يطالب اليهود سويسرا حالياً، ليس فقط بالودائع اليهودية المباشرة في بنوكها بين عامي ١٩٣٠ و١٩٤٥، بل فوق ذلك بالودائع النازية من الذهب والقطع التي يزعمون أنها سرقت منهم تحت الاحتلال.

وعلى أن الحكومة السويسرية تواجه ضغطاً هائلاً من جانب القوى الصهيونية، إلا أنها أرجأت اتخاذ أي قرار نهائي في المسألة المطروحة قبل ظهور النتائج الأخيرة للتحقيق في الصيف المقبل، فيما بادرت ثلاثة مصارف كبرى هي «الاعتماد السويسري» و«الشركة المصرفية السويسرية» و«اتحاد البنوك السويسرية» إلى إصدار بيان في مطلع شباط (فبراير) الحالي أعلنت فيه فتح حساب بمبلغ أولي قدره مئة مليون فرنك سويسري «للتعويض على ضحايا المحرقة» وذلك تحت التهديد المباشر من جانب الصهيونية بمقاطعة البنوك السويسرية والامتناع عن أي إيداع فيها، مع إعادة النظر في الشروط الخاصة بممارسة نشاطها المصرفي داخل بعض الدول العظمى في الغرب.

* * *

وفي سياق المعركة الدائرة بين الصهيونية وسويسرا التي ذهب رئيسها إلى اتهام اليهود علناً بابتزاز بلاده، فتح هؤلاء جبهة جديدة حول الذهب النازي مع السويد الدولة الأخرى التي وقفت على الحياد في الحرب العالمية الثانية. فقد نشرت صحيفة «Dagens Ny-heter» السويدية تحقيقاً لاثنين من الباحثين أبرزا فيه وثائق من البنك المركزي تتهم حكومة ستوكهولم بتزويد هتلر خلال الحرب بالحديد المستخرج من مناجم «لابونيا» المنطقة القطبية الواقعة شمالي البلاد، مقابل الذهب المصادر في غزو أوروبا.

وتشن الصحافة الصهيونية في الغرب منذ مطلع السنة الحالية، حملات عنيفة ضد السويد مطالبة بالتحقيق في الموضوع على غرار ما هو حاصل في سويسرا. وهي تتهم امبراطورية «واللنبرغ» (Wallenberg) الاقتصادية التي تسيطر حالياً على مجموعات صناعية ضخمة في السويد، بأن أساس توسعها وازدهارها يعود إلى الدور المهم الذي لعبه مؤسسها يعقوب واللّنبرغ مدير بنك «إنسكيلدا» في الأربعينات، لإقناع البنك المركزي السويدي في تلك المرحلة بقبض مستحقات دولته من ثمن الحديد بالذهب الهتلري المسروق.

وقبل أن تمد «الوكالة اليهودية» أصابعها إلى «بنك فرنسا» للكشف عن مخزونات ذهبية يمكن أن تكون حكومة

فيشي الموالية لهتلر قد صادرتها من يهود فرنسا في مطلع الأربعينات، بادر الوزير الأول آلان جوبيه، تحوطاً للصفقة الصهيونية التي قد تطال فرنسا بعد سويسرا والسويد، إلى اتخاذ قرار عاجل بفتح حساب خاص تساهم فيه البنوك الفرنسية والدولة، في سبيل التعويض على ورثة مزعومين لضحايا المحرقة من اليهود الفرنسيين.

* * *

هذه، باختصار، مسألة الذهب النازي والودائع المزعومة ليهود المحرقة في المصارف الأوروبية. والذي يهمنا من تطورات الصراع القائم بين الصهيونية وجبابرة المال في سويسرا وغيرها، هو استخلاص العبر مما يجري هناك، واحتساب الانعكاسات الممكنة على أوضاعنا المالية في لبنان والعالم العربي. ولا بد لنا إزاء هذه الوقائع المثيرة من تدوين بعض الملاحظات:

● ١ - إن رفع السرية المصرفية عن البنوك السويسرية التي تمتعت خلال ثلاثة قرون بحصانة مطلقة لم تزعزعها الأحداث الجسام بما فيها الحروب الإقليمية والعالمية وغيرها، يعتبر سابقة خطيرة إلى أبعد مدى، خصوصاً بالنسبة للنظام المصرفي اللبناني الذي قد تتعرض سريته العريقة الموثوقة للاستباحة والإسقاط، بالتدخل المباشر من جانب القوى العظمى المتحالفة مع الصهيونية، ولأتفه الأسباب والمبررات التي يمكن أن يتذرع بها عدونا لدى تلك القوى الحريصة على مصالحه فوق حرصها على مصالحها.

● ٢ - إن مجرد وضع الحسابات السرية في المصارف السويسرية وغيرها من البنوك الأوروبية، بتصرف لجان التحقيق ذات التوجه الصهيوني، يستتبع بالتأكيد حصول العدو على كشوف دقيقة للأموال العربية المودعة في تلك المؤسسات المصرفية والتي تقدر بألوف الملايين، ويعرّض هذه الأموال بالتالي للقرصنة الصهيونية، كما يفتح الباب على مصراعيه أمام القوى الدولية لرسم خرائط جديدة للشرق الأوسط تخدم مصالحها السياسية والاقتصادية في ضوء حركة الأموال المشار إليها ومواقعها وأحجامها.

● ٣ - أن الاقتناع الذي رسخه الإعلام الصهيوني لدى الرأي العام في الدول الأوروبية والصناعية الكبرى، بأن مايسمى بـ«الإرهاب» هو بضاعة عربية إسلامية، جعل النظرة إلى العرب والمسلمين لا تقل عداءً وكرهاً عن النظرة إلى النازيين، وهو ما قد يعرّض موجوداتهم في الغرب للحجز الاحتياطي، ويخضعها لأجهزة التحقيق، تمهيداً لمصادرتها بحجة التعويض على ضحايا الإرهاب في إسرائيل وغير إسرائيل!

● ٤ - وأخيراً، حتى لو نجحت

مساعي السلام وتم التطبيع، وتحول الرفض العربي والإسلامي لليهود غداً، كما تحول الرفض الآري والمسيحي لهم بالأمس في أوروبا، إلى شهر عسل يفيض بالعواطف المتبادلة... فمن يضمن ألا تفتح الصهيونية مثل هذه الملفات للسيطرة على الذهب الأسود، ولو بعد خمسين عاماً، كما فعلت بالملفات النازية للسيطرة المطلقة على الذهب الأصفر؟!

أليس المطلوب إزاء هذه المعطيات، مؤتمر قمة عاجل لوزراء المال وحكام المصارف المركزية العربية، يشارك فيه القطاع المصرفي الخاص، وتنشأ عنه غرفة عمليات للطوارئ، كاملة التجهيز،واسعة الصلاحيات، تسارع إلى اتخاذ القرارات والتدابير القادرة على رصد الأعاصير المتجمّعة في الأفق وتدارك الأسوأ قبل حدوثه؟!

ولكن، على من تقرأ مزاميرك يا داود؟!

١٩/ ٢/ ١٩٩٧

تبارك مَن له عدوّ!

تَمَنَّيتَها لما تَمَنَّيت أن ترى
صديقاً فآمياً أو عدواً مداجيا(*)
ابو الطيب المتنبي

كلما مرّ يوم على الوضع القهقري المتردي الذي تتخبط فيه روسيا الاتحادية، تزايد حجم الأخطار المحدقة بالعالم من جراء انعدام التوازن في السياسة الدولية، وغرق المارد الاميركي أكثر فاكثر في مستنقع لزج من وحول العفن الكوني لا سبيل إلى التخلص من جاذبيته القاتلة.

فقد كان التعادل الفوقي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي خلال أربعين سنة من الحرب الباردة، عامل استقرار نسبي لم يعرف له مثيل من قبل في معظم المناطق الحساسة، أخمد النزاعات الإقليمية، وعطّل صواعق التفجير بين القوميات والعنصريات، كما حد من تجاوزات الراسمالية المتوحشة، وخفف بدرجات متفاوتة انسحاق العالم الثالث واستشراء علله الدهرية المزمنة.

استقرار مصطنع؟! نعم، بالتأكيد. لكنه أثبت فعاليته القصوى في إدارة المجتمع البشري، بالرغم من المظالم التي أصابت حقوق الأفراد في بعض المناطق، وازدهار الديكتاتوريات والانظمة التوتاليتارية في مناطق أخرى. إلا أن ذلك كله لا يقاس حجماً ونوعا بما نشهده اليوم من ديكتاتورية العولمة السياسية والاقتصادية وتحكم المافيا فيما يسمى «اقتصاد السوق»، وتسلط الأوليغارشية الطبقية باسم الديموقراطية، وفلتان الأمن الإقليمي الذي يهدد السلم العالمي، واسترهان حقوق الأفراد والمجتمعات للقوى المادية المتجبرة، وانتشار حروب الدين والتطهير العرقي والإرهاب.

* * *

ولعل أقرب الأدلّة على هذا الواقع المظلم، هو ما يجري في روسيا اليوم، خصوصاً بعد انهيار صحة يلتسين وتحوله إلى شبح يحكم البلاد من كوكب آخر بالواسطة، فيما يتأهب صقور الجيش والحكومة والمافيا لانتزاع السلطة من يده.

فالترسانة النووية الروسية القادرة على تدمير العالم في دقائق، يمسك بزمامها تقنيون وعسكريون لا يقبضون رواتبهم المتدنية بانتظام، وهم مستعدون

لبيع أسرارها التدميرية لمن يدفع أكثر. وأما معاهدة (سالت٢) التي تقضي بتفكيك هذه الترسانة على مراحل، فيعود تلكؤ الروس في توقيعها إلى فقدان الأموال التي يحتاج إليها التفكيك والتي تقدر بمليارات الدولارات.

كذلك تتنقّل التقنيات النووية والمواد المشعة فيما يشبه بداوة الرعاة الساعين إلى الكلأ عبر القفقاس وآسيا الوسطى، باحثة عمن يشتريها في الشرق الأوسط والأقصى وأفريقيا، الأمر الذي يثير القلق والذعر لدى الأجهزة الأميركية ومخابراتها التي عجزت حتى الآن عن مصادرة غرام واحد من اليورانيوم أو البلوتونيوم الروسي المتسرب إلى العالم الثالث.

ثم أن التجارة والسياحة والخدمات أصبح معظمها بيد المافيا. وقد بلغت ودائع البنوك المشبوهة التي انتشت في البلاد خلال ولاية يلتسين الأولى، أكثر من مئة مليار دولار من ناتج الجريمة والدعارة والفساد والمخدرات والكحول، يقال إنها خاضعة لسلطان الحركة الصهيونية في الغرب.

يضاف إلى ذلك براكين هامدة في مختلف مناطق الإسلام الروسي لا يعرف متى تنفجر بعد التسوية الهشة التي حدثت في الشيشان، ثم انهيار كلي في مرافق الحياة العامة، من التعليم، إلى الجندية والإدارة الحكومية والمؤسسات العلمية والثقافية، بل حتى الأفران والحوانيت ومخازن المواد الغذائية والإنتاج الزراعي، فيما يتحول الشعب الروسي العظيم إلى كتلة بشرية مرهقة بالضرائب تضم أكثر من عشرين مليون جائع ومشرد بين السيف والريف.

أما المساعدات التي قدمتها الدول الصناعية لروسيا فقد ذهب بعضها إلى سد الرمق، ومعظمها إلى جيوب فريق من المتنفذين الذين كانوا منتفعين عاديين في العهد السوفياتي، فانقلبوا عبر اقتصاد السوق سماسرة محترفين في نعيم الحرية (...).

ويكتمل المشهد الكئيب الرهيب بموجة انتحارات لم يسبق لها مثيل في صفوف العلماء الكبار، وقد هالهم حجب الأموال المخصصة للأبحاث والتجارب العلمية التي رفعت الاتحاد السوفياتي السابق إلى منزلة متفوقة حتى على الولايات المتحدة في مجالات تكنولوجية عديدة. وكان آخر حادث انتحار نقلته وكالات الأنباء في الخريف الماضي، هو الذي أقدم عليه العلامة فلاديمير نكاي مدير المركز الأهم في روسيا لإنتاج البلوتونيوم وسائر المواد النووية ومشتقاتها، ويقع المركز المشار إليه في مدينة سيزنيك، بجبال الأورال. ومما قاله مديره المنتحر في رسالة الوداع التي تكتمت أجهزة الأمن على مضمونها، أنه

«وضع حداً لحياته بعدما وضعت الدولة حداً لتمويل أبحاثه التي صنعت مجد روسيا».

حتى متحف «الأرميتاج» في مدينة القياصرة بطرسبرج، وهو أعظم متحف للتراث الفني والحضاري في العالم، إذ لا يضاهيه متحف «اللوفر» في باريس، ولا متاحف لندن ونيويورك، على صعيد اللوحات الكلاسيكية الخالدة، التي لا تقدر بثمن... حتى هذا المعبد الذي يعتبر قدس أقداس العبقرية الإنسانية ونتاجها الرائع تتعرض لوحاته للتلف، ومعالمه الساحرة للتآكل والتداعي، كما يتعرض موظفوه المترهبون لخدمة آثاره الفريدة للمرض والموت في موسم الجليد، لأن الدولة التي كانت كلمة واحدة من حكامها تزلزل الدنيا، أصبحت لا تملك ثمن المازوت لتشغيل أجهزة التدفئة في أرجائه!!

* * *

هذه الأزمة الكيانية التي تعصف بالدولة الروسية ومؤسساتها، انعكست أسوأ انعكاس على أوضاع الشرق الأوسط وسير العملية السلمية فيه، فقد انطلقت هذه من مدريد سنة ١٩٩١، براعيين اثنين هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الذي دخل مرحلة التصفية منذ ذلك الحين، وتحتم بالتالي أن يصبح للعملية راع واحد يتحامل على متاعبه بشق النفس، ويعاني صراعاً في العمق، بين عواطفه المنحازة إلى فريق دون آخر، ومصالحه التي تفترض حداً أدنى من العدالة لتسويقها بنجاح عند أصحاب الحقوق المهدورة.

فالقوي العاقل يحتاج دائماً إلى ضريب قوي عاقل يحفزه مجرد وجوده على الاحتراس وحسن التقدير والتدبير، ويدفعه الخوف من تفوقه إلى تصويب أخطائه وتقويم اعوجاجه كما يمنعه من الترهل والتهاون أو التجبر والغرور.

ولولا وجود العدو اللّدود لما وجد الصديق الودود. ولولا خوف القوي من أعدائه لأصبح رهين الطارئين والطامعين من أصدقاء الصدفة وخلّان المنفعة الذين يقصدهم الإمام علي في قوله: «اللّهم نجّني من أصدقائي، أما أعدائي فانا كفيل بهم».

ثم إن القوي الشجاع يفيد من ظهور ضريبه العدو المنافس عندما يتعايشان معاً في حدود الاحترام المتبادل، وهو ما يسمى شرف العداوة وميثاق الأقوياء. ولعل خير تعبير عن ذلك ما جاء في «القصيدة اليتيمة» من قول لشاعرها المجهول:

ضدان لما استجمعا حسنا
والضدّ يُظهِرُ حسنَه الضدُّ

وقد شاعت حكمة الرومان الأوائل، يوم كانت روما تحكم العالم وحدها كما تحكمه أميركا في عصرنا، أن يجلس خلف

قيصر في مركبته عندما يعود إلى قاعدة ملكه من فتح في أقاصي العالم القديم، حكيم زاهد من سدنة الهياكل، فكلما تقدمت المركبة الملكية وسط الجموع الحاشدة يقودها الامبراطور بنفسه، فذبحت في طريقه الخراف وتعرّت أمامه العذارى وسجد لعظمته الملوك الأسرى وقبّل نعاله الأعيان، هتف الحكيم الجالس وراءه تكراراً: «لا تنسَ الموت يا قيصر. لا تنسَ الموت يا قيصر». وذلك حتى يتذكّر أنه تراب، فلا يغترّ بقوته، ولا يطغى ويبغى ويتجبّر!..

لقد كان للولايات المتحدة عدو مهادن وضريب منافس دمرته بنفسها ثم راحت تبكيه بعد تدميره، وهي تكذب على نفسها وعلى الآخرين بلسان حالها القائل: «يُبكى علينا ولا نبكي على أحد»..

من يستطيع اليوم أن يأتي للولايات المتحدة بضريب يحكم نصف العالم الذي خسرته كله؟!

١٩٩٧/٢/٢٦

(*) المعنى «تمنيتَ المنايا أي الموت عندما خسرتَ الصديق الصدوق والعدو المداجي، أي الذي يداريك في عداوته». وقد كان العدو السوفياتي يداري الولايات المتحدة كما نعرف.

هيلاري كلينتون والإسلام

في نهاية شهر رمضان الاسبق ١٤١٦هـ الموافق شباط (فبراير) ١٩٩٦م. اقامت الأميركية الأولى السيدة هيلاري كلينتون إحتفالاً تاريخياً في البيت الأبيض ضم أكثر من مئة عائلة أميركية مسلمة، وذلك لمناسبة عيد الفطر وللمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة.

وقالت التقارير الصحافية في حينه أن السيدة هيلاري التي عرفت بشخصيتها المميزة واهتمامها الدائم بالشؤون الاجتماعية والقضايا الإنسانية، انطلقت في إقامة ذلك الاحتفال من مبدأ المساواة بين اتباع الديانات السماوية الكبرى في اميركا، ورأت أن التقليد القديم الذي يقضي منذ عهد بعيد أن يحتفل كل من المسيحيين واليهود الاميركيين باعيادهم في البيت الأبيض برعاية الرئيس الاميركي وافراد عائلته، يجب أن يشمل المسلمين ايضاً، ما دام عدد المؤمنين بالمذاهب الإسلامية المختلفة في الولايات المتحدة قد تجاوز الثلاثة ملايين مواطن اميركي من العاملين في مختلف القطاعات الرسمية والخاصة.

وقد القت السيدة كلينتون في الاحتفال المذكور خطبة رائدة نقلتها وكالات الانباء واستهلتها بالعربية: «عيد مبارك. السلام عليكم ورحمة الله».

ومما جاء في تلك الخطبة حرفياً:

«أنتم هنا معنا اليوم لإحياء هذه المناسبة الإسلامية الكريمة، عائلات وإطفالاً، مثلما تاتي عائلات اميركية من ديانات أخرى إلى البيت الأبيض للاحتفال باعيادها».

«فنحن أمة مهاجرين طالما فاخرت بتنوع اديانها وتقاليدها، وهو التنوع الذي يصنع قوة اميركا وعظمتها».

«لقد ثبت أن الإسلام كان في الأعوام الأخيرة أسرع الأديان نمواً وانتشاراً في بلادنا، ونامل أن يستمر في إغناء مجتمعنا وتراثنا. كما نامل أن تحظى تعاليمه بفهم أوسع وأعمق من جانب المواطنين الأميركيين على اختلاف أديانهم وفئاتهم، ولذلك ابادر مع السيد الرئيس إلى تكريس الاحتفال بالأعياد الإسلامية في البيت الأبيض مناسبة تاريخية كان يجب أن تحدث منذ زمن».

«فانا مثل العديد من الأميركيين، تعرفت إلى الإسلام في مرحلة متأخرة،

لأن المعاهد والجامعات لم تكن تعنى أيام دراستي بالتاريخ الإسلامي وغيره من الأمور المتعلقة بهذا الدين، ولم يكن القرآن من جهة ثانية قد دخل البيوت الأميركية ومكتباتها. لكنني عندما تعرفت إليه استأثر باهتمامي وتقديري إلى حد بعيد».

«ولحسن الحظ أن هذا الواقع تبدل في أيامنا الحاضرة، وأصبح اهتمام الأميركيين بالإسلام جزءاً متمماً لثقافتهم. وخير دليل على ذلك تجربتنا العائلية. فقد تعلمت أنا وزوجي الكثير عن الإسلام بفضل ابنتنا تشيسلي التي درست تاريخ الإسلام السنة الماضية. وعندما سافرت معي إلى آسيا كانت تزودني بتعليقاتها ومعلوماتها عن الأماكن والمعالم والآثار التي نزورها».

وختمت السيدة كلينتون خطابها بالقول:

«يجب ألا ننسى الأولويات والقيم المشتركة التي تجمع بين الأديان. فالقرآن أنار حياة الملايين من البشر، وفي عدادهم أهل بيتي، وكلما تعرفت إلى مزيد من تعاليم الإسلام والديانات العظيمة الأخرى أذهلني التشابه بينها. لذلك يتعين أن نهتم أكثر فأكثر بالأمور التي تقرّب المؤمنين بهذه الأديان دون الأمور التي تفرقهم، كما يتعين ألا نسمح للمتطرفين باستغلال قيم الأكثرية من المؤمنين بأي دين. فقد رأينا المآسي التي تحدث عندما يستخدم الدين لأغراض سياسية، سواء في المسيحية أو اليهودية أو الإسلام. ذلك أن توظيف الدين في خدمة التعصب والتفرقة والعنف هو كفر برسالته الإنسانية وخيانة لأهدافه السامية».

* * *

وفي رسالة مسجلة على شريط فيديو بعثت بها السيدة كلينتون، بعد مرور شهر على ذلك الاحتفال أي خلال آذار (مارس) ١٩٩٦، إلى مهرجان الجنادرية الأدبي الذي أقيم في السعودية يومذاك تقول:

«صرت في الأعوام الأخيرة طالبة مجتهدة في العلوم الإسلامية. ويؤلمني أن يكون الغرب قد أساء فهم الإسلام إلى هذا الحد، وبنى أحكامه على تصرفات قلة ضئيلة شوهت صورته الحقيقية النيّرة».

* * *

قرأت الخطبة والرسالة في حينه وأودعتهما خزانة محفوظاتي بدون تعليق، تاركاً للأيام أن تحكم على صدق هذه المشاعر أو زيفها. وأول ما تبادر إلى ذهني، بعد كل ما عانينا ونعاني في العالم العربي، مسلمين وغير مسلمين، من ظلم الإدارة الأميركية وانحيازها إلى عدونا، أن الكلام الصادر عن السيدة هيلاري في المناسبتين، والاحتفال الذي أقامته في البيت الأبيض، يندرجان معاً تحت عنوان المجاملة والتودد للمسلمين الأميركيين،

بحيث يدلون بأصواتهم للرئيس كلينتون في الانتخابات الرئاسية التي كانت ستجري في خريف السنة ١٩٩٦.

ومن المؤسف أن حدسي وقع في موضعه. فقد مرّ شهر رمضان للسنة الحالية ١٤١٧هـ الموافقة ١٩٩٧م. ومر بعده عيد الفطر، دون أن تصدر عن البيت الأبيض دعوة إلى احتفال مماثل للذي جرى السنة الماضية وأعلنت السيدة الأميركية الأولى أنه أصبح تقليداً.

فماذا عدا مما بدا حتى وقف القطار عند المحطة الأولى في رحلة الألف ميل؟ وهل تسلل الكف الصهيوني الأسود إلى داخل العائلة الرئاسية الأميركية ليهدد الرئيس وزوجته بإثارة ما يسمونه فضيحة «وايت ووتر» إن أصرت السيدة الأولى على دراسة الإسلام ومعاملة المسلمين الأميركيين بالعدل والتفهم والحسنى؟! أم أن هيلاري كلينتون ذات «كيد عظيم» كما يصف القرآن المرأة المراوغة، وهو ما لا يصدّقه أحد، لأن كل من عرف تلك السيدة يقول إنها ذات خلق عظيم؟!

لقد ساورتني في الواقع شكوك عدة، حتى التقيت في بيروت منذ حوالي أسبوعين صديقاً لبنانياً يقيم في واشنطن أعربت له عن ازدرائي هذا الأسلوب الذي اعتمدته الرئيسة الأميركية في ابتزاز عواطف رعاياها المسلمين. فامتعض الرجل باعتباره يحمل الجنسية الأميركية، ووعدني بأن يتحرّى الأمر بواسطة بعض أصدقائه الصحفيين المتصلين بالبيت الأبيض فور عودته إلى الولايات المتحدة.

وبرّ الرجل بوعده، فاتصل بي هاتفياً قبل يومين ليقول: «إن الرئيسة مصممة على الالتزام بالتقليد الجديد. لكنها وجدت أن الفترة بين عيد الفطر وعيد الأضحى الذي يقع في نيسان المقبل لا تتجاوز الشهرين وبضعة أيام. لذلك قررت أن يجري الاحتفال هذه السنة بمناسبة الأضحى».

إن من يعش يَرَ. فاما أن نكون أسانا الظن بالرئيسة الأميركية ظلماً وافتراءاً، فحق لها اعتذارنا العلني. وأما أن تكون أساءت تقدير الأهمية التي علقها الرأي العام في الولايات المتحدة وخارجها على العهد الذي قطعته لرعاياها المسلمين، فتجاهلته وتغافلت عنه، وهو أسوأ من أن تكون غفلت عن ذلك العهد أو نسيته كلياً، لأن المتجاهل أظلم من الجاهل، والمتناسي أمض من الناسي، وكلاهما يجرح مشاعر الآخرين.

٥/ ٣/ ١٩٩٧

عدنان القصار ودولتنا القاصرة

في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي، انتخب السيد عدنان القصار رئيس غرفة التجارة الأولى في لبنان، نائباً لرئيس غرفة التجارة الدولية، وذلك خلال الجمعية العمومية لأعضاء الغرفة الدولية التي عقدت في مدينة انطاليا التركية، وشارك فيها ٧٣ دولة، بينها الدول الصناعية السبع الكبرى، ودول الطليعة الإقتصادية ذات الموارد الطبيعية الوافرة والمركز المالي الموثوق في مختلف القارات.

وقد تم في الإجتماع المذكور انتخاب السيد هلموت موخر رئيساً للغرفة الدولية، وهو رئيس مجلس إدارة شركة «نستله» السويسرية وأحد كبار رجال المال والأعمال في أوروبا، فخلف الرئيس التركي للغرفة السيد رحمت كوتش الذي انتهت مدته، كما انتخب القصار نائباً للرئيس الجديد بالإجماع.

وسيتولى الرئيس موخر ونائبه القصار منصبيهما خلال عامي ١٩٩٧ و١٩٩٨، فتنتهي ولاية الرئيس بنهاية العامين المذكورين، ويتولى حكماً بموجب قانون الغرفة الدولية، نائبه عدنان القصار، منصب الرئاسة، ابتداء من السنة ١٩٩٩ وحتى نهاية السنة ٢٠٠٠.

ولا بد من التنويه بأن هذه هي المرة الأولى التي يصبح فيها لبناني، أو عربي، نائباً للرئيس، وبالتالي رئيساً لغرفة التجارة الدولية، حيث كان يتناوب على هذين المركزين باستمرار رجال أعمال أوروبيون أو اميركيون.

وعلى أن هذا الحدث المفصلي في حياة لبنان الإقتصادية ومستقبل أعماره وازدهاره، كان موضع اهتمام كبير في الأوساط المالية والإنمائية، وقد بادر رئيس الحكومة والعديد من الهيئات والشخصيات المرموقة في عالم الأعمال إلى تكريم السيد عدنان القصار في أعقاب اختياره للمركز الدولي المشار إليه، فقد مر الحدث، مع الأسف، مروراً خجولاً في وسائل الأعلام الرسمية والخاصة، لسبب نرجح أن يكون غير مقصود، هو التقصير عن فهم أبعاده.

فبصرف النظر عن شخصية عدنان القصار ومركزه المميز في القطاع اللبناني الخاص، والخدمات التي اداها للاقتصاد الوطني في غرفة التجارة اللبنانية طيلة

عقود ثلاثة، ثم الجهود التي بذلها منذ العام ١٩٧٢، في توسيع دائرة النشاط الخاص بغرفة التجارة الدولية في العالم العربي، والشرقين الأوسط والأقصى، والبلدان الأفريقية، وأميركا اللاتينية، وغيرها، عبر اتصالاته الشخصية بمراكز التوظيف المالي خدمة للانماء، وترؤسه وفود الغرفة الدولية إلى مناطق عدة أو مشاركته في تلك الوفود...

بصرف النظر عن شخصية الرجل ونشاطه، فإن انتخابه هذا يعتبر العنوان الأبرز في مسيرة انهاض لبنان، بعد مؤتمر «أصدقاء لبنان» الذي عقد في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) الماضي في العاصمة الأميركية.

ولكي ندرك اهمية الحدث المشار إليه، لا بد من تسليط الضوء على المهام التي تضطلع بها غرف التجارة الوطنية، وعلى صعيد أوسع وأعم غرفة التجارة الدولية.

* * *

فقد ناط المشترع بغرفة التجارة التي يتم إنشاؤها بمرسوم، في المدينة أو المنطقة، مهتمين أساسيتين: الأولى تقديم المعلومات الدورية للحكومة المركزية حول أوضاع التجارة والصناعة والزراعة في دائرة عمل الغرفة. والثانية تقديم الإقتراحات والدراسات الخاصة بإنماء تلك العناصر المنتجة والمكونة للإقتصاد الوطني.

وإنطلاقاً من طبيعة هاتين المهمتين، تعتبر غرفة التجارة، التي هي في الوقت نفسه ملتقى المؤسسات التجارية والزراعية والصناعية جمعاء، كياناً عضوياً متوسطاً بين القطاعين الخاص والعام، يوفر لهما معاً أفضل وسائل الإتصال والتناغم والتعاون.

أما غرفة التجارة الدولية، فهي تتألف من ممثلي غرف التجارة الوطنية في كل من البلدان المنتسبة إليها، وتعتبر بالتالي مجلساً تمثيلياً لمختلف عناصر القطاع الخاص ومؤسساته الكبرى في العالم.

ولذلك تتمتع غرفة التجارة الدولية بسلطة استشارية توجيهية واسعة لدى الشركات والهيئات الإقتصادية العالمية، في كل ما يتعلق بالتوظيفات والمشاريع والاستثمارات، في مختلف البلدان. وكثيراً ما يلجأ المسؤولون في تلك المؤسسات إليها، ويعملون بنصائحها في توجيه أموالهم وتثميرها، مفضلين ذلك على إرشاد حكوماتهم التي تتصرف معظم الأحيان بوحي من اهدافها ومصالحها السياسية.

* * *

في ضوء هذه المعطيات تتضح اهمية أن يكون على رأس غرفة التجارة الدولية أو في هيئتها الرئاسية لبناني، ولا

سيما خلال الأعوام الأربعة المقبلة، نظراً لتأثير هذه المؤسسة عى القطاع الخاص في دول «مؤتمر أصدقاء لبنان»، مباشرة أو بواسطة غرف التجارة الوطنية العائدة إلى تلك الدول والمنتسبة عموماً إلى الغرفة الدولية.

وإذا كانت الدول التي شاركت في المؤتمر المذكور، هي دول مانحة، على صعيد حكوماتها، بنسبة ٥ في المئة من المليارات التي ستخصص لإنماء لبنان، فإنها في الوقت نفسه دول مستثمرة، على صعيد قطاعها الخاص، بنسبة ٩٥ في المئة من الكتلة النقدية المقررة والتي قد تصل إلى سقف الخمسة مليارات دولار. لذلك، فإن دور غرفة التجارة الدولية يتجلى هنا بأكبر قدر من فاعليته في اجتذاب رؤوس الأموال التي يملكها هذا القطاع الخاص العالمي وحثه على توظيفها في لبنان.

بعد هذا التقويم النظري الواضح لأهمية وجود عدنان القصار في نيابة الرئاسة، ثم في منصب الرئاسة لغرفة التجارة الدولية، وما يوفره حضور لبنان الفاعل في هذه المؤسسة العالمية من تثمير عملي وشيك لقرارات «مؤتمر أصدقاء لبنان»، نتوجس خيفة من الواقع الذي يصدمنا كل يوم في مسلسل الفضائح والزعازع الأمنية والسياسية المصطنعة، حتى لكاننا نهتك عرضنا بأيدينا، ونشوه سمعتنا بالإنفعالات والحرتقات الرخيصة، فنقول لأولئك الأصدقاء الذين أولونا الثقة قبل أن يمنحونا المال: ردوا أموالكم إلى مصارفكم، فإن أحداً لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والقاصرون الأغرار لا يؤتمنون على خزائن فرعون...

٥/ ٣/ ١٩٩٧

محكمة الأيام

قرأت في «السفير» بتاريخ ١٥/٢/١٩٩٧، مقالة للأديب السفير مصطفى الزين عنوانها «متى يصبح عندنا نيابة عامة ثقافية؟». وكان الكاتب والروائي المعروف الزميل إلياس خوري قد سبق إلى اقتراح «النيابة العامة الثقافية» بأسلوب آخر في «ملحق النهار».

وقد ركّز الكاتبان على ما أصاب الشعر والأدب والفن من لوث معيب أسقط هذه الأبراج الحضارية من فلك الإبداع إلى درك السخف والتفاهة والهذيان. إلا أن السفير الزين أسهب في شرح الفوارق الجوهرية بين من يطلب التجديد بأسلوب الفرادة المتالقة مع احترام الثوابت المانعة وشعائر الذوق العام، ومن يطلب ذلك من طريق العشوائية النافرة والانحراف المخبّل الذي يهتك الفكر والحس والذوق، غامساً قلمه في صديد القمامة، أو راسماً لوحاته بإبهام رجله.

وخلص الزين إلى أن الحرية التي تعتبر حجر الزاوية في العمل الأدبي والفني، على ما أوصى به الدكتور طه حسين في مواقع من كتابه «المعذبون في الأرض»، والتي هي في منطق ابن حزم والشافعي وابن رشد ومعظم الفلاسفة والمفكرين الأوائل والأواخر شرقاً وغرباً، فاتحة الاجتهاد ونبراس كل جديد يضاف إلى التراث الحي... هذه الحرية ليست في أي حال، ويجب ألا تكون، باب التخبط في المحال، والتلوث بعفراء البلاهة، بل محراث القريحة الخاملة ومحراب العبقرية الخلاقة.

وأنا فيما أعلن انضمامي الفوري بلا تحفظ إلى الدعوة التي أطلقها زميلنا إلياس خوري وتبناها السفير مصطفى الزين، لقيام نيابة عامة ثقافية تحيل مرتكبي جرائم التشويه والتقبيح، باسم الذوق العام، على قضاء مختص يعاقبهم بتحطيم الأقلام وقطع الألسنة، إن لم يكن بالزجر والحجر فبالكفّ والكمّ... لا بد لي من إبداء ملاحظتين حول تلازم حقيقتين:

الأولى أن صنائع الفكر والأدب والفن تكمل أو تضمحل وتذبل طبقاً لناموس التقدم والتقهقر في المجتمعات، وقياساً على ازدهار الأمم أو سقوطها الحضاري. وبعبارة أخرى نقول أن الحدائق والخمائل تحيط بمنازل العمران، كما تحيط بها المزالق والمزابل، في كل

زمان ومكان. لكنه بمقدار ما يسود الأخيار والسراة في المدن والقرى، بمقدار ما تزهر حدائقها وتبتسم رياضها وتضوع رياحينها. أما حيث يسود الفجّار ويضرى البغاة والأشرار، فتنتشر النفايات وينبت الشوك والعوسج، في القبور المأهولة والقصور المهجورة.

ولا سبيل إلى طلب الشفاعة من زنديق أو توخي الحماية من جبان. فالإناء ينضح بما فيه. وعندما يتحول المجتمع إلى كائنات بشرية رهلة متواكلة تعايش التثاؤب في شدق الردى بلا مبالاة، وتولم للكذب والظلم والزنى والشراهة والانحلال في تكيّة الوجود، بلا أمل ولا إحساس ولا حميّة أو تقيّة... هل يرتجى من ذلك المجتمع أدب وفكر وفن؟ وهل يمكن أن تكون قهقريته مصدر عبقرية؟!

ثم إن الشواهد التاريخية على ذلك أكثر من أن تعدّ. ويكفي إلقاء نظرة على روائع الشعر التي أغنت تراث العرب والإنسانية جمعاء في العصور العباسية الأولى، وكيف سقط الشعر في مستنقع المواليّا والدوبيت والزجل الإباحي والقوما وفن الحماق، وغير ذلك من ضروب الحماقة في عصور الانحطاط.

أما الحقيقة الثانية التي لا بد من إعلانها في سياق هذا التعليق، فهي فقدان المرجعية في مسألة «النيابة العامة الثقافية». فمن يحاسب من؟ وعلى أي أساس؟

أن ما نخشاه في معرض البحث عن رادع لهذه الفوضى، هو أن يراد بقضية الحق باطل، وأن يقودنا التفتيش عن نيابة عامة ثقافية إلى محاكم تفتيش ثقافية تعود بنا إلى جاهلية حرق المؤلفات الجريئة وصلب المصلحين والمجتهدين، في أمة جاهلة غافلة واغلة في النفاق والشقاق يستوي المحسن والمسيء في غيابتها الداجية، ولا فرق عندها بين مروج الذهب وخضراء الدّمن!

لذلك يبدو أن أفضل محكمة يحال عليها نتاج الحداثة الفوضوية والجراة العبثية هي محكمة الأيام.

﴿أما الزبد فيذهب جُفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾.

٥/ ٣/ ١٩٩٧

تركة الصعاليك للمماليك
في وطن التلوّث

حسناً فعلت جريدة «النهار» عندما أفردت صفحة يومية خاصة للبيئة والتراث، لأن هذا العنوان يختصر الحقيقة اللبنانية منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا.

فلبنان لم يكن يوماً، ولن يكون، امبراطورية عسكرية تفاخر بأمجاد السلاح، وتتقن فن الحرب للحرب.

وهو لم يكن يوماً، ولا يجوز أن يكون، أرضاً سائبة للقراصنة، يحتلون فيها المغاور والكهوف، ويقتسمون مكاسب النهب والسفك التي يغنمون في الغزوات البعيدة والقريبة.

كذلك لم يكن لبنان ولا يجوز أن يكون، إحدى جمهوريات الموز والشمندر، كالتي تسطو عليها عصابات المافيا في أفريقيا وأميركا الجنوبية والوسطى، ولن يسمح ابناؤه اليوم، كما لم يسمح آباؤهم بالأمس، أن يصبح بيتاً للدعارة، ترسو في موانئه السفن التابعة «لشركة الهند الشرقية» فيقدم بحارتها السكاكر للبغايا مقابل الحشيش والأفيون.

ثم إن الجميع يذكرون الشعار العبقري اللوذعي القائل «إن لبنان قوته في ضعفه»، وكيف انقلب في حمّى المؤامرة شعاراً آخر هو أن لبنان «قوة ضعفه في عنفه».

لكن ثمة مثلاً لبنانياً قديماً فُصّل على قياسنا يقول: «رزق العيمان صبياً بهياً قتلوه بالبقبشة». فنحن منذ الاستقلال، ننبش و«نبقبش» باحثين لهذا الوطن الذي ربحناه صدفة ودونما استحقاق، عن أقنعة وأزياء تشوّه صورته التي خلقها الله على مثال جنته، حتى مسخناه طرحاً من عجائب المخلوقات.

طيلة خمسين عاماً، نصبنا فيه للجدل العقيم سرادقاً وابتلينا أهله بالزندقة والسفسطة، فانقسموا حول هويته القومية وشخصيته الكيانية أيما انقسام، وكانت لآراء السلف وأوهام الخلف صولات في رباعه وجولات، حتى قيل إنه «وطن التنظير المثير»...

هتكنا حرمة أديانه بتجارة الحقد والكراهة والتعصب حتى أصبح «وطن الشقاق الطائفي والمذهبي الأعظم»..

وفتحنا أبوابه لأخلاط الشعوب والسوقة الأوباش ولصوص الغياهب من كل حدب وصوب، حتى غدا الطارئون أضعاف قومه النازحين، والغرباء ضعف أضعاف المقيمين، فقلنا بفخر واعتزاز انه «وطن الذين لا وطن لهم»!

لم نترك آفة إلا جلبناها إليه، ولا عاهة إلا خصصناه بها، حتى أطلق على السرقة اسم التجارة، وعلى السمسرة اسم الوساطة، وعلى الدعارة اسم السياحة، وعلى التهتك اسم التمدن، وعلى الاحتكار اسم الازدهار، وعلى الاحتيال اسم الشطارة، وعلى الزور اسم القانون، وعلى الخساسة اسم السياسة، وعلى التقليسة اسم السلطة.

ولا تسل عما فعلنا ونفعل كل يوم لحماية البيئة والطبيعة، وفي سبيل المحافظة على التراث (...).

فالماء ملوث أباديده تجري إلى حيث لا تنفع ولا تُثري. والشجر تلتهمه مناشير الكهرباء إن وفّرته نيران الحرائق، أو تسحقه بلا رحمة عمارات الإسمنت. اما الخضار فتسقى من المياه المبتذلة التي كثيراً ما تمتزج بمياه الشرب عبر التمديدات والشبكات المهترئة العائدة أحياناً إلى أيام العثمانيين، وربما إلى زمن الرومان... وأمّا العوسج والقندول والعليق والزعرور فترفع اعلاماً بيضاء من محارم الورق التي يوزعها «الشعب العنيد» على امتداد الطرق.

وحش الكسارات يفترس الأودية الخضراء والجبال السامقة، كما ينسرب الطمي الأحمر من المقالع والمرامل إلى الأنهر والسواقي، بانتظار مخطّط توجيهي ينقل الوباء من منطقة إلى أخرى ويبدو أسوأ من الفوضى التخريبية. وإذا قلنا أن الاستيراد أوفر من إنتاج الغبار والتصحر والموت، بادرت جيوب المنتفعين إلى مظاهرة احتجاج، وتظلم المستكبرون الكافرون الذين تعودوا استخراج الذهب من الحصى.

ولا ننسى النفايات الصناعية المدفونة في القمم والشطئان، وما توزع من أشعتها النووية وسوائلها الكيميائية على المياه والفاكهة والطيور والاسماك، في بلد لا تتجاوز مساحته العشرة آلاف كيلمتر مربع. وقد تعين على وزير البيئة، الذي لا يكاد يكفي جهازه وصندوق وزارته لتنظيف قرية متوسطة من نفاياتها المنزلية المتروكة في العراء، أن يقول لجبل برج حمود: انتقل. فينتقل بقوة الإيمان... ولمستوعبات المانيا وإيطاليا وإسرائيل وغيرها: قومي من الأضرحة التي دفنوك فيها خلال حرب الأشاوس، فتقوم بلا تردد... أو تزحزَحي عن أرصفة المرفأ وعودي من حيث أتيتِ، فتتحرك فوراً وتعود أدراجها إلى بلدان منشئها!...

إن مجلداً من الف صفحة يعجز عن

احتواء مآثرنا البيئية وشواهد فضلنا الذي غمر الطبيعة وأحياها في وطن الصحة والنظافة والجمال (...) وأما بشأن تراثنا المحروس وكنوزه المرصودة فحدِّث...

هنا قلعة أثرية نادرة كالمسيلحة العائدة إلى القرون الوسطى تزلزلها كسارة في نهاية القرن العشرين... وهناك مثلها قلاع حوَّل بدو الحضارة حجارتها الدهرية إلى أثافٍ لمواقدهم - كما يصف ابن خلدون صنيع الأعراب بالآثار - وسطا أعيان هذا الزمان الوغد على زخارفها وأعمدتها الرخامية لتزيين قصور بنوها من مدخرات شعب بائس بائس جهّلوه فأفقروه بعدما عجزوا عن ترحيله وإبادته.

ولا أستثني من هذا العدوان المغولي الهمجي حجارة بعلبك وصور القديمة وجبيل وصيدا وطرابلس وبيروت، حيث يترصد لصوص الآثار قطعاً فنية لا تقدر بثمن يحملونها إلى أسواق التحف العالمية في لندن ونيويورك وباريس، بتسهيلات جمركية وأقدار مطاوعة من الغيب.

ناهيك أن التراث ليس حجارة فقط. بل هو كتب ومخطوطات فريدة، وجواهر، وأصداف، وصفوات عنبرية، وموام، وآنية ذهبية، وفضيات مدمجة بالنقوش، ومزاهر، وتماثيل، وبوابات ومشربيّات، وأغلاق وأقفال، ومصابيح وثريات...

كل هذا التراث ينتقل هكذا، من حضيض البركة ومربد الغباوة في أرضنا المحروقة، ليستقر في متاحف العالم وقصور أغنيائه... ولا من يسأل أو يتحرى أو يطالب.

* * *

أين «لبنان المزبلة» من لبنان المعجزة الذي ألهم الشعراء وأدهش الرحالة القدماء والمحدثين؟!

أين رائحة القمامة من أريج تفاحه الذي يشبه به أبو نواس عبير الخمرة:

سُلاف دَنٍ إذا ما الماء خالطها
فاحت كما فاح تفاحُ بلبنان

وأين ماء رشعين الملوث من ذلك الماء القراح الذي حنّ إليه الخرساني الطرابلسي الأصل حيث يقول:

وكيف التذاذي ماءَ دجلةَ مُعرقاً
وأمواهُ لبنان ألذُّ وأعذبُ

أو تمناه الحسن بن زين الدين الشامي حيث يقول:

لا يسكن الوجد ما دام الشباب ولا
تصفو المشاربُ لي إلا بلبنان

لبنان الأشم الأعزّ الذي قال الرسول أنه: «أحد الأجبل الأربعة التي تسمك الجنّة»، حولوه بؤرة نفايات رغم أنف بدوي الجبل:

كأنما الشُمُّ من لبنان في سَفَر

البدر يقرب والغبراء تبتعدُ

ورغم أنف البحتري:

تلفتْ من عليا دمشقٍ ودوننا

للبنانَ شمٌّ كالغمام المعلّقِ

ولبنان الصخر الأبيض الأملس المتألقة شناخيبه بالجلابيب الخضر، والمضمّخة كهوفه بمباخر النسّاك، طحنوه بكساراتهم لبناء عمائر شواهق سوف تسقط في القارعة فلا يسكنها أحد منا ولا من أبنائنا.

وذلك الصخر الذي كان مضرب المثل في الصلابة والخلود، كما في قول أبي دهبل الجمحي مادحاً أحد ولاة الأمويين على اليمن:

وإن شكرك عندي لا انقضاء له

ما دام بالجزع من لبنان جُلمودُ

وقد انقضى شكر الجمحي لممدوحه بعد ألف من السنين، عندما فجّروا، مع الأسف، ذلك الجلمود وطرحوه مسحوقاً في جوف أخدود...

* * *

* الألماني مارتن بومغارتن (Martin Baumgarten) سنة ١٥٠٨.

* الفرنسي بيار بيلون (Pierre Belon) سنة ١٥٤٨.

* والنمساوي سليمان شفيغر (S.Schweigger) سنة ١٥٨١.

* والليتواني رادزيفيل (N.C.Radzivil) سنة ١٥٨٣،

* ثمّ الفرنسيون: مونكوني (Balthazar Monconys) سنة ١٦٤٧، ودي مونسو (de Monceaux) سنة ١٦٧٠، وجان دي لاروك (Jean de la Roque) سنة ١٦٨٩، وغيرهم.

* وبعدهم الهولنديان: فان إيغمونت (Van Egmont)، وهايمان (Heyman) سنة ١٧٢٠.

* والبريطانيان الألمعيان: وود (Wood) وداوكينز (Dawkins) سنة ١٧٥٢.

* والفرنسي فولناي (Volney) سنة ١٧٨٣.

* وأخيراً السويسري الألماني جون - لويس بوركهاردت (J.L. Burckhardt) سنة ١٨١٠، والفرنسي إرنست رينان (Ernest Renan) سنة ١٨٦١.

هؤلاء الرحالون والكتّاب والعلماء الباحثون، والمئات من أمثالهم الذين وفدوا على لبنان طيلة القرون الخمسة الماضية، وقفوا أمام هياكل بعلبك وآثار لبنان الفينيقية والرومانية والبيزنطية والإسلامية، فكتبوا ألوف المجلدات، أبحاثاً ودراسات وانطباعات، تحتوي صفو التأمل والاعتبار في حضرة المعالم التراثية اللبنانية الخالدة.

لم يكن همهم فيما تنكبوه من تدوين

الحضارة أن يكرموا الحاكمين سعيداً في السرايات، ويمتدحوا مآثر السلطان وخصيانه أو الداماد وجواريه، ولا أن يتذوقوا السفيحة البعلبكية، والكبة الإهدنية، والتبولة والفتوش والعرق الزحلاوي، أو يعجبوا لزي الدليل والدالول، في غرة الشرق وباب سوريا والطريق إلى تدمر والفراتين.

لقد عكفوا على المخطوطات النادرة والآثار الساحرة دون الخطب الباهرة والبيانات القاصرة، ولا أذكر أن أيا منهم أوصى بالتسوق شهراً للتعويض عن تسوّل دهر(*)...

لكنهم أكبروا ولاء الحاكم لرعيته قبل ولائها له، وذلك في هوامش وصفهم للبنان وبهاء طبيعته، وكرامة أهله، وفردَوْسية جنانه، فقالوا إنه واحة الأمن وبستان الدنيا، على مانطق به الشاعر لامارتين في حضرة الأمير بشير الشهابي الثاني يوم استقبله في قصر بيت الدين، ودوّنه في كتابه «رحلة إلى الشرق»:

«إن العدالة التي أرسيتها في هذه الجبال الشامخة المقدسة أيها الأمير، والأمن الذي أشعته في المدن والقرى التابعة لإمارتك، وما عاينته خلال رحلتي في وجوه الناس من ثقة وطمأنينة، وهم يلهجون بحكمتك وحلمك وعدلك وضيافتك، أوصلتني إلى هذه الدار العامرة بلا خفر ولا حرّاس، فكانت لي نزهة في الشطئان الساحرة والجبال الكابرة التي تحميها سيوفك ويحميك الولاء والحب الكامن في قلوب أبنائها».

* * *

نعم. إن لبنان بيئة وتراث وأمن، ليس إلاّ.

وهو بحكم الظروف الراهنة قد يكون أيضاً مقاومة حتى الجلاء.

فبالله، علام كل هذه الدواوين والدوائر والمجالس والمؤسسات والإدارات، وكل الهرج والمرج والمال المهدور والخبط الموصول والجهد المبذول؟!

ثلاثون وزارة ومئات الأقسام والمصالح والدوائر، وأربعمائة ألف موظف يأكلون مما لا ينتجون... وفساد إداري، وأزمات إجتماعية، وكوابيس...

عندما ينفذ المقدر، ونهاجر كلنا في أجل مسمّى، ولا يبقى في هذا البلد إلا العدو المنتقم يصارع سلالة نبوخذنصر فيصرعه ياجوج وماجوج، سوف نذكر ونحن جالسون على أرصفة سيدني وستوكهولم ونيروبي وباريس وسان فرنسيسكو وبكين وأوتاوا، إنه كان بوسعنا في زمن الطوارئ الذي نحن فيه، أن نختصر مجلسنا المؤلف من ١٢٨ نزيلاً في منتجع ساحة النجمة، بنخبة من عباقرة شعبنا لا تزيد على ٢٥ مترهباً لخدمة الوطن، وأن نختصر حكومتنا بسبع

وزارات: واحدة للمقاومة إلى حين وللأمن في كل حين، وأخرى للتعليم والتنشئة الوطنية، وثالثة للاقتصاد والمال، ورابعة للثقافة والبيئة والتراث، وخامسة للمغتربين والعلاقات الخارجية، وسادسة للإنماء والإعمار، وسابعة للبنى التحتية والخدمات.

فكل ما زاد عن ذلك هدر وتعقيد واشتراكات من شأنها أن تعجّل في موت المريض!...

* * *

يوم ألقت الحرب أوزارها، نادى المنادي: «يا صعاليك الوطن ارتحلوا»... فتفرقوا أيدي سبأ، ولكن إلى صناديق غنائمهم في بنوك أوروبا وأميركا...

واليوم قبل أن يلقي السلم العاثر أوزاره بدأ المنادي ينادي: «يا مماليك الوطن اتحدوا»! فيجيب صوت متهدج في الصحراء: كان عندنا صعاليك، هتكوا وسفكوا وسرقوا، وهم يتمتعون بما غنموا. أما هؤلاء المماليك فمجموعة مساويك لأضراس الافتراس، ومساميك لخيمة الاحتراس!

ويرتفع الصوت في البرية هاتفاً: أنا لا أطلب قوماً يؤمنون بالأنبياء والأولياء والقديسين، بل قوم يقاتلون حتى الموت في سبيل كرامتهم وقوت عيالهم، ويقايضون الرصيف بالرغيف والتواكل بالتوكل...

يهتف الصوت ويرتفع ويدوي، ثم ينتظر الجواب، فلا يسمع إلا الصدى!

١٢/ ٣/ ١٩٩٧

(*) إشارة إلى «شهر التسوّق» الذي أعلنت عنه الدولة يومذاك لبعث الحركة التجارية والسياحية.

العصا الغليظة والعازل المعزول

القرار الذي اتخذه الفاتيكان بإقامة علاقات ديبلوماسية مع ليبيا، هو فصل رئيسي جديد في كتاب التحرر الأوروبي من الوصاية الأميركية، وإدانة بارزة لسياسة «العصا لمن عصى» التي تعتمدها واشنطن في التعامل مع العالمين العربي والإسلامي منذ انهيار الاتحاد السوفياتي.

وإذا كانت المواقف الأوروبية الرافضة لمنطق الفيل الأميركي الأعشى، تندرج حتى الآن في إطار التململ والانزعاج، فلا يعني ذلك أنها لن تتحول في الأوان المناسب إلى عصيان، ما دام الفيل يسحق الأرانب والسناجب بخفافه الغليظة ولا يميز بين السلاحف والأفاعي، ثم يسلط خرطومه كيفما اتفق على الخيل والإبل والسوائم والضواري في مزرعته العالمية المترامية.

أما سبب هذا التخبط العشوائي الذي يقترن الظلم في سياقه بالحسابات الخاطئة والقرارات المترددة، فيعود إلى أن سياسة واشنطن تتحرك في دائرة من العقد النفسية أبرزها ثلاث:

* العقدة الأولى هي التي تحكم العلاقة بين الولايات المتحدة وكل من الصهيونية وإسرائيل، ويمكن أن تسمى «عقدة الافتتان» (Envoutement)، كأن يذهب المرء في عشقه وافتتانه إلى حد الجنون، فيخضع لمعشوقه خضوع المتيّم المسحور ويصبح أداة طيعة في قبضته يتصرف بها كما يشاء. وقد يمر العاشق المفتون بحالات أو خطرات عابرة من وضوح الرؤية وانتعاش الضمير والرجوع إلى الذات، لكنها سرعان ما تخبو وتخفت وتزول، فتعود العلاقة بين الفاتن والمفتون سيرتها الأولى.

ولعل أقرب الأمثلة على ذلك هو الارتباك الأميركي الحاصل في موضوع القدس وجبل أبو غنيم. فبعد أن رفض الرئيس كلينتون تكرار قرار الكونغرس بنقل السفارة الأميركية إلى أورشليم، ظهرت في الأسابيع الأخيرة تحفظات واضحة من جانب واشنطن إزاء مشاريع نتنياهو الاستيطانية، فقالت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت في حديث علني «أن موضوع القدس بالغ الحساسية يحتاج إلى مزيد من الدرس في الأوان المناسب»، وقال نيكولاس بيرنز

الناطق بلسان الخارجية الأميركية «أن الولايات المتحدة تنظر بقلق إلى سياسة الاستيطان التي تعتمدها الحكومة الإسرائيلية في أورشليم، وهي تفضل حل الخلاف مع السلطة الفلسطينية حول هذا الموضوع في إطار اتفاقات أوسلو».

ولكن، بين طرفة عين وانتباهتها، انقلبت هواجس المفتون الأميركي حماسة للفاتن الإسرائيلي، فاستعملت واشنطن حق النقض في مجلس الأمن ضد مشروع القرار الأوروبي الرادع، ثم عادت تستدرك الأمر باشتراك خجول في مؤتمر غزة، ومحاولة تأجيل لعمل الجرافات في جبل أبو غنيم لم يحفل بها نتنياهو ولا أقام لها أي اعتبار.

* أما العقدة الثانية التي تميز العلاقة الأميركية بالعالم القديم سواء في أوروبا أو الشرقين الأوسط والأقصى، فهي ما نسميه تجاوزاً «عقدة نابليون»، كأن يتحكم بتصرفات إنسان متفوق أصله المتواضع، وهي مزيج من إحساس بالنقص وإدراك للقوة الذاتية. إنها عقدة البورجوازية تجاه الأرستقراطية ورجل المال والأعمال المغامر تجاه الملاّك العقاري المستقر.

سميّتها «عقدة نابليون» لأن هذا القائد الجبار الذي ولد في عائلة كورسيكية متوسطة، لم يكن يهدف من خلال حروبه الدامية وانتصاراته الساحقة إلى تأمين مصالح فرنسا بمقدار ما كان يرمي إلى تأكيد شخصيته وتغطية نسبه البورجوازي العادي بإذلال الملوك وتدمير العروش التي حكمت أوروبا مئات السنين. وكان الانتصار الأعظم في نظره هو أن تعرض عليه أخت قيصر روسيا مثلاً، فيرفضها ويتزوج بنت امبراطور النمسا، وأن ينصب أخاً له ملكاً على الإسبان، وآخر ملكاً على الطليان، ويعين قادته العسكريين وأخواته الحسناوات أمراء وأميرات على الدول والشعوب التي أخضعها!

الحقيقة أن معظم الأميركيين البارزين وكوادر دولتهم يعانون «عقدة نابليون». فهم الجبابرة الأقوياء الذين وصلوا إلى سطح القمر وتدخلوا في حركة الكواكب، لكنهم يدركون أنهم لا يزالون في سن المراهقة باعتبار أن تاريخهم لا يرقى إلى أكثر من ٥٠٠ سنة، ولذلك ينتابهم شعور بالنقص والإحباط أمام الحضارة الصينية مثلاً، التي تمتد جذورها إلى أبعد من سبعة آلاف سنة، أو الحضارة الفرعونية التي تعود إلى خمسة آلاف، أو الحضارات الهندية والفارسية واليونانية والرومانية والبيزنطية والإسلامية، أو حتى الأوروبية، وكلها واغلة في القدم. وإذا كان الأميركيون يحرصون على التراث العبراني ويتمسكون به، فلأن الصهيونية

أهدت إليهم التوراة على أنها أقدم أثر كتبي خطه إنسان، فسيطرت على مشاعرهم بجاذبية القديم، وشفت غليل حداثتهم بسراب الانتماء - ولو بالتبني - إلى مدنيّة قديمة يجدون في أسفارها الدهرية بديلاً عن دوّامة جديدهم.

وقد انعكست هذه العقدة الوجودية الانتمائية على سياسة أميركا وتعاملها مع الحضارات القطبية في العالم القديم، فكانت تقع دائماً في تناقضات خطيرة كلما تضاربت مصالحها السياسية والاقتصادية مع دفاعها عن الليبيرالية والديموقراطية وحقوق الإنسان، وخير مثال على ذلك موقفها من الصين. لكنها بالأخص لا تعرف حتى الآن كيف تتعامل مع أوروبا والفاتيكان والعالم العربي والإسلامي، بسبب العقدة الثالثة.

* هذه العقدة الثالثة هي «عقدة أوديب» (Oedipe) فالأميركيون جميعاً، من كبار المسؤولين إلى آخر من يصطاد الفراء في ولاية مونتانا، يضاجعون أمهم الساكسونية وأمهم اللاتينية، ويكرهونهما في الوقت نفسه، لأن اللذة تستتبع الألم والندم.

بريطانيا هي الأم الساكسونية الماكرة التي طردوها من بيتهم في القرن الثامن عشر، ولا تزال تقض مضاجعهم وتعذب ضمائرهم في عزلتها المازوشية المصطنعة، وهم لا يستطيعون أن يجحدوها أو يتنكروا لدمائها الخاثرة التي تجري في عروقهم وتسد تلك العروق من حين إلى حين.

وأوروبا اللاتينية الجرمانية المكابرة هي الأخت التي نهبوا ممتلكاتها في شمال القارة الأميركية وجنوبها، ولا تزال تطاردهم بالكوابيس في منامهم المضطرب القلق، ولا يعرفون كيف يسيطرون على مثاليتها التي ترفض براغماتيتهم.

ومما يزيد في متاعب أميركا خلال تعاملها المتوتر مع هذه الأخت اللاتينية الساكسونية من جهة، وخضوعها الإفتتاني لمعشوقها الصهيوني الإسرائيلي من جهة ثانية، هو ذلك الوفاء الذي تكنه أوروبا للعرب والمسلمين الذين تجاورهم منذ أقدم العصور، وتتفاعل معهم تفاعلاً متكاملاً بحكم العلائق الجغرافية والتاريخية والثقافية، كما تدين لهم بالتمدن الذي حملوه بأمانة إلى أصقاعها المتوحشة ومجتمعاتها البربرية في القرون الوسطى، وهو تمدن لولاه لما حدثت نهضة أوروبا ولا تم اكتشاف أميركا نفسها.

إن الولايات المتحدة لا تفهم، وإن كانت تتحسس بما يقارب الفهم، لماذا يحرص الأوروبيون على التعاون بين دول البحر المتوسط، أو لماذا يتمسكون بحقوق الفلسطينيين في القدس، أو يعملون على

إقامة علائق متوازنة مع إيران. فالمتوسط في قاموسهم مساحة جغرافية أصغر من خليج المكسيك، والقدس مدينة متواضعة سكانها أقل من سكان لاس ڤيغاس، وإيران دولة إرهابية بالمفهوم الإسرائيلي للإرهاب، وكذلك ليبيا وسوريا والعراق إلخ...

* * *

ومهما يكن من أمر، فقد اتسع الشرخ تدريجياً بين ضفتي الأطلسي في الأعوام الأخيرة إلى حد لم يسبق له مثيل. ذلك أنّ أوروبا تعتبر «الإثم النازي» بحق اليهود وجرائم المحرقة الهتلرية، مسائل عفّى عليه الزمن بمرور نصف قرن، ولا يعقل أن يحمل الأوروبيون وزر المحارق المزعومة ودماء الضحايا إلى الأبد، مع العلم أن «الإثم النازي» لم يقتصر على اليهود وحدهم، بل طاول المجتمعات الأوروبية كلها وأزهق أرواح الملايين من أبنائها. أما الأميركيون فلا يرون هذا الرأي، وهم ملتزمون مبدأ الكفّارة الأبدية «لشعب الله المختار».

وإذا كانت أوروبا تعترف للولايات المتحدة بإنقاذها من العدوان الجرماني في الحربين العالميتين حيث خسر الأميركيون مئات الألوف من شبابهم في المعارك، وبالرغم من ذلك بادروا إلى إعمار أوروبا في نهاية الحرب العالمية الثانية، فلا يعني ذلك أن الوفاء والعرفان يجب أن يشل إرادة أوروبا ويعطل قرارها المستقل أكثر مما فعل طيلة خمسين سنة. ثم إن هنالك تبرّماً أوروبياً وتذمراً واضحاً من أحكام العزل المطلقة التي يصدرها الأميركيون على دول تربطها علائق مميزة بأوروبا، أو على شخصيات عالمية بارزة يكن لها الرأي العام الأوروبي كل تقدير واحترام، كما أن هنالك انزعاجاً من السيطرة الأميركية على أوروبا عبر حلف الأطلسي والاحتكار الأميركي للقيادات العسكرية حتى في المتوسط وجنوب القارة، والمحاولات التي تقوم بها واشنطن لعزل روسيا بعد زوال الاتحاد السوفياتي، وهي أمور تتفاعل باستمرار وتعمق أزمة الثقة بين الفريقين.

لذلك كله، وما يداخله من تضارب المصالح المادية في معظم الأحيان، يبدو أن السلطة الأعلى في القارة الأوروبية، أعني الفاتيكان، عزمت على فك الطوق الأميركي بأسلوبها الحازم الهادئ. ولو استثنينا الرئيس الفرنسي جاك شيراك، وبعض السياسيين والإعلاميين البارزين، فإن معظم القادة والزعماء الأوروبيين يتحرجون مما يغضب واشنطن أو يكشف أمامها الحقائق المرّة ويدينها بأخطائها. ولكن البابا لا يتحرّج على الإطلاق، باعتباره يرعى مئة مليون مؤمن ومناصر في عمق الولايات المتحدة نفسها، وألف مليون مؤمن ومناصر من الكاثوليك

في العالم. نصفهم على الأقل منتشر في جنوب القارة الأميركية وشمالها.

إنه التحدي الفاتيكاني الذي ترهبه واشنطن وهي مدينة له في أي حال بفتح أبواب موسكو أمامها انطلاقاً من بولندة.

وقد قال الحبر الأعظم كلمته أخيراً وكلمة أوروبا في موضوع القدس عبر شجبه عملية الاستيطان ومشروع هارحوما بالتحديد.

وقال كلمته في حظر السفر إلى لبنان يوم حدد تاريخ ١٠ أيار (مايو) موعداً لزيارة هذا البلد. وقال كلمته في عزل سوريا، عبر الزيارة التي قام بها وزير خارجيته جان لوي توران إلى دمشق مع وفد من كبار معاونيه.

وقال كلمته في عزل كوبا يوم استقبل زعيمها الثائر الملحد فيدل كاسترو.

وقال كلمته أخيراً لا آخراً، في عزل ليبيا، بتعيين سفير له في طرابلس رغم القرار الذي أصدره مجلس الأمن بتجديد الحظر الجوي على الجماهيرية.

ولا نعتقد بأي حال، أن السفير البابوي الأسقف «خوسيه سيباستيان لابوا» سيتوجه إلى مقره في العاصمة الليبية على متن مركب شراعي أو على ظهر الجمل، بل سيكون أول من يخرق ذلك الحظر الجوي الجديد بركوب الطائرة والتحليق بمنتهى الأمان فوق الأسطول الاميركي السادس الذي يتحول يوماً بعد يوم من عازل إلى معزول في البحر الأبيض المتوسط، وارث الحضارات العظمى ورائد التمدن البشري.

١٩/ ٣/ ١٩٩٧

مارد الاستنساخ

ليس الاستنساخ النباتي والحيواني أو حتى الإنساني تدخلا من جانب المخلوق في عمل الخالق، لأن عملية النسخ ليست عملية خلق على الإطلاق.

فالاستنساخ في تحديده العلمي هو انتزاع خلية أو مجموعة خلايا من خلية حية أصلية بالوسائل المخبرية، فتاتي الخلية المستنسخة بالتالي مطابقة كلياً في خصائصها الشكلية والجوهرية لتلك الخلية الأصلية.

أما الخلق فهو إحداث الخلية الأصلية بالذات، وتقرير خضوعها تلقائياً بالسجية والطبع، لناموس وراثي يحمي السلالات الحية من الانقراض بموت عيناتها المفردة في أجل مسمى.

لذلك لا يجوز الخلط بين استنساخ الكائن الحي الذي بات في متناول العلماء - خصوصاً بعد استنباط النعجة «دولي» مؤخراً في اسكوتلندة من خلية نعجة أخرى - وبين خلق الحياة الذي هو عمل الله وحده.

ولا بد من التنويه في هذا المجال بأن سماحة السيد محمد حسين فضل الله ربما كان المرجع الديني الوحيد الذي تنبه إلى هذا التمييز الأساسي بين النسخ والخلق في تفسيره القرآني الاسبوعي، دون سائر المرجعيات الروحية والسياسية. ولكن المطالبة بتحريم الاستنساخ من جانب معظم القيادات في الدول والمؤسسات الدينية، سواء أكانت مسيحية أو إسلامية أو يهودية، هي ذات أسباب وأبعاد تاخذ في الاعتبار التاثير السلبي لهذا الإنجاز العلمي على الأنظمة الأخلاقية والقانونية، عندما ينتقل النسخ من حقل التجارب المخبرية إلى حقول أعم وأشمل في الاستثمار الصناعي وغيره، وهو ما ألمح إليه العلامة فضل الله في مطالعته بقلق واحتساب.

ومهما يكن من أمر، فإن الخطر الأكبر في مسألة الهندسة الوراثية يكمن بالدرجة الأولى في استحالة المراقبة الفعّالة لممارسة الاستنساخ بحيث لا يتحول إلى ورم خبيث وسلاح فتاك يتحكم بمصير الأجناس والأعراق ويستخدم وسيلة إبادية من جانب القوى المستكبرة التي تأتم بجاذبية الحرب.

فقد وصل التقدم العلمي في تطوير الجنات ونسخها إلى مرحلة متقدمة جداً

على صعيد زراعة الحبوب، وخصوصاً الذرة المستنسخة التي يصعب تمييزها عن الذرة الطبيعية، كما لا تعرف حتى الآن مؤثراتها على صحة الإنسان، مع العلم أن زراعتها انتشرت بسرعة مذهلة في أوروبا وأميركا لوفرة إنتاجها وكثافة نموها، الأمر الذي حدا بالوزير الأول آلان جوبيه إلى منع زراعتها في فرنسا بموجب قرار صدر في ١٢ شباط (فبراير) الماضي، فيما أجازت المفوضية الأوروبية بيع محاصيلها فقط على مسؤولية المستهلك بعدما ألزمت المنتجين بأن يمهروا أكياسها وحاوياتها التجارية بإشارة توضح كونها ذرة اصطناعية.

وفي كل يوم تظهر كشوف علمية جديدة على هذه الصعد تحتاج إلى وقت طويل في التداول والتسويق للتأكد من أضرارها أو منافعها، بحيث يتمكن المشترع من استنان القوانين المتعلقة بها. من مثل ذلك ما توصلت إليه مجموعة من العلماء الفرنسيين في استخراج مادة «الإيموغلوبين» الأساسية في تكوين الدم من أوراق التبغ.

وهنالك لائحة من المستحضرات العلاجية والعقاقير الطبية تضخمت في الأعوام الخمسة الماضية ولا تزال في تزايد مستمر، وكلها مؤلف من مواد ناتجة عن تدخل العلم في الجنات النباتية والحيوانية بالزرع الأنبوبي (in vitro) وسائر التقنيات المخبرية الحديثة. لكن أحداً من العلماء لا يستطيع الجزم بأن استخدامها سيحول المرضى إلى أصحاء أو يشوه الأصحاء ويمسخهم كائنات عجائبية.

* * *

الاستنساخ؟ نعم. ولكن بكثير من الحذر والأناة. فيوم اكتشف العالمان الفرنسيان بيار وماري كوري طاقة «الراديوم» المشعة سنة ١٨٩٨، أي منذ مئة عام وعام، وبدأ استخدامها بفعالية مع سائر المواد المشعة المتفرعة عنها، في التشخيص والعلاج، للقضاء على أمراض وأورام مستعصية، لم يكن أحد يتصور أن عدم الإحتراس من تلك المواد يسبب السرطان وأن ماري كوري نفسها ستموت بهذا المرض الغامض الذي تكاثرت خلاياه في جسمها من جراء تعاملها الطويل مع «الراديوم»، وأن إخوة «الراديوم» وأبناء عمه كاليورانيوم والبلوتونيوم، وغيرهما، سيبتلون البشرية يوماً بالسرطان النووي الذي يهدد انتشاره العالم بالزوال حرباً أو سلماً.

ذلك أن المارد المخالف لطبيعة الأشياء والأحياء، الذي يخرج من قماقم المختبر، يتحول دائماً إلى إعصار يسحق الإنسانية ويصدمها بالخوف والهول والإحباط، وكثيراً ما تكون آفاته أخطر من ظاهر فوائده وأدهى. وانطلاقاً من هذه

الحقيقة نفهم الأسباب التي دفعت الفرد نوبل مخترع الديناميت إلى وقف ثروته بعد يقظة ضميره على تمويل جوائز تخدم السلام.

وإذا كان العالم قد عجز حتى الآن عن فرض شرعة الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان على المجتمع الدولي، ولا يزال بعد مرور خمسين سنة على حرب قتلت خمسين مليوناً، غير قادر على رد المعتدي وردعه، أو منع الإبادة وكبح مفاعلات الحرب، وضبط النظام العالمي المتلبس بمنطق القوة وشرعنة الظلم... فكيف نطمئن، في ظل الفلتان الدولي المستشري، إلى أن معجزة الاستنساخ لن تحدث بعد عشر من السنين أو أقل، ديناصورات بشرية أو حشرات عملاقة في هذه المنطقة أو تلك، ولن تحوّل الأرض والكواكب التي يستعمرون، أوطاناً يسكنها أشباه «السيكلوب» بعد أن تفنى سلالة يوليس؟!

صحيح أن النسخ هو استحداث مخلوق من مخلوق وأن الخلق هو استحداث مخلوق من مجهول. ولكن كيف السبيل إلى إقناع الوحش المسمى ابن آدم الذي لم يتمالك نفسه عن أكل تفاحة حواء، فطرده الله من الفردوس... كيف السبيل إلى إقناعه بالامتناع عن تشويه صورة خالقه بعدما عصى إرادة خالقه ولا يزال ينازعه الحق في الخلق؟! وهو تراب هزيل ضئيل سريع العطب يقول الإمام علي: «تؤلمه البَقّة، وتُنتِنه العَرْقة، وتقتله الشَرقة».

١٩/ ٣/ ١٩٩٧

الراعي الأميركي واغتيال عملية السلام في «هارحوما»

علّمتنا التجارب في النصف الثاني من القرن العشرين أن التظاهر بالصفح والمهادنة من مركز القوة والحصانة يحقق لصاحبه انتصارات ومكاسب لا يحقق أدناها التظاهر بالعنف والتهديد بالحرب، سواء أكان من مركز قوة أو مركز ضعف.

ذلك أن صدمة الحرب العالمية الثانية جعلت المجتمع الدولي ينفر من لغة السلاح، وأي تهويل أو تبجح أو ترهيب يصدر عن هذ القيادة أو تلك، يذكّره بالمفاخر والتحديات الهتلرية التي أغرقته في بحر الدماء.

ولحسن الحظ أن معظم الزعماء العرب تبينوا هذا الواقع بعد آخر تجربة عنترية في «أم المعارك» التي خلفت أم الهزائم، فأجمعوا منذ مؤتمر مدريد، على الدعوة للسلام، والتزام عملية السلام، والإنخراط في مسار السلام... وشاء القدر أن يبتلي عدوهم بضرّاب السيوف بنيامين نتنياهو، محاطاً بقائد الميمنة آرييل شارون وقائد الميسرة رفائيل ايتان، فاكتمل المشهد، وسقطت الأقنعة..

* * *

وكانت إسرائيل قد دأبت منذ قيامها على التظاهر أمام العالم بالضعف والمسكنة، فلبست شخصية داود الفتى راعي الغنم المسالم، أمام جوليات الجبار الطاغوت القادر على افتراسه بسهولة فائقة، حسبما جاء في الأسطورة التوراتية. ويرمز جوليات إلى العملاق العربي الرهيب المتحفز لتمزيق إسرائيل المستضعفة (...) كما يرمز المقلاع في يد داود إلى سلاح إسرائيل البدائي الهزيل (...) أمام سيوف جوليات ودروعه المسرودة التي تمثل الجيوش العربية وترساناتها المسلحة. والعبرة من الأسطورة في مجملها أن داود هو المعتدى عليه، وهو بطل لأنه صرع الجبار المعتدي.

هكذا عمل الأعلام الصهيوني على أظهار الدولة العبرية أمام الرأي العام العالمي بمظهر الوطن الصغير الذي يطوقه ويهدده مئة مليون عربي يومذاك. وحرصت إسرائيل منذ إعلانها عام ١٩٤٨، على تسمية جيشها «جيش الدفاع» لكي تنزع عنه صفة الإقتحام والعدوان، باعتباره مؤلفاً من عصابات إرهابية. كما رفعت منذ ذلك الحين شعار

السلام، وكانت، بعد كل انتصار خارق يبهر أنظار العالم ويعطل ضميره بمفعول الدهشة، تبادر إلى طلب السلام، وتدعو إلى المفاوضات منادية بالحل السلمي، إلى آخر الفصول التاكتيكية المعروفة.

وفي المقابل، كان الإعلام العربي يسير في موكب أحمد سعيد عبر إذاعة «صوت العرب»، وعلى خطى يونس البحري في نشرة «هنا برلين. حيّ العرب»، ترافقه الخطب الحماسية والقصائد الرنانة وهتافات الإنتقام وتظاهرات الجماهير وأناشيد التحرير. أما الحكومات العربية فكانت تجاهر بالاستعداد للحرب ومعظمها ينادي بإلقاء اليهود في البحر على طريقة أحمد الشقيري.

* * *

ودارت الأيام. فكان الرئيس الراحل أنور السادات أول من تنبه إلى ضرورة انتزاع مبادرة السلام والدعوة إلى السلام من يد إسرائيل، وضرورة تصحيح الصورة المعكوسة لإظهار من هو المعتدي الحقيقي ومن هو المعتدى عليه، وضرورة كسر الإحتكار الصهيوني لصداقة الولايات المتحدة وتأييدها.

والذين عايشوا تلك المرحلة الإنقلابية في السياسة العربية يذكرون أن الرئيس حافظ الأسد شريك مصر الأساسي في حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣، كان قد أدرك، على خط مواز لما أدركه السادات وأعلنه بأسف ومرارة، أن الجيشين السوري والمصري أصبحا، ابتداء من اليوم الخامس لتلك الحرب، يقاتلان أميركا وليس إسرائيل، خصوصاً بعدما نصب الأميركيون جسراً جوياً هو الأطول في التاريخ، بين مطار فيلادلفيا ومطار اللد، حيث كانت الطائرات الأميركية العملاقة تنقل الدبابات ومدافع الميدان الثقيلة بطواقمها البشرية الكاملة إلى الدولة العبرية التي كان جيشها يتقهقر في جبل الشيخ والجولان وسيناء، حتى تمكن بفضل المدد الأميركي الهائل، أن يسترد المبادرة جزئياً وبنسبة متفاوتة على الجبهتين.

ولكن الرئيس الأسد الذي تبنى هو أيضاً استراتيجيا السلام بعد الأداء النوعي المميز للقوات العربية في حرب تشرين، وضع شرطاً أساسياً للإنخراط في العلمية السلمية هو تصحيح ميزان القوى بين العرب وإسرائيل، وانطلاقاً من هذا المبدأ الإحتراسي الحكيم، نصح الرئيس السادات الذي جاءه في دمشق عشية زيارته الشهيرة لإسرائيل سنة ١٩٧٧، بعدم الاستعجال، وذلك عملاً بالقول المأثور، «من استعجل الشيء قبل أوانه، عوقب بحرمانه». وتبين فيما بعد أنه كان، مثله في موقفه الأخير الرافض للاتفاقات المنفردة مع العدو، أبعد نظراً وأدق

احتساباً لعواقب الهرولة والتسرع.

ومهما يكن من أمر، فقد ظهرت عوامل تاريخية مفصلية في أعقاب تلك المرحلة، سقط القناع خلالها تدريجياً عن وجه «الحمل الإسرائيلي الوادع»، وبدأ يتضح للعالم، وحتى للولايات المتحدة نفسها، إن ذلك الحمل هو في الحقيقة ذئب مفترس.

* * *

* أول هذه العوامل التي فضحت مطامع إسرائيل التوسعية كانت حرب لبنان. وقد تورط الأميركيون في بدايتها مع خطة كيسينجر، أملا في إيجاد وطن بديل للفلسطينيين من خلال تقسيم البلد إلى دويلات طائفية، والهاء منظمة التحرير الفلسطينية في معارك جانبية خدمة لأمن إسرائيل. لكنهم شعروا منذ الإجتياح الإسرائيلي الأول في ١٤ آذار (مارس) ١٩٧٨، أن تل أبيب تجاوزت الخط الأحمر الذي كان، ولا يزال، يتمثل في العبارة «الخالدة» المتكررة على السنة جميع الرؤساء ووزراء الخارجية الأميركيين من عام ١٩٧٣ إلى يومنا هذا، وهي «المحافظة على سيادة لبنان واستقلاله وسلامة أراضيه في حدوده المعترف بها دولياً».

وانطلاقاً من هذا الشعور بالإنزعاج، امتنعت الولايات المتحدة عن استعمال «الفيتو» ضد القرارين ٤٢٥ و٤٢٦ وما تبعهما من قرارات، فصدرت جميعاً بموافقة أميركية، كما يتضح من الوثائق التي نشرها غسان تويني في كتابه الخاص بالقرار ٤٢٥.

وقد تزايد الإنزعاج الأميركي من تمرد تل أبيب على القرارات الدولية والخطوط الحمر المتفق عليها مع الجهات الإقليمية المعنية بلبنان، وذلك بعد الإجتياح الإسرائيلي الثاني في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٨٢، الذي تجاوز كل الحدود ودفع بالولايات المتحدة إلى التدخل المباشر لفرض الإنسحاب، فأوفدت مبعوثها الخاص فيليب حبيب إلى بيروت، ورتبت مع الرئيس ميتران عملية إجلاء المقاتلين الفلسطينيين إلى تونس.

ويميل فريق من مؤرخي الحروب اللبنانية إلى أن الظرف كان مؤاتياً عام ١٩٨٣ لمواصلة الغضط الدولي على إسرائيل بحيث تنسحب إنسحاباً كاملاً من الاراضي اللبنانية، لو لم تنج في إضرام حرب الجبل بواسطة عملائها، ولو تمكن الجيش اللبناني أن يتغلب على مراكز القوى التقسيمية في الداخل، ويتمركز بالتالي على الحدود الدولية. وقد تذرّعت إسرائيل من جهة ثانية بحلول المقاومة الوطنية، ثم الإسلامية، في الجنوب، محل المقاومة الفلسطينية الراحلة، لترسيخ احتلالها الشريط الحدودي، كما تذرعت

أمام المراجع الأميركية بدعم إيران لبعض أجنحة المقاومة الجديدة، فزهّدت تلك المراجع في متابعة ضغطها الإيجابي لتأمين الإنسحاب الكامل، نظراً للعلاقات التي كانت على أدنى مستوى من التردي في ذلك الحين بين واشنطن وطهران.

* * *

* أما العامل الثاني الذي كشف للولايات المتحدة جوانب كانت لا تزال ملتبسة من صورة الاستكبار الإسرائيلي والإعتدال العربي، فهو انضمام سوريا ومصر القوتين العربيتين الرئيسيتين إلى التحالف الدولي ضد النظام العراقي في حرب الخليج، وذلك بقرار ذاتي بعيد عن منطق العواطف والمزيدات فرضه النضج السياسي والقراءة الموضوعية للأحداث، فيما كان الرئيس بوش يواجه بالمقابل صعوبات جمّة في كبح جماح إسرائيل ومنعها من دخول المعركة، خصوصاً بعد سقوط الصواريخ العراقية الاستعراضية على ضواحي تل أبيب. وكان الرئيس الأميركي يعرف تماماً أن حكام الليكود في تل أبيب يعرفون مثله، وربما أكثر، أن تدخلهم في الحرب سيلهب العالمين العربي والإسلامي، فيقلب المعادلة لصالح العراق ويزج الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين في حرب كورية جديدة.

وعلى أن الرئيس بوش أمر فوراً بنصب صواريخ باتريوت المضادة للقذائف الصاروخية في إسرائيل لتعطيل أي ذريعة تبرر لها التدخل العسكري في النزاع، فقد كان صعباً على الدولة العبرية المتجبّرة، وهي صنيعة أميركا، أن تقبل الظهور بمظهر المحمية الأميركية! وما لبثت الصهيونية أن عملت بكل قواها بعد ذلك للإنتقام من جورج بوش وخذلته في الإنتخابات الرئاسية عام ١٩٩٢.

* * *

* وأما العامل الثالث الذي فضح النيّات الإسرائيلية المبيتة أمام المجتمع الدولي، فهو المآل الذي آلت إليه مفاوضات السلام بعد انتخاب بنيامين نتنياهو وهزيمة حزب العمل ورئيسه شمعون بيريس في أيّار (مايو) ١٩٩٦. فقد جاء هذا الإنقلاب الخطير على الطريقة النازية بمثابة ضربة مسددة إلى سياسة الرئيس كلينتون والجهود الكبيرة التي بذلها خلال ولايته الأولى في سبيل إنجاح عملية السلام.

وفيما تتمسك سوريا ومصر والعرب جميعاً منذ الإنقلاب الإسرائيلي باستراتيجية السلام والعملية السلمية، وفيما لا يزال رئيس السلطة الفلسطينية مؤمناً بعملية السلام رغم الأوضاع اليائسة التي يتخبط فيها مع شعبه، وفيما يقف الرأي العام العالمي ودول العالم أجمع، وفي الطليعة حلفاء أميركا الأوروبيون، موقفاً سلبياً من حكومة

نتنياهو التي دفنت عملية السلام ومزقت اتفاقات أوسلو ومدريد وداست مبادىء مدريد... يتضح يوماً بعد يوم، من خلال بعض التقارير الصحفية والتسريبات الديبلوماسية في الغرب، أن آرييل شارون الذي يملك دعماً لا حدود له من جانب المتشددين في أقصى اليمين والأحزاب الدينية المتطرفة داخل الحكومة وخارجها، قد خطّط بنفسه منذ البداية للتوسع في سياسة الاستيطان باعتباره وزيراً للبنى التحتية، وفتح ملف القدس قبل أوانه مستعجلاً إعمار جبل أبو غنيم، فجعل من نتنياهو «القليل التجربة» - كما يصفه الملك حسين - متراساً يطلق النار من ورائه على الرئيس كلينتون وأميركا والأمم المتحدة والمجتمع الدولي بأسره!

ويؤمن شارون أساساً أن «وطن الفلسطينيين هو الأردن» وقد صرح بذلك مراراً وتكراراً في مناسبات عدة. لذلك يخشى المراقبون أن يكون في خلفية ذهنه تخطيط جهنمي لارتكاب مجازر في الضفة والقطاع، على غرار المجازر التي ارتكبها مع زميله ايتان في صبرا وشاتيلا خلال احتلاله بيروت عام ١٩٨٢، الأمر الذي يدفع الفلسطينيين إلى هجرة جديدة باتجاه المملكة الأردنية ومصر ولبنان.

فإلى متى سيستمر الرئيس الأميركي في سياسة ضبط النفس، وإحراج رئيس السلطة الفلسطينية الذي قبل مشروع «غزة وأريحا أولاً» على أساس الضمانة الأميركية أولاً؟! وإلى متى سيتحمل الرئيس حسني مبارك والملك حسين شهادة الزور على ما يجري، وتبقى المفاوضات السورية الإسرائيلية معلقة، والوضع اللبناني على كفّ عفريت؟!

وجهة نظر هامشية

يقول وزير خارجية سابق أن الرئيس الأميركي لم يكن مضطراً لاستعمال «الفيتو» في مجلس الأمن مرتين ضد القرار الخاص بإدانة إسرائيل في مسألة هارحوما، لو لم يكن مقتنعاً بأن السلوك العدائي الذي اتبعته الدولة العبرية تجاه الأمم المتحدة في الماضي، لا يترك أي مجال للتفاؤل بأنها ستنفذ أي قرار يصدر عن مجلس الأمن اليوم أو غداً.

لذلك يعتقد الوزير السابق أن الرئيس كلينتون سيحدد بنفسه نوع التحرك والوقت المناسب للتدخل في مسألة القدس. وهو يرى - أي الوزير - أن هنالك أشارات مناهضة لسياسة نتنياهو صدرت عن البيت الأبيض والخارجية الأميركية كان آخرها تصريح لكلينتون بعد قمة هلسنكي، جاء فيه قوله: «لا شك على الإطلاق لدى أصدقاء العملية السلمية وأعدائها في أن السلطة

الفلسطينية تعارض الإرهاب بثبات، وأنها ملتزمة بثبات أيضاً الحؤول دون حدوث عمليات إرهابية». وأهمية هذا التصريح إنه يرد بحزم على نتنياهو الذي حمّل عرفات مسؤولية العملية الإنتحارية الأخيرة في تل أبيب، وإن كان يذكّر عرفات في الوقت نفسه بضرورة التشدد مع المتطرفين.

ويضيف الوزير السابق أخيراً: «لننتظر تعيين رئيس جديد لوكالة الاستخبارات المركزية - سي.آي.إي - فقد يتبين أن إصرار انطوني لايك، الصديق العريق للرئيس كلينتون، على سحب ترشيحه لرئاستها كان مرتبطاً بمصير هارحوما والقرار الأخير الذي اتخذه البيت الأبيض في شأنها».

٢٦/ ٣/ ١٩٩٧

سكان أميركا الأصليون من الشرق الأوسط

لا نعرف المراجع التاريخية التي استند إليها العقيد معمر القذافي عندما قال في رسالة موجهة عبر الأقمار الاصطناعية إلى حركة «أمة الإسلام» وزعيمها الأميركي الأسود لويس فرقان في شباط فبراير الماضي، أن الأميركيين الأوائل المعروفين بالهنود الحمر متحدرون من قبائل ليبية انطلقت من جزر الكناري الإسبانية عبر المحيط الأطلسي وحلّت في القارة الأميركية قبل وصول كولومبوس إليها بمئات وربما ألوف السنين.

فالعقيد القذافي حريص دائماً على إيلاء بلاده شخصية مميزة في المجتمع الدولي، وقد تكون له أهداف سياسية من خلال هذا التفسير الذي لا يطابق الحقائق العلمية الاتنولوجية لأصول الهنود الحمر مطابقة كلية، وذلك نظراً للنزاع الحاد القائم بينه وبين الولايات المتحدة التي تتهم المخابرات الليبية بتفجير طائرة ركاب أميركية فوق لوكربي في اسكوتلندة أودى بحياة أكثر من ٢٧٠ شخصاً عام ١٩٨٨.

ولكن كلام الرئيس الليبي لا يخلو من حقيقة معترف بها لدى المؤرخين وعلماء الآثار والباحثين الأميركيين أنفسهم، وهي أن ملاحي البحر المتوسط القدامى، وخصوصاً الفينقيين والفراعنة، وصلوا إلى القارة الأميركية منذ الألف الثالث قبل الميلاد وأسسوا فيها المستعمرات، كما أنشأوا خطوطاً بحرية عبر الأطلسي تصلهم بالعالم القديم. وكذلك بات في حكم المؤكد أن قبائل «الفايكينغ» الشمالية اجتازت هي أيضاً المحيط الأطلسي مراراً قبل رحلة كولومبوس بعدة قرون، لكنها لم تتوطن هناك بسبب قصورها الحضاري، وعجزها بالتالي عن تأسيس مستوطنات ذات تنظيم مدني قابل للحياة والاستمرار، بل كانت تتصيّد الحيوانات ذات الفراء النادرة في غرونلاند و«الأرض الجديدة» وبعض شطآن أميركا الشمالية، ثم تعود إلى قواعدها في بحر الشمال الأوروبي.

وإذا كانت مقولة القذافي بأن الهنود الحمر هم من أصل ليبي تبدو للوهلة الأولى ضرباً من ضروب الخيال الصادر عن منطق العاطفة، فإن العلماء يؤكدون جميعاً أن الشعوب التي كانت منتشرة في القارة الأميركية قبل كولومبوس تعود إلى

جذور متوسطية في غرب آسيا وشمال أفريقيا، وربما كان في عدادها بعض القبائل الليبية، لكن معظم عناصرها كانوا من الكنعانيين والمصريين والقرطاجيين. أما الحمرة التي ميزت سكان أميركا الأصليين فليس مردها إلى طبيعة جلودهم الآسيوية والأفريقية السمراء، بل إلى الحنّاء التي كانوا يطلون بها أجسامهم عملاً بتقليد قديم توارثوه عن أجدادهم جيلاً بعد جيل.

وقد انقرضت معظم الآثار العائدة إلى أولئك المستعمرين الأوائل في أي حال، وكل ما عاينه الباحثون من شواهد الحضارات الأميركية السابقة للفتح الإسباني في نهاية القرن الخامس عشر، هو من صنع اخلاف تلك الحضارات الذين لا يرقى تاريخهم إلى أبعد من القرن الثامن الميلادي. وليس هذا التاريخ مدوناً بل إنه مجموعة أخبار وروايات تناقلها الرهبان والفاتحون الإسبان في عهد كولومبوس وبعده عن شيوخ الهنود الحمر الذين أطلق عليهم كولومبوس هذه التسمية عندما وصل إلى شطآن أميركا سنة ١٤٩٢، لاعتقاده أنه وصل إلى الهند.

وأبرز هذه الحضارات الأميركية التي كانت لا تزال قائمة عند الفتح الإسباني هي:

* حضارة شعب «الأزتيك» (Aztéque) في المكسيك.

* حضارة شعب «المايا» (Maya) في رأس يوكتان المكسيكي بأميركا الوسطى على حدود غواتيمالا.

* حضارة شعب «الشيبشا» (Chibcha) في كولومبيا.

* حضارة شعب «الأينكا» (Inca) في البيرو وبوليفيا والتشيلي.

ومما يعزز كون هذه الحضارات والشعوب التي أسستها وانقرضت بعدها على الأرض الأميركية، عائدة إلى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، خصائص عمرانها وفنونها وكتاباتها المرمّزة.

فالهندسة المعمارية التي اعتمدها شعب «الآزتيك»، وشعب «المايا» في بناء المدن والمجمعات السكنية والمعابد، تستند إلى الشكل الهرمي على الطريقة الفرعونية، ولا تزال هنالك أهرام في المكسيك شبيهة بأهرام الجيزة، وإن كانت أصغر حجماً وأقل روعة وكمالاً.

أما المعابد الضخمة الشاهقة والقصور والحمامات وقنوات الري وغيرها من المعالم التي خلّفها شعب «الشيبشا» وخصوصاً شعب «الاينكا»، فتذكّر الناظر إليها بمعابد أبو سنبل وآثار وادي الملوك في مصر القديمة. وكذلك التماثيل الحجرية الفارعة التي لا تزال قائمة في جزيرة باسكوا على مسافة قريبة من سواحل التشيلي في الباسفيك.

وأما الأساور والأقراط والأقنعة

والعقود والزخارف الذهبية والفخّاريات والمنحوتات والنقوش، وما إلى ذلك من التحف الفنية والحرفية التي عثر عليها في أطلال المدن الأميركية القديمة، فيكاد الباحث المنقب لا يميزها عن التحف وأدوات الزينة وآنية الخزف والنحاس والبرونز العائدة إلى الآشوريين والبابليين والكنعانيين ومدن فينيقيا وجزيرتي قبرص وكريت في الحوض الشرقي للمتوسط، والتي لا تزال صناعتها رائجة في بعض مناطق افريقيا السوداء.

وقد عرفت شعوب «الأزتيك» و«المايا» و«الأينكا» بالإضافة إلى ذلك، نوعاً من الكتابة المسمارية المشابهة تماماً لكتابة الأشوريين والكنعانيين القدامى وكتابة الرموز الصورية على طريقة الهروغليف المصري، والحرف المسند الذي اختص به الحميريون في اليمن.

ولا بد من التنويه أخيراً بأن هذه الحضارات القديمة السابقة لكولومبوس، نمت وازدهرت منذ القدم في مناطق بين الدرجة صفر والدرجة ٤٠ من خطوط العرض على جانبي خط الاستواء شمالاً وجنوباً. وهي مناطق معتدلة أو متوسطة الحرارة ذات مناخ شبيه بمناخ الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. مما يدل على أن قوافل الملاحين الأوائل الذين توجهوا إلى القارة الأميركية عبر مضيق جبل طارق، وكانت محطتهم الأولى جزر الكناري، قد اختاروا على السواحل الأميركية الشرقية مواقع لمدنهم وموانئهم ذات خصائص مناخية شبيهة بخصائص بلدانهم، ومنهم من تجاوز رأس «هورن» جنوب الأرجنتين وأبحر شمالاً على الساحل الأميركي الغربي نحو التشيلي وبوليفيا والبيرو التي يشبه مناخها أيضاً مناخ المتوسط وشمال أفريقيا.

ومهما يكن من أمر، فإن أصول الهنود الحمر، سواء أكانت من آسيا الغربية وأفريقيا الشمالية أو لم تكن، ليست لتبدل شيئاً في عالمنا المعاصر، لأن الهنود الحمر أصبحوا قلة ضئيلة جداً تعيش تحت سلطة الإنسان الأبيض، وهم نماذج باقية من الأمم البائدة.

ولكن الحقائق التي من شأنها أن ترد الاعتبار إلى الأمة العربية تتعلق بكون العرب الأندلسيين خصوصاً، هم الذين وجهوا كريستوف كولومبوس لاكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢. كما تتعلق بكون العرق العربي هو العرق المسيطر في أميركا اللاتينية بأسرها من أقاصي الأرجنتين إلى حدود الولايات المتحدة مع المكسيك. وهو ما سوف نبيّنه في مقالة لاحقة.

١٩٩٧/٤/٢

البخبحة... والشرشحة!

ليس المهم إرجاء الإنتخابات البلدية إلى اجل مسمّى، أو غير مسمى. فهو أمر يحصل في أرقى البلدان وأعرق الأنظمة الديموقراطية عندما تطرأ ظروف استثنائية مانعة.

ولكن المهم هو الأسلوب الذي اعتمدته الحكومة ومجلس النواب في إقرار التأجيل، فظهرا أمام الرأي العام كمن يسرق بإحدى يديه ويصافح بالأخرى مخافة أن يقبض عليه بالجرم المشهود.

حتى اللحظات الأخيرة، كان الصقور والحمائم جميعاً، من اذكى نائب إلى اغبى وزير، يلهجون بمدح الإنتخابات البلدية ويخططون في الوقت نفسه لذبحها، حتى غلب التخطيط على التنظير، فاستردّت الحكومة مشروع القانون المريض من غرفة العناية الفائقة تحت شعار «الأجواء الإقليمية الضاغطة»، وسلمت الدولة وهيبتها المزعزعة وسمعتها المشرشحة.

رجل واحد يقول كلمته ويقف عندها هو رئيس الجمهورية، هتف من أول الطريق: لا للتنظير. لا للتهويل. لا للتأجيل. فربح ما خسره الآخرون: احترام الناس.

الناس الذين ضمّروهم إعلامياً وروّضوهم كلامياً، فتهيأوا للجري السريع والقفز فوق الحواجز كالخيول المبلّعة، حاملين إخراجات القيد والصور الملونة، واقفين بأبواب المخافر والمخاتير، قبل أن تفوت مهلة الطلبات للحصول على البطاقة الإنتخابية الممكننة والممغنطة والمرمّزة التي كلّفت ملايين.

ناخبون هبّوا من فندق «صحّ النوم» على طبول الديموقراطية الراجعة وهي تقرع في الأحياء والدساكر والقرى، وتجمعوا افواجاً حول «المفاتيح» والقبضايات والجيوب القديمة والوجوه الجديدة، فذبحوا الخرفان، وأقاموا المآدب، وتداولوا الأمر الخطير، وترقبوا الاستحقاق الكبير بالأمل والتفاؤل.

ومرشحون عطّلوا أعمالهم، وتهافتوا على أجهزة الأعلام ينشرون البيانات ويلزّمون الصور للمطابع. وزّعوا الحلوى، ونظموا المهرجانات، واستنسخوا لوائح الشطب، واستنفروا الأنصار والمحاسيب.

وفجاة، تلبّد وجه السماء واكفهرّت الأجواء الإقليمية التي قيل إنها ضاغطة،

فأحيلت الإنتخابات إلى مشرحة التعديلات.

ولكن، متى كانت الأجواء الإقليمية غير ضاغطة؟!

سنة ١٩٩٣، أيام العناقيد الفوسفورية والقذائف المسمارية التي فاجأنا بها العدو في تموز؟!

أم سنة ١٩٩٤، يوم انفجرت كنيسة الزوق وكاد أن ينفجر البلد وراءها؟!

أم سنة ١٩٩٥، يوم كانت مشاريع اقتسام البلد وتقسيمه مطروحة على طاولة المفاوضات؟!

أم سنة ١٩٩٦، أيام «عناقيد الغضب» ومجازر قانا والمنصوري والنبطية في نيسان (أبريل) الماضي؟!

متى كانت الأجواء الإقليمية غير ضاغطة؟!

وهل كان بيريس أرفق بنا من نتنياهو؟!

إن جبهتنا مفتوحة مع العدو من ثلاثين سنة إلى هذا اليوم، وجبهات العرب كلها ساكنة مطمئنة... أفلا يحق لنا أن نرتّب أمور بيتنا على الأقل فيما نحن ننتظر الأسوأ؟!

وما الذي كان يمنع حكومتنا من تحسس الأجواء الإقليمية الضاغطة قبل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ستة، فلا تتورط في البحبحة وتنتهي في الشرشحة، وتورّط الناس في مزيد من اليأس والأحباط والطوطحة؟!

وأمس عندما قررت الحكومة في أواخر العام الماضي إجراء الانتخابات، ألم تكن تعرف أن هنالك قرى ترزح تحت الإحتلال، وقرى معظم أبنائها مهجّرون، وأن في البلد فرزاً ديموغرافياً وانقسامات وحساسيات؟!

وغداً، كلما اقترب موعد زيارة البابا، ألن تكون الأجواء الإقليمية أكثر ضغطاً من اليوم بحيث تلغى هذه الزيارة أو ترجأ كما حصل في الماضي؟!

ثم، بعد غد، كلما تأخر اهتمام دولتنا الجدّي بمتابعة المساعدات والتوظيفات التي أقرّها «مؤتمر أصدقاء لبنان»، ألن يكون للأجواء الإقليمية أيضاً دورها الضاغط وسعيها المبارك لإلغاء المليارات وتحويلها أوهاماً في المخيّلات؟!

وأخيراً. أما كان أشرف لهذه الحكومة المطعون في صدقيتها، وهذا المجلس المطعون في شرعيته، أن يقتديا بالقاضي الشجاع وجدي ملاط، فيقدّما إلى رئيس البلاد استقالة جماعية، ولا يبقى هنالك ضاغط ولا مضغوط؟!

١٩٩٧/٤/٩

صلاة أحمد ولعبة مريم

لا شك أن الجندي الأردني أحمد الدقامسة ارتكب جريمة لا تغتفر عندما أفرغ رشاشه في معبر الباقورة، على حافلة تقلّ فتيات إسرائيليات أتين إلى بلاده سائحات، فقتل منهنّ سبعاً في لحظات.

ولكن لماذا فعل أحمد ذلك؟!

إنه ليس مجنونا، ولا كان مخدّراً أو مخموراً، ولا هو سفاح موصوف ومعروف كالعديد من الذين يحكمون اليوم إسرائيل...

بل إنه جندي عربي شريف ينتمي إلى جيش عربي كريم.

وهو يؤمن بالله وأنبيائه ورسله، وقد نذر الولاء لمليكه وبلده ورسالة أمته.

وبالتأكيد إنه كان ولا يزال يعرف عن موسى كليم الله وأسباط اليهود، وإبراهيم وإسحق ويعقوب، من خلال دينه وقرآنه أكثر بكثير مما تعرفه سائحات الحافلة المشؤومة، ومما يعرفه السيد بنيامين نتنياهو نفسه!

ثم إنه مسلم تقيّ مؤمن بالتسامح، ومحارب واثق شجاع يلتزم أوامر قادته ولا ينحرف عنها أو يحيد إطلاقاً.

فلماذا فعل أحمد ذلك؟!

لقد كان يصلّي.

لم يكن يدخن أو يسكر أو يلعب الميسر في مركز الحدود الذي يملأ النفس بالملل، ويحوّل الخفر عادة إلى متجبرين أو متسولين.

كان فقط يصلّي.

وجهه إلى القدس أولى القبلتين.

وفي سجوده تسليم إلى رب العالمين.

وفي نفسه مرائر.

وفي قلبه نفق...

بل سراديب وأنفاق مليئة بالجماجم وأنهار الدماء، وأشباح خيول تقتلع سنابكها أثداء العذارى وتبقر بطون الحبالى وتفقأ عيون اليتامى، وتطيح المدائن والهياكل وترجم الأقداس...

كان أحمد يصلّي.

وكان يسمع بين كل ركعة وركعة أصوات الفحيح ورجع الصفير ودوي القهقهات والعربدات... حتى خيل إليه أن أفاعي الجحيم تفترس الملائكة شهود صلاته!

فهاج وماج وغضب وقتل.

وهو لم يطلق النار على الظلم الذي تعوّد مكرهاً أن يداويه بالصبر، بل على الهزء الذي كان في تلك اللحظة أشد من الظلم وأدهى.

هزء بإيمانه، واحتقار لصلاته وقبلته، وتسفيه لكرامته ورجولته، من فتيات تعلّمن في الدولة «المختارة» أن كل من ليس يهودياً هو في عداد «الغويم» الذين تعيّن أن يعاملوا معاملة البهائم!

لقد خيّر أحمد بين ثارين أحلاهما مرّ: أن يغسل عاره بدم الهزء، كائناً من كان صاحبه، أو يقتل نفسه منتحراً. فاختار الثأر الأول لأنه كان يعرف تماماً أنهم في الحالتين سيصلبونه بلا رحمة ويصنّفونه «إرهابياً».

* * *

وعلى سيرة «الإرهاب»، يبدو أن قاموس المظالم الصهيونية الأبدية الذي يوزع مجاناً في الأوساط الحكومية العالمية قد وضع تراتبية خاصة «للإرهابيين» أعداء الجنس البشري!

فهناك من هو «ربع إرهابي» كالرئيس جاك شيراك مثلاً الذي تجرأ وطالب بالدولة الفلسطينية وعدم تهويد القدس، أو الرئيس نلسون مانديلا الذي قال إن بلاده حرّة في بيع الأسلحة لمن تشاء، وحتى لسوريا التي «ترعى الإرهاب» في نظر الراعي المرهوب...

وهنالك من هو «نصف إرهابي» كالبابا يوحنا بولس الثاني الذي أقام علائق ديبلوماسية مع الجماهيرية «الإرهابية»، وقرر زيارة لبنان «الوطن الأصلي للإرهاب»، أو السيد بطرس بطرس غالي الذي تجرأ ونشر تقريراً يحمّل إسرائيل مسؤولية مجزرة من أبشع المجازر البشرية في التاريخ.

أما «الإرهابي الكامل»، فهو المقاوم والاستشهادي الذي يطلب الحق بدمه ويكتب العدالة بفدائه.

وأما «أكبر الإرهابيين وأخطرهم» على الإطلاق، فهم الشيوخ والنساء والأطفال من فئة الذين لجأوا إلى مركز القوات الدولية في قانا، وتسبّب وجودهم هناك في «الادعاء الباطل» بأن الصواريخ التي مزّقتهم أشلاء أطلقت من طائرات أو مواقع إسرائيلية. والصحيح أنها جاءت من قواعد طالبان في بلاد الأفغان...

ولا يستثنى من هؤلاء «الإرهابيين القتلة» طفلة المنصوري التي تدلّى رأسها من سيارة الإسعاف للتدليل على أنها كانت تنقل في تلك السيارة مقاتلين من جماعة «حزب الله».

وأخيراً، لا آخراً، يتساءل أصحاب القاموس الصهيوني ببراءة الأطفال: «من شجّع الطفلة مريم البستاني زهرة السنوات التسع على الخروج من بيتها في مطلع الربيع لقطف الشقائق والأزهار من البساتين المجاورة؟! فقد كان عليها ألا

تقترب من الألعاب التي زرعها جيش الدفاع الجزيل الاحترام (...) في المنطقة الحدودية ليلعب بها أولئك الذين يسميهم مخرّبين، فتنفجر فيهم وترديهم.(!!!)».

«ولكن، لا بأس - يضيف جماعة القاموس - فإن يد مريم المقطوعة وجروحها النازفة والحروق، ستظل عبرة لكل من يرتكب الجرائم ضد الإنسانية والإنسان وحقوق الإنسان، ويسعى إلى تدمير إسرائيل»(!!!).

* * *

ترى، هل قرأ الرئيس كلينتون ونائبه آل غور والسيدة أولبرايت وسائر المتربعين على رأس العالم في واشنطن المحروسة، حكاية مريم ولعبة الموت التي يصنع منها جبابرة إسرائيل نماذج متطورة لمكافحة «الإرهاب» بأموال الشعب الأميركي؟!!

١٩٩٧/٤/٩

الوعد الغامض والحقد الرافض

في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل يكون قد مرّ ثمانون عاماً على وعد بلفور الذي قال فيه الكاتب الشهير المجري الاصل والبريطاني الهوية آرثر كوستلر Arthur Koestler كلمته الشهيرة:

«إنه وعد قطعته أمّة (بريطانيا) لأمة أخرى (اليهود) بمنحها وطن أمّة ثالثة (فلسطين) هو جزء من ممتكات أمّة رابعة (الامبراطورية العثمانية)».

ففي ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، وجّه آرثر جيمس بلفور وزير خارجية بريطانيا اليهودي المذهب إلى المصرفي اليهودي النافذ لورد روتشيلد رسالته المشؤومة التي جاء فيها:

«يسعدني جداً إبلاغك، باسم حكومة صاحب الجلالة، التصريح الآتي الذي يعبّر عن تعاطفنا مع الطموحات الصهيونية، وقد حظي بموافقة مجلس الوزراء:

«أن حكومة صاحب الجلالة تؤيد إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل كل ما في وسعها لتسهيل قيام هذا الوطن.

وليكن مفهوماً بكل وضوح أن هذا الأمر يجب ألا يسيء إلى الحقوق المدنية والدينية لسائر الطوائف غير اليهودية في فلسطين، وكذلك الحقوق والأوضاع السياسية الخاصة باليهود في البلدان الاخرى.

راجياً أن تتفضلوا بإبلاغ موقفنا هذا إلى أعيان صهيون».

ومنذ ذلك الحين نشب أخطر وأطول صراع قومي وديني في التاريخ الحديث على أرض موسى وعيسى ومحمد، وهو ما تنبّه كوستلر منذ البداية إلى طابعه الاممي في وصفه أعلاه.

أما الأسباب التي دفعت بريطانيا إلى الإذعان لضغوط الصهيونية، فمعروفة عند المؤرخين. وأهمها أنّ الإنكليز كانوا، من جهة، بأمسّ الحاجة إلى المال اليهودي في الحرب العالمية الأولى لتأمين الصمود وبالتالي الانتصار على المانيا، وكانوا، من جهة ثانية، يحملون على محمل الجدّ التهديدات الصهيونية لهم بتمويل ثورة فوضوية في بريطانيا والمستعمرات على غرار ما حصل في روسيا القيصرية والسلطنة العثمانية يومذاك، وهو ما كان الإنكليز يعرفون تماماً، عبر تقارير مخابراتهم والوثائق التي يملكون، أنه تم

بتآمر اليهودية العالمية وتدبيرها.

ومهما يكن من أمر، فلن ندخل في تفاصيل هذا البحث التاريخي الذي تضيق بفصوله المجلدات، بل سنركز اهتمامنا حول هذا الموضوع على نقطتين أساسيتين: الأولى تتعلق بمفهوم «الوطن القومي» في وعد بلفور، والثانية «بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية» التي نص عليها الوعد المذكور.

* * *

نبدأ بمسألة «الوطن القومي» فنلاحظ أنه لا وجود لكلمة «وطن» في النص الإنكليزي الذي يعد اليهود «ببيت قومي» أو «دار قومية» أو «موئل قومي» فقط (a national home). والفرق شاسع بين الدار والبيت، أو الموئل والملاذ، وبين الوطن أو البلد (Country)، وإن كان بعض اللغويين يفسر كلمة (home) بدلالتها الرمزية التي تعني الوطن. ثم إن النص يخول اليهود إنشاء هذا البيت أو الموئل القومي «في» فلسطين (in Palestine)، ولا يقضي على الإطلاق باعتبار فلسطين ملكاً لهم وحدهم.

ويستخلص من روح النص في مجمله أنه يمنح اليهود الحق بوجود قومي ما، أو ملاذ أو موئل أو تجمع، في بعض فلسطين، أو ربما في كل فلسطين، ولكن ضمن حدودها الطبيعية.

فالوعد المذكور لم يسمح لليهود بتأسيس امبراطورية عسكرية وترسانة نووية تهدد الشرق الأوسط ويمكن أن تطال دول المتوسط وأوروبا الغربية والعمق الأفريقي والآسيوي. وهو لم يمسح لهم حتى بتأسيس دولة مستقلة والاستيلاء على أراضي الغير بالقوة، على غرار ما هو حاصل في الجولان وجنوب لبنان، كما أنه لم يخولهم إبادة الشعب الفلسطيني أو تجهيره.

ولكن الغرب الذي حمّل نفسه مسؤولية «الشتات اليهودي» في الحرب العالمية الأولى وقبلها، كما حمّل نفسه مسؤولية «المحرقة اليهودية» في الحرب العالمية الثانية وبعدها، كان ينطلق دائماً في تساهله مع اليهود ـ سواء عبر وعد بلفور أو عبر التنازلات المتواصلة الأخرى إلى يومنا هذا ـ من اعتبارات إنسانية ملائمة لتوجه مصالحه السياسية والاقتصادية... حتى أصابه ما أصاب ذلك الصياد الذي أسعف نمراً جريحاً، ثم درّبه على الصيد لحسابه، فلما استعاد قواه انقض على مسعفه وافترسه.

* * *

وأما النص الواضح في وعد بلفور والذي يحذّر من الإساءة إلى الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية، فلم تقم له الصهيونية أي اعتبار، ولو أردنا تعداد المجازر التي ارتكبت ضد المدنيين، من عصر جابوتنسكي إلى عصر باروخ

غولدنشتاين، والأراضي التي صودرت، والقرى التي نسفت وأبيد سكانها، والاعتداءات التي وقعت وتواصلت ضد المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس وعموم فلسطين، وما تعرض له المسجد الأقصى وكنيسة القيامة من إذلال ومهانة كل يوم، وما أصاب الكنائس والمساجد والمدارس والتكايا والأديار من حرق ونسف وانتهاك وتدنيس، لأعيانا الوصف وخانتنا الذاكرة.

ويكفي أن نسلّط الأضواء في الفقرات اللاحقة على بعض الوقائع المذهلة المخزية في الحياة الإسرائيلية، عسى أن يتنبه العالم المسيحي عموماً، والغرب المسيحي خصوصاً إلى الأخطار الكامنة في دعمهما المتواصل للدولة العبرية التي تحكمها العنصرية الحاقدة المتعصبة والرافضة لكل دين وكل حضارة غير دينها وحضارتها الدهرية، وذلك خلافاً لما نص عليه وعد بلفور حرفياً في قوله: «ليكن مفهوماً بكل وضوح أن هذا الأمر يجب الاّ يسيء الى الحقوق المدنية والدينية لسائر الطوائف غير اليهودية في فلسطين»:

* تقول بعض التقارير الصحافية أن الحذاء المفضّل عند الفتيان والفتيات في إسرائيل، هو الحذاء الذي يكون محفوراً على صفحته الداخلية رسم الصليب بحيث يداس في كل خطوة!

* نقلت وكالة الصحافة الفرنسية بتاريخ ٢١ شباط (فبراير) ١٩٩٧، إن الإسرائيليين يبصقون أمام الصليب الذي يحمله الكهنة والرهبان، وقالت أن لدى المحاكم الإسرائيلية دعاوى لا عدّ لها من جانب المقامات الدينية المسيحية على أناس فعلوا ذلك ويفعلونه كل يوم!

* علق أستاذ علم الاجتماع في جامعة بار إيلان اليهودية مناحيم فريدمان على حكم أصدرته محكمة البداية في القدس ضد المدعو موشي أرينفيلد الذي بصق أمام صليب كان يحمله كهنة من الأرمن قرب كنيسة القيامة سنة ١٩٩٥، بقوله: «إن البصق أمام الصليب أو عليه، تقليد يهودي قديم يصعب منعه، لكنه يجب أن يتم بتكتّم شديد لعدم تنفير السيّاح»!

* أما الناطق بلسان وزارة العدل الإسرائيلية موشي غورالي، فقد أعلن في تصريح صحفي أن أي حكم يصدر على من يبصق أمام الصليب يجب أن يكون «حكماً رمزياً»، لأن الحؤول دون ممارسة هذه العادة يبدو مستحيلاً، نظراً للحقد الذي يضمره اليهود للمسيحية وقد اضطهدتهم زمناً طويلاً في القرون الغابرة!

* يؤكد بعض السياح الأجانب الذين زاروا إسرائيل، أن الصليب يظهر في معظم الأحيان على الألبسة النسائية الداخلية للبغايا، وعلى أغطية المزابل

وصناديق النفايات، وفي المراحيض والمبولات العمومية!

* وأخيراً، لا آخراً، حظّرت الدولة العبرية على إداراتها الحكومية ومؤسساتها العامة والخاصة ومدارسها كافة، استعمال علامة الجمع (+) المتعارف عليها دولياً، لأنها تشبه صورة الصليب، والاستعاضة عنها بعلامة (II) لحساب الجمع!

إنها وقائع، لا تعليق.

١٩٩٧/٤/٩

القارة التي ولدت منذ ٥٠٠ سنة
العرب أسسوها وسمّوها أميركا

في الميثولوجيا اليونانية القديمة أن أوروبا أخذت اسمها من الحسناء «أوروب» بنت أجينور ملك فينيقيا التي خطفها إله الآلهة «زفس» وذهب بها إلى جزيرة كريت حيث تعقّبه أخوها قدموس لاستردادها. وقد أسس قدموس خلال تلك الحملة مدينة طيبة أولى حواضر الإغريق ونشر فيها الأبجدية.

وفي وقائع التاريخ الأقرب إلى عصرنا، أن اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢، لم يكن ليتمّ لولا مساهمة العلماء والملاحين العرب، وأن معظم سكان أميركا اللاتينية الذين يربو عددهم على ٣٥٠ مليوناً يتحدرون من أصل عربي، وهو ما ألمحنا إليه في مقالة سابقة. كذلك يؤكد العلامة المستشرق ريجيس بلاشير، واضع أبلغ وأدق ترجمة للقرآن باللغة الفرنسية، أن اسم «أميركا» هو اسم عربي، على ما سنبين لاحقاً في سياق هذا البحث.

وليس قليلاً في أي حال، أن يكون لهذه المنطقة العربية فضل التسمية على القارتين العظميين، أوروبا وأميركا. كما أنه ليس كثيراً علينا منهما بعض الوفاء، خصوصاً من جانب الولايات المتحدة الأميركية التي تعاقبنا على اكتشافها وتسميتها عند ولادتها، وهي تنصر عدونا وعدوها الدائب على استنزافنا واستنزافها.

* * *

في رأس السنة ١٤٩١، استولى الملكان الكاثوليكيان فرديناند (آراغون) وإيزابيلا (قشتالة) على مدينة غرناطة آخر معاقل العرب في الأندلس، وتسلما مفاتيحها من صاحبها عبد الله الأحمر.

وفي ٣١ آذار (مارس) من السنة التالية ١٤٩٢، أصدر فرديناند وإيزابيلا مرسوماً ملكياً بترحيل جميع اليهود البالغ عددهم حوالي ٦٠٠ ألف، من أسبانيا، وأمهلهم ذلك المرسوم ثلاثة أشهر أي حتى أول تموز (يوليو) ١٤٩٢ لمغادرة البلاد، تحت طائلة إعدامهم ومصادرة أملاكهم أو تنصيرهم.

وكان الراهب الدومنيكاني زعيم حركة التفتيش الكاثوليكية المتطرفة توما دي توركومادا (Thomas de Torquemada) الذي تربطه علاقة جيدة بالملكة إيزابيلا هو

الذي حرّض السلطة الملكية الإسبانية على القيام بأول عملية تطهير عرقية واسعة في أوروبا، فقتل بواسطة محاكمه الجائرة من قتل، وأبعد من أبعد، من أولئك اليهود السفرديم ذوي الأصول الشرقية الذين لجأ بعضهم إلى البورتغال فترة زمنية قصيرة، ثم توزع معظمهم بين المغرب والمشرق العربي وإيطاليا، ثم القسطنطينية في عهد السلطان العثماني سليم بايزيد الثاني.

ولم يكن مصير المسلمين من أهالي غرناطة وأشبيلية وملقة وطليطلة وغيرها، أفضل من مصير اليهود، إلا أن عدد المسلمين العرب والبربر في أسبانيا والبورتغال كان يفوق عدد اليهود إلى حد بعيد ويتجاوز الأربعة ملايين من سكان البلاد الذين يقدر المؤرخون عددهم بـ١٢ مليوناً في ذلك الحين.

وقد خيّر هؤلاء بين اعتناق المذهب الكاثوليكي أو الرحيل عن البلاد، فارتد معظمهم عن الإسلام مكرهاً، وعرفوا بـ«المتنصّرين» (Les Morisques)، لكنهم ظلوا محافظين على تقاليدهم وعاداتهم وأزيائهم العربية ومآكلهم التقليدية، ولم ينخرطوا انخراطاً كلياً في المجتمع الكاثوليكي.

وكان هنالك بالمقابل حوالي أربعة ملايين مسيحي اعتنق آباؤهم الإسلام أيضاً مكرهين في شبه الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا والبرتغال)، بين عامي ٧١٠ (تاريخ فتح الأندلس) و١٤٩١ (تاريخ سقوط غرناطة)، فأصبحوا بالتزاوج والاختلاط الثقافي والاجتماعي عبر الأزمنة، جزءاً لا يتجزأ من الإتنية العربية، وهؤلاء عرفوا بـ«المستعربين» (Les Mozarabes).

هكذا يتضح أن الإيبيريين الكاثوليك ذوي الأصول الجرمانية اللاتينية، كالقوط والفرنجة وغيرهم، الذين احتلوا البلاد في عهد فرديناند وإيزابيلا، ومعظهم جاء من الإمارات الشمالية، لم يكونوا يؤلفون عند سقوط غرناطة إلا ثلث الأهالي، فيما كان الآخرون من العرب المتنصرين والإسبان المستعربين يؤلفون الثلثين.

ويقول المؤرخون الثقات أن الراهب توما دي توركومادا وأعوانه وخلفاءه من الرهبان الدومنيكان المتشددين تفرغوا، بعد ترحيل اليهود واستئصالهم، لتلك الأكثرية العددية من المتنصرين والمستعربين الذين كانوا يمارسون حياة عربية شرقية في دولة كاثوليكية قائمة على العنصرية الدينية، فاتهموهم بالباطنية وكتمان آرائهم ومعتقداتهم، وشكّوا في ولائهم، وفرضوا عليهم ضرائب فاحشة، وأذلّوهم أيّما إذلال، ونكلوا بهم أبشع تنكيل. الأمر الذي كان يدفعهم إلى الهجرة تحت ظروف قاسية هرباً من الموت.

والمعروف أن معظم هؤلاء كانوا من الصنّاع المهرة والزارعين الدّاربين

والعلماء المتخصّصين، وكان في عدادهم رحالون وملاحون متضلعون من علوم الفلك والجغرافيا والهندسة وأسرار البحار. وقد دأبت جماعة التفتيش من الدومنيكان وأعوانهم، قبيل سقوط غرناطة وبعده، على دفع ما تيسر من هؤلاء المنكوبين، إلى سواحل أفريقيا الشمالية في قوارب صغيرة كثيراً ما كان يبتلعها البحر، حتى إذا سلم بعضهم من الغرق وأدرك الشاطئ، تكفّل به اللصوص وقطّاع الطرق، أو تناهى به الأمر في أحسن الأحوال إلى التسكع والتسوّل في مدن المغرب ومناطقه الصحراوية القاحلة.

لذلك، ما ان تم اكتشاف القارة الأميركية على يد كريستوفر كولومبوس سنة ١٤٩٢، وخلفه أميركو فيسبوتشي (Vespucci)، حتى تدافع المتنصرون والمستعربون الإيبيريون إلى العالم الجديد بحماسة نادرة، مؤثرين المغامرة في المجهول على الحياة الذليلة تحت ربقة الدومنيكان المتعصبين واضطهادهم المتواصل. وقد حلّ هؤلاء المستوطنون في أميركا الجنوبية والوسطى وسواحل المكسيك الشمالية، وهي المناطق التي وصلت إليها مراكب كولومبوس وفسبوتشي وتم اكتشافها قبل غيرها إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

وخلافاً للأسلوب الذي اعتمده المستوطنون الإنكليز والفرنسيون والجرمان وغيرهم ممن استعمروا أميركا الشمالية، في إبادة الهنود الحمر، فقد كان العرب والمستعربون القادمون من أسبانيا والبرتغال أرفق بسكان القارة الأصليين، فعاملوهم بالتي هي أحسن، وتزوجوا منهم، وتعايشوا معهم، وتكاثروا هناك، حتى أصبح عددهم يفوق اليوم ٥٠٠ مليون كاثوليكي لاتيني الثقافة عربي الأصول في ثلثي أراضي القارة الأميركية.

وتجدر الإشارة إلى أن الملوك الإسبان دأبوا في العصور اللاحقة، وحتى استقلال أميركا اللاتينية عن أسبانيا والبورتغال، على تشجيع الهجرة إلى العالم الجديد، لأنها كانت تدرّ عليهم موارد وخيرات لا حدود لها من مناجم الذهب والمعادن والزراعات الاستوائية وغيرها، مما جعل إسبانيا أعظم قوة سياسية واقتصادية في العالم طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر.

* * *

وبعد. يكاد المؤرخون يجمعون على ان معظم البحّارة الذين رافقوا كولومبوس خلال رحلته الأولى عبر المحيط الأطلسي كانوا من العرب المتنصرّة، وفي عدادهم رحالون وملاحون مهرة خاضوا غمار المحيطات، وحملوا معهم من أدوات الملاحة والخرائط الدقيقة ما أسعف قائد الرحلة وساعده على إتمامها بنجاح. فقد انطلق كولومبوس في ٣ آب (أوغسطس)

١٤٩٢ من ميناء پالوس الإسباني على البحر المتوسط. ويقع هذا الميناء في ولاية مرسية الجنوبية ذات الأكثرية العربية. وقد زوّده ملاحوه العرب بالإبرة المغناطيسية وباسطرلاب متطور لم يكن يملك مثله إلاّ المشارقة.

وما ينطبق على هذه الرحلة الأولى ينطبق أيضاً على الرحلات الثلاث الأخرى التي قام بها كولومبوس عبر الأطلسي لاحقاً، وكذلك الرحلات الأربع التي قام بها خلفه اميركو ڤيسپوتشي. فقد تمت هذه الرحلات كلها بفضل الملاحين والبحارة العرب الأندلسيين، وكان فريق من هؤلاء يستوطن المناطق المكتشفة، فيما يعود الفريق الآخر إلى العالم القديم ثم يستأنف ركوب البحر مع قوافل جديدة نحو الغرب.

وقد تواصل تدفق العرب والمستعربين من الأندلس إلى أميركا طيلة القرن السادس عشر، حتى كانت الهجرة القسرية العظمى بين عامي ١٦١٠ و١٦٢٠، حيث أجبر قرار صادر عن الإمبراطور شارل كنت جميع العرب المتنصرين الذين كان عددهم قد تضاءل إلى حوالي نصف مليون في ذلك الحين، على النزوح النهائي عن شبه الجزيرة الإيبيرية، فانتقلوا في غضون عشرة أعوام إلى القارة الجديدة.

ولا بد من التنويه في هذا المجال، بأن كولومبوس وڤيسپوتشي وغيرهما من الإسبان والطليان والبورتغاليين الذين اكتشفوا القارات وأبحروا في المحيطات البعيدة أوائل عصر النهضة قد اعتمدوا الخرائط المحكمة والكتب التي وضعها العرب منذ القرن التاسع وحتى القرن السادس عشر في علوم الجغرافيا والبحار والفلك والرياضيات، والتي ترجمت إلى اللاتينية في عهد ملك صقلية فريدريك الثاني دي هوهانستوفن صديق السلطان صلاح الدين الأيوبي وخلفائه، وفي بلاط ملك قشتالة آلفونسو العاشر الملقب «بالعالم» في القرن الثاني عشر. وفي هذه المؤلفات جغرافيا بطليموس التي نقلها ثابت بن قرّة، ثم العلامة أبو بكر الخزارزمي مخترع علم الجبر إلى العربية سنة ٨٥٠م. وقد فقد أصلها اليوناني ولم يعرفها الغرب لاحقاً إلا من خلال نصها العربي. وفي عداد هذه الكتب أيضاً «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للجغرافي الرحالة المشهور الشريف الإدريسي الذي عمل ربع قرن في بلاط ملك صقلية روجر (ويسميه المؤرخون العرب رجار)، وقد أنجز هذا القاموس الجغرافي الجامع سنة ١١٥٣م. وكذلك كتاب «المسالك والممالك» للفارسي المستعرب ابن خُرداذبّه، المتوفي سنة ٩٢٢م. وكتاب «الفوائد في علم البحر والقواعد» للرحالة المقلب «أسد البحار» شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي المعروف بابن أبي الركائب، وهو معاصر

لكولومبوس وڤيسپوتشي، وكان له الفضل الأول في إرشاد البورتغالي ڤاسكو دي غاما إلى الشرق الأقصى عبر رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي، وغيرها من كتب المقريزي والمسعودي وأبي الفداء.

وكان كولومبوس الذي قرأ نتاج هؤلاء باللاتينية والكتالينية (لغة قشتالة) والإيطالية، يؤمن بكروية الأرض تصديقاً لما يقوله ابن خرداذبه من أن الأرض «كرة مستديرة، وهي في وسط الكون أشبه بمحّ البيضة (أي أصفرها) وسط الزلال». ويؤمن كذلك بأن التوغل في بحر الظلمات، وهو اسم المحيط الأطلسي عند القدماء، يصل بالمسافر إلى الهند والصين وغيرها من بلدان الشرق الأقصى، وذلك تصديقاً لما رواه المسعودي في «مروج الذهب» بصدد رحلات سابقة قام بها ملاحون من أهل الأندلس والمغرب عبر بحر الظلمات، «فأدركوا أرضاً مجهولة قد تكون هي الهند أو سيلان». ويضيف المسعودي أن بعض أولئك المغامرين هلك وبعضهم نجح وأعاد الكرّة مراراً!! وانطلاقاً من هذا اليقين ظن كولومبوس عندما ألقى المراسي في الجزر المتاخمة لأميركا الوسطى أنه وصل إلى الهند، فاطلق على أول الذين التقاهم هناك من شعب «المايا» وغيرهم اسم «الهنود الحمر».

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن الشريف الإدريسي كان قد صنع لملك صقلية رجار كرة فضية هائلة نقش عليها صورة الأقاليم السبعة للأرض، بما في ذلك البلدان الجديدة التي أبحر إليها بنفسه كشطآن فرنسا الغربية وبريطانيا وأرلندة وأسلندة وغرونلاند، وظهرت على الكرة أرض غامضة لجهة الغرب قد تكون هي القارة الأميركية. ونذكر في هذا الصدد أن الشريف الإدريسي شرح في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ما ظهر في تلك الكرة من مواقع، ثم وضع على أساس الشرح خريطة الأرض التي اقتصرت على العالم القديم ونشرها المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥١. ويقول في مقدمة هذا الكتاب «إن هنالك إقليماً ثامناً في الأرض لا يزال مجهولاً خلف بحر الظلمات، نأمل باكتشافه إن شاء الله». ولكن الأجل وافاه في سبتة عام ١١٦٦م. دون أن يحقق مبتغاه، كما أن اضطرابات وقعت في صقلية بعد ذلك بفترة وجيزة دمرت الكرة الفضية الشهيرة التي كانت مقصد الباحثين والملاحين.

* * *

يتضح من ذلك كله، أن كولومبوس وخليفته ڤيسپوتشي كانا على معرفة تامة بما سبقهما إليه العلماء العرب من إدراك لوجود القارة الجديدة. وقد أفادا من ذلك كما أفادا من تجارب الملاحين والبحارة العرب وآلاتهم المتطورة بالنسبة لذلك

العصر في ارتياد المجهول واكتشاف أميركا.

ولا بد لي قبل اختتام هذا البحث من إيراد ما حدثني به العلاّمة المستشرق ريجيس بلاشير يوم التقيته في بيروت بتاريخ ١٧ و١٨ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٥٥، وقد نشرت الجزء الأول من حديثه حول «الحوار بين الثقافات» في جريدة «الجريدة» يومذاك، ولم يتسن لي نشر الجزء الثاني من ذلك الحديث الرائع الذي أحتفظ به إلى اليوم، بسبب وعكة صحية ألمت بي يومذاك، وآمل آن ينشر لاحقاً مع غيره من المواضيع في جملة أعمالي الكاملة.

ومما قاله لي البروفسور بلاشير:

«إن الملاح العربي النجدي أحمد بن ماجد لم يكن ملاحاً عادياً، فهو عالم بالهيئة (علم الفلك) والجغرافيا والأحوال الجوية، والكائنات الحية البحرية من نباتية وحيوانية، وتيارات البحار والمحيطات ومواقع جريها ومستوى حرارتها أو صقيعها، وله في ذلك مؤلفات معظمها فقد، وبعضها لا يزال في متناول العلماء. وهو أول من قاس الحقل المغناطيسي، وكان يملك آلات ومعدات متطورة قادرة من خلال ما تعكسه المرايا المثبتة في أنابيب نحاسية تصل بتناوب كعوبها إلى أعماق المحيطات، على استكشاف الأغوار المائية وما تحتويه».

ويضيف الأستاذ بلاشير: «لديّ وثائق تثبت أن ابن ماجد قطع رأس الرجاء الصالح وأبحر على مقربة من شطآن أفريقيا إلى جبل طارق والأندلس. وهناك التقى البحار البورتغالي «برثولوميو دياز دي نوڤايس» الذي كان يعتزم القيام برحلة إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٧، ويرغب في الاستعانة بخبرة ابن ماجد. ولكن الرجلين لم يتفقا بسبب عجز البورتغالي Bartolomeo Dias de Novaes عن دفع التعويضات المالية المطلوبة. وقد قام «دي نوڤايس» بتلك الرحلة خلال تلك السنة، لكنه لم يتمكن من عبور التيارات في جنوب أفريقيا وعاد إلى لشبونة بخفي حنين».

وبعد بضعة أعوام - والكلام دائما للعلامة بلاشير - عزم ڤاسكو دي غاما على القيام بنفس الرحلة. فاتصل بابن ماجد عبر سعاة في شرق المتوسط، فأوفد إليه أحد تلامذه المدعو محمد بن أسامة النجدي إلى البورتغال مع العدة اللازمة. فصحبه هذا حتى اجتاز رأس الرجاء الصالح الذي كانوا يسمونه Cab - tormentozo (بالفرنسية: Le Cap Foudroyant) وأوصله إلى «الميناء الهندي» في كينيا (Malindi)، ومن هناك قاده ابن ماجد عبر المحيط الهندي إلى الشرق الأقصى.

ثم يجزم البروفسور بلاشير «أن ابن ماجد كان قد اجتاز المحيط الأطلسي إلى القارة الأميركية قبل كولومبوس بأعوام، وعبر رأس هورن جنوبي الأرجنتين إلى السواحل الغربية للقارة في تشيلي وبوليفيا والبيرو حيث التقى شعب «الإينكا» المتحدر من أصول آسوية، وذلك بفضل مسبار خاص كان يكشف بواسطته عمق المحيط وأرصفة المرجان والجزر الرملية تحت المياه».

والجديد الأكثر أهمية في حديث بلاشير هو تأكيده أن اسم أميركا عربي أصله «أميركم»! فمما قاله لي أن أميركو ڤيسپوتشي (Americo Vespucci) اسمه الأصلي آلبيريكو ڤيسپوتشي (Alberico Vespucci)، وإن هذا الرجل عندما عزم على رحلته الأولى إلى العالم الجديد بعد كولومبوس، اختار معظم بحارته وملاحيه من العرب. فلما دخل مركب القيادة هتف الربابنة بالبحارة: «هذا أميركم» بالعربية. وقد سأل ڤيسپوتشي عن معنى ذلك الهتاف، فقيل له إنهم يعنون: «هذا قائدكم» وفي تلك اللحظة قرر أن يبدّل اسم آلبيريكو إلى أميركو، مع خطف الميم في «أميركم» لأنها لا تطابق نهاية الأسماء الإيطالية! ومعروف أن أميركو ڤيسپوتشي هو الذي أعطى اسمه للقارة الجديدة، فسميت أميركا».

١٩٩٧/٤/١٦

المراجع:

* G. Santon: *Introduction to the History of Science* - Baltimore, 1952.
* T. Cuyler Young: *The Cultural Contribution of Islam to Christendom* - (Colloqium on Islamic Culture In its Relation of the Contemporary World) - Princeton (U.S.A), 1953.
* H.K. Mann: *La Vie des Papes à l'aube du Moyen Age* - Paris, 1922.
* Bénoist Méchin: *Frederic de Hauhenstaufen ou le Rêve Excommunié* - Paris, 1980.
* Gabriel Ferrand: *Le Pilote Ababe de Vasco de Gama, et les Insrtuction Nautiques des Arabes au XVeme siècle* - (Annales de Geographie, 31ème année, No.127) Paris, 1922.
* André Siegfried: *La Civilisation Latine* - Paris, 1960.
* Victor Malka: *Les Juifs Sépharades* - Paris 1991.
* Rodrigo de Zaya: *Les Morisques et le Racisme d'Etat* - Paris 1992.
* Jacques Attali: *1492* - Paris, 1991.
* Maurice Lemoine: *Les Naufragés de la Migration Vers le Nord* - Le Monde Diplomatique, Dec 1992.

* الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ مختارات من كبار الجغرافيين العرب في العصر الوسيط، تأليف ريجيس بلاشير، بيروت ١٩٣٢).
* ابن خرداذبه: المسالك والممالك ـ المكتبة الجغرافية العربية، المجلد ٦، تأليف دي خويه، ليدن ١٨٨٩.
* المسعودي: مروج الذهب ـ القاهرة ١٩٣٨.
* أنور عبد العليم: ابن ماجد الملاح ـ القاهرة ١٩٦٦.
* ستانلي لين پول: قصة العرب في إسبانيا ـ اقتباس علي الجارم ـ القاهرة ١٩٤٤.
* إسماعيل ڤالدس ڤرغارا: تاريخ التشيلي ـ تعريب ماري عطا الله ـ بيروت ١٩٥٧.
* مجلة «المجلة» المصرية: الأعداد: ٥. ٦. ٨. ١٠، ١٣، ١٤، ٢٨، ٢٩. ٤٢، ٥٣. ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٧٤.

ربيع نيسان الأحمر.. دماء، ودموع

في شهر نيسان (أبريل) ينتشر البيلسان والأقحوان وشقائق النعمان، فترتدي المروج ثوبها الأخضر، وتصحو الطبيعة من كهف الشتاء عروساً مجلوة بالعطور...

إلا في بلد تاعس بائس عرف باسم لبنان من قديم الزمان، صنع فيه السيد المسيح أولى عجائبه فحوّل الماء إلى خمر في عرس قانا، وقال النبي محمد في حديث شريف «إنه أحد الأجبل الخمسة التي تحمل العرش يوم القيامة». وفي كتاب «الإعلام بفضائل الشام» إن إبراهيم الخليل صعد جبل لبنان، فقيل له: «انظر، فكل ما أدركه بصرك مقدس».

لبنان هذا الذي باركه الأنبياء وتغنّى به الشعراء، يتمنى لو حذف من تاريخه شهر نيسان (أبريل).. لأن زنابق نيسانه تنمو على أشلاء ضحاياه وفي مصارع شهدائه، ولأن ورود نيسانه تنبت من عيون الأطفال الشاخصة تحت الثرى، وصدور الأمهات المعفرة بتراب المجازر، وعروق الشيوخ الواغلة في أديم العدم...

وتبقى الذكريات.

— ١ —

في ١٠ نيسان (أبريل) ١٩٧٣، دخل الكومندوس الإسرائيلي مخيمات الفلسطينيين في بيروت، واغتال الفدائيين الثلاثة، كمال عدوان وأبو يوسف النجار وكمال ناصر. ولأن هذا الأخير كان مسيحياً، صلبوه على أرض غرفته! ولأنه كان من كبار الشعراء، مرّغوا قصائده التي كان يعدها للنشر بدمه المراق، فطغى النجيع الأحمر على حبرها الأزرق وذهب معظمها إلى القبر معه...

يومها غضب الرئيس صائب سلام، وقد هاله تقصير الدولة والأجهزة، فاستقال مع حكومته. ودارت الأزمة دورة العنف ثلاثة أسابيع وقع خلالها أول صدام واسع بين الجيش والفدائيين. وكان اهتزاز الثقة أشد وأدهى من اهتزاز الأمن، فبدأ استغلال التناقضات في الساحة اللبنانية من جانب العدو، كما بدأ التأسيس لحروب الأمم على أرض لبنان.

— ٢ —

وفي ١٣ نيسان (أبريل) ١٩٧٥، وقع الإنفجار الكبير الذي أعدوا له العدة

بأعلى درجات المهارة والإحتراف. فكانت مجزرة عين الرمانة، وكان ما كان من فتك المؤامرة واستشراء الفتن ستة عشر عاماً حولت وطن المحبة والتسامح والامان، بؤرة فاغرة الأشداق من بؤر الجريمة والسفك والإرهاب، تنكر بعدها غربان الحرب القذرة بزي الحمائم الوادعة، وما زالوا يلوحون باغصان الزيتون وأعلام الوفاق، تحت رايات سلم هزيل افسح للمرتزقة من حيتان المصالح وذئاب المعاصي، خلال سبعة أعوام، في تفريغ عياب الوطن وسرقة ما تنزّل عليه في غرفة العناية الفائقة من صدقات.

أما عشرات الألوف من ضحايا المجازر الجماعية والقذائف العشوائية والذبح على الهوية، فقد صنع لهم قاتلوهم شواهد فخمة نصبوها على قبورهم، واختصوا عوائلهم بمكافآت سخية على فضيلة الصمت..

وأما الذين هجّروا من ديارهم وقراهم، فما زالوا يحلمون بالعودة على أرصفة الوطن.. والمناظرة قائمة في مقامات الحريري وأفلاك دولته، حول صندوق فارغ الداخل إليه مفقود والخارج منه مرصود.

— ٣ —

ثم بين ١١ و٢٦ نيسان (أبريل) ١٩٩٦، تعرض لبنان لتصفية حساب بين شمعون بيريس وخصمه اللدود بنيامين نتنياهو. فقامت بين الرجلين وحزبيهما مبارزة تمحورت في سماء الجنوب والبقاع الغربي على رؤوس اللبنانيين الذين هدمت قراهم وسقط منهم ٣١٤ قتيلاً بريئاً، وشرّد أكثر من ٣٠٠ ألف مواطن خلال أسابيع.

القصة الحقيقية لهذه الجريمة أقدّمها إلى القارىء مستخلصة من شوائب الحماسة والإنفعال، بالصيغة الآتية التي نقلها إليّ صحفي أوروبي مطلع:

* في خريف ١٩٩٥، قتل إسحق رابين الرجل التاريخي الذي صنع انتصارات إسرائيل. وكان زعماء حزب العمل على يقين بأنّ القاتل هو نتنياهو الذي استعمل بواسطة الحاخامين المتعصبين آلة بشرية للقتل اسمها ييغال عمير.

* وفي شباط (فبراير) ١٩٩٦ قرر بيريس تقديم الإنتخابات النيابية والرئاسية عن موعدها المقرر في خريف ١٩٩٦، بحيث تجري في ٢٩ أيار (مايو) من تلك السنة، لكي يفيد من الصدمة النفسية التي أحدثها اغتيال رابين في الرأي العام الإسرائيلي. ولكن العمليات الإنتحارية السيئة التوقيت التي أقدم عليها الإسلاميون الفلسطينيون قبيل الموعد الجديد للإنتخابات، كانت بمثابة ضربة

قاضية لحملة بيريس الإنتخابية، وقد جعلت الرأي العام يتحول بلا تردد إلى معسكر نتنياهو.

* شعر بيريس أنه سيخسر المعركة، فقرر عرض عضلاته في لبنان كي يسترد المبادرة من التيّار المنافس. ومن هذا المنطلق بدأت عملية «عناقيد الغضب» التي جاءت مفاعيلها الإنتخابية في الأيام السبعة الأولى لمصلحة بيريس. وسرعان ما تبين لنتنياهو أن ميزان القوى في الداخل يميل نحو خصمه، فوجد في صفوف العسكريين الموالين له من يوجه الصواريخ إلى مركز الأمم المتحدة في قانا حيث كانت مخابراته على علم دقيق بوجود المدنيين اللاجئين. وهكذا اغتال نتنياهو غريمه بيريس سياسياً، بعدما اغتال سلفه رابين جسدياً، واغتال معهما في تلك اللحظة بالذات عملية السلام.

أنها الحقيقية الواضحة بثوبها الأبيض الملطخ بالدماء. وأخشى ما نخشاه، وقد بات لبنان مكسر عصا وساحة مبارزة لأعدائه، أن يفتعل نتنياهو بدوره «عناقيد غضب» جديدة يقطفها من لبنان، بعد المأزق الذي حشر نفسه فيه على جبل أبو غنيم، والوحلة التي زج نفسه فيها بسبب فضيحة روني بار أون، فينسي العالم، ولو إلى حين من خلال مغامرة عدوانية في لبنان، انتهاكه السافر لحرمة القدس، ويسقط شكوك الإسرائيليين في أخلاقه النظامية وصدقيته السياسية.

ـــ ٤ ـــ

وفي نيسان (أبريل) أيضاً وأيضاً... في ٢٤ نيسان الذي يصادف غداً ذكرى المذابح الأرمنية التي لا يجوز أن يطالها النسيان، نتوقف لحظات من التأمل والإعتبار.

فقد نسي اللبنانيون ما حل بهم سنة ١٩١٦، من جوع أكل الناس في غلوائه لحوم أطفالهم، وكيف سيق أعيان بيروت ودمشق في نيسان (أبريل) إلى المحاكم العرفية تحت نعال العسكر التركي، ليحكم عليهم بالموت وتنصب لهم المشانق في أيار (مايو)... والسفاح جمال باشا قائد الجيش الثاني يترصد أنصارهم، ويهتك أعراضهم ويقيم الولائم على الجثث المتآكلة في شوارعهم.

نعم. نسي اللبنانيون من مختلف الطوائف ما حلّ بهم، مع الأسف، اللهم إلا طائفة واحدة لم تنس، هي الطائفة الأرمنية، لأن النكبة اتي حلت بها كانت أكبر من كل النكبات المماثلة في التاريخ، وقد سبقتنا جميعاً إلى معانقة الشهادة.

ففي ٢٤ نيسان (أبريل) ١٩١٥، أعدم الأتراك ٢٥٠٠ من خيرة رجال الأرمن، ثم أطلق وزير الداخلية طلعت ووزير الحربية أنور وقائد الجيش الثاني

جمال، نفير الموت في بيوت الأرمن وقراهم، فقتلوا منهم مليوناً ونصف مليون فقط بين كيليكيا ووادي عربة.

وعوض أن تبحث الدولة التركية عن كفّارة تعوض بها عما ارتكبه حكامها اليهود «الدونما» جماعة «تركيا الفتاة» في الحرب العالمية الأولى من جرائم، بحقّ اللبنانيين والسوريين والأرمن، يبدو إنها لم تجد، وهي تعاني العزلة الدولية المطبقة، افضل من التحالف العسكري مع إسرائيل!

إنه التاريخ يعيد نفسه، من الباشوات الثلاثة، طلعت وانور وجمال، إلى إسماعيل حقي كارداي، خليفة «الدونما» الذي قام بزيارة نتنياهو الاشكينازي في دولة الإرهاب والإغتصاب، فوضع اكليلا من الزهر على نصب ضحايا المحرقة الهتلرية، وقد كان أولى به أن يوزع الأكاليل على اضرحة الشهداء الأرمن الذين اغتالتهم دولته، من بر الأناضول إلى بادية الشام وصحراء النفود.

هنيئاً للجيش التركي هذا الخيار الاستراتيجي غير المشرّف.. فإن الطيور على أشكالها تقع، ولا نعتقد في أي حال أن الشعب التركي المؤمن الشريف سيغضي على استهتار العسكريتاريا المستكبرة بتقاليده وروحه وتراثه. فسيأتي اليوم الذي يدرك فيه كاراداي ــ وهو كردي الأصل يبيح دماء الأكراد ــ وأركان حربه المتشنجون أنهم فقدوا ثقة الأمة. وعندها لن ينفعهم سلاح إسرائيل، ولا طيرانها الذي حلت عليه لعنة قانا.

١٩٩٧/٤/٢٣

الحجّ البابوي إلى لبنان

قدوة العالم المسيحي

بالمسيحية اللبنانية الشجاعة

— ١ —

«الأسرار» في المسيحية مسألة لاهوتية ماورائية يتعين على المؤمن أن يقبلها بلا مناقشة ولا اعتراض. فهناك سرّ الثالوث، وسرّ التأنّس والصلب والقيامة، وسرّ المعمودية، وسرّ الزواج، وسرّ الاعتراف، إلخ...

لذلك، ما من كنيسة مسيحية إلا وينعكس إيمانها بالأسرار الإلهية على سلوكها الدنيوي الذي تقيم في سياقه للتحفظ والكتمان منزلة خاصة. والفاتيكان الذي يرعى أهم هذه الكنائس منذ القدم، أعني الكنيسة الكاثوليكية، مؤتمن دائماً على أسرار تجسدها أدوار، وموكّل بسرائر تحجبها مظاهر.

ثم إن البابا رأس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، كان عبر التاريخ يزار ولا يزور مخافة أن يحمل انتقاله على محمل التأثير السياسي. ولكن التحديات الكبرى التي واجهت مصير الدين في النصف الثاني من القرن العشرين دفعت البابا الحالي إلى مخالفة هذا التقليد على نطاق واسع، فتوجه إلى مناطق ودول عدة، وكانت لزياراته دائماً مفاعيلها السياسية، كما حصل في بولندة موطنه الأصلي الذي أنكر الشيوعية بعد مجيئه إليه، ودق الإسفين الأول في كيان الاتحاد السوفياتي.

وهو، في زيارته الأخيرة إلى سراييفو عاصمة البوسنة المسلمة، قد أقام الحد على الصرب والكروات وكل عنصرية مذهبية أخرى في البلقان، قائلاً بلغة قداسه الرمزي تحت الثلج: «ارفعوا أيديكم عن المسلمين في البوسنة والهرسك، لأنهم أصبحوا منذ الآن في حماية «النظام الروحي الجديد» القائم على حتمية اللقاء الطوعي والانسجام القدري بين المسيحية والإسلام، لا في حماية ما سمي بالنظام العالمي الجديد، وقد تخصص في إضرام الفتن والحروب لكي تستجير به الحكومات والشعوب في سبيل إخماد نيرانها، فتغدو كالمستجير من

الرمضاء بالنار...»

أما زيارته للبنان، فسببها المعلن يكاد يكون بروتوكلياً، وهو إصدار الإرشاد الرسولي المنبثق عن مجمع الأساقفة الكاثوليك أو ما يسمى بالسينودس، وكأن ذلك الإصدار لا يمكن أن يتم إلا بانتقال قداسته إلى لبنان. هذا، مع العلم أن مجرد نشر الإرشاد المذكور في صحيفة «الأوبسرفاتوري رومانو» الناطقة بلسان الكرسي الرسولي كان يكفي لاعتباره نافذاً.

وقيل من جهة ثانية أن سبب الزيارات يرمي إلى بعث الإيمان في النفوس. وهو قول يكاد ألا يقنع حتى السذّج، لأن المؤمن مؤمن ولو عذبوه واضطهدوه وصلبوه، والكافر كافر ولو زاره وباركه ألف بابا.

لذلك تعين استقصاء الأسباب الخفية للزيارة، وهي في رأي الخبراء العارفين بدقائق السياسة الفاتيكانية العليا تندرج تحت ثلاثة عناوين:

١ ـ دعوة العالم المسيحي المشكك الملحد إلى الاقتداء بالمسيحية اللبنانية المحافظة والشجاعة.

٢ ـ دعوة العالم الإسلامي الرافض والمتشدد إلى الاقتداء بالإسلام اللبناني المنفتح المقدام.

٣ ـ توجيه رسالة صامتة أبلغ من أي خطاب علني إلى دولة إسرائيل.

ولما كانت «مفكرة الأيام» لا تتسع لموضوع جامع متكامل كالذي نحن بصدده، فقد وجدت من الأفضل تجزئة نشره بحسب العناوين الثلاثة المدرجة أعلاه ابتداء من اليوم.

* * *

في معزل عن المبادئ الإلهية الجوهرية المتعلقة بالإيمان الديني الصرف والتي لا يختلف عليها المسيحيون أياً كانت مذاهبهم، تهتم الدوائر الفاتيكانية اليوم ـ حسبما ورد في كتاب «الإيمان الكاثوليكي الجديد» الصادر عن الكرسي الرسولي عام ١٩٩٢ ـ بالمبادئ التي وضعها الإنجيل للمناقبية المسيحية في المطلق، وهي أربعة:

١ ـ احتقار المال ورفض عبادته.

٢ ـ اجتناب شهوات النفس والجسد.

٣ ـ احترام إنسانية الإنسان وحريته وحقوقه.

٤ ـ إرساء العدالة ورفع المظالم في المجتمع المسيحي الإنساني.

في ضوء هذه المبادئ الأساسية العليا تنامت الحضارة المسيحية وتواصلت على مرّ العصور. وبالرغم من أن التزام المسيحيين بها لم يكن في أي مرحلة من التاريخ التزاماً نموذجياً، لأسباب مختلفة لا مجال إلى تعدادها في هذه العجالة، إلا أنها ظلت تطبق بنسب متفاوتة في العالم المسيحي وسلمت في

حدود الإمكان من تضليل السفسطات واستشراء الهرطقات وتجاوزات الحكام حتى أواسط القرن التاسع عشر... فكان المنعطف الخطير بدء الثورة الصناعية في ذلك الحين، واستدراج المسيحية بالتالي إلى ردة وثنية بلغت حدّها الأقصى في نهاية الألف الثاني التي نعيشها اليوم، والتي يطبعها انحطاط كياني وفراغ روحي وانهيار خلقي وجشع حيواني لم يسبق له مثيل.

* * *

ولعل أخطر ما يشغل الفاتيكان في المرحلة الراهنة، هو البدائل المادية التي حلت محل المبادئ والمثل المسيحية العليا في المجتمع الإنساني. فمنذ العام ١٨٤٨ تاريخ صدور «المانيفست الشيوعي» عن ماركس وإنجلز تحوّل المفهوم الديني للصراع بين الخير والشر، إلى مفهوم إلحادي مادي في المواجهة بين الاشتراكية والرأسمالية، الأمر الذي استتبع صراعاً بين الطبقات ما زال متواصلاً إلى اليوم بالرغم من زوال الاتحاد السوفياتي والأنظمة الشيوعية، كما تعاظم الإيمان بالعلم، في خط موازٍ، بديلاً عن الإيمان بالله، وتجرد العلم نفسه من أهدافه الخلقية، فأصبح الإنجاز العلمي المفيد النافع، والإنجاز المسيء القاتل، في منزلة سواء، بل أن كفة الإساءة بالعلم رجحت على كفة الإحسان به، وبات الإنسان عبداً لمخلوقاته العلمية التدميرية التي لا يقوى على التحرر من تهديدها الدائم لوجوده، بل لوجود الكون بأسره.

ولكي نأخذ فكرة أوضح عما نسميه تجاوزاً «نكبة الإنسانية بالعلم»، يكفي التذكير بأن النفايات الصناعية قد حوّلت الغبراء والزرقاء إلى مزابل نكراء. ولم يتوصل العلماء حتى اليوم إلى الحؤول دون تسرب إشعاعها لمئات السنين، حتى ولو دفنت على عمق يتجاوز ٥٠٠ متر تحت الأرض أو داخل مستوعبات ضخمة من الإسمنت المسلح في قاع البحار. وقد وجدت الدول الصناعية أن تكاليف هذا التخلص النسبي وغير الموثوق من نفايات الصناعة يفوق ما تحققه من أرباح، فاستسهلت تصريفها بواسطة عملاء من رجال المافيا يطرحونها على أرصفة الموانئ المنسية وشواطئ الخلجان المهجورة في العالم الثالث.

ويكفي أن نعرف كذلك، على سبيل المثال، أنه ما من قوة في العالم تملك الوسائل التقنية القادرة على تخليص أوكرانيا من مفاعل تشرنوبيل الذي تصدع سنة ١٩٨٦، ولا يزال إلى اليوم يبث إشعاعه المميت في دائرة قطرها مئة كيلومتر، وسيبقى هكذا ألف سنة أو أكثر، لكي ندرك الهول الذي يحيط بالعالم كله، وفي طليعته العالم المسيحي، بعدما أفلت العملاق النووي من القمقم، وما بيد الذين

أطلقوه حيلة في رده إلى محبسه.

ولو شاءت أي دولة نووية أن تستغني عن مفاعلاتها المستخدمة لأغراض السلم، ناهيك عن أدوات الحرب، لاحتاجت إلى مبالغ توازي ميزانيتها السنوية لعشرة أعوام. وقد عزمت دولة السويد مؤخراً على التخلص من مفاعلاتها النووية التي مضى على بنائها أكثر من عشرين عاماً وباتت معرضة للانفجار أو التسريب الإشعاعي بحكم التآكل وفوات مدة الاستهلاك. لكن الحكومة لا تزال مترددة في التنفيذ نظراً لتكاليف المشروع المقدرة بحوالي ٢٠ مليار دولار.

وثمة إنجازات علمية أخرى تسهم يوماً بعد يوم في تقليص الإيمان بالله، كالهندسة الوراثية واستنساخ الكائنات الحية والتدخل في جزئيات الخلايا بالوسائل المخبرية، وغير ذلك مما لا مجال إلى تعداده من خوارق التقنيات الحديثة. وتواجه الكنيسة بالإضافة إلى هذه التحديات العلمية ظاهرة الفرق والمذاهب المشبوهة ذات الطقوس الشيطانية والجاذبية الإباحية والانتحارية، وهي فرق منتشرة في الغرب تنقض المعتقدات الفوقية للدين المسيحي وتطعنه في جوهر إيمانه.

ويرجح الباحثون أن يكون لهذه الفرق المنحرفة محرك واحد وقيادة مركزية عالمية يصعب التعرف إلى رؤوسها المدبرة ومن يقف وراءها. وقد أفادت من كون المؤسسات الكنسية المسيحية تعيش في زمن آخر ولا يزال خطابها جامداً في أطر القرون الوسطى. الأمر الذي سهل على عباد الشيطان والجريمة والفحشاء استقطاب عناصر الشباب الضائع المائع، والمتمولين المتعطلين، والبؤساء والجهلة، كما سهل عليهم نشر الكفر والشعوذة والشذوذ والحرق والسفك والإرهاب في أوساطهم. فاضطرت الكنيسة الكاثوليكية في الأعوام الأخيرة إلى تأسيس حركات مسيحية جديدة للتصدي، خصوصاً في البرازيل وبلدان أميركا اللاّتينيّة وما زالت تحاول دون جدوى إرشاد الرعايا الكاثوليك إلى السبيل السوي.

* * *

أما فيما يتعلق بتطبيق المبادئ الخلقية والمسلكية التي نادى بها السيد المسيح، فقد أفلست المسيحية المعاصرة، خصوصاً في الغرب، إفلاساً شبه كامل!...

* في مسألة المال التي حسمها السيد بقوله: «لا تعبدوا ربّين، الله والمال»، فهم العالم المسيحي في عصرنا مع الأسف، أن المطلوب هو عبادة المال وترك عبادة الله. أما الفئة الضئيلة التي تعبد الله، فمعظمها يتألف من شيوخ مسنين بدأوا يزمّون الحقائب للرحيل.

* وفي مسألة الفواحش أصبحت

كلمات العفة، والعذرية، والامتناع، وما إليها، من سقط الحضارات البائدة في عالمنا المعاصر حيث تعتبر الإباحة الجنسية كالضيافة العادية، وحيث تسمح الموضة الرائجة بعقد الزواج بين الذكور أو بين الإناث شرعاً في دول مسيحية عدة باسم الحرية الجنسية. وقد بات الزنى على أنواعه بما في ذلك مضاجعة الأطفال القصر أو حتى الرضّع من يوميات الحيوانية السفلى.

* وفي مسألة الحقوق الإنسانية واحترام الإنسان، أسهم التطبيق اللامسؤول لمبدأ الحرية في تأسيس مجتمعات الفوضى، حتى لا يكاد يخلو بلد في العالم من صراع الطبقات والأحزاب، فتحول العقد الإجتماعي إلى شرعة حقد وافتراس يرعاها نظام رأسمالي انتهازي لا يشبع.

* وأما المرأة التي أرادها السيد رمزاً للأمومة الطاهرة اقتداء بأمه البتول، فحماها من طغيان الرجل وسوى بين طلاقها والزنى، كما رفض أن ترجم لذنوبها وقال: «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر»... هذه المرأة المستضعفة المفطورة على الرفق والعطف والمحبة والتضحية، جعلتها الحضارة المعاصرة سلعة للتجارة ورقيقاً يباع في سوق النخاسة المزدهرة، وحولتها إلى صنم في ساحة الموبقات وآلة بشرية عجماء تثير الغرائز على شاشات التلفزة ولافتات الإعلان، وتتعهد الشهوات المنحرفة والخيانات المكتومة في البيوت، كما تسقط بالتعري حلاوة سرها وتفضح بالتبذّل زور جمالها الذي أفسده التجميل وقبّحه الفراغ.

* وأما الظلم الذي قدم السيد نفسه فدية على مذبحه تشهيراً به وإزهاقاً له، فقد غدا نهجاً لازماً ودستوراً قائماً في عصرنا الحاضر... إنه ظلم الحكام للرعية وظلم الرعية للحكام. وهو ظلم الأقوياء للضعفاء والضعفاء للأقوياء، وظلم التعامل بالظلم والترهب للظلم في الجاهلية الوثنية الجديدة.

ذلك هو الكتاب البديل من الإنجيل، في عالم مصاب بطاعون المصالح، واغل في الإثم، والغ في بؤر الفساد، أنفه يطاول عنان الجوزاء من خلال مركباته الفضائية السابحة بين النجوم، وإسته يسبح في بركة آسنة من صديد المخازي تتناتشه في غمرها التماسيح.

* * *

كل هذا الانحراف وهذا التردي ينظر إليه الفاتيكان بقلق بالغ، مبدياً إعجابه يوماً بعد يوم بالمعجزة التي حققتها المسيحية اللبنانية في المحافظة على شخصيتها المميزة، رغم الحروب والأهوال التي أصابت لبنان في الربع الأخير من هذا القرن، والتي كان المسيحيون أغلى

وأرخص ضحاياها.

كذلك يعتبر الفاتيكان الذي يرصد الأوضاع اللبنانية باهتمام كبير من ١٩٧٥ إلى يومنا هذا، أن «الإحباط» المسيحي الذي أفرزته الحرب، و«الإفراط» المسيحي الذي تسبب بها، على ما يدعيه الإعلام المنحاز، عبارتان من صنع أعداء المسيحية والمسحيين، وهما وجهان لعملة واحدة لم تتأثر بها القاعدة المسيحية على الإطلاق، لأنها مؤمنة محافظة وشجاعة. وهو يرى - أي الفاتيكان - أن الذين أسهموا بالأمس في تشجيع «الإفراط» ويسهمون اليوم في تعزيز «الإحباط»، يهدفون إلى تسويق الإلحاد في المجتمع المسيحي اللبناني، ودفعه إلى نبذ هويته الروحية وشخصيته القومية، وترغيبه من طريق العلمنة الخداعة في العولمة الفكرية والدينية والسياسية المستسلمة، كما هو حاصل في معظم أنحاء العالم المسيحي المعاصر.

ولكن المسيحيين اللبنانيين صامدون. ولذلك يعتبر الكرسي الرسولي أن لبنان المسيحي هو برزخ الأمل الذي يساعده على استرجاع العالم المسيحي الأكبر إلى طاعة الكنيسة بالقدوة اللبنانية، كما يحقق مبتغاه في نقل رعيته العالمية المعذبة من بحر التهافت والانحلال الروحي والخلقي، إلى بحر الأمان في حمى الإيمان.

هذا هو المعنى الأول للحجة البابوية إلى لبنان. وقد قيل إن زيارة قداسته ستعيد الأمل إلى اللبنانيين. لكن المسيحيين اللبنانيين الصامدين يقولون إن زيارة لبنان هي التي ستعيد الأمل إلى البابا.

١٩٩٧/٤/٢٣

الحجّ البابوي إلى لبنان

قدوة العالم الاسلامي

بالاسلام اللبناني المنفتح

— ٢ —

في الجزء الأول من هذا البحث سلطنا الأضواء على الأزمات الكيانية التي تعصف بالعالم المسيحي في نهاية الألف الثاني، وقد اتخذ لنفسه دون المبادئ السامية التي تجلت في سيرة السيد المسيح وتعاليمه، بدائل وثنية إلحادية نزلت بالإنسان إلى مستوى البهيمية الغارقة في دائرة شهواتها المفرغة. كما نوهنا بامتياز المسيحية اللبنانية المحافظة والشجاعة التي عززت هويتها القومية وانتماءها الروحي، وتمسكت، رغم الحروب والمآسي التي شهدها لبنان، بالمثل الدينية العليا والمبادئ الخلقية الأصيلة، فاستحقت تقدير المرجعيات الروحية العالمية، وفي طليعتها مرجعية الفاتيكان.

وإذا كانت المصائر المسيحية في المنعطف التاريخي المعاصر موضع اهتمام رئيسي في دوائر الفاتيكان، فإن الكنيسة الكاثوليكية تولي المصائر الإسلامية قدراً مماثلاً من اهتمامها، نظراً لتلازم العقيدتين السماويتين العظيمتين وتفاعل الشعوب المؤمنة بهما عبر الأزمنة، وخصوصاً في عصرنا الحاضر الذي اختصر المسافات وعمم الاتصالات في مختلف الميادين.

لذلك ترتدي زيارة الحبر الأعظم يوحنا بولس الثاني إلى لبنان أهمية مسكونية عليا، وهي تعبّر عن مجموعة فوقية من المعاني لم تعبّر عن مثلها جميع الزيارات التي قام بها إلى مناطق وبلدان أخرى.

وسنعرض في هذا الجزء الثاني من بحثنا أهم الأزمات التي يعانيها العالم الإسلامي في مطلع هذا القرن الخامس عشر للهجرة، ونتبين كيف استطاع الإسلام اللبناني أن يحافظ على شخصيته المميزة في خضم التحولات المصيرية الكبرى، وإن يعتمد الحوار المنفتح سبيلاً إلى كلمة سواء في الوطن اللبناني والأفق الإنساني.

وكما أن زيارة البابا تعتبر دعوة للعالم المسيحي المشكك إلى الاقتداء بالمسيحية اللبنانية المحافظة، كذلك تعتبر الزيارة دعوة للعالم الإسلامي المتشدد إلى الاقتداء بالإسلام اللبناني الواثق المقدام.

* * *

بنهاية هذا القرن، يكون عدد المسلمين في العالم قد تجاوز ملياراً ومئتي مليون نسمة، وهو رقم يفوق عدد المسيحيين الكاثوليك الذي لن يتعدى حينئذٍ ملياراً ومئة مليون. وفي أي حال يظل كل من هذين الرقمين أدنى من مجمل أتباع الكونفوشية، وأعلى قليلاً من مجمل اتباع الديانة البوذية.

وتعرف المرجعيات المسيحية العليا، وفي طليعتها الفاتيكان، كما تعرف المرجعيات الإسلامية من مختلف المذاهب والطرائق والشيع، أن المسيحية والإسلام يكادان يكونان ديناً واحداً في كتابين... وان الفصام الحادث بينهما منذ أربعة عشر قرناً لا يعود إلى أي تناقض جوهري بين الإنجيل والقرآن، بل إلى شوائب التفسير لنصوص القرآن وأحكام السنة من جهة، وغرائب التاويل لنصوص الإنجيل وأحكام الكنيسة من جهة ثانية.

ولقد كان الأولياء المخلصون من أعلام الديانتين يسعون دائماً للعثور على «حجر فلسفي لاهوتي» يجمع بين الإسلام والمسيحية ويصهرهما عنصراً واحداً في دائرة الإيمان المشترك. لكنّ ثمّة عوامل خارجة عن روح الدين، كانت ولا تزال تتعمّد الإيقاع بينهما لأسباب متصلة بالمصالح السياسية والمطامع السلطوية، وتجعل التحدي المتواصل صفة ملازمة لعلائقهما التاريخية المتوترة.

وقد شعر الفاتيكان، بحكم كونه المرجعية المسحية الأهم، إنه مدعو قبل أي مؤسسة دينية أو مدنية أخرى إلى وقف مسلسل التحدي المشار إليه، مهما تكن التضحيات والمحاذير، خصوصاً بعد سقوط الأيديولوجية الماركسية وإصرار القوى الصناعية والرأسمالية العظمى على افتراس العالم الثالث، وفي طليعته العالم الإسلامي الذي يملك موارد طبيعية هائلة، وذلك تحت غطاء كيان هيولي افتراضي سمّي «النظام العالمي الجديد».

وكان على الفاتيكان، بفعل هذا التوجه، أن يتعامل من منطلق واحد مع واقعين متنافرين تفصل بينهما قرون متلبسة بمنطق الحرب، حافلة بالمآسي، غارقة في الدماء.

أما في التعامل مع الواقع المسيحي، فقد ركز الفاتيكان اهتمامه على أوروبا الغربية التي تتحسس أكثر من أي منطقة مسيحية أخرى، مشكلات العالم الإسلامي وقضاياه. ويمكن القول أن النجاح النسبي الذي تحقق في مد جسور الحوار بين

شمال المتوسط وجنوبه، وتجسد في مؤتمر برشلونة عام ١٩٩٥، ثم في اجتماع مالطة الأخير، فضلاً عن تنقية الأجواء بين الأوروبيين وكل من سوريا وليبيا والعراق وإيران التي يعتبرها «النظام العالمي الجديد» دولاً إرهابية بالمفهوم الإسرائيلي للإرهاب، إنما تم بفضل المساعي الفاتيكانية المتواصلة منذ أعوام.

وعلى أن التقارب المنشود لا يزال في مراحله التأسيسية الأولى، وبالرغم من ضغوط النفوذ الصهيوني وتسجيله بعض النقاط في المبارزة القائمة، كالحكم الذي صدر مؤخراً عن القضاء الألماني واتهم القيادة الإيرانية بقتل المعارضين الأكراد في مطعم ميكونوس ببرلين سنة ١٩٩٢، فعطل إلى حين مسيرة العلائق الجيدة المتنامية بين أوروبا وإيران... أو كالتصلب الإسرائيلي في مسالة الاستيطان الذي حال دون صدور بيان مشترك عن مؤتمر مالطة... فإن مسيرة التطبيع بين المسيحيين الأوروبيين والمسلمين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، تتجه نحو أهدافها البعيدة بحزم وتصميم لم يعرف مثيل لهما في القرون الغابرة، وسيكون من الصعب على أي كان أن يعيد التاريخ إلى الوراء.

وأما في تعامله مع الواقع الإسلامي، فيرى الفاتيكان أن الأزمات الكيانية التي يعانيها المسلمون هي من خصوصياتهم، ويرفض بالتالي أي تدخل فيها. لكنه مصمم بالمقابل على متابعة السعي لتأمين شراكة أوروبية - إسلامية متوازنة، وهو يعتقد جازماً أن الظروف الموضوعية المعاصرة تجعل من هذه الشراكة حتمية تاريخية، ما أن تكتمل حلقاتها ومقوماتها حتى تسقط أزمات العالم الإسلامي بانتفاء السلبيات التي أوجدتها، والمسببات التي أدت إلى استشرائها.

ويمكن أدراج مشكلات العالم الإسلامي تحت، اربعة عناوين رئيسية:

١ - الأصوليات الإسلامية.

٢ - راديكالية الأنظمة.

٣ - حجب المرجعيات الروحية.

٤ - التعثر الاقتصادي والاجتماعي والعلمي.

* * *

* نبدأ بالأصولية، أو العودة إلى الينابيع، فنلاحظ أن الموجات السلفية المتشددة كانت في مختلف مراحل التاريخ تنتشر أو تتقلص طبقاً لحجم الأخطار الداخلية أو الخارجية التي تهدد العالم الإسلامي. والشاهد الاكثر تعبيراً عن هذه الحقيقة هو نتاج الإمام أحمد بن تيمية الفقيه الحنبلي الشهير الذي يعتبر أبا الأصولية ومرجعها الاكبر إلى يومنا هذا. فقد عاش ابن يتيمة بين القرنين الثالث

عشر والرابع عشر للميلاد، وعاين الأهوال والكوارث التي خلفتها غزوات التتر والمغول في ممالك الإسلام، الأمر الذي انعكس في «رسائله» و«فتاواه» نهجاً متشدداً صارماً.

ولم يكن الإمام الغزالي قبله في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر الميلادي، أقل انفعالاً بالنكبات التي حلت بالمسلمين والفوضى التي عمت هذه المنطقة إبان الحروب الصليبية، مما دعاه إلى «أصولية صوفية زاهدة»، إن جاز التعبير، هي الوجه الآخر للأصولية المتشددة التي دعا إليها ابن تيمية. وقد عدّد الغزالي في «المنقذ من الضلال» أسباب اعتكافه وانقطاعه إلى التأمل أربعين يوماً بلياليها، فقال إنها عائدة إلى احتلال الصليبيين بيت المقدس، وحروب المسلمين فيما بينهم كما حدث للأمير بُرْكيارِق السلجوقي ابن ملك شاه وأخيه محمد، وإلى استشراء الفرق الباطنية، وانتقال العقيدة من القلب إلى اللسان.

فلا غرو إذن، وصورة الأمس مطابقة لصورة اليوم في مدار التاريخ الذي يعيد نفسه، أن تكون الأسباب الكامنة وراء الأصوليات الإسلامية المعاصرة، كتلك التي أدت إلى الأصوليات في الماضي، متصلة بالمظالم والأخطار والنكبات الداخلية والخارجية معاً.

فلولا تجاوزات حكم الشاه لما قامت الثورة الإسلامية في إيران، ولولا ركون مسعود ورستم وحكمتيار إلى المداخلات الأجنبية بعد انسحاب السوفيات وسقوط عميلهم نجيب الله، لما نشأت حركة طالبان في أفغانستان. ولولا طمس النتائج الحقيقية لانتخابات الجزائر سنة ١٩٩٢، وتنكيل السلطة بالجبهة الإسلامية للإنقاذ وزعمائها، لما ظهرت الجماعة الإسلامية المسلحة التي جاوزت كل حدود باستعمالها المجازر وحمامات الدم وسيلة قمع للسلطة وتشكيك في قدرتها على حماية رعاياها، الأمر الذي دفع تلك السلطة هي أيضاً إلى مرحلة متقدمة في القمع والفتك والرد على السفك بالسفك.

ثم أولاً وأخيراً، لولا الأصولية العنصرية الإسرائيلية التي تحتل الأراضي العربية، وتشن حرب إبادة على الشعب الفلسطيني، وتخطط لإخضاع البلاد العربية والإسلامية بالإرهاب النووي والتآمر الامبريالي، وتقوم بتهويد القدس، مدعومة في كل ذلك من الإرادة الدولية الخاضعة لسلطان اليهود... لما نشط الإخوان المسلمون في معظم دول المنطقة، ولا ظهرت الجماعة الإسلامية في مصر، ولا انتظمت المقاومة الإسلامية على يد حزب الله في لبنان وعلى يد حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين.

* أما راديكالية الأنظمة، أي جنوحها إلى التسلط والاستبداد، فقد كانت مسألة

اضطرار في العصور الإسلامية الأولى وليس مسألة اختيار. ذلك أن الخلاف على السلطة بعد وفاة الرسول أفضى إلى نزاع حول خلافته ما لبث أن تحول صراعاً مسلحاً بين الأحزاب المتنافسة كاد أن يؤدي إلى انكفاء الفتح وابتلاء المسلمين بحروب أهلية تقضي على الدعوة في مهدها. وقد تنبه الخلفاء الراشدون إلى هذا الخطر، فحصروا السلطتين الدينية والمدنية في أيديهم، ولكن بأسلوب منزّه مستنير لم يرق إلى مستواه بعدهم معظم الأمويين والعباسيين وسائر الخلفاء والملوك في الشرق والغرب، الأمر الذي عزّز حكم الفرد في العالم الإسلامي إلى يومنا هذا.

ومما ساعد في توطيد الراديكالية السلطوية، عملية الحسم التي قام بها العباسيون بعد الخليفة المأمون ابتداء من القرن التاسع الميلادي، عندما كفروا المعتزلة الميالة إلى الاعتدال ونصروا خصومها المتشددين، فأساؤوا إلى مبدأ الشورى الذي يتضمن في ذاته شرعية المعارضة. ويتفق الباحث الفرنسي جيل كيبل (Gilles Kepel) في كتابه «إلى غربي الله» (A L'Ouest D'ALLAH) مع العلّامة محمد أركون أستاذ الفكر الإسلامي في جامعة باريس الثالثة وغيره من الباحثين المسلمين والأوروبيين، أنه لولا القضاء على المعتزلة التي كانت على درجة متقدمة من الانفتاح، لتوجهت مسيرة الحكم تدريجياً في العالم الإسلامي نحو الديموقراطية التي تبدو مستعصية إلى حد بعيد في الواقع الإسلامي المعاصر.

* وأما فيما يتعلق بالمرجعيات الروحية الإسلامية، فهي تتعرض باستمرار لتجاوز حد السلطة من جانب معظم الأنظمة السياسية التي تصادر قرارها الشرعي وفتاواها وأحكامها في أمور الدين والدنيا، بحيث يغدو شأنها شأن المجالس النيابية ومجالس الشورى وغيرها من «مؤسسات الواجهة» التي يستخدمها الحكام لتمويه الحقائق والظهور أمام الرأي العام الخارجي بمظهر ديموقراطي ملائم لتوجهات العصر.

ولو كان لهذه المرجعيات المميزة ذات العناصر الواعية والمثقفة، المتضلعة من علوم الدين والفقه، حد أدنى من الاستقلالية المفترضة، لاستطاعت أن تبدّل الكثير في سلوك الأنظمة السلطوية وقيادة العملية الإصلاحية الجذرية في الدول والمجتمعات الإسلامية كافة.

* ويقودنا البحث أخيراً إلى المشكلات الاقتصادية والاجتماعية المتفاقمة في العالم الإسلامي، وهو موضوع شائك بالغ التعقيد لا حدود لآفاقه، ولا سبيل إلى معالجته بالدقة العلمية المفترضة في هذه العجالة. لذلك

نكتفي على هذا الصعيد بتدوين الملاحظات الآتية:

١ - إن النهضة الاقتصادية والاجتماعية مرتبطة عضوياً بالكيان السياسي الذي يقوم على وحدة الشعب وتكامل المؤسسات. وهو أمر تحقق بنسب متفاوتة في الدول الإسلامية غير العربية، لكنه مع الأسف، أصبح بعيد المنال في العالم العربي بعدما باءت جميع المحاولات الوحدوية بالفشل. لذلك تلقى فكرة السوق العربية المشتركة اليوم ترحيباً متزايداً في أوساط العلماء والمفكرين الذين يرون في إنشائها بداية لا بأس بها يمكن أن تفضي تدريجياً في العقود اللاحقة إلى وحدة اقتصادية نقدية جمركية، وبالتالي إلى اتحاد سياسي على غرار ما هو حاصل في أوروبا. كذلك تلقى فكرة «الكومنولث» الإسلامي ترحيباً مماثلاً باعتباره تجمعاً طوعياً يلم شتات المسلمين العرب وغير العرب، على الأقل في الشؤون الاقتصادية والثقافية وغيرها.

٢ - الصناعة هي العمود الفقري للرخاء والإنماء في عصرنا. وعلى أن بعض الدول العربية والإسلامية ماضية في برامج التصنيع، وقد سجلت هذه البرامج نجاحاً ملحوظاً في مصر وسوريا والعراق وإيران وتركيا وباكستان وأندونيسيا وغيرها، إلا أن أي صناعة تبعية تعتمد على استيراد أجهزتها الآلية وعناصر إنتاجها الأساسية من بلدان أخرى متطورة، تظل تحت رحمة هذه البلدان، وقد تتعرض في الأزمات السياسية الكبرى إلى عمليات الحظر ومضاربات السوق التي تستتبع الفشل والانهيار. لذلك يتعين أن تقترن مشاريع التصنيع دائماً بمراكز قطبية ناشطة للبحث العلمي الذي يؤمن وحده الاستقلال الصناعي ويعزز الفرادة والجودة بالكشوف والاختراعات المحدثة.

٣ - هنالك فوارق شاسعة بين الأنظمة الاقتصادية في أطراف العالم الإسلامي، وتضارب في القوانين التي ترعى الشؤون التجارية والمصرفية وحركة الأموال إلخ... كما أن هنالك تفاوتاً هائلاً في القدرات المالية والموارد الطبيعية والثروات المعدنية والحيوانية والنمو الاقتصادي العام والدخل الفردي والناتج القومي في مختلف البلدان. ثم أن التفاوت المشار إليه في الوضع الاقتصادي ينطبق في الوقت نفسه على الأوضاع الاجتماعية والمستوى الثقافي. لذلك يرى أهل الاختصاص أن هذا التفاوت الذي يبدو فوضوياً، يمكن أن يصبح له مردود إيجابي إذا وجد الجهاز المؤهل للقيام بدراسات علمية جامعة حول تنظيمه، بما يلائم الأطراف المعنية والظروف الموضوعية لكل منها. ويدعو هؤلاء الاختصاصيون إلى الإفادة من

هيئات إقليمية موجودة، كالجامعة العربية والمؤتمر الإسلامي وغيرها. وذلك بتحويلها من منابر خطابات إلى مراكز دراسات تضع التشريعات اللازمة لهذا التعاون العربي والإسلامي، على مختلف الصعد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

* * *

بعد هذا العرض، الموجز لأهم الأزمات الإسلامية المعاصرة، سرعان ما يتضح أن المسلمين اللبنانيين تجاوزوها جميعاً إلى حد بعيد.

فالأصولية الإسلامية المتشددة بمفهومها الرافض للآخر، والتي تعتمد العنف بديلاً عن الحوار، تكاد تكون منعدمة في لبنان لأسباب عديدة أهمها أن العيش المشترك الذي تواصل قروناً بين المسلمين والمسيحيين في هذا البلد، أدى إلى تسامح في العمق بين الفريقين لم تقو جميع المؤامرات والحركات الرفضية المصطنعة، طيلة الحرب القذرة، سواء أكانت مسيحية أو إسلامية، على استئصال جذوره الراسخة في النفوس.

وقد حاول بعض الأجهزة الأجنبية المأجورة للصهيونية، كما حاول عملاء العدو الإسرائيلي مراراً، أن يوقعوا بين الطوائف والمذاهب، أو أن يحرضوا فريقاً على فريق داخل الطائفة الواحدة والمذهب الواحد، إلا أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل، وحتى حزب الله الذي يتعرض لحملات متواصلة من جانب الصهيونية في الإعلام الدولي وعلى ألسنة حكام إسرائيل، حيث يتهمونه بإحياء السلفية الشيعية بصورتها المناهضة للسنة، ويركزون على انتمائه إلى إيران التي يلقى من جانبها كامل الدعم والشفاعة، حتى حزب الله هذا، يقيم علاقات ودية ممتازة لم يسبق لها مثيل مع المرجعيات الروحية المسيحية والإسلامية كافة، ويعامل الأقليات المسيحية والإسلامية الأخرى في مناطق نفوذه معاملة مثالية لا يتمتع بحدها الأدنى محازبوه وعوائلهم، أما المقاومة التي يقودها الحزب في الجنوب والبقاع الغربي ضد الجيش الإسرائيلي وعملائه، فهي تعتبر في جميع الأوساط اللبنانية رسالة وطنية مقدسة.

ولا بد من الاعتراف بحقيقة أساسية في هذا المجال، بصرف النظر عن موقف أي طائفة أو فئة أو هيئة شعبية لبنانية من الوجود العسكري السوري في لبنان، وهي أن «الأمن السوري» منذ نهاية الأحداث الدامية، لم يكن فقط «أمناً عملانياً» داعماً للأجهزة اللبنانية في تأدية مهامها، بل كان في الوقت نفسه«أمناً عقائدياً» في القواعد الشعبية الإسلامية خصوصاً، حيث عمل بمنهجية واضحة على تعزيز الوجدان القومي دون الوجدان الطائفي والمذهبي، وساعد في استئصال العصبيات الدينية

المتطرفة والمزايدات البغيضة إلى حد بعيد.

وكان هذا الدور الإيجابي موضع تقدير في الأوساط الأوروبية العليا المعنية باستقرار لبنان ومصير المسيحية في المنطقة، وخصوصاً فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإنكلترا وألمانيا، كما أن الدوائر الفاتيكانية لم تكن لتحدد موعداً واضحاً نهائياً لزيارة البابا لولا شعورها، بعد مراقبة طويلة دامت بضعة عشر عاماً، أن الأمن اللبناني السوري المشترك وضع الأصوليات الكيفية الموروثة عن تراكمات الحرب في دائرة الرقابة الصارمة والاحتواء البصير. ولولا التنسيق التام بين القيادة السورية والكنيسة الكاثوليكية التي أوفدت وزير خارجيتها الكاردينال توران إلى دمشق، وهو تنسيق متواصل متكامل ظهر جانب رئيسي من جوانبه في الزيارة التي قام بها اللواء غازي كنعان مؤخراً إلى المطران بشارة الراعي، فضلاً عن الاتصالات والزيارات التي تتم بعيداً عن الأضواء، لما كان بالإمكان تحقيق الزيارة البابوية في ظروف جعلت أي مداخلة للعدو أو عملائه بواسطة فلول الأصوليات المسيحية والإسلامية كافة، تتقلص إلى حدود الصفر.

ولا بد من التنويه أخيراً، بأن المسلمين اللبنانيين ربما كانوا الوحيدين في العالم الإسلامي الذين ينعمون بالحرية المطلقة، في نظام ديموقراطي تعتريه شوائب متعددة، لكنه، وإن كان بعيداً عن التشبه بالديموقراطيات العالمية الأصيلة، يظل أقرب إلى روح الديموقراطية من أي نظام راديكالي آخر في العالم الإسلامي والعالم الثالث.

ثم أن المرجعيات الروحية الإسلامية في لبنان، تتمتع باستقلالية مطلقة، ولها تأثيرها الحاسم في توجيه السلطة وتقويم سياستها. أما المكاسب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي حصل عليها المسلمون اللبنانيون، فهي، وإن كانت لا تزال بعيدة عن المستويات المتقدمة في العالم الصناعي، قد بدأت توازي مكاسب المسيحيين اللبنانيين بل تتخطاها في مواقع قطبية، كما أنها تفوق إلى أبعد مدى جميع المكاسب المماثلة للمواطنين في أي دولة عربية أو إسلامية أخرى.

كل هذا ميّز الإسلام اللبناني وحفزه على الحوار، كما جعله قدوة في الانفتاح والإقدام، فبات أقرب إسلام في العالم إلى المسيحية، مثلما أن المسيحية اللبنانية والشرقية بوجه عام، كانت ولا تزال أقرب مسيحية في العالم إلى الإسلام.

ويزور معظم أعيان المسلمين اللبنانيين ورؤسائهم ووزرائهم حاضرة الفاتيكان زيارات دورية، ويقيم علماؤهم ومفكروهم علائق مميزة عظيمة الجدا مع

المراجع الدينية المسيحية اللبنانية والعالمية، في إطار من المحبة والتفهم والبحث المشترك عن كلمة سواء.

لذلك تعتبر زيارة الحبر الأعظم للبنان زيارة إكرام وعرفان للمسلمين اللبنانيين، بمقدار ما تعتبر زيارة أمل وتأييد وتشجيع للمسيحيين اللبنانيين. وهي بمثابة شهادة لوحدة لبنان وشجاعته وصموده، كما أنها تكريس لهذا النموذج الإنساني الحي في الإيمان بالله والثقة بالنفس، وتحطيم لأصنام التفرقة والأنانية والتعصب والظلم والغبن والخوف، إلى يوم تقوم فيه قيامة الحق بالتوافق التام بين الديانتين. أما دعاة السوء وأنصار الكذب وزبانية الحقد والكراهية والشر، ﴿فيوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾.

١٩٩٧/٤/٣٠

١٢٤

الحجّ البابوي إلى لبنان

رسالة تاريخية صامتة

موجهة إلى المحتلّ

— ٣ —

عندما صدرت المقالة الأولى في «مفكرة الأيام» حول زيارة البابا في ١٩٩٧/٤/٢٣ تحت عنوان «الحج البابوي إلى لبنان»، أخذ علي مرجع كنسي محافظ استعمال كلمة «حج» ودعاني إلى توخي المزيد من الدقة في التعبير، لأن الحج - كما أوضح - من فرائض الإيمان، وهو يقضي بالتوجه إلى مكان مقدس. فقلت للمرجع الصديق أنني تعمدت تسمية الزيارة حجاً لأن جميع البيانات والتصريحات التي صدرت عن البابا حول لبنان تدل على إيمانه العميق بأن هذا البلد رسالة، وأن ترابه تراب مقدس.

وما أن صدرت المقالة الثانية في ١٩٩٧/٤/٣٠، تحت العنوان الجامع إياه «الحج البابوي إلى لبنان»، حتى أذاع الفاتيكان رسالة الحبر الأعظم إلى اللبنانيين بتاريخ ٢ أيار (مايو) الجاري، وفيها يقول: «إن رحلتي إلى لبنان ستكون حجاً إلى أرضكم التي أتاها الفادي قبل ألفي سنة».

لقد صدق حدسي بالفعل، وتمت حجة البابا إلى أرض لبنان التي ليست مقدسة فقط لأن السيد المسيح وطئها بنفسه يوم دخل صيدا وصور كما ورد في الرسالة البابوية، بل لأنها كانت أيضاً مع سائر بلاد الشام، مهد المسيحية ومنطلق رسالتها إلى العالم طيلة ستة قرون، ثم أصبحت بعد ظهور الإسلام مهداً كذلك لدين التوحيد ومنطلقاً لرسالته في العالم. وهي لا تزال النموذج الحي لعناق الديانتين العظيمتين اللتين لا تختلفان إلا في طريقة تكريم السيد المسيح كلمة الله وروحه، حيث يقول الأولون إنه صلب بإرادة الله فداء للبشر، ويقول الآخرون جلّ عن أن يصلب، فقد شبّه لهم ورفعه الله إليه.

أما المقالتان السابقتان المشار إليهما أعلاه، فقد ركزنا فيهما على كون الزيارة البابوية دعوة إلى العالمين المسيحي والإسلامي للاقتداء بالمسيحية

اللبنانية الشجاعة والإسلام اللبناني المنفتح. ونقصر بحثنا في هذه الحلقة على الرسالة الموجهة من البابا إلى إسرائيل عبر زيارته التاريخية للبنان.

* * *

يقول مثل فرنسي قديم: «وصل فلان إلى روما ولم يرَ البابا». وقياساً على هذا المثل يمكن القول أن البابا وصل إلى الشرق ولم يرَ أورشليم...

لماذا؟ هل هو غاضب على إسرائيل؟

كلا. فالغضب ليس من أخلاق المؤمنين الصابرين.

إذن، هل يعتمد مقاطعة إسرائيل؟

أيضاً وأيضاً كلاّ. فكيف يقاطعها وقد اعترف بها منذ بضعة أشهر فقط، وله فيها بعثة ديبلوماسية وسفير، وقد بات معروفاً أن الدوائر الفاتيكانية تخطط لرحلة بابوية سنة ٢٠٠٠ يزور خلالها الحبر الأعظم إسرائيل في مسيرة رمزية على خطى إبراهيم الخليل، من أور السومرية في العراق، مروراً بالشام والبلقاء وغور الأردن، وصولاً إلى أورشليم، ثم طور سيناء حيث يقيم صلاة مشتركة مع أتباع الديانات الإبراهيمية.

لذلك نميل إلى الاعتقاد أن الحبر الأعظم يوحنا بولس الثاني عاتب على إسرائيل، وليس غاضباً أو مقاطعاً، وربّ عتاب أشد من الغضب وأدهى من القطيعة.

وهنا لا بد من التنويه بأن المعاني الخفية غير المعلنة التي تنطوي عليها زيارة البابا إلى لبنان، هي في المستوى نفسه من الأهمية والعمق، إن لم تكن أهم وأعمق من العناوين اللافتة والحقائق المعلنة في الإرشاد الرسولي وغيره من وثائق الرحلة. وأبلغ هذه المعاني يندرج في الرسالة الصامتة الموجهة إلى الدولة العبرية.

* المعنى الأول هو أن مجرد تقديم البابا حجه إلى لبنان، على حجه المستأخر إلى فلسطين، مهد المسيح وبيته وضريحه المقدس وصخرة قيامته، مع كون بيروت واقعة على مرمى حجر من القدس والناصرة وبيت لحم، يمثل في حد ذاته، وبصرف النظر عن مبرراته الرسمية المقبولة، شعوراً بعدم الارتياح للأسلوب الذي تعتمده إسرائيل في رعاية الحقوق الدينية والمدنية للمسيحيين والمسلمين، وسعيها الدائب إلى تبديل المعالم في أورشليم وغيرها من المدن والأماكن المقدسة.

وأكثر ما يشبه ذلك مَثَل رجل تغرّب عن بلاده ردحاً من الزمن، ثم عاد لتفقد أهله في القرية التي ولد فيها، فنزل في بيت جاره ولم يعرّج على بيته الذي احتله غرباء زعموا أن لهم حقوقاً فيه. وكان هو نفسه قد سمح لهم عطفاً على تحملهم وزر الشتات، بالإقامة في ذلك البيت، شرط أن

يحافظوا على التحف الأثرية التي يحتويها، وأن يكرموا البقية الباقية فيه من سكانه الأصليين. لكن أولئك المحتلين لم يحفظوا العهد. فجاء حلول الرجل في بيت جاره تذكيراً لهم بالميثاق... مجرد تذكير أبلغ من أي تحذير.

* أما المعنى الثاني، فهو أن عزوف البابا عن زيارة الجنوب ودخول صيدا وصور اقتداء بالسيد المسيح، والحج إلى قانا التي صنع فيها السيد أولى معجزاته، وحولها الإرهاب الإسرائيلي مقبرة جماعية... هذا العزوف لم يكن بالتأكيد لأسباب أمنية أو صحية، بل كان على الأرجح تعبيراً عن رفض العدوان والاحتلال في الرسالة البابوية الموجهة إلى إسرائيل.

كما أن إقدام الحبر الأعظم بحماسة وارتياح، على رفع صلاته إلى الباري في ساحة مكشوفة ضمت مئات الألوف من المسلمين والمسيحيين القادمين من مناطق شتى، بعضها يقع في دائرة النفوذ السوري، وتقول التقارير الصحافية أن الكثيرين منهم وفدوا إلى بيروت من دمشق وعمان... هذا الموقف البابوي الواثق، المتألق بروح المحبة، السعيد بلقاء الجميع في حمى الإيمان بالله... عندما يقارن بامتناع قداسته عن زيارة المنطقة التي تحتلها إسرائيل أو التي تواجه تهديدها المباشر، إنما يدل على تمييز نوعي أساسي من جانب الفاتيكان بين الاحتلال الإسرائيلي لجزء من لبنان والوجود السوري في بعض أجزائه الأخرى.

* وأما المعنى الخفي الثالث للزيارة في الرسالة فهو تكريس مبدأ «الوحدانية الإنسانية في الإيمان»، نقيضاً لمبدأ «العنصرية المتألهة بالدين»، لأن لبنان وحدة إنسانية مؤمنة تعبد الله، في حين أن إسرائيل شتات عنصري متأله يعبد القوة. وكأني بالحبر الأعظم قد خاطب الدولة العبرية من البلد الذي عملت طيلة خمسين عاماً لتأكيد وجودها بإزالة وجوده... خاطبها وهي ماضية في تهويد القدس، بقول أحمد شوقي مخاطباً الجنرال آللنبي سنة ١٩١٨:

يا فاتح القدس خلّ السيف ناحية
ليس الصليب حديداً كان بل خشبا
إذا نظرت إلى حيث انتهت يده
وكيف جاوز في سلطانه القُطُبا
علمتَ أن وراء الحق مقدرة
وأن للحق لا للقوة الغَلَبا

* * *

ومهما يكن من أمر، فلا بد للباحث الموضوعي من توخي الحقيقة المجردة وسط المقولات الانفعالية والتعليقات الصادرة من هنا وهناك حول الزيارة البابوية وتأثيرها القريب أو البعيد في الأوضاع اللبنانية والإقليمية. وأول ما

يسترعي انتباهنا في هذا المجال أن موعد الزيارة لم يتقرر في دوائر الفاتيكان إلا منذ بضعة أسابيع بعدما طفح الكيل وبلغ السيل الزبى في عملية تهويد القدس، وبعدما فشلت الإدارة الأميركية، وحتى الرئيس كلينتون نفسه، في كبح جماح نتنياهو وإقناعه بإيقاف مشاريع الاستيطان في المدينة المقدسة وحولها.

ومما أزعج الكرسي الرسولي إلى حد بعيد، ابتياع الجمعيات اليهودية خلال نيسان الماضي، صفحات إعلانية كاملة في الجرائد الأميركية الكبرى أمثال: «نيويورك تايمس» وغيرها، لنشر آراء وتصريحات منسوبة إلى بعض المراجع الكنسية المتأثرة بنفوذ اليهود في الولايات المتحدة تؤيد سياسة إسرائيل الخاصة بمستوطنة هار حوما على جبل أبو غنيم.

وتهدف الصهيونية من هذه النشرات الإعلانية المشكوك في صدقية موقعيها وعدم رضوخهم لوسائل الترهيب والترغيب التي يتقنها أساتذة التحريف والتزوير في المحافل الصهيونية بدرجة عالية من الاختصاص، إلى إقناع الرئيس كلينتون والكوادر النافذة في البيت الأبيض ووزارة الخارجية، بأن الضغط الذي يمارسه الفاتيكان ورعاياه الكاثوليك في الولايات المتحدة على الإدارة الأميركية لوقف عملية التهويد في المدينة المقدسة، هي ضغط شكلي مخالف لتوجهات الكرسي الرسولي الحقيقية باعتباره راضياً عن ذلك التهويد! (...)

وتقول مصادر كاثوليكية موثوقة أن الفريق المتشدّد من الكرادلة تأثر تأثراً بالغاً بهذا الأسلوب الذي يفضح النيات الخبيثة المبيتة ويحتوي على عناصر التحدي، لا سيما وأن يوحنا بولس الثاني قدّم للدولة العبرية تنازلات لم يقدم للشعب اليهودي مثلها أي بابا آخر في التاريخ، وذلك من منطلق إيمانه بالحوار والتفاهم بين الأديان، ويقينه بأن قضية فلسطين لا تحل إلا بالتسامح والرغبة الحقيقية في العيش المشترك ضمن إطار من العدالة والمساواة وحفظ الحقوق الدينية والمدنية للجميع.

لكن الصهيونية لا تزال تنظر إلى السياسة الإيجابية التي ينتهجها البابا الحالي بمنتهى الحذر والشك، وتعتبر حتى اعتراف الفاتيكان الواضح بإسرائيل مجرد تغطية وتمويه لحقيقة أهدافه الرامية، في رأي الصهيونية، إلى تطبيع العلائق على نطاق واسع بين أوروبا المسيحية ودول إسلامية معادية لإسرائيل، في طليعتها سوريا وإيران والعراق، وكذلك ليبيا التي أقام الفاتيكان أخيراً علاقات ديبلوماسية معها متحدياً الحظر الأميركي المفروض على الجماهيرية بذريعة الإرهاب.

وقد سبق للكرسي الرسولي أن برّأ «ذراري» اليهود من دم المسيح في

المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥) بمبادرة من البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي أراد من خلال ذلك تصحيح نظرة الحلفاء إلى الكنيسة بعد اتهامها طويلاً بأنها كانت منحازة إلى المحور النازي في عهد سلفه بيوس الثاني عشر خلال الحرب العالمية الثانية.

لكنه بالرغم من تلك البادرة السمحاء التي صدرت عن الكنيسة يومذاك، وعرّضتها لانتقادات شتى من جهات كاثوليكية وغير كاثوليكية أنكرت عليها حقها في تأويل نص واضح من نصوص الإنجيل(*)، فإن اليهودية العالمية لم تكن راضية على الإطلاق، وراحت مرجعياتها المتعصبة تهاجم الفاتيكان والبابا. ولا ينسى المسيحيون تعليق الحاخام الإسرائيلي الأكبر «نسيم»، وقوله في ذلك الحين: «الآن يجب أن يبحث الفاتيكان عن وسيلة ما لتبرئة البابوات الذين غسلوا أيديهم بدم اليهود قروناً»!

* * *

وفي أي حال، تؤكد الوقائع التاريخية أن أسلاف يوحنا بولس الثاني لم يثقوا على الإطلاق، منذ نشوء الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر، بأن اليهود راغبون حقاً في العودة إلى فلسطين لإنشاء تجمع روحي ثقافي إنساني يتعايش بسلام ومحبة مع أصحاب البلاد وأهلها العرب، بل كانوا يدركون تماماً أن الحماسة الصهيونية لمشروع الوطن القومي تخفي وراءها مطامع لا حدود لها، ورغبة مبيتة في تأسيس دولة امبريالية استيطانية في الشرق الأوسط هدفها القضاء على وجود المسيحية والإسلام.

ففي سنة ١٩٠٣ قابل أبو الصهيونية هرتزل البابا بيوس العاشر. ويروي كريستوفر سايكس، ابن السياسي الإنكليزي الشهير مارك سايكس الذي مثل الحكومة البريطانية في معاهدة «سايكس - بيكو» سنة ١٩١٥، في كتابه (Two Studies in Virtue)، نقلاً عن دفاتر أبيه، وقائع تلك المقابلة، فيقول أن الحبر الأعظم كان خلالها شديد اللهجة، وقال في ختامها لهرتزل:

«أسأل الله أن يمن عليكم أنتم اليهود بالاهتداء إلى المسيح، كما اهتدى بولس الرسول في مثل هذا اليوم (٢٥ كانون الثاني - يناير) على طريق دمشق، فأشرق عليه نور الله وآمن بدين الحق. وكل ما يمكنني تأكيده لك، هو أنكم، إن استطعتم التوطن في فلسطين، فستكون كنائسنا وأديارنا ورهباننا على أتم الاستعداد لتنصيركم بالمعمودية».

أما فلوريان سوخولوف ابن الصهيوني البولوني الشهير ناحوم سوخولوف، فيروي في مجلة «صهيون» الفرنسية (عدد كانون الثاني - يناير

١٩٥٠)، مقابلة أبيه للبابا بنديكتوس الخامس عشر سنة ١٩١٧، قبيل صدور وعد بلفور، ويشير باهتمام إلى عبارة للبابا تاجر بها الصهيونيون فترة طويلة، وهي قول الحبر الأعظم لسوخولوف: «نعم. نعم. ستكون جيرتنا معكم طيبة» (باللغة الإيطالية: Si. Si. io credo che noi Saremo buoni vicini).

لكن سوخولوف الابن أغفل في مقالته أهمية الأسئلة الثلاثة التي وجهها البابا إلى والده وهي الآتية:

١ ـ هل أنتم راغبون في العودة إلى فلسطين للتخلص من الاضطهاد، أم لسبب آخر ليس روحياً ولا ثقافياً كما تدّعون؟!

٢ ـ هل أن المساحة الجغرافية الفلسطينية كافية لاقتسام الأرض مع أهلها بحيث تستطيعون معايشتهم فيها دون تجريدهم من حقوقهم؟!

٣ ـ لماذا تعودون إلى روما التي دمرت أورشليم اليهود منذ تسعة عشر قرناً لتأخذوا براءة بانتزاعها من الذين ورثوها؟ الا تكفيكم براءة الإنكليز (يعني وعد بلفور) الخبراء في أساليب الاستعمار؟!

لقد تلجلج سوخولوف أمام هذه الأسئلة الجافة ولم يحر جواباً. عندئذٍ قال له البابا بهزء: «نعم. نعم. ستكون جيرتنا معكم طيبة!» وهو من باب الكلام الذي يراد به نقيض معناه.

وأما حاييم وايزمان الذي يذكر في كتابه «التجربة والخطأ» المنشور بالإنكليزية سنة ١٩٤٩، وقائع مقابلته للبابا بيوس الحادي عشر سنة ١٩٢١، فهو يتكتم بأسلوب المراوغة والتعمية على ما جاء فيها. ولكن وزير خارجية الفاتيكان في ذلك الحين الكاردينال غاسباري أدلى بتصريح لجريدة «أوبسرفاتوري رومانو» الناطقة بلسان الكرسي الرسولي جاء فيه أن البابا قال لوايزمان في ختام المقابلة التي لم تكن إيجابية في أي حال: «أخشى أن تكون الجامعة العبرية التي انشأتموها على جبل الزيتون حيث ألقى يسوع عظته الطوباوية، وسيلة لإنتاج العوسج والعلّيق أكثر من إنتاج الزيتون».

ثم إن المونسنيور جوان، راعي أبرشية القديس اوغسطينوس في باريس، الذي وضع دراسة رائدة ضدّ الصهيونية والماسونية في مطلع القرن، حصل من البابا بنديكتوس الخامس عشر ووزير خارجيته الكاردينال غاسباري سنة ١٩١٩، على رسالتي تهنئة وتبريك، ومما جاء في كتاب البابا: «لقد وقفت غير مبال بالخطر الذي يهدد حياتك، ضد الفرق والمذاهب المعادية لديننا. ونحن نبارك أعمالك هذه ونهنئك على هذه المواقف الشجاعة الداعمة للحق».

* * *

لذلك كله، ولأسباب أخرى لا عدّ لها

ولا حصر، مدفونة في كتب التاريخ من ألفي سنة إلى اليوم، ولا مجال إلى تقويم عناصرها بدقة في هذه العجالة، يمكن القول أن العلاقة بين الفاتيكان واليهودية العالمية تتدرج تحت عنوان انعدام الثقة، وستظل كذلك إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، بالرغم من تبرئة ذراري اليهود من الصلب، وبالرغم من اعتراف الكرسي الرسولي بإسرائيل وإقامته علائق ديبلوماسية معها، وحتى لو ذهب البابا إلى الدولة العبرية ووضع إكليلاً من الزهر على النصب التذكاري لضحايا المحرقة الهتلرية.

وبعد. هنالك حقائق لا تخفى على ملافنة الفاتيكان أياً كان اجتهاد الإعلام الصهيوني في طمسها. ذلك أن الكرسي الرسولي يعرف تماماً من أضرم نار الفتن في لبنان من ١٩٥٨ إلى ١٩٩٠، ومن حفر سرداب الطائفية في قلوب أبنائه ثلاثة أجيال متعاقبة، ومن تعهد الإرهاب والإرهاب المضاد طيلة حروبه المشؤومة، ومن غزا لبنان واجتاحه عام ١٩٧٨ و١٩٨٢، وهو لا يزال يرفض تنفيذ القرارات الدولية بالانسحاب من الأرض اللبنانية كي لا يخسر حقه المزعوم في التفاوض على مياه الليطاني.

والفاتيكان يعرف أخيراً أن الاحتلال العسكري المعادي الذي يستلزم المقاومة الاستشهادية لطرده، هو أخطر بكثير على كيان الوطن ومصيره من الوجود العسكري الموالي الذي قد يستتبع هنا أو هناك تذمراً طبيعياً من تجاوزاته أو مطالبة عفوية برحيله في أجل مسمّى.

١٤/ ٥/ ١٩٩٧

(*) في النص الإنجيلي أن الوالي الروماني بيلاطس كان قد خيّر شيوخ اليهود والكهنة والشعب بين إعدام السيد المسيح أو إعدام لص يدعى برأبّا، فاختاروا صلب المسيح، ولما تبرأ بيلاطس من دم الصديق منكراً ذلك الاختيار الظالم، هتفوا بصوت واحد: «ليكن دمه علينا وعلى أولادنا». وقد قرر المجمع الفاتيكاني الثاني أن اليهود الذين عاصروا المسيح يتحملون وحدهم وزر دمه ومسؤولية صلبه دون ذراريهم، فاعتبر البعض قراره نقضاً لنص الإنجيل.

السنة الأولى من حكم نتنياهو

اتق شرّ من احسنت إليه

يعرف الرئيس مبارك أن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين. فكيف استطاع هو المؤمن الصادق، وقد لدغ من جحر نتنياهو ثلاث مرات، أن يصافح هذا الرجل للمرة الرابعة؟

يقولون إن القمة التي عقدت أمس في شرم الشيخ هي آخر فرصة للسلام، وإن فشل هذه القمة كما فشلت القمم السابقة بين مبارك ونتنياهو بفعل الكذب الذي يحترفه الاخير، سيؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى إنفجار المنطقة بأسرها، خصوصاً بعد اجتياح أبناء عمه الاتراك لشمال العراق.

قد يكون لهذه المخاوف ما يبررها. ولكنّ في الأفق ما يشير من جهة ثانية إلى أن «بيبي» الذي يبلغ السنة الأولى من عمره السياسي غداً في ٢٩ أيار (مايو)، يكاد يذهب ضحية شراهته المبكرة. وسوف يتضح في موعد أقرب مما يتصوره الخائفون على السلام أن هذا الغرّ المتهور جنى على نفسه وعلى الدولة العبرية وشعبها أكثر بكثير مما كان يحلم به العرب وكل المتعاطفين معهم من شعوب العالم الثالث، لأنه تخصص في تحدي الولايات المتحدة وكسب عداوتها منذ انتخابه رئيساً لحكومة إسرائيل، مع أنه نشأ في أميركا وهو يحمل جنسيتها.

* * *

* كانت الصدمة الأميركية الأولى يوم وصل نتنياهو إلى سدة الرئاسة في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٩٦ محاطاً بقبّعات «الساكناج» من ذوي الجدائل واللحى. فالأميركيون يكرهون أصلاً هؤلاء التلموديين المنتشرين خصوصاً في مدينة نيويورك، وكذلك في مدن إسرائيل. وقد أعرب الرئيس كلينتون في ذلك اليوم عن شديد أسفه لسقوط ركن اساسي في عملية السلام الاميركية للشرق الأوسط، أعني حليفه شمعون بيريس، على يد هؤلاء الحاخامين المتشددين الذين تسببوا مع نتنياهو في قتل حليفه الآخر إسحق رابين في خريف السنة ١٩٩٥.

* وكانت الصدمة الأميركية الثانية عندما رفضت المحكمة العليا في القدس تحت ضغط الحاخامين أنفسهم، الطعن الذي رفعه إليها بيريس مطالباً بإبطال

الإنتخاب، لا سيما وأن الفارق في عدد الأصوات التي حصل عليها كل من المرشحيْن لم يكن يتجاوز بضعة آلاف، وقد أثبت بيريس أن ذلك الفارق الذي جاء لمصلحة خصمه إنما تم بالتزوير.

* وكانت الصدمة الأميركية الثالثة يوم ألّف نتنياهو حكومته من عناصر تنتمي إلى أقصى اليمين في تجمّع ليكود، وسلم حقيبة الخارجية إلى ديفيد ليفي الذي يجهل اللغة الإنكليزية ويستعلي على الأميركيين في المحادثات والمؤتمرات معرباً في محيطه عن تذمر دائم وامتعاض مما يسميه «الهيمنة الأميركية على القرار الإسرائيلي».

كذلك رأت الإدارة الأميركية في ذلك الحين أن اختيار آرييل شارون لوزارة البنى التحتية والإسكان والمستوطنات ينطوي على مخاطر جسيمة، نظراً لكون شارون المعروف برعونته وتطرفه، أصبح من خلال تلك الوزارة، قادراً على التحكم بالإنفاق من أرصدة الضمانات المصرفية الميسرة البالغة ١٠ مليارات دولار والتي كان الرئيس بوش قد منحها بعد تردد للحكومة الإسرائيلية أملا بالحصول على أصوات اليهود الأميركيين في انتخابات الرئاسة.

ولم تبد الإدارة الأميركية ارتياحاً أكبر لتعيين رفائيل ايتان زعيم حركة «تسوميت» المتطرفة، ومهندس الإجتياح الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢، في وزارة الزراعة، باعتبار أن اختصاص هذه الوزارة متجانس كليا مع اختصاص وزارة البنى التحتية والإسكان، كما أن العلاقة بين ايتان وشارون منسجمة انسجاماً تاماً منذ اجتياح لبنان الذي كان خلاله شارون وزيراً للدفاع وايتان رئيساً للأركان. فقد أدركت واشنطن، من خلال هذا التوزيع الإنتهازي المركّز للحقائب، أنها فقدت نهائياً سلطتها الاستشارية والمعنوية المفترضة فيما يتعلق بتوظيف المليارات العشرة.

* وكانت الصدمة الأميركية الرابعة في البيت الأبيض والخارجية يوم أعلن نتنياهو رفضه القاطع للسلام الأميركي القائم على مبادىء مدريد والقرارات الدولية ٢٤٢ و٣٣٨ و٤٢٥، أي «الأرض مقابل السلام» ثم نقضه الصريح لاتفاقات أوسلو مع الفلسطينيين، ووضعه العراقيل أمام إنسحاب الجيش الإسرائيلي من الخليل. فقد أثبت نتنياهو بذلك كله أن مواقف العنف، وشعارات «السلام مقابل السلام»، واللاءات الشهيرة: لا للإنسحاب من الجولان. لا للدولة الفلسطينية. لا للتفاوض حول مصير القدس. إلخ... أثبت أن هذه المواقف والشعارات واللاءات التي كانت واشنطن تعتبرها لافتات شكلية في حملة نتنياهو الإنتخابية، مع بعض التوجّس من إصراره على تكرارها، قد

أصبحت بالفعل بين ليلة وضحاها السياسة الرسمية المعلنة لدولة إسرائيل. وهكذا سدد نتنياهو إلى الولايات المتحدة طعنة في كبد مصداقيتها ونزاهة تحكيمها وتوازن سماحها.

* أما الصدمة الخامسة فكانت يوم زيارة نتنياهو الأولى إلى واشنطن واجتماعه بالرئيس كلينتون، فقد وجد الرئيس الاميركي إنه يحاور جلفاً متعنتاً أشبه «بالسيكلوب» لا يرى إلا بعين واحدة. الأمر الذي أوقع الإدارة الأميركية في حرج كبير تجاه القيادات العربية المؤيدة لسياسة واشنطن، لاسيما وأن العرب جميعاً كانوا قد تجاوبوا مع الرئيس كلينتون والديبلوماسية الأميركية التي استمهلت القمة العربية المنعقدة في القاهرة، طالبة عدم اتخاذ أي قرار حاسم يطيح عملية السلام، ريثما تجد واشنطن سبيلاً ما إلى ترويض «السيكلوب» وشل حركته.

* وأما الصدمة السادسة فكانت عند حرق المراحل من جانب نتنياهو، وفتحه ملف القدس الذي كان من المقرر بموجب اتفاقات أوسلو، ألا يفتح إلا في نهاية المفاوضات الخاصة بالحكم الذاتي الفلسطيني. وقد تعجّل رئيس الحكومة الإسرائيلية فضّ الاختام المطبقة على الملف المذكور بالرغم من الإشارات السلبية التي تلقّاها من واشنطن، وبالأخص من وزيرة الخارجية مادلين اولبرايت، ومفادها أن قضية القدس «قضية حساسة ننصح بعدم إثارتها في المرحلة الراهنة»..

ولكن تجمّع الحاخامين ورهطهم من صقور اليمين المتشنّج في الحكومة والكنيست لم يكن مستعداً لسماع النصائح الأميركية، وهدد رئيس الوزراء بفرط الإئتلاف الحكومي أن هو لم يشرع فوراً في بناء مستوطنة هارحوما على جبل أبو غنيم، معتبراً - أي التجمع اليميني - أن من واجب الفلسطينيين والأميركيين وأي فريق آخر عني بالنزاع، قبول «جائزة الترضية» التي قدمتها لهم الدولة الصهيونية الثيوقراطية عندما وافقت على الإنسحاب من الخليل وتسليم ٩ في المئة فقط من أرياف الضفة الغربية إلى السلطة الفلسطينية وهو «تنازل كبير» في نظر الطغمة الدينية المتسلطة وأعوانها تجاوز به نتنياهو حدود المعقول عندما قبل أن يساوي بين امتيازات ٤٠٠ مستوطن يهودي وحقوق ١٢٠ ألف مواطن عربي في المدينة ومقدساتها (...) وقد وصف ديبلوماسي غربي في حينه اتفاق الخليل هذا بقوله إنه «منح ٤٠٠ مسلح من قطاع الطرق شرعية السيطرة على مدينة منزوعة السلاح».

* ثم كانت الصدمة الاميركية السابعة يوم استدعي نتنياهو إلى

واشنطن بمبادرة من الرئيس كلينتون لمحاولة إقناعه بالعدول عن مشاريع الإستيطان المثيرة للقلق، خصوصاً في مدينة القدس. والكل يذكر الوجه المتجهم المنفعل الذي قابل به الرئيس الأميركي عدسات التلفزة بعد اجتماعه بنتنياهو يومذاك، وامتناعه - أي كلينتون - عن الإدلاء بأي تصريح، فيما راح نتنياهو يوزع سمومه في وسائل الاعلام تلميحاً وتصريحاً، معلناً أنه «لا يحق لأي كان أن يتدخل في قرار الحكومة الإسرائيلية الخاص بإنماء وإعمار عاصمتها الأبدية».

* * *

إزاء هذا الاستكبار الأجوف الذي قلب الأدوار وجاوز الحمق والصلف إلى نوع من التحدّي، كان لا بد للولايات المتحدة من مراجعة حساباتها جدياً. ويبدو أن القرار الذي اتخذه البيت الأبيض قضى بتحجيم التضخم الإسرائيلي، وذلك للمرة الأولى بعد ايزنهاور، ولأسباب ثلاثة أهمها رابعها:

* السبب الأول يعود إلى المعارضة الشديدة من قبل معظم الشعب الإسرائيلي لمنطق الحرب الذي يتعامل به نتنياهو مع الظروف الموضوعية الجديدة في الشرق الأوسط، كما يعود إلى الموقف العدائي الذي يقفه اليهود الأميركيون عموماً من سياسة الرئيس الإسرائيلي، لأنها تهدد مصالحهم وطموح رؤوس أموالهم التي يحتاج توظيفها المأمون إلى سلام شامل في المنطقة. ومعروف أن الرئيس كلينتون يتمتع بولاء اليهود الأميركيين الذين خصّهم بمراكز قطبية في إدارته، من وزارة الخارجية إلى وزارة الدفاع ووزارات أخرى أقل أهمية، إلى رئاسة البنك الدولي ووظائف ريادية في البيت الأبيض والأمن القومي والمخابرات، وهو أمر لم يخصهم بمثله كمّا ونوعاً أي رئيس اميركي آخر، خصوصاً في ولايته الثانية حيث تنتفي حاجته إلى أصواتهم بانتفاء طموحه إلى ولاية ثالثة يمنعها الدستور.

* والسبب الثاني يعود إلى إجماع القوى المسيحية الرئيسية في العالم على رفض أي تبديل في معالم القدس وأي تصرف منفرد بمصيرها من جانب إسرائيل أو غير إسرائيل. وفي طليعة هذه القوى الكنائس البروتستانتية في الولايات المتحدة وأوروبا، والكنيسة الكاثوليكية التي ترعى أكثر من مئة مليون كاثوليكي في أمريكا الشمالية وتنتمي إليها شعوب أمريكا اللاتينية كافة ومعظم شعوب أوروبا الغربية، ثم الكنيسة الروسية وسائر الكنائس الأرثوذكسية في الشرق الأوسط، وأخيراً حلفاء الولايات المتحدة في ميثاق الأطلسي وخصوصاً فرنسا.

* أما السبب الثالث، فهو تمسك القيادات العربية جمعاء، من أقصى اليمين

إلى أقصى اليسار، بعملية السلام التي هي صيغة أميركية في الأساس أمنت لها الولايات المتحدة عبر المفاوضات بين العرب وإسرائيل إجماعاً عربياً هو في الوقت نفسه اعتراف شبه رسمي بالدولة العبرية وشرعية وجودها مع قبول مبدأ التفاوض ومبدأ تطبيع العلائق، وإذا بالعرب الذين دأبت الصهيونية على تصويرهم أمام العالم بصورة عشاق الحروب طيلة نصف قرن، يعتنقون السلام ويعتبرونه الهدف الاستراتيجي الأول على المستوى القومي، فيما يقرع نتنياهو وصقوره المتعطشة للدماء طبول الحرب في آذان جيرانه. ولعل أهم هذه المواقف العربية المؤيدة للسلام في نظر الولايات المتحدة، هو موقف أهل القضية الذي يسجده رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات، متحملاً مع شعبه في سبيل السلام وعملية السلام أصعب تنكيل وأطول صبر في التاريخ. ويثمن الرئيس كلينتون والمجتمع الدولي هذا الموقف تثميناً راجحاً ملحوظاً، لأنهم يعلمون أن الرجل قادر في أي لحظة على زلزلة الهيكل بمن فيه، والعودة إلى البندقية، إن لم يكن من تونس فمن القاهرة أو دمشق أو عمّان، أو حتى من جزر القمر والربع الخالي.

ويواكب الموقف العربي والفلسطيني موقف العالم الإسلامي الذي يرفض هو أيضاً أي تبديل في معالم القدس كما يرفض ذلك العالم المسيحي، مع فارق أساسي هو أن المسلمين يطالبون بإعادة القدس الشرقية إلى أصحابها، على أن تكون عاصمة الدولة الفلسطينية العتيدة.

* وأما رابع الأسباب وأهمها، فهو حرص الأميركيين على كرامة رؤسائهم. ذلك انه من الصعب جداً أن تمر إهانة رئيس أميركي حاضر أو سابق دون عقاب. وإذا كان الاميركيون يعرضون أحياناً عن الإنتقام الصارم لأسباب تكتيكية تتعلق بمصالحهم واهدافهم السياسية البعيدة عندما يتعرضون للتعدي المباشر أو حتى عندما تطالهم يد الإرهاب - والأمثلة على ذلك متوافرة في التاريخ المعاصر - فإنهم خلافاً لذلك شديدو الحساسية عندما يتعلق الأمر برؤسائهم، والكل يذكر أن الرئيس كلينتون لم يتردد لحظة في ضرب مركز المخابرات العراقية بالصواريخ سنة ١٩٩٢، وذلك بعد أسابيع معدودة من انتصاره على الرئيس بوش في الإنتخابات، عندما تأكد له اكتشاف مؤامرة عراقية لإغتيال بوش أثناء زيارته للكويت.

* * *

لذلك كله يبدو أن الإدارة الأميركية قد عزمت على وقف مسيرة نتنياهو الإنتحارية نحو الحرب. وتؤكد مصادر ديبلوماسية غربية أن الإتهامات التي وجهت إلى نتنياهو عبر القناة التلفزيونية

الأولى في إسرائيل، باستغلال النفوذ ومحاولة إفساد القضاء، إكراماً لحزب «شاس» الديني وزعيمه الوزير السابق آرييه درعي المتورط في صفقات مشبوهة، هذه الإتهامات لا تخلو من أصابع خفية «للسي.آي.إي» وكانت نتيجتها المباشرة تشهيراً بنتنياهو في الصحافة العالمية عبر ما سمي بفضيحة «بيبي غيت» وزعزعة مصداقية الرجل أمام الرأي العام الإسرائيلي كمرحلة أولى.

وفي مرحلة ثانية سرّبت الإدارة الأميركية إلى صحيفة «هآرتس» القريبة من حزب «العمل» دراسة نشرتها في ٢٠ أيار (مايو) الحالي تثبت ان ٢٦ في المئة من المساكن التي بنيت في مستوطنات الضفة الغربية خالية من السكان، وكذلك نسبة أعلى تصل إلى ٦٠ في المئة من المساكن التي أنشئت في مستوطنات غزة والقدس الشرقية.

وتقول الدراسة أن هنالك مشروعاً لدى الحكومة الإسرائيلية ببناء ١١ الف مسكن جديد شيد من أصلها حتى الآن ٢٢١٨ مسكناً كلها شاغر لا يقيم فيه أحد. ولا علاقة لهذا المشروع بمشروع هارحوما الذي يفترض أن ينشا بموجبه ٦٥٠٠ مسكن آخر.

وقد بادر نتنياهو الذي أثاره التقرير الاميركي إلى تكذيبه بمنتهى الشدة وبعض الوقاحة، لأن الأرقام التي وردت فيه والتي قدمتها الارصاد الأميركية نقلاً عن الاقمار الصناعية تقود المراقبين تلقائياً إلى استنتاج خطير من خلال الأسئلة الآتية:

ما دام نتنياهو ليس بحاجة إلى مساكن جديدة فلماذا يبني ٦٥٠٠ مسكن على جبل أبو غنيم في الضاحية الجنوبية للقدس؟

وما دام هدفه ليس اسكانياً، باعتبار ان لديه فائضاً من المساكن، أفلا يمكن أن يكون هذا الهدف عسكرياً يتوخى استدراج أهل الضفة إلى ثورة دامية يقمعها الجيش الإسرائيلي بالدبابات ويدفع بالفلسطينيين جميعاً عبر انتفاضة انفعالية من هذا النوع إلى شرقي الأردن؟

وإن كان نتنياهو أعجز من أن يقوم بعملية في هذا الحجم مع جنرالاته الكرام، أفلا يمكن أن يكون هدفه أصغر حجماً واشد إيلاماً، كأن يقدم على ترحيل أهالي القدس بالقوة، وتوزيعهم بالتالي في مدن الضفة وأريافها، أو خارج فلسطين؟

فمما يجعل هذه الإحتمالات واردة في نظر المراقبين، إنه يوجد على لائحة دوائر الهجرة في إسرائيل، ما يتجاوز حالياً ٣٠٠ الف يهودي ينتظرون في أوروبا الشرقية للحصول على تاشيرة بالانتقال إلى «أرض الميعاد» في اللحظة التي يصبح لهم فيها مسكن لائق ووجود آمن!!

* * *

ولعل القضية الأخطر التي تهز اليوم قواعد نتنياهو في سدة الحكم، هي قضية الجاسوس الإسرائيلي «ميغا» التي نشرت وقائعها جريدة «واشنطن بوست» في ٧ أيار (مايو) الحالي، وأكدتها وزيرة العدل الأميركية جانيت رينو التي أعلنت أنها فتحت تحقيقاً واسعاً في الموضوع.

فخلاصة الأمر أن أجهزة الرقابة والتصنت الأميركية رصدت مكالمات سرية مرمّزة بين السفير الإسرائيلي في واشنطن الياهو بن اليسار وكبار موظفي سفارته من جهة وإدارة الموساد المركزية في تل أبيب من جهة ثانية، يتضح من خلالها أن الاستخبارات الإسرائيلية تستخدم جاسوساً من أهم الشخصيات في الإدارة الأميركية اسمه الحركي المستعار «ميغا».

وقد أثار هذا الخبر عند نشره في «الواشنطن بوست»، عاصفة من التكذيب الإنفعالي في إسرائيل ما لبثت أن همدت بعدما أكدت الوزيرة رينو صحته، فحلّت محل الإنفعال بلبلة سياسية كادت تطيح السفير الياهو بن اليسار الذي لا يرتاح نتنياهو إلى أدائه الديبلوماسي وهي تنذر بتبديلات ومناقلات رئيسية في صفوف الموساد الذي يقوده صديق نتنياهو ورفيق سلاحه داني ياتوم.

وتجدر الإشارة إلى أن زئيف شيف المعلق السياسي البارز في جريدة «هآرتس» أكد صحة الخبر وكتب يقول «إن إقدام أجهزة التنصت الأميركية على فك الرموز الإسرائيلية عمل غير ودي!» فعقب موظف كبير في وزارة العدل الأميركية فضّل كتمان اسمه على ذلك بالقول: «... أما التجسس على دولة صديقة، فهو عمل ودي» (...).

ويبدو في رأي مصدر ديبلوماسي أوروبي أن تعيين ريجينالد بارثولوميو سفيراً جديداً لواشنطن في تل أبيب مكان السفير الأميركي الحالي اليهودي المذهب مارتن إنديك متصل بهذه القضية التي تنظر إليها إدارة كلينتون بدرجة عالية من الجدية والإهتمام. ذلك أن بارثولوميو الذي يشغل حالياً منصب السفير الأميركي في روما، هو من كبار رجال المخابرات الأميركيين، وكان سفيراً للولايات المتحدة في لبنان خلال مرحلة من أخطر مراحل الحرب الأهلية. ويقول المصدر المشار إليه أنه لن يكون في وسع نتنياهو ووزارئه الغلاة أن يتعاملوا معه بالسهولة التي كانوا يتعاملون بها مع إنديك.

ويضيف المصدر نفسه إن رئيس الوزراء الإسرائيلي كان قد طلب في مقابلته الأخيرة للرئيس كلينتون إصدار عفو خاص عن الجاسوس اليهودي الأميركي جوناثان بولارد الذي نقل إلى إسرائيل معلومات بالغة السرية عن البحرية الأميركية وحكم عليه بالسجن المؤبد

سنة ١٩٨٦. وقد رفض الرئيس كلينتون هذا الطلب الذي رفضه قبله الرئيسان ريغان وبوش.

وعلق المصدر أخيراً بالقول: «لا شك في أن نتنياهو كان على معرفة دقيقة بنشاط ميغا عندما طلب العفو عن بولارد. لكن الاميركيين تعوّدوا مثل هذه الوقاحة من أصدقائهم الذين يتجسسون عليهم! ولا بد أن يذكروا من جهة ثانية أن رفائيل ايتان الذي كان مديراً لشعبة خاصة بالمعلومات الخاريجة في وزارة الدفاع الإسرائيلية سنة ١٩٨٣، هو الذي وظّف بولارد، وإن إيتان هذا أصبح وزيراً في حكومة نتنياهو، وقد تكون له اليد الطولى في توظيف ميغا»، لأن من شبّ على الخيانة شاب عليها.

١٩٩٧/٥/٢٨

شهداء ٦ أيار...
من هم؟ ومن يعرفهم؟

الوطن الذي يفقد الذاكرة يفقد الهوية والحميّة والكرامة.

فقد مرّ عيد الشهداء في السادس من أيار مروراً خجولاً بعد الأضحى المبارك والفصح المجيد وعيد العمل.

وكأني بأرواح الشهداء التي أزهقها جمال باشا على أعواد المشانق، في ٦ آب (أوغسطس) ١٩١٥ و٦ أيار (مايو) ١٩١٦، جاءت تتسول الذكرى من جماعة النسيان.

فالأجيال التي نشأت في حروب العمالة طيلة الربع الأخير من القرن العشرين لا تعرف عن أولئك الأبطال شيئاً، وكثيرون من أبنائها يعتقدون أن شهداء ٦ أيار هم الذين قتلوا في المتاريس، أو حصدتهم قذائف الموت في معارك العار والدمار.

أما الأجيال الأخرى التي سبقت المحنة السوداء، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وقد تبدّل بعضهم غير هذا الوطن أوطاناً في بلاد الله الواسعة، والذين لم يبرحوا الدار والجار معظمهم يعيش حتفَ يومه بلا حسرات ولا ذكريات.

لذلك رأيت من الواجب أن أفتح هذه الصفحة المطوية من تاريخنا الحديث ليدرك المواطنون أن عيد السادس من أيار يختصر كل أعيادنا الوطنية ويجسد معانيها الكريمة في عيد واحد.

* فهو أولاً «عيد الوحدة الوطنية»، ليس في لبنان فقط، بل في سوريا والعراق وفلسطين أيضاً، لأن الذين علّقوا على المشانق أو قتلوا غدراً أو أعدموا رمياً بالرصاص، من أبناء هذه الأوطان العربية، كانوا مسلمين ومسيحيين من مختلف المذاهب.

* وهو ثانياً: «عيد الاستقلال» الحقيقي، لأن استقلالنا عن فرنسا عام ١٩٤٣، سقط خلاله شهيد واحد هو الفدائي البطل المرحوم سعيد فخر الدين، أما استقلالنا عن تركيا بين ١٩١٥ و١٩١٨، فقد سقط خلاله اثنان وأربعون شهيداً معظمهم من أعيان اللبنانيين، وفي عدادهم سراة فلسطينيون وسوريون وعراقيون، فضلاً عن مئات الألوف ممن قضوا جوعاً في جبل لبنان، وعشرات الألوف من الشبّان العرب الذين جنّدهم

جمال باشا في الجيش التركي الثاني، وجعلهم طعماً لمدفعية الحلفاء من أعالي القفقاس إلى أطراف اليمن، وجداراً بشرياً واقياً يتلقى الضربات عن جيشه المنهزم ويخفف عدد الإصابات في صفوفه.

وبديهي أن الاستقلال الذي لا يغتسل بدم الأحرار لا يستحق أن يسمى استقلالاً. أقول هذا بصرف النظر عن الفرق الشاسع بين الانتداب الفرنسي الذي أقرته «عصبة الأمم» بعد الحرب العالمية الأولى بصفة مؤقتة ولأجل مسمى، والاحتلال التركي للبنان والبلاد العربية الذي وطده السلطان سليم العثماني الأول سنة ١٥١٦ بحدّ السيف، فاستمر أربعة قرون، وكان يمكن أن يستمر إلى الأبد ويقضي على هوية العرب ولغتهم وتراثهم لولا هزيمة ألمانيا وحلفائها العثمانيين سنة ١٩١٨.

* والسادس من أيار هو ثالثاً: «عيد حرية الصحافة» كما سمّاه بحق نقيبنا الأستاذ محمد البعلبكي، لأنه كان في عداد الشهداء الاثنين والأربعين الذين أعدموا في تلك الحقبة خمسة عشر صحافياً من رجال الفكر السياسي والأدب والثقافة، أزعج السفّاح وابتعث حقده الدفين أن تكون أقلامهم أمضى من سيوف الطغيان.

* ثم أن هذا العيد هو رابعاً وأخيراً «عيد القومية العربية» والمصير المشترك لبلاد الشام ومصر والعراق، لأن الذين أعدموا جميعاً كانوا ينادون بانفصال العرب عن الأتراك، ولم يكن بينهم في تلك المرحلة النضالية من يدعو إلى انعزال طائفي أو عنصري ضيق أو إلى حكم أكثري يسحق الأقليات. وتأكيداً لهذه الحقيقة يكفي أن نذكر بعض الجمعيات التي انخرطوا فيها، كـ«المنتدى الأدبي» و«العهد» و«القحطانية» في الأستانة، وجمعية «اللامركزية» في بيروت والقاهرة والقدس، ثم «الإصلاح» و«النهضة» في دمشق وبيروت والقاهرة، و«الاتحاد اللبناني» في بيروت وطرابلس إلخ... وكلها كانت تعتنق مبدأ القومية العربية وتناضل في سبيل التحرر من ربقة العثمانيين دون أي بحث في الأنظمة السياسية المستقبلية.

أما التقسيم أو التقاسم الذي حدث بعد ذلك لتركة العثمانيين في العالم العربي، فيعود إلى الحلفاء الغربيين الذين خافوا أن يؤدي استقلال العرب إلى قيام إمبراطورية عربية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية، فبادروا إلى تقسيم هذه المنطقة دويلات لا تزال إلى اليوم تتنازع فيما بينها وتصارع الأوبئة العشائرية والطائفية والحزبية، كل ذلك لتوطين اليهود في أرض فلسطين وتيسير استغلال نظام الانتداب الأجنبي لخيرات المنطقة ومواردها الهائلة.

* * *

كان هدف جمال باشا المعروف بالسفاح، وهو عضو بارز في حزب «تركيا الفتاة» الذي خلع السلطان عبد الحميد بالتواطؤ مع الصهيونية، أن يقضي على ثلاث مجموعات بشرية في ممتلكات السلطنة يمكنها أن تقاوم إقليمياً ودولياً استيلاء اليهود على فلسطين، فقرر بالتفاهم مع طلعت باشا وزير الداخلية وأنور باشا وزير الحربية في تركيا يومذاك، إبادة هذه المجموعات الثلاث أو إضعافها بأي وسيلة:

١ ـ المجموعة الأولى هم المثقفون والوطنيون المسلمون في الأقطار العربية. وكان معظم هؤلاء متأثرين بالثقافات الأوروبية وبعضهم تلقى دروسه العليا في جامعات الأستانة وباريس ولندن وروما وبرلين، وقد نهلوا جميعاً مبادئ الحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وانضم فريق منهم إلى الثورة العربية التي أعلنها الهاشميون على العثمانيين سنة ١٩١٦، كما أسسوا الجمعيات والأندية السرية الداعية إلى القومية العربية ومحاربة التتريك مع مثقفين آخرين من النصارى العرب. الأمر الذي أوجب على القادة الأتراك تصفيتهم خوفاً من تعاظم نفوذهم في المجتمع العربي الناقم والمنتقم.

٢ ـ أما المجموعة الثانية، فهم الأرمن الذين كانوا في ذلك الحين ولا يزالون يملكون إلى اليوم تراثاً مادياً ومعنوياً كبيراً في بيت المقدس، وكان الصهيونيون والباشوات الأتراك المتحالفون معهم يعتبرونهم رأس حربة لروسيا الأكثر حرصاً بين الأمم الأرثوذكسية على أورشليم. وهو في عداد الأسباب التي أدت إلى مجازر ١٩١٥.

٣ ـ وأما المجموعة الثالثة، فهم الموارنة الذين اعتبرتهم الدولة العثمانية باستمرار طابوراً خامساً لفرنسا أكثر الأمم الكاثوليكية حرصاً على المقدسات المسيحية في فلسطين. وهو السبب الرئيسي لتجويع الجبل اللبناني وإبادة ٧٠ في المئة من سكانه خلال الحرب العالمية الأولى.

* * *

بعد هذه الفذلكة التاريخية التي فرضتها المناسبة، أقدّم للقارئ جدولاً بأسماء الشهداء اللبنانيين والعرب الذين صدر الحكم بإعدامهم عن الديوان العرفي التركي في عاليه بين عامي ١٩١٥ و١٩١٦، مع لمحة وجيزة عن صفات بعضهم، وقد حصلت على هذا الجدول سنة ١٩٥٣ من محفوظات المناضل الوطني المرحوم أسعد عقل شقيق المغفور له الشهيد سعيد عقل والد زميلنا فاضل عقل أطال الله عمره، وحققت الأسماء مؤخراً في ضوء الوثائق

التي يملكها الصديق محمد علي الرزّ رئيس عصبة تكريم الشهداء.

القافلة الأولى:
(بيروت ــ ١٩١٥)

شهداء ٦ آب (أوغسطس) ١٩١٥ الذين أعدموا شنقاً في ساحة الاتحاد (المعروفة بساحة البرج وأطلق عليها فيما بعد اسم ساحة الشهداء)، وعددهم ١١ شهيداً:

١ ـ عبد الكريم الخليل، ٢ ـ مسلم عابدين، ٣ ـ صالح أسعد حيدر، ٤ ـ نايف تللّو، ٥ ـ محمد المحمصاني، ٦ ـ محمود المحمصاني، ٧ ـ عبد القادر الخرسا، ٨ ـ محمود العجم، ٩ ـ نور الدين القاضي، ١٠ ـ سليم عبد الهادي، ١١ ـ علي الأرمنازي.

جميعهم من أعيان المسلمين وكبار المفكرين والمجاهدين، وبينهم صحافي واحد هو محمود المحمصاني الذي كان معلقاً سياسياً ومراسلاً لبعض الصحف المصرية، وعضواً في جمعية «اللامركزية» ـ فرع بيروت.

القافلة الثانية:
(بيروت ــ ١٩١٦)

شهداء ٦ أيار (مايو) ١٩١٦ الذين أعدموا شنقا في ساحة الاتحاد (البرج)، وعددهم ١٤ شهيداً:

١ ـ الشيخ أحمد حسن طبارة. صاحب جريدتي «الإصلاح» و«الاتحاد العثماني». عضو وفد بيروت إلى المؤتمر العربي العام. (صحافي، رجل دين، ومفكر سياسي).

٢ ـ سعيد فاضل عقل. صاحب جريدة «البيرق» في بعبدا، ورئيس تحرير عدد من الصحف أهمها: «النصير» و«الإصلاح»، و«لسان الحال». (كاتب ومعلق سياسي شهير).

٣ ـ عمر حمد. شاعر شعبي ومحرر صحافي جريء كتب في جريدتي «المفيد» و«الإصلاح».

٤ ـ عبد الغني العريسي. صاحب «المفيد» و«فتى العرب» و«لسان العرب». أحد كبار الصحافيين المناضلين.

٥ ـ توفيق البساط.

٦ ـ سيف الدين الخطيب.

٧ ـ الأمير عارف الشهابي، محرر سياسي بارز في جريدة «المفيد» البيروتية.

٨ ـ الأميرالاي أمين لطفي الحافظ.

٩ ـ الأميرالاي سليم الجزائري.

١٠ ـ علي محمد الحاج عمر.

١١ ـ بترو باولي. كاتب وصحافي معروف عمل مديراً لجريدة «الوطن» ورئيساً لتحرير جريدة «المراقب» في بيروت.

١٢ ـ جلال البخاري.

١٣ ـ جورج حداد. صحافي شهير كتب في جريدة «المقتبس» في دمشق

وجريدتي «لبنان» و«الرقيب» في بيروت.

١٤ - محمد الشنطي.

القافلة الثالثة:

(دمشق ـــ ١٩١٦)

شهداء ٦ أيار (مايو) ١٩١٦ الذين اعدموا شنقاً في ساحة المرجة بدمشق، وعددهم ٧ شهداء:

١ - شفيق مؤيد العظم. من كبار رجالات سوريا.

٢ - الشيخ عبد الحميد الزهراوي، عضو مجلس الأعيان العثماني، وصاحب جريدتي «الحضارة» و«الإدارة» ومجلة «المدينة» في الاستانة، ورئيس المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩١٣.

٣ - عبد الوهاب الإنكليزي.

٤ - شكري العسلي. مؤسس جريدة «القبس» الدمشقية. والد رئيس الحكومة السورية الأسبق صبري العسلي والسياسي المعروف فيصل العسلي.

٥ - رشدي باشا الشمعة، من كبار رجالات سورية.

٦ - الأمير محمد ابن الأمير عبد القادر الجزائري قائد أول ثورة في الجزائر ضد الفرنسيين، وقد لجأ بعد ثورته الشهيرة إلى دمشق حيث كان له فضل كبير في حماية النصارى خلال فتنة ١٨٦٠.

٧ - رفيق رزق سلوم، صحافي سوري معروف كتب في جرائد دمشقية بينها «العرب» و«حمص» و«المقتبس».

شهداء منفردون:

(١٩١٥ ـــ ١٩١٦):

تمت تصفيتهم بأساليب مختلفة بين عامي ١٩١٥ و١٩١٦، وعددهم ١٠ شهداء:

١ - الخوري يوسف الحايك. شنق في دمشق أوائل سنة ١٩١٥.

٢ - ٣ - الشيخان فيلب وفريد قعدان الخازن، صاحبا جريدة «الأرز» في جونية. شُنقا في بيروت سن ١٩١٦.

٤ - يوسف بشارة الهاني. شنق في بيروت بسبب عريضة وضعها ووقعها بعض أعيان بيروت مطالبين بضم الولاية إلى المتصرفية سنة ١٩١٢.

٥ - ٦ - الشقيقان أنطون وسليم زريق. صحافيان طرابلسيان أصدرا جريدة في الولايات المتحدة سنة ١٩٠٢. أعدما رمياً بالرصاص.

٧ - المطران بطرس شبلي، رئيس أساقفة بيروت للطائفة المارونية، نُفي إلى الأناضول ومات في أطنة بظروف غامضة.

٨ - مسعود الهليل. مناضل وطني شُنق في ساحة عاليه سنة ١٩١٦.

٩ - الشيخ عبد الله الضاهر. من وجوه عكار. شُنق في طرابلس.

١٠ - نخلة باشا المطران. من وجوه

بعلبك. قتله حراسه الأتراك في الطريق إلى المنفى بين حلب وديار بكر.

* * *

كثيرون من هؤلاء دفنوا في الرمال وتبدد رفاتهم، وقد بنيت لبعضهم أضرحة رخامية سنة ١٩٤٢، وأقيم لهم نصب تذكاري في ساحة الشهداء سنة ١٩٦٥ مزقه رصاص المتناحرين في حرب لبنان المشؤومة، وهو لا يزال قيد الترميم بانتظار إعادته إلى وسط العاصمة.

إن أقل الوفاء لهذا الرعيل الخالد من شهداء الوطن يقضي بأن يبادر المسؤولون عن إعمار بيروت إلى تشييد نصب حجري على مقربة من التمثال المشار إليه يحمل أسماءهم ولمحة عن نضال كل منهم وتاريخ استشهاده، ليذكر اللبنانيون ويعرف كل زائر أو سائح كيف أريقت دماء المسلمين والمسيحيين على تراب واحد، فامتزجت في موكب الشهادة، ورسمت صورة مشرقة للوحدة الوطنية المثالية، خصوصاً بعدما عاد الأتراك مع الأسف إلى نبش أحقادهم ضد العرب، متحالفين مع إسرائيل، مهددين متوعدين، ليختموا القرن العشرين كما بدأوه، عوناً للأجنبي الغاصب على إخوتهم وجيرانهم، بل شركاء في الحروب الرعناء التي يبشر بها نتنياهو.

كما سيكون من واجب الدولة، فور جلاء العدو عن الجنوب المحتل، تشييد نصب حجري ثان بمحاذاة الأول تدرج عليه أسماء المقاومين البواسل الذين استشهدوا ويستشهدون في أيامنا هذه على أرض الجنوب لتحرير الوطن.

---

* استدراك لا بد منه: لقد تحققت قدر المستطاع من الأسماء والتواريخ والوقائع الواردة في هذا النص. لكنني لا أدّعي الإحاطة بجميع التفاصيل وإصابة الحقيقة كلياً بعد ثمانين عاماً طمس الإهمال خلالها ملف ٦ أيار (مايو) وشهداءه، كما أسهم «المجهول» في ذلك الطمس المعيب. لذلك أرجو ممن يلحظ خطأ ما في المقالة المدرجة أعلاه، أن يبادر إلى إعلامي بذلك لتصويبه. والعصمة لله وحده.

٢١/ ٥/ ١٩٩٧

عود على بدء

* اتصل بي أبو الميثاقين الوطنيين، ميثاق ١٩٤٣، وميثاق ١٩٨٩، أستاذنا الكبير نصري المعلوف ، وهو موسوعي المعرفة بمراحل النضال الوطني وسِيَر إعلامه في لبنان وسوريا، فصوّب ما أوردته في «مفكرة الأيام» حول شهداء ٦ أيار بتاريخ ٢١/٥/١٩٩٧، من أن الشهيد شكري العسلي هو والد صبري وفيصل، موضحاً أن الشهيد شكري هو والد فيصل، أما والد صبري، فهو المرحوم زاهد آغا العسلي، الأمر الذي اقتضى التصحيح مع الشكر لصاحبه.

* كذلك اتصل بي الشيخ سمير الضاهر، وهو حفيد الشهيد عبد الله الضاهر الذي قلت في «المفكرة» نفسها أنه شنق في طرابلس، وذكر لي أنه ترك لبنان في مطلع القرن إلى البرازيل،

حيث أسس «حزب الاستقلال»، وعاد إلى الوطن سنة ١٩١٣، فانخرط في النضال ضد العثمانيين، حتى قبض عليه وأعدم بعد محاكمة صورية في الديوان العرفي التركي، بأمر من جمال باشا.

٢٨/ ٥/ ١٩٩٧

البابا الشاعر

لم أكن أعرف أن البابا يوحنا بولس الثاني الذي زار لبنان في ١٠ أيار (مايو) الحالي شاعر صوفي، وهو ما لم يشر إليه أحد في الصحافة اللبنانية، حتى أهدى إليّ أحد الأصدقاء ديوان شعر عنوانه «قصائد» من تأليف شاعر بولوني يدعى كارول ڤوجتيلا هو البابا نفسه، صدر في الفاتيكان سنة ١٩٧٩، ثم في باريس خلال السنة نفسها، وقد ترجمه إلى الفرنسية الشاعر الكبير بيار إيمانويل عضو الأكاديمية الفرنسية بالتعاون مع الأديب البولوني الأصل قسطنطين جيلنسكي(*).

يقول بيار إيمانويل في مقدمة الديوان أن البابا نظم هذه القصائد بين الثلاثينات والخمسينات، وأن بعضها رأى النور يوم كان عاملاً عادياً في أحد المقالع ثم في مصنع للمواد الكيميائية قبل الحرب العالمية الثانية، وبعضها الآخر وضع بعد الحرب. وقد أهمل قداسته الشعر لاحقاً وانصرف إلى الفلسفة واللاهوت، فكانت رحلته مع الشعر قصيرة، لكنها مكتنزة بالروح، تندرج في سياق التصوف المسيحي الذي يلتقي في مضامينه الروحانية الكبرى مع التصوف الإسلامي وآثار شعراء الوجد من العرب والفرس.

قرأت هذه المجموعة الشعرية بشغف واهتمام، وعرّبت بعض مقاطعها النموذجية شعراً عمودياً موزوناً ومقفّى على الطريقة التي أفهم بها الشعر، بالرغم من أن الشاعر الفرنسي بيار إيمانويل ترجم الديوان من البولونية إلى الفرنسية بأسلوب القصائد النثرية.

واقدم للقارئ فيما يلي المقاطع التي عربتها من قصائد البابا باللغة الفرنسية وما يقابلها بالنص الشعري العربي:

للشعب يوم

Faible est le peuple s'il accepte sa défaite,
S'il oublie qu'il reçut mandat de veiller jusqu'à ce que vienne son heure.
Car sur l'immense cadran de l'histoire, les heures viennent toujours.

ما أضعف الشعب لو طالت هزيمته
ولم يبالِ بما يأتي به غدُهُ
فالدهر في سنة التاريخ منقلب
والصبح يدنو إذا ما حان موعدُه

الله والمطارق

Les choses humaines ont de vastes rivages.

On ne peut les contenir bien longtemps dans un chenal trop étroit.

Ne crains rien. Toutes les choses demeurent en «Lui» que tu contemples à travers le bruit des marteaux.

صوتُ المطارق تسبيحٌ لمن خلقا
لا تخشَ او تتلعثمْ في المدى قِلقا
فللورى أبحرٌ شطئانها اتّسعت
مهما يضِق افقها او يبدُ منغلقا

حولي الناس

Combien furent-ils à grandir autour de moi, à travers moi, à partir de moi.

Je suis devenu le lit d'un torrent appelé homme.

Suis-je resté le même après son passage en moi?

Celui qui en moi est resté de moi,
Peut-il se regarder sans crainte?

كم تنامى جمعهم حولي رضىً
وتهادَوا عبر شخصي أمَلا
يا لنَهرٍ بشريٍّ هادرٍ
مرّ بي فارتمتْ مما بذّلا
صرتهم كُلّاً وصاروا واحداً
في كياني. هل انا نفسيَ؟ لا
لو رأت عيني بقايا مهجتي
لتمثلتُ غريباً وَجِلا

بئر السامرية

Depuis ce temps-là, du fond de ce puits ou je vins puiser cette seule cruche d'eau, la splendeur adère à mes prunelles.

J'ai puisé tant de connaissance, découvert un tel vide, le mien, au reflet de ce puits.

Tout est bien. Je ne saurais t'avoir en moi.

Mais tu y demeures comme au miroir du puits demeurent les fleurs et les feuilles cueillies par mes yeux étonnés, emplis de lumière, un peu tristes.

إبريقُ ماءٍ وحيدٍ جئتُ املأه
من قاعِ بئرٍ شَفَتْ عينيّ بالرادِ
حتى اكتشفتُ فراغَ النفس منعكساً
فيها. وكنتَ عصياً لم تلِجْ كبِدي
بقيتَ في مُهجتي شبهَ الزهور وقد
تمثّلت في مرايا الماءِ عن بُعُدِ
أقطفُ النورَ منها باللحاظ وفي
طرفي ملامحُ لا تخلو من الكَمَدِ

بين ماض وآت

Nous voici aux portes de notre avenir, qui tout ensemble se ferment et s'ouvrent.

Ceux qui s'en vont, ceux qui s'en viennent, tous sont uniques.

Partout ou mourut un homme, reviens: Partout ou il naquit.

Le passé est lieu de naissance, non de mort.

١٤٨

هذه بوّابة الآتي لها فتحٌ وغلقٌ

داخلٌ أو خارجٌ يجتازها في الأرض خَلْقٌ

كلهم في واحد يسعون جمعاً أو فرادى

حيثما مات امرؤ قف. هاهنا تلقى معاده

لم يكن للموت ماضينا، ولكن للولادة

٢١/ ٥/ ١٩٩٧

(*) Karol Wojtyla: «Poêmes» - traduit par Pierre Emmanuel et Constantin Jelenski.
Editrice Vaticana Città del Vaticano, 1979.
Editions Cana et Editions du Cerf, Paris 1979.

ثورة من فوق قبل الثورة من تحت

إن صخرة تاربيين قريبة من الكابيتول(*)

مثل روماني قديم

ما من دولة يحكمها عاقل أو نخبة عقلاء أوفياء للأمة التي بوأتهم قيادتها وجعلتهم أجراءها لخدمة أمنها ورخائها، إلا ائتزرت بالحيطة والحذر، واعتصمت بالحكمة والأناة والإتزان.

إلا دولتنا التي تستعجل دائماً تقرير المستحيل، كي لا تفوّت على نفسها موعداً واحداً من مواعيدها المتواصلة مع الفشل!

ففي كانون الأول (ديسمبر) الماضي، أعربت حكومتنا عن اقتناعها، بعد طول انتظار، أن البلاد بحاجة إلى إنتخابات بلدية واختيارية، لكن أحداً لم يرغمها على تحديد موعد تلك الإنتخابات في حزيران (يونيو) ١٩٩٧.

وفي الوقائع أنه حتى بعد تحديد الموعد المذكور، وفيما كانت الحكومة تمكنن البطاقات الإنتخابية وترمّزها، مستنسخة لوائح الشطب على الكومبيوتر بدلاً من نسخها بقلم الكوبيا... لم يفطن أي دماغ من أدمغتها الإلكترونية الحصيفة، إلى أن قانون الإنتخابات البلدية الذي وضع لزمان آخر لم يعد يصلح لهذا الزمان، وأن العيوب اللاصقة به أخطر وأدق من أن تعالج في جلسة نيابية عادية تزامنت مع بداية العدّ العكسي لحلول الاستحقاق، الأمر الذي اضطر الحكومة، كما هو معروف، إلى سحب مشروع القانون وتعديلاته المقترحة من المجلس النيابي خلال انعقاده، وذلك تحت وابل من رصاص القصر الجمهوري وقذائف المعارضة، ثم تأجيل موعد الإنتخابات من حزيران (يونيو) ١٩٩٧، إلى نيسان (أبريل) ١٩٩٨، وربما إلى الربع الأول من القرن الحادي والعشرين.

كذلك وجدت هذه الحكومة في لحظة من لحظات الفطنة التي تغتاب ناموس البطنة وما تحدثه في الذهن من بلادة وفي الإنتباه من تخلف، أن إجراء إنتخابات نيابية في صيف السنة ٢٠٠٠، سيعطل موسم الإصطياف، خلال تلك السنة الفاصلة بين قرنين وحقبتين من الزمن... فاستدرجت مجلس النواب الأغرّ، الحافظ للمكارم، والمتأهب دائماً لركوب الأسنّة في حومة الوغى وحوبة الجلّى، إلى تمديد ولايته ثمانية أشهر. وقد واكبت هذا القرار الأخرق استقالة رئيس المجلس الدستوري، فبدا القرار وكأنه صفعة

مقصودة للهيئة الدستورية العليا التي سبق أن رفضت ذلك التمديد.

وبعد أخذ وردّ في وسائل الإعلام ومحافل السياسة، تعرضت خلالهما الدولة والمؤسسات لقوارع الاقلام وكواشف العدسات والأضواء، اعتذرت الحكومة عن تلك العجلة الشيطانية وقررت تقديم إقتراح بتحويل التمديد إلى تقصير...

هكذا تحكم الخفّة سلوك مجلس الوزراء وتقضم هيبته ورصانته تدريجياً، حتى أصبحت قراراته موضع استهزاء المواطن وسخريته وازدرائه. ولعل أقرب الشواهد على هذه الخفّة التي جعلت الحكم أشبه بلعبة «اليويو» في حديقة أطفال، مصير جبل النفايات في برج حمود. فقد أثار نواب الأرمن منذ بضعة أشهر قضية هذا المرحاض الكريه الذي تحول إلى جبل في غرّة بيروت «المدينة العريقة للمستقبل»، وجاء الوعد «القاطع» من وزير البيئة بناء على قرار مجلس الوزراء بأن المكب المذكور سيمنع على الشاحنات في موعد أقصاه ٣٠ أيار (مايو) ١٩٩٧. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث في ٣٠ أيار (مايو). فاستمهل الوزير نواب المنطقة والأهالي حتى ٢٠ تموز (يوليو) المقبل... ولا يشك أحد في أن هذا الموعد سيؤجل هو أيضاً إلى الخريف، ومن الخريف إلى الربيع، إلى ما شاء الله.

ولو فرضنا أن حساب الوزير في حقل الحكومة البور جاء مطابقاً هذه المرة لحساب البيدر الطافح بالقذارة في برج حمود، فماذا تفعل الدولة غداً بجبال النفايات الممتدة على طول الشاطىء من طرابلس إلى صيدا وصور، كأسنان التنين في سفح لبنان؟!.

ربما كان نقل القاذورات إلى الجبل هو الحلّ الأمثل في نظر الحكومة، كما حدث لنفايات الكرنتينا التي أحالوها على واد من أجمل وديان لبنان في المونتيفردي وقدموها أطباقاً شهية على مائدة الخنازير، ثم أمروا بإعادتها إلى الكرنتينا (...) ولكن هل بقي في الجبل الأخضر منطقة واحدة خالية من النفايات؟! وهل بقي نبع ماء واحد غير ملوث بمياه الصرف وصديد النفايات؟!

إن أخشى ما يخشاه المواطنون، هو أن تغرق الدولة في مستنقع النفايات كما غرقت في بؤرة الكسارات التي ظل القرار الحكومي بمنعها يسير من تأجيل إلى تأجيل، والمخطط التوجيهي لنقلها ينتقل تحت ضغط الأهالي الغاضبين من تعديل إلى تعديل، طيلة أعوام، حتى تنامت بفضل هذا التردد وأصبحت اليوم بشهادة وزير البيئة نفسه ٧١٠ كسارات، ٥٤ في المئة منها تعمل بدون ترخيص!

* * *

وبعد. لو عدنا إلى جذور النكبة التي حلّت بنا، وهي تنذر بالأسوأ يوماً بعد يوم،

لرأينا أن السبب الأساسي في حدوثها يعود إلى الهدف الاستراتيجي الذي وضعته الحكومة في رأس أولوياتها لقيامة لبنان بعد الحرب، وهو تبدئة الإعمار على الخدمات الرئيسية والبنى التحتية وسلامة الإنسان.

فلو صرفت هذه الحكومة اهتمامها منذ البداية إلى إزالة آثار الحرب ومشاهدها القبيحة في المدن والقرى، ثم حافظت على البيئة محافظة وقائية دقيقة، وأنفقت ما وسعها الإنفاق على المعالم الأثرية الدهرية، والمرافق الطبيعية الساحرة، والأماكن السياحية النادرة، وما يتصل بها من مؤسسات رسمية وأهلية..

ولو ركّزت الحكومة جهدها على تحسين وضع الطرق ووسائل النقل والإتصالات الحيوية السلكية واللاسلكية بما في ذلك الهاتف والبريد، وكذلك تنقية مياه الشفة، وتامين المجاري الحديثة للصرف الصحي، وإيجاد الوسائل المتطورة للتخلص من النفايات، وغير ذلك مما يشوه وجه لبنان وينحر طبيعته ويفتك بشعبه...

ولو أقدمت الحكومة على تعبئة وطنية شاملة للعناصر الفاعلة والقوى المتحفزة في سبيل مكافحة الغلاء، ورفع مستوى الدخل المحدود للطبقات الإجتماعية المتوسطة والفقيرة، مع توفير فرص العمل الشريف للمواطن بما يؤمن له الكفاية المادية ويمنعه من الهجرة، ويحرره من اليأس والإحباط...

لو اتبعت الحكومة هذا النهج الرسولي في التنمية، وأضافت إليه الإصلاح الإداري المنشود في أجهزة القطاع العام، لما وصلنا إلى الكارثة التي نتخبط اليوم فيها، ولكنا استعدنا، بفضل الأمن الذي تحقق على مستوى الوطن كله خلا بعض مناطق الجنوب المحتل، مركزنا السياحي المميز، بما يوفره من دخل متزايد، وشجعنا المؤسسات المالية والأفراد على استثمار ناجح في بلد مستقر ينعم بخدمات حديثة متطورة، كما ثمّرنا أفضل تثمير البوادر الاستثنائية الكريمة التي يخصنا بها الأصدقاء، كزيارة الحبر الأعظم إلى لبنان في أيار (مايو) الماضي، ومؤتمر الدول المانحة في واشنطن خلال كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٦، كذلك الدورات الرياضية الإقليمية والدولية، والمؤتمرات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية وغيرها مما يمر بنا مع الأسف مرور غمائم الصيف التي لا تمطر.

ولكن يبدو أن حكومتنا الرهلة وإدارتها الفاسدة تستعجلان هدر الأرصدة التي يبذل الرئيس الحريري نفسه وبعض الفعاليات الوطنية المخلصة، وفي طليعتها غبطة البطريرك الماروني، كل جهد ممكن لإنمائها في

الأوساط الخارجية المؤثرة.

فبعد مؤتمر «أصدقاء لبنان» مباشرة، برزت في الساحة المحلية حادثة إطلاق النار على حافلة العمال السوريين وما استتبعته من إعتقالات كيفية لم تؤد إلى أي نتيجة، اللهم إلا تسليط الألسنة المغرضة والأبواق المشبوهة في الأعلام العالمي ومنظمات حقوق الإنسان ضد هذا البلد المنكوب، وتصويره بصورة الوطن البوليسي الذي يحكم بالكلبجات... ثم انفجرت سلسلة الفضائح، من فضيحة الطوابع المزورة في وزارة المال والجرائم التي ارتكبت في سياقها، إلى فضيحة الجيش السري الياباني، وفضيحة السموم الصناعية المستوردة في مستوعبات الموت من المانيا وغيرها.

كذلك ما أن تمّت زيارة البابا على خير ما يرام، وبشّرتنا مراصد كشف الطوالع أنها ستكون الحجة الأكثر إقناعاً لواشنطن برفع الحظر المفروض على سفر الأميركيين إلى لبنان في تموز (يوليو) المقبل، حتى شمّرت وزارة العمل عن سواعدها العاملة في زرع الشقاق بين قوى الشعب العامل، وسيق إلياس أبو رزق إلى نظارة قصر العدل سوق المجرمين القتلة، فيما لا يزال مثلاً أبو محجن (غير الثقفي)، الفارس المغوار والفاتح الجبّار يتصدر مقاعد النظارة خلف أسوار عين الحلوة، شاكي السلاح موفور الكرامة. كل ذلك، لأن رئيس الإتحاد العمالي العام نال في الإنتخابات الأخيرة أكثر من ٩٠ ألف صوت في الدائرة الإنتخابية التي ورثها وزير العمل عن آبائه وأجداده من عهد أسرحدون البابلي (...).

* * *

المطلوب الآن ثورة من فوق يا دولة الرئيس، قبل أن تأتي الثورة من تحت.

فهل يستطيع الرئيس الحريري نفض ثوبه الفضفاض، واختصار هذه الحكومة ذات الشيخوخة المبكرة، بحكومة أقصر اذناباً وأعزّ انوفاً؟!

وهل يمكنه الإنتصار على شهوة الورش والولع بالجرافات، مما يستهلك جهده ويستأسر إرادته، فيضع ملفات المشاريع، أو معظمها، على الرفّ، لبضعة أعوام، ثم يقبل على إنعاش الوطن وإحيائه من أقرب السبل وأنفعها لأهله بين سِيف البحر وريف البقاع الخضر؟!

وما نفع الحلل البهية وقمصان الحرير ومطارف الأرجوان في يد الخياط الماهر، إن هو فصّلها على قياس جثة مهترئة؟!

إن اللبنانيين المخلصين الذين لم يفقدوا الثقة بالرئيس الحريري يدعونه إلى انتفاضة عاجلة نوعية، تقلب الأسلوب الذي أعتمده حتى الآن رأساً على عقب، قبل أن يصيبه ما أصاب صديقه الحميم الرئيس

شيراك الذي رفض أن يضحي بصنيعته الأحمق «جوبيه» وتمسك به رغم إرادة الفرنسيين، فألقى بهما الشعب من فوق صخرة «تاربيين» بعدما كانا يجلسان معاً جلوس الاباطرة تحت قبة «الكابيتول».

١٩٩٧/٦/٤

(*) المثل بالفرنسية عن أصله اللاتيني هو: (La Roche Tarpéenne est prés du Capitole) و«الكابيتول» هو مقر الأباطرة في روما القديمة. أما صخرة «تاربيين» القريبة من موقعه، فكانت هضبة عالية يلقى من فوقها المحكومون بالإعدام في واد سحيق. ومعنى المثل أن من يجلس في سدة الحكم يتعرض أكثر من أي كان للسقوط والهلاك، لأن بين ولاء الشعب وإنقلابه شعرة.

المجلس الدستوري
والثالوث المحروس...

يوم تلقى المجلس الدستوري في الخريف الماضي ٢٠ طعناً في نيابة ٢٠ من أصل ١٢٨ نائباً، وهي أعلى نسبة طعون رفعت إلى هيئة دستورية في التاريخ، قلت في «مفكرة الأيام» أن أعضاء المجلس المذكور سيجدون أنفسهم أمام احتمالات ثلاثة لا رابع لها: فإما الخضوع لإرادة الطغمة السلطوية، وأما الاستقالة، وأما الانتحار!

وقد اتصل بي يومها صديقي القاضي الكبير الرئيس انطوان خير، وكان يومها أحد قضاة المجلس قائلاً بلهجة العارف الواثق: «أوكد لك أن أياً من هذه الاحتمالات الثلاثة غير وارد. وسنتخذ القرارات المناسبة في أوانها مهما يكن حجم الضغوط ونوع المحاذير».

لم يكن هذا الكلام كافياً لإقناعي، لكنه جعلني أشعر للمرة الأولى منذ عهد بعيد، أن في البلد مؤسسة وطنية دستورية مستعدة لمواجهة الأخطبوط السياسي بالتمرد والعصيان.

ودارت الأيام دورتها، فإذا برئيس المجلس الدستوري يشق عصا الطاعة للثالوث المحروس، باستقالة ذهب المراقبون في تعليلها مذاهب شتى، فقالوا في الرئيس وجدي الملاط أحد أشرف قضاة الجمهورية وأنفعهم علماً ما لم يقله أبو العتاهية في ذمّ الزمان، وقوّلوه ما لم يخطر له يوماً في دخيلة نفسه ولا نطق به أمام جليس أو أنيس، كما طعنوه في عصمته ونزاهته وكرامته لأنه لم يقل للتجاوز مرحى، وللانحراف لبّيك...

ولكن ما تكهن به السياسيون في السلطة أو خارج السلطة، من أن الرئيس ملاط واجه ضغوطاً كان عليه أن يتصدى لها بالرفض وأن يتحدى أصحابها ويهددهم بالفضح والتشهير... هذه التكهنات وما واكبها من اتهام للقاضي الكبير بالتخاذل والتهرب من المسؤولية، دون أن ينبس هو ببنت شفة سلباً أو إيجاباً، كانت في حد ذاتها بمثابة اعتراف من جانب المتسلطين بأنهم هم الضاغطون.

تلك هي الحالة النفسية الضاغطة التي يعرفها قضاة التحقيق أكثر من أي كان، حيث ينبري موقوف متهم بارتكاب

جريمة ما، لموقوف آخر يعرف المحققون أنه بريء، فيتهمه بانه هو الذي ارتكب تلك الجريمة، لمجرد أنه ـ أي الموقوف الأول ـ رآه في مكان الحادث عند وقوعه، وكونه أفاد من صمته ـ أي صمت الموقوف الثاني ـ ورفضه الادلاء بأية إفادة.

عندها، سرعان ما يفتح الشك باب اليقين أمام المحققين، من خلال اتهامات المجرم الحقيقي للشاهد المتكتّم، ويصدق المثل القائل: يكاد الظنين يقول خذوني.

ثم إن إصرار الملاط على الاستقالة وعدم تراجعه عنها، كان أشد وأدهى على الطغمة السلطوية من صدمة حدوثها، وكان في الوقت نفسه جداراً واقياً رفعه القاضي الكبير حول المؤسسة التي دفعه إيمانه الراسخ برسالتها إلى استقالة استشهادية في سبيل تعزيز موقعها وتثبيت مقاومتها.

وقد آلمت جرعة الدواء المرّ في البداية أعضاء المجلس الدستوري الذين تجنب الرئيس أعلامهم بعزمه على الاستقالة كيلا ينفروا من مرارة الدواء ويستسهلوا الجدل الطويل، وهو علة أهل القانون، فلا تؤدي الجرعة عندئذ ما أراده لها صاحبها من تفعيل هادف يغلّب المضادات الحيوية في الجسم المهدد على الباكتيريا الخارجية التي كان السلطويون قد بدأوا يريشون سهامها ويسددونها إليه لتمزيقه، منذ انتهاء المهلة المقررة لتقديم الطعون.

وما إن صرح المخض عن الزبد، وفعلت الجرعة المرّة فعلها في اجتراح الشفاء، حتى رأينا المجلس الدستوري ينتفض بجميع أعضائه كما لم ينتفض من قبل أي جسم بلا رأس في تاريخ لبنان. بل رأينا ما لم يكن في الحسبان، وتبين أن وجدي الملاط لم يكن رأساً لتسعة أعضاء، بل أن الأعضاء كانوا رؤوساً تسعة في معيّة عاشرهم وليس في التبعية له.

وفيما تواصلت بابلية اللغط في البرلمان ومجلس الوزراء ومجالس الحاشية المسيّسة من كل حدب وصوب، وقال المنجمون باستقالة جماعية لأعضاء المجلس الدستوري، ونشط سارقو الأوراق والملفات من المرتزقة التابعين لأجهزة المخابرات في السطو على حقائب القضاة التسعة في سياراتهم ومنازلهم ومكاتبهم، لخلق بلبلة التسريب وتوسيع شرخ الثقة بين أعضاء المجلس...

وفيما ارتفعت أصوات مشككة وضمائر مأجورة، داعية إلى إلغاء المؤسسة، مطالبة بتعديل القانون الذي يرعاها، مفترية على خيارات أفرادها نزولاً عند أهواء الطاعنين والمطعونين، قبل أن يصدر عنها أي قرار...

وفيما كان ذلك التعريض والتهويل والتخوين والتسفيه يجري طبقاً لخطة مرسومة قضت بخنق أول تجربة

ديموقراطية حقيقية في مهدها...

في إبّان ذلك كله، كان المجلس الدستوري يثبت لسماسرة الداخل وقراصنة الخارج حقائق ساطعة، أهمها:

* أنه متماسك متضامن حتى النهاية، لأن مصير الجمهورية مرتبط بمصيره.

* وأنه منسجم حتى في أقصى مواقع التباين، لأنه يؤمن بروح القانون لا بحرفية القانون.

* وأنه قادر للمرة الأولى في حياة لبنان الدستورية، أن يبطل نيابة نائب دون أن يكرّس نيابة خصمه الانتخابي، لكي لا يجرح كرامة الأول ويؤكد ادعاء الآخر، وذلك حرصاً على وحدة المجتمع الناخب الذي توزعت أصواته بينهما.

* وأنه أخذ بأربعة طعون من أصل عشرين، لأن وظيفته وظيفة قانونية دستورية، وليست وظيفة سياسية انقلابية، ولأنه كان على يقين أن إعلان وجود الخلل في الجزء يكفي للإيحاء المهذب بوجوده في الكل، وأن التلميح يغني عن التصريح في التعامل مع شعب متوتر سادر يحتكم إلى الهوى دون العقل.

* وأنه لو شاء بالتالي أن ينسف المجلس النيابي ويعطل الحياة الدستورية كلياً، لما وجد صعوبة في ذلك، لكنه لم يفعل لأنه في موقع الأم الحقيقية التي يهمها بقاء ولدها - أعني الوطن - على قيد الحياة، حتى ولو سرقته منها أمّ مزوّرة تدّعي أنه لها.

* وأنه من باب هذا الاقتناع بعدم إسقاط الهيكل على ما فيه ومن فيه، رفض نشر المطالعات المخالفة الصادرة عن بعض أعضائه للقرارات المبرمة بحكم الأغلبية، لأن نشر تلك المطالعات كان يمكن أن يسيء إلى وحدة الوطن وشرعية مؤسساته بمقدار ما يسيء الطعن بالعملية الانتخابية أساساً وطلب إلغائها كلياً.

* وأنه فضّل تحميل الدولة وزر انتخابات فرعية، على ما تفرضه من جهود وأكلاف لكي يكتشف اللبنانيون إلى أي حد ستكون دولتهم مستعدة، بعد كل ما جرى، لرعاية انتخابات نزيهة، دونما ضغط، ولا إكراه، ولا تزوير.

* وأنه أخيراً نفذ القرعة التي أخرجت أربعة من أعضائه، لكي يثبت أن التزامه بالقانون هو فوق أي التزام بخصوصياته ومحاباته أو تحزّبه القطاعي. وفي ذلك ما فيه من تعريض غير مباشر بالسلطة وشتات قرارها، بعدما عجزت عن تعيين بديل لرئيس المجلس الدستوري المستقيل في المهلة التي يحددها القانون.

أن اللبنانيين جميعاً ينظرون باحترام وتقدير إلى كل عضو من أعضاء هذا المجلس الوطني الشريف. ولو كان للشعب الصابر من جميع الفئات

والاتجاهات، أن يقول كلمته الحرة للطغمة الحاكمة، لطلب فوراً إلى مجلس النواب والحكومة معاً، أن يتخذا بالإجماع قرارين اثنين يعيدان إليهما بعض المصداقية والرصيد المعنوي:

الأول رد الرئيس وجدي الملاط والأعضاء الأربعة الذين أبعدوا بالقرعة إلى المجلس الدستوري بالإقناع أو بالمصادرة تحت عنوان مصلحة الدولة العليا.

والثاني تكليف المجلس الدستوري أن يعدّل هو نفسه القانون الذي يرعاه بعد التجربة التي حدثت، لأنه لا يعقل أن تعدّل أي هيئة دستورية مهما علا كعبها، وحتى لو كانت مجلس النواب، قانون مؤسسة قضائية تحكيمية رفيعة مؤتمنة على الدستور ومؤلفة من قضاة اختصاصيين منزّهين ومجرّبين، خصوصاً ما دمنا ندعي الفصل بين السلطات ونقول أن للسلطة القضائية استقلالها التام.

علينا أن نعترف ولو متأخرين، بأن أهل مكّة أدرى بشعابها، وليس أولى من المجلس الدستوري بتعديل القانون الذي ينظم أعماله ويضبط صلاحياته، شرط أن يخضع ذلك التعديل لموافقة مجلس النواب الذي يملك التوكيل الشعبي المباشر.

أما وجدي الملاط، فحسبه في موقفه الأبيّ قول أبيه «شاعر الأرز» شبلي الملاط:

دَعْ عنك قولَ الكاشحين فطالما
نُكِبَ البريء ولم يَمَسّ المذنِبُ
زُمَرٌ على قتل الأبي تواطأوا
لكن أمام الحق أين المهرَبُ

١٩٩٧/٦/٤

العلائق الجديدة بين الأطلسي والإمبراطورية التي غابت عنها الشمس

فيما كان الرئيس بوريس يلتسين يوقع في ٢٧ أيار (مايو) الماضي مع الرئيس كلينتون وزعماء ١٥ دولة أوروبية «الميثاق التأسيسي» للعلائق الجديدة بين روسيا وحلف شمال الأطلسي، الذي سمح بتمدد الحلف المذكور إلى دول أوروبا الشرقية والبلقان، كان الجنرال الكسندر لوبيد اليميني المتقاعد الذي أبعده يلتسين عن حاشيته السياسية والعسكرية دون أن يتمكن من خفض شعبيته المتنامية، يصف ذلك الميثاق بأنه «صك من صكوك الإذعان والاستسلام». أما الشيوعيون الذين يسيطرون على مجلس «الدوما»، فقد أعلن أمينهم العام زيوغانوف أن دول أوروبا الشرقية المرشحة لعضوية حلف الأطلسي «ستندم عندما يسترد الحزب الشيوعي دفة القيادة».

هكذا يبدو أن القوى الأساسية في روسيا تعارض «ميثاق باريس» وترفض الإنضواء الطوعي تحت راية الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية. وترى هذه القوى أن الميثاق المذكور الذي منع روسيا حق «ألفيتو» ومنحها فقط حق إبداء الرأي في القرارات المصيرية، يخل إخلالاً واضحاً بالتوازن الإستراتيجي في أوروبا، ويبسط النفوذ الأميركي إلى أواسط آسيا.

ولا شك في أن توقيع هذا الميثاق الذي بات من المتوقع أن تضع قمة مدريد الأطلسية في ٨ و٩ تموز (يوليو) المقبل آلية عملية لدخوله حيز التنفيذ، لقي ترحيباً قوياً لدى الرأي العام في كل من روسيا وأوروبا الشرقية والغربية معاً، باعتباره سجل خطوة متقدمة في استئصال كابوس الرعب النووي، لا سيما وأن موقعيه توافقوا على المضي قدما في برامج تفكيك أسلحة الدمار الشامل وتعطيل الرؤوس النووية التي تحتسب بالألوف لدى الفرقاء جميعاً.

كذلك أعلنت بعض الدول المتعاطفة مع الغرب في أوروبا الشرقية، تأييدها الفوري لميثاق العلائق الجديدة بين روسيا والأطلسي الذي يعتقها من الهيمنة الموسكوفية التاريخية ويعدها بإمتيازات إقتصادية خاصة، وفي طليعة هذه الدول بولونيا وتشيكيا والمجر المرشحة أساساً للإنضمام الوشيك إلى الإتحاد الأوروبي،

ودول البلطيق التي تخلى الروس عن سيطرتهم المباشرة عليها بصعوبة فائقة في مطلع التسعينات لأن موقعها الجغرافي يقضي بإعتبارها جزءاً لا يتجزأ من أمنهم القومي.

ولكن المشكلة الكبرى تكمن في الإحباط الذي يتآكل النفس الروسية وشعورها المنسحق بالمهانة والإذلال، خصوصاً في عهد يلتسين الثاني.

فقد خضع الرجل في بدء ولايته الثانية لعملية جراحية في القلب بعد أشهر طويلة من التردد والإعتكاف الصحي نجم عنها اضطراب في أوضاع البلاد العامة وشؤون الإدارة وقطاعات الإنتاج والقوات المسلحة، فيما كان الصقور الطامعون بخلافة المريض الذي رجح الكثيرون هلاكه في تلك المرحلة يتصارعون تحت الثلج صراعاً مستميتاً على أبواب الكرملين.

وأخيراً تمت العملية الموعودة بعد أن كادت تحدث أزمة سياسية خطيرة حول قلب يلتسين الواهن المتداعي، بين المطالبين حرصاً على حياته، بأن يجري العملية رائد علم الشرايين وجراحة القلب الحديثة الطبيب الأميركي الشهير مايكل دبغي، والمطالبين حرصاً على كرامة روسيا، بأن يجريها طبيب روسي. وبعد أخذ ورد بين واشنطن وموسكو، حلّت القضية على أساس «الصوت صوت يعقوب واليد يد عيسو»، فأجريت العملية بمبضع روسي وتوجيه أميركي.

وما أن نهض الرجل من فراشه أثر نجاح الجراحة، وقبل انقضاء مرحلة النقاهة، حتى أصيب بإلتهاب رئوي حاد كاد أن يودي بحياته. لكنه عولج بالعناية الفائقة وما لبث أن عاد إلى وظيفته القيادية واهيا متثاقلاً وهو حتى اليوم لا يزال أشبه بمخلوق كوكبي آتٍ من عالم آخر، يبدو وكأنه يتحرك بجهاز ميكانيكي بطيء، ويحدّق في أفق موصول أو فراغ مجهول!

ويذهب بعض المشككين الأذكياء من خبراء المناورات السياسية إلى ادّعاء مستغرب حين يزعمون أن الفتق العضلي الذي أصاب إحدى قدمي الرئيس كلينتون وهو يمارس رياضة الغولف، لم يكن من الأهمية والإعاقة بحيث يضطر مرافقو الرئيس الأميركي إلى حمله على مقعد خاص بالحالات الطارئة وبيده عصا يوم انعقاد قمة هلسنكي مع يلتسين في نيسان (أبريل) الماضي، وبحيث يصل في ٢٧ أيار (مايو) متوكئا على تلك العصا أياها إلى مؤتمر باريس لتوقيع الميثاق التأسيسي للعلائق الأطلسية الروسية. ويقول هؤلاء أن الأجهزة الأميركية تعمدت إظهار الرئيس كلينتون بمظهر الإعاقة هذا في هلسنكي ثم في باريس، كما أوصته بإسقاط العصا من يده كي يبادر يلتسين إلى إلتقاطها وإعادتها إليه، وذلك لتخفيف صدمة الرأي العام،

خصوصاً داخل روسيا، لدى معاينة الفرق الشاسع بين حيوية الرئيس الأميركي الشاب وهزال الرئيس الروسي الهرم الذي تفضح أساريره الكئيبة ضعفه وانحلاله!.

كذلك يزعم هؤلاء أن تحريك دعوى بولا جونز السكرتيرة السابقة في ولاية أركانساس ضد الرئيس كلينتون، وإتهامها إياه بالتحرش الجنسي، وبأنه تعرى أمامها، وهي تعرف علامات فارقة في جسده، إلى آخر ما تداولته صحف الإثارة، فيما كان كلينتون يتألق في مؤتمر باريس... يزعم هؤلاء أن بعث قضية على هذا المستوى من الإنحطاط في تلك المناسبة الدولية المهمة بالذات، إنما تم برعاية الأجهزة الأميركية عينها للتخفيف من لمعان صورة كلينتون أمام الرأي العام الروسي وتنفيس احتقان المعارضين الروس عندما يكتشفون أن هذا الرئيس الأميركي الذي يدعي حكم العالم ويحجب أكثر ما يحجب رئيسهم العاثر العليل، ليس من طينة الآلهة، بل إنه بشر ضعيف مثل رئيسهم وله سقطات معيبة جديرة بالمراهقين...

* * *

وبعد. لو اقتصر الشعور بالإنزعاج والإحباط في الأعماق الروسية على قصور القيصر الجديد، لهانت المسألة إلى أبعد مدى وعادت إلى حجمها الطبيعي الذي تمتزج فيه السخرية باللامبالاة. ولكن الروس يتخبطون اليوم في أزمات كيانية مصيرية أشد وأدهى من تلك التي عرفوها في مطلع الثورة البولشفية، أو في نهاية الحرب العالمية الثانية حيث كان عليهم أن يشربوا نخب إنتصارهم بين خرائب المدن وعلى أشلاء الملايين من ضحاياهم في السهوب المحروقة والمنادح الجرداء.

فالتذمر الشعبي من الضائقة المعيشية ينذر بثورة إجتماعية خطيرة ربما عادت بالحزب الشيوعي إلى السلطة أو شجعت القوى السياسية المعارضة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار على ائتلاف يشارك فيه الجيش للإطاحة بيلتسين وأصحاب المليارات الجدد الذين دأبوا على ابتزاز الأمة ونهب مواردها عبر اقتصاد السوق بأساليب مافيوية مجرّبة سرعان ما حولت الدولة العظمى إلى بلاد منكوبة يجتاحها الفقر والمرض والتخلّف.

أما التقارير الصحفية والديبلوماسية فتسهب يومياً في تظهير الفساد الإداري، وإفلاس خزينة الدولة، والتأخر أسابيع وأشهراً عن دفع رواتب الموظفين العاملين والمتقاعدين، وكذلك في وصف الصراع الدائر بين مراكز القوى الأوليغارشية الحاكمة، وتجاوزات أناتولي تشوبايس مدير شؤون الرئاسة الحاكم بأمره، واستئثار أولئك الرأسماليين الجشعين الذين يدعونهم «أمراء الطاقة» بحماية فيكتور تشيرنوميردين رئيس

الحكومة النافذ، إلى آخر ما هنالك من أشكال التمزق والتردي في القطاع العام.

ولكي نأخذ فكرة أوضح عن الفقر المدقع الذي أصاب ذوي الدخل المحدود، نكتفي بإيراد الأرقام الآتية المستقاة من بعض تقارير البنك الدولي والهيئات الإقتصادية والإجتماعية التابعة للأمم المتحدة:

* الراتب الذي يتقاضاه باحث في أكاديمية العلوم يتراوح بين ٣٥٠ و٥٠٠ ألف روبل، أي ما بين ٧٠ و١٠٠ دولار اميركي شهرياً.

* الأجر الذي يدفع لسائق حافرة أو حارثة أو حاصدة أو رافعة في المدن والأرياف لا يتجاوز ٢٥ ألف روبل، أي ما يعادل ٥٠ دولاراً أميركياً شهرياً. وأمثال هذا السائق يعملون موسمياً بحسب الحاجة إليهم، وليس على مدار السنة.

* الراتب الشهري لضابط في الجيش الروسي برتبة عقيد لا يتجاوز مليون روبل، أي حوالي ٢٠٠ دولار أميركي.

* التعويض الشهري الذي يكسبه استاذ موسيقى في معهد حكومي ممتاز يبلغ ٣٥٠ ألف روبل أي ما يساوي ٧٠ دولاراً أميركياً تقريباً.

ولا بد من الإشارة في سياق هذه الأرقام، إلى أن أسعار السوق في روسيا الإتحادية تكاد تكون مماثلة للأسعار في الغرب، وإن معظم أصحاب الرواتب في روسيا لا يقبضون رواتبهم عند استحقاقها بل في مواعيد متأخرة. وتفيد آخر الإحصاءات التي قام بها معهد العلوم الإجتماعية والإستطلاع الروسي «فتسيوم» أن ٣٥ في المئة من الروس يندرجون ضمن فئة «المعوزين» و٢٠ في المئة ضمن فئة «الفقراء»، و٦ في المئة ضمن فئة «المعدومين البؤساء»، فيما يعتبر ٣٣ في المئة «متوسطي الحال»، و٦ في المئة فقط «أغنياء ميسورين».

وقد تبين من خلال التحقيقات التي يجريها المراسلون الاجانب، أن معظم الشعب الروسي نسي طعم القهوة والسكاكر ومعنى الكماليات، باستثناء الفودكا التي تفتك بشبابه وشيوخه فتكاً ذريعاً، وهو لا ينفق على ملبس أو ملهى أو زينة أو أثاث، ويكتفي من غذائه بالبطاطا وحساء الحبوب والخبز. ويربي الناس الابقار والماعز والدجاج في الريف لتأمين كفاية ذاتية متواضعة من الغذاء على طريقة القرون الغابرة.

* * *

وتبقى مشكلة المشاكل قائمة، وهي تتعلق بالجيش الأحمر أحد أعظم القوى الضاربة في التاريخ الذي تحول في أقل من سبعة أعوام إلى ورم خبيث قاتل يأكل من كبد روسيا الجائعة ويتآكل في موضعه دون أي نور يبشره بالخروج

من النفق المظلم.

وقد عزل يلتسين منذ بضعة أسابيع وزير الدفاع الجنرال ايغور روديونوف الذي وقف واستوقف وبكى طويلاً واستبكى على المصير الأسود الذي يواجه القوات الروسية المسلحة، ولكن ذلك العزل لم يبدل شيئاً في واقع الحال.

فالصواريخ البعيدة المدى المحمّلة بالرؤوس النووية، وأنظمتها المعقدة والدقيقة، أصبحت في وضع غير قابل ولا خاضع لأي مراقبة، مما اضطر القيادة الروسية إلى شراء حاسوب الكتروني متطور من الولايات المتحدة بسبعة ملايين دولار لرصد التجارب النووية وضبط التبدلات الطارئة التي تتعرض لها الترسانة النووية الروسية المهملة.

وقد خسرت روسيا خلال الشتاء الماضي آخر أقمارها الصناعية المختصة بالمراقبة الفضائية، ولم تستطع تزويد سلاحها الجوي بأكثر من خمس طائرات مقاتلة بين عامي ١٩٩٤ و١٩٩٧. كما أن وزارة الدفاع تقاضت سنة ١٩٩٦، ٥٥ في المئة من مجمل الإعتمادات المقررة في الموازنة العامة لتعهد عديد الجيش، و٧، ٥ في المئة فقط من الإعتمادات المخصصة للخدمات الطبية، وصفر في المئة من الإعتمادات المخصّصة للعتاد الحربي ومراكز الأبحاث.

وفي غضون ذلك تتواصل إمدادات الدولة لقوى الأمن الداخلي التي يكاد عملها يقتصر على خدمة الجريمة المنظمة وكارتل الكحول والمخدرات وأخطبوط المافيا الروسية الذي يضخّ الأموال في المصارف الأميركية والأوروبية الغربية. كذلك يجري إفساد كبار الجنرالات المترهلين الذين ابتنوا لأنفسهم الفيلاّت والقصور الفخمة من صفقات مريبة، وهم يرفضون أي تبديل في الوضع الراهن الذي كفاهم شرف السلاح وشرّ القتال.

* * *

ولعل أكثر ما يؤلم الروس الراسخين في إيمانهم المسيحي، هو التدخل اليهودي السافر في المؤامرة الهادفة إلى تدميرهم والتي تديرها المحافل الصهيونية في الغرب. وهنالك ظاهرة نموذجية لم يسبق لها مثيل في تاريخهم على صعيد القهر والإذلال، تمثلت خلال كانون الثاني (يناير) الماضي بزيارة رسمية قام بها إلى موسكو المنبوذ السوفياتي سابقاً، ووزير التجارة الإسرائيلي حالياً، اليهودي الروسي ناثان تشارانسكي الذي هاجر إلى الدولة العبرية وهو يتزعم اليوم اليهود الروس في إسرائيل، وقد ضمه نتنياهو إلى حكومته بإعتباره زعيم حزب «يا ـ عالية» الذي يملك ٧ مقاعد من أصل ١٢٠ في الكنيست.

ففي سنة ١٩٧٨، قبض على تشارانسكي هذا في روسيا، وحكم عليه

بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات بتهمة العمل على تهريب اليهود من الإتحاد السوفياتي، والتعاون مع المخابرات الاميركية لتدمير الدولة السوفياتية. وبعد ثمانية أعوام قضاها في السجون السوفياتية تمكنت الأجهزة الصهيونية من تحريره خلال عملية لتبادل الجواسيس بين الشرق والغرب سنة ١٩٨٦، فانتقل إلى إسرائيل حيث عمل على استقطاب اليهود الروس الذين تدفقوا على الدولة العبرية بعد إنهيار الإتحاد السوفياتي. وهو يعتبر اليوم أحد الصقور الكاسرة التي تؤيد سياسة نتنياهو في الحكومة والبرلمان. لقد شهد الروس استقبال هذا الرجل من جانب سلطات بلادهم على رأس وفد من رجال الأعمال الإسرائيليين، بمنتهى الألم والمرارة، وقابلوا الحفاوة التي تسابق إلى إحاطته بها القياصرة الجدد بإشمئزاز إزدراء، خصوصاً عندما قال وهو يزور سجن «ليفرتوفو» الذي كان من نزلائه في الماضي: «دخلتك عبداً، وها أنا أعود إليك سيداً» (...).

وعندما صلّى تشارانسكي في كنيس موسكو تحت انظار وزير خارجية روسيا يفغيني بريماكوف الذي حرص على تكريمه إلى أبعد مدى، خاطب الصحافيين بقوله: «هنا كنّا ننظم المظهرات الصاخبة ضد العرب خلال حرب الكيبور - يقصد حرب تشرين (أكتوبر) ١٩٧٣ - لكي ينتصر شعبنا ويؤكد حقه في الحياة!...».

فعسى أن يشرح الوزير بريماكوف هذه اللفتة «الكريمة» من جانب ضيفه «الكريم» للزعماء العرب خلال زيارته المقبلة إلى الشرق الأوسط لتحريك ريشة أميركية منسيّة من رياش حمامة السلام التي افترسها نتنياهو (...).

* * *

بعد كل ما تقدم نفهم لماذا يتململ السواد الأعظم في روسيا من إنصياع «الرجل المريض» لسياسة الأطلسيين، خصوصاً وقد أعلن الرئيس كلينتون في هولنده بعد مؤتمر باريس عزمه على إقرار مشروع مارشال جديد يحيي أوروبا الشرقية مثلما أحيا مشروع مارشال السابق عام ١٩٤٧ دول أوروبا الغربية، تاركاً روسيا وجيرانها في روسيا البيضاء وأوكرانيا تحت انياب تشارانسكي وأمثاله من الغربان الحائمة على جثث الإمبراطوريات المنهارة.

ولكن الذين قرأوا جيداً كتب التاريخ يعرفون أن كل الذين تورطوا في العمق الروسي، من الفرسان التوتون في عهد الكسندر نيفسكي خلال القرن الثالث عشر، إلى جيش نابوليون في مطلع التاسع عشر، إلى جيش هتلر في القرن العشرين، تركوا أمجادهم في مقابر جماعية.. وإن

هنالك ما ينبىء بتطورات دراماتيكية في روسيا اليوم، على غرار ما حدث في الأمس القريب والبعيد، لأن هذه الأمة التي قبلت أحياناً عبر تاريخها المجيد أن يسودها الأحمق والزنديق والسكير أو حتى المومس القحباء، لم تقبل مرّة واحدة أن يتحكم بمصيرها الغرباء.

لذلك يرى المراقبون إنه لن يطول الأمر بيلتسين حتى يقبض أو يستعفي. وكائناً من كان ذلك الآتي بعده، فإنه سيتجه نحو الشرق لبناء سدّ يوقف التوسع الغربي. وكما أنشب ستالين ظفر الحرب الباردة في خاصرة العالم الحرّ يوم عانق ماو تسي تونغ في منتصف القرن العشرين، كذلك لا بد أن ينشب الرجل الذي يأتي به القدر بعد يلتسين ظفراً مماثلاً في خاصرة التحالف الغربي عندما يعانق جيانغ زيمين، أو من يليه من أباطرة الصين الجدد في القرن الحادي والعشرين.

١٩٩٧/٦/١١

مجهول يطارد البابا ويخطط لاغتياله

في التاسع من حزيران (يونيو) الحالي، أي بعد مرور شهر على زيارة البابا يوحنا بولس الثاني للبنان، أقدم رجلان من التابعية التركية على خطف طائرة من طراز بوينغ ٧٣٧ تابعة للخطوط الجوية المالطية خلال رحلتها من فاليتا عاصمة جزيرة مالطا إلى اسطنبول، وتوجها بها إلى مطار في غرب ألمانيا يقع بين مدينتي كولونيا وبون.

وقد انتهت هذه العملية باستسلام الخاطفين إلى السلطات الألمانية بعد مفاوضات عاجلة، ولم يصب أحد من ركاب الطائرة الثلاثة والثمانين ولا من أفراد طاقمها الستة بأذى.

أما هدف العملية. فهو حسبما أعلنه الخاطفان، تذكير العالم بالتركي محمد علي أقجا الذي ينفذ عقوبة السجن المؤبد في أحد السجون الإيطالية لمحاولته اغتيال الحبر الأعظم عام ١٩٨١، والضغط على المجتمع الدولي للإفراج عنه.

فمن يقف وراء هذين الرجلين؟

وهل لهما علاقة بالجهة التي دفعت أقجا إلى إطلاق النار على البابا في ذلك الحين والتي لا تزال مجهولة إلى اليوم؟

لقد أكد أقجا لوكالة الأنباء الإيطالية أنه يشجب حادث الخطف ولا علاقة له به على الإطلاق، ومما قاله: «إنني أتمنى الخروج من السجن، ولكن بموجب عفو قضائي يعيد إليَّ حريتي وكرامتي الإنسانية، وليس بفضل عمل إرهابي من هذا النوع».

وكان لهذا الموقف السلبي من العملية والقائمين بها الذي أعلنه السجين فور تبلغه النبأ، تأثيره المباشر على أفكار بعض المراقبين وتكهناتهم، فسارعوا إلى الافتراض أن الذين ورّطوا أقجا في محاولة الاغتيال، هم الذين قاموا بخطف الطائرة سعياً إلى إطلاقه، ومن ثم تصفيته قبل أن يبوح بما يكتم ممّا يعرف.

وبديهي أن أي معلق رصين لا يجيز لنفسه استباق التحقيق الذي تجريه الأجهزة الألمانية والأوروبية المختصة في هذه المسألة الغامضة. لكن هنالك وقائع لا بد من كشفها أمام الرأي العام، وهي تسلط الأضواء على هوية ذلك «المجهول» الذي حاول اغتيال البابا مراراً قبل ١٩٨١ وبعدها.

وفي انتظار عرض الوقائع المشار

إليها والنظر في مدلولاتها العميقة، لا بد من الإقرار أولاً بأن الشابين الخاطفين لم يتصرفا بدافع ذاتي، لأنه ما من إنسان في عصرنا الذي فقد أخلاق الفروسية، يراهن تلقائياً على حياته في عملية بهذا الحجم للإفراج عن سجين من بني قومه يتنكر للإنسان المشار إليه وللعمل الذي أقدم عليه، كما ينكر علاقته أو معرفته به وبأهدافه.

ولا بد من الإقرار ثانياً بأن أسلوب الخطف ونهايته السعيدة لا يوحيان بأن من يقف وراء الخاطفين كان يأمل بالإفراج عن السجين من خلال تلك العملية الاستعراضية المحسوبة.

لذلك يميل المراقبون الجديون إلى الاعتقاد أن «المجهول» استهدف بمسرحية الخطف مجرد التحذير... تحذير أقجا من البوح بما يكتم ممّا يعرف، وتحذير الحبر الأعظم في الوقت نفسه من البوح بما يكتم هو أيضاً مما يعرف! كما أراد أن يثبت للفاتيكان والعالم الكاثوليكي أن يده طائلة، وأنه قادر على اجتراح نهايات «غير سعيدة» لعمليات من نوع آخر لا تقوى أي سلطة كنسية أو مدنية على ردها!

* * *

أما الوقائع فتؤكد أن قداسة البابا تعرض لمحاولات اغتيال عدة منذ اليوم الذي قرر فيه أن يخرج من عزلة الفاتيكان لترسيخ الإيمان بالله عند الكاثوليك وغيرهم من أبناء المذاهب المسيحية، وتعميق الصلة الروحية بين المسيحيين وأتباع الديانات الأخرى، وذلك بأسلوب المواجهة والحضور الشخصي والخطاب المباشر والحوار، في عصر لم يعد يستوعب الإيمان بالتجريد قدر ما يستوعبه بالتجسيد، وقد غدت أجياله الجديدة بحاجة إلى «أصبع توما» لتوكيد إيمانها بعدما احتكمت إلى السمع والبصر في تكوين الرأي وصنع القرار عبر الإذاعة والتلفزة وسائر الببغائيات الالكترونية الرائجة، دون أدوات العقل وموحيات الوجدان التي تخصب الكلمات المؤثرة والخيالات المعبرة والأحاسيس المرهفة.

لقد أزعج «المجهول» إزعاجاً كبيراً هذا البابا البولوني الذي خرج على رتابة خلفاء بطرس من البابوات الطليان، أولئك الذين جلسوا قروناً تحت قناطر توما الأكويني وفرنسيس الأسيّزي يدعون الناس ليأتوا إليهم دون أن يتحركوا هم باتجاه الناس... هذا البابا الذي أدرك بتجربته الطويلة في مراكع البائسين ومصارع الكادحين أن الناس يفضلون «أصبع توما» على فلسفة بولس... لقد أزعج «المجهول» هذا البابا الذي نصب له كميناً خطراً يحول دون أن ينال ما يبتغيه من حكم العالم في نهاية القرن العشرين، فقرر أن يقتله لكي يقتل رسالته.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن البابا

بولس السادس الذي سبق يوحنا بولس الثاني إلى أخذ المبادرة في الانتقال إلى الآخرين، كان قد أثار حفيظة «المجهول» الذي أدرك الخطر الكامن في سلاح الانتقال البابوي على خططه ومطامعه، فتدبر أمر اغتياله على يد رسام بوليفي فاشل يدعى بنيامين ماندوزا خلال زيارة بولس السادس للفيليبين عام ١٩٧٠، وقد هاجم ذلك الرسام البابا بسكين محاولاً طعنه، لكن محاولته فشلت بالتدخل الفوري الحاسم من جانب الحرس البابوي الخاص. فاعتقل الرجل، وقيل يومها ما يقال عادة لإخفاء الحقيقة في محاضر الاستجواب، إنه مختل عقلياً (...).

* * *

كانت تلك محاولة الاغتيال الأولى والأخيرة التي تعرّض لها بولس السادس. لكن المسألة اختلفت في عهد يوحنا بولس الثاني وزاد تصميم «المجهول» على قتل الحبر الأعظم بأي وسيلة، فوقع الاختيار بعد تمحيص هادف وتقويم طويل في مخابر المجرمين وأوكارهم، على محمد علي أقجا، وهو يميني متطرف، متعصب ومتهور، سبق أن جرّب القتل ونجح فيه. ذلك أنّه في تاريخ أول شباط (فبراير) ١٩٧٩، أقدم محمد علي المذكور في اسطنبول على اغتيال الصحافي عبد الباقي (أو عابد إيباكي بالتركية الكمالية الفاقدة لهويتها) رئيس تحرير جريدة «ملّييت» الواسعة الانتشار، لأسباب غامضة لا يعرفها أحد إلى اليوم. ويبدو أن «المجهول» الذي دفعه إلى ارتكاب هذه الجريمة المنكرة ما لبث أن دبّر فراره من السجن في تركيا بعد أشهر قليلة.

وكان يوحنا بولس الثاني قد أعلن عزمه على زيارة تركيا في أواخر تلك السنة نفسها، وأبدت بعض الصحف الغربية مخاوفها يومذاك من أن تصدق النبوءة التي يقال أن السيدة العذراء مريم أبلغتها إلى أطفال رعاة ظهرت عليهم عام ١٩١٧ في بلدة فاطمة البورتغالية، ومفادها أن أحد البابوات سيقتل في دولة شرقية قبل نهاية العالم بحلول السنة ٢٠٠٠!

وقد رأى «المجهول» يومذاك الفرصة مناسبة وتؤيدها نبوءة سماوية مكرسة دنيوياً، لاغتيال قداسته بواسطة أقجا نفسه الذي كان حراً طليقاً بعد فراره من السجن، فشجعه على كتابة رسالة إلى جريدة «ملّييت» يقول فيها عشية زيارة البابا لتركيا أنه «سيقتل قداسته إن لم يبادر فوراً إلى إلغاء تلك الزيارة»! ونشرت الجريدة المذكورة هذه الرسالة في عددها الصادر بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٩.

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث بفضل التدابير الأمنية الاحترازية الصارمة التي اتخذتها الحكومة. إلا أن «المجهول» كان قد اتخذ بالمقابل قراره النهائي الذي لا رجوع

عنه. وتنفيذاً لذلك القرار أقدم في شباط (فبراير) ١٩٨١ على تفجير عبوة ناسفة في مطار كراتشي حيث حطت الطائرة البابوية وهي تقلّ قداسته إلى الفيليبين واليابان. وقد أدى الانفجار إلى سقوط قتيل وثلاثة جرحى، لكن الحبر الأعظم ومرافقيه لم يُصَبوا بأي أذى. أما التحقيق، فلم يتوصل، مثله في كل مرة، إلى معرفة مهندسي ذلك الانفجار.

وعاد «المجهول» بعد إخفاق محاولته مرة أخرى إلى عميله الدائم محمد علي أقجا، فسهّل انتقاله بجواز سفر مزور من تركيا إلى روما حيث دخل حاضرة الفاتيكان وهو عارف بتحركات البابا ويوميات نشاطه تفصيلياً، ولديه علم سابق بأن قداسته ينزل إلى الجماهير المحتشدة في ساحة القديس بطرس كل يوم أربعاء ويخطب فيها ويجول بينها في سيارته المكشوفة. وانطلاقاً من هذه المعلومات الدقيقة التي حصل عليها من عملاء «المجهول»، تمكن من تنفيذ جريمته التي فشّلها القدر يوم الأربعاء في ١٣ أيار (مايو) ١٩٨١، فشاءت العناية الإلهية أن ينجو يوحنا بولس الثاني من هذه المحاولة أيضاً بأعجوبة بعدما أصيب بأربع رصاصات في صدره وأجريت له عمليات جراحية دقيقة أقعدته أشهراً في المستشفى.

ورغم الاستجواب المتواصل الذي أخضع له أقجا في دوائر البوليس والقضاء الإيطالي، فقد ظل ينكر تدخل أي جهة في جريمته ويقول أنه ارتكبها بقرار شخصي عن سابق تصور وتصميم وأنه يتحمل مسؤوليتها الكاملة وحده.

* * *

كان مسلسل الاعتداءات على البابا يجري يومذاك في إبان الحرب الباردة. لذلك سرعان ما وجه الغرب أصابع الاتهام إلى المخابرات السوفياتية، وخصوصاً بعد مفاعيل الزيارة التي قام بها يوحنا بولس الثاني إلى وطنه بولونيا عام ١٩٨٠ وبداية تفكيك الستار الحديدي بالوهلة الروحية الأولى. ورغم اعترافات أقجا التي حصرت التهمة في شخص أقجا، وفيما كان «المجهول» المتدخل في الأجهزة الغربية يعمل على توريط الـ«كي-جي-بي» وعملائه البلغار في المسألة... وفي الوقت الذي توالت فيه لجان الاستقصاء الأميركية والأوروبية على سجن «آنكوني» ودوائر القضاء الإيطالي لوضع مئات التقارير وعشرات الكتب محمّلة السوفيات والبلغار مسؤولية العمل الشنيع... كان الفاتيكان يعتصم بالصمت المطبق ويحدس بأن السر الكبير لا يزال كامناً في أعماق محمد علي أقجا.

وفي صبيحة يوم من أيام كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٣، توجه يوحنا بولس الثاني إلى السجن وقابل الرجل

وجهاً لوجه، ثم باركه ومنحه الغفران واستمع إليه في سر اعتراف لم يعرف له التاريخ مثيلاً. ويؤكد الباحثون الأكثر جدية أن أقجا سلّم سره للبابا واستراح. فقد تبدّل سلوكه منذ تلك المقابلة وأصبح وادعاً محباً مؤمناً برحمة الله، تائباً متحرراً من شيطانه، فيما احتفظ الحبر الأعظم بالسرّ في صندوق فؤاده وأخذ يسعى لدى الدوائر العليا في روما لإطلاقه. لكن السلطات الإيطالية لا تزال تخشى أن هي أفرجت عنه بعد ستة عشر عاماً قضاها في السجن أن يعمد «المجهول» إلى قتله فوراً.

ثم إن ما حصل في ما بعد أسقط النظرية القائلة بأن السوفيات والبلغار كانوا وراء محاولة اغتيال البابا، ذلك أن مطاردته استمرت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وأجهزته، وتمثلت خلال هذا العام بمحاولة قتله في سراييفو ثم في بيروت.

ولا ننسَ في أي حال، أن رجل المخابرات السوفياتية فيكتور إيڤانوفيتش تشيموف أحد كبار موظفي الـ«كي.جي.بي» الذي لجأ إلى الولايات المتحدة بعد سقوط جدار برلين، كان قد عقد في واشنطن مؤتمراً صحافياً في آذار (مارس) ١٩٩٠، حاول خلاله طمس القضية بنسبتها إلى الاتحاد السوفياتي الميت، وذلك لإبعاد شكوك الفاتيكان الذي كانت تحوم منذ البداية حول «المجهول» الذي لا يموت (...)

ومما قاله تشيموف في تلك المقابلة المرتبة مع الصحافة العالمية أنه كان يشرف على المخابرات السوفياتية في العاصمة البولونية فرصوفيا أوائل الثمانينات يوم طلبت منه القيادة العليا لجهاز الـ«كي.جي.بي» معلومات حول «أفضل السبل للاقتراب من البابا جسدياً»! الأمر الذي كان من البديهي تفسيره بأنه يعني أقرب السبل إلى قتل البابا وليس رشقه بماء الزهر (...).

إلا أن دوائر الفاتيكان لم تعلّق بأي كلمة على هذه المزاعم سلباً أو إيجاباً، وبقي السر مدفوناً في قلب أقجا وظل وديعة في ذمة البابا. وحتى اليوم، وبالرغم من تلغيم الجسر الذي كان لا بد للحبر الأعظم من عبوره للوصول إلى عاصمة البوسنة في نيسان الماضي بـ١٥٠ كيلوغراماً من مادة «ت.أن.ت»، وقد عطلتها أجهزة الأمن دون أن يعرف كيف وضعت ومن وضعها وبسحر أي ساحر... وبالرغم كذلك من التوصيات التي تلقاها الأمن اللبناني والسوري من أجهزة الانتربول بوجوب الاحتراس الشديد «لمؤامرة ما» تهدف إلى اغتيال قداسته أثناء زيارته لبنان في ١٠ و١١ أيار الماضي... رغم ذلك كله، فإن البابا لا يزال يحمل في قلبه سر الاعتراف، ولا يزال «المجهول» يطارده محاولاً قتله، مع العلم أن المخابرات السوفياتية والبلغارية ذهبت

إلى غير رجعة، وطبيعي بالتالي أن يكون «المجهول» حائراً في هذه الأيام الكئيبة من تاريخ الإنسانية إلى من يوجه الاتهام في محاولات قتل الحبر الأعظم. وكيف!

ربما نسبوها في وقت قريب، اقتفاء لعلامات الأزمنة، إلى الأصولية الإسلامية، خصوصاً بعد جريمة قتل الرهبان السبعة في الجزائر عام ١٩٩٦، وبعد المجازر المرتكبة بالسكاكين والفؤوس والمناشير في القرى الجزائرية الآمنة، وبعد مسلسل اغتيالات الاقباط في كنائسهم بصعيد مصر، لكي يفلت «المجهول» من قفص الاتهام بكونه هو الذي يخطط لقتل البابا، مثلما افلت حتى الآن من التهم الموجهة إليه بكونه يستأجر بعض القتلة المنحرفين في صفوف الحركة الإسلامية لتشويه صورة الإسلاميين في الأوساط الدولية وإثارة الحقد على الإسلام والمسلمين في العالم المسيحي بجناحيه الغبي والمتغابي.

وبعد. فما دام البابا يعرف وحده الحقيقة، مع محمد علي أقجا الذي لا أهمية لمعرفته أم جهله.. وما دام قد بلغ السيل الزبى بعد أن خضع حكام العالم باسره لعولمة «المجهول»، وقالت مومس أميركية أنها تعرف شكل الأعضاء التناسلية لرئيس الدولة الأعظم، وصوّت في أعقاب ذلك أعيان «روما العظمى الملحدة» بوحي جيوبهم وأعضائهم التناسلية على تسليم أورشليم إلى اليهوديم... فما الذي ينتظره يوحنا بولس الثاني ابن السابعة والسبعين ليكشف سر الاعتراف، وهو غير ملزم كتمانه إلى الأبد ما دام الذي أسرّ به إليه غير مسيحي؟ ما الذي ينتظره ليعلنها حرباً على ذلك المجهول تجعله معلوماً؟!!

* * *

حاشية: قرأت هذه المقالة قبل نشرها على أحد المفكرين الثقات، فتبسم وقال وهو يدفع بالجريدة إلي: «تطلب من بابا السلام أن يعلن حرباً؟! أنت واهم يا صديقي. أنظر إلى بطريرك الروسيا وهو يقبّل قبر المسيح في كنيسة القيامة احتفالاً بتسليمه بعد ألفي سنة من جانب خلفاء «قيافا» إلى صالبيه! هذا هو الرد المسيحي الوحيد على تهويد القدس!».

وقبل أن أنبس ببنت شفة أضاف: «رحم الله قياصرة الروس. إنهم لم يقبّلوا قبره هكذا، بل حرسوه وحموه ورفعوا أجراس قيامته، في زمن لم يكن فيه يلتسين ولا تشيرنوميردين. ورحم الله سلاطين بني عثمان الذين حفظوا قبر المسيح ومعراج النبي في بيت المقدس، أيام لم تكن هنالك طانسو ولا كاراداي ولا أربكان».

«لا عليك يا أخي. فلكل زمان دولة ورجال».

١٩٩٧/٦/١٨

سلّموها مدينة غير مقدّسة!

كل الأمور المتعلقة بالقضية الفلسطينية يسهل حلّها ما عدا مسألة المقدسات، وخصوصاً ما كان منها في مدينة القدس.

فلو كانت فلسطين خالية من المقدسات ولم تكن عاصمتها القدس، لرضي الفلسطينيون فوراً بالإندماج في المجتمعات العربية، أو بالحصول على أرض بديلة ينشئون عليها دولتهم بالتوافق العربي ويحققون فيها ذاتهم الوطنية وتراثهم الإجتماعي والثقافي وخصوصيتهم في المنتدح القومي العريض.

ولو كانت فلسطين خالية من المقدّسات ولم تكن عاصمتها القدس، لما تمسك العالم العربي والإسلامي بها إلى هذا الحد، وهو يرفض التنازل عنها رفضاً قاطعاً إلى هذا اليوم، بصرف النظر عن فشله أو نجاحه في المحافظة عليها.

ولو كانت فلسطين خالية من المقدسات ولم تكن عاصمتها القدس، لما خاض العالم المسيحي في القرون الغابرة حروباً صليبية لاستردادها من المسلمين، ولا كان معظمه اليوم يأسف لفقدانها، وبعضه ما زال يحلم، على الأقل في عقله الباطن، باستردادها من اليهود.

القضية إذن بالنسبة للمسيحيين والمسلمين هي قضية مقدسات حاضرة في مرأى العين، قائمة بمعالمها الأثرية وشواهد عمرانها. أما بالنسبة لليهود فهي قضية عهد بائد يعملون على بعثه من رميم القبور. فليس في أرض فلسطين التي نزح عنها العبرانيون منذ ألفي سنة، وبالتحديد سنة ٧٠ ميلادية بعد حملة تيتوس الروماني، أي أثر ديني يختص بهم وحدهم ويدل على انها كانت بلاداً يهودية، باستثناء حائط البراق أو المبكى المشكوك في كونه جزءاً من هيكل سليمان، والذي أبقاه ملوك النصارى والمسلمين لأهل الديانة اليهودية مرتفق تأمل وصلاة.

وإذا كان اليهود قد رفضوا بإستمرار، قبل تيودور هرتزل وبعده، أن يكون لهم أي وطن قومي خارج فلسطين، في أوستراليا مثلاً أو كندا أو أوغندا التي عرضت عليهم، فلأن الأهمية في الوعد التوراتي الذي يؤمنون به هي لتراب أورشليم حيث تعين عليهم بموجب العقيدة

الدينية أن يعيدوا بناء الهيكل، بإعتبار أن يهوه لا يقبل أي ذبيحة تقدّم إليه من خارج ذلك الهيكل.

هذا هو الواقع الموضوعي ولبّ الحقيقة المبدئية. ولكنه، في نهاية الفصل الأخير من كتاب نكباتنا وعنوانه «تهويد القدس»، وبعد المتغيرات التاريخية التي طرأت على المنطقة والعالم في الأعوام الخمسين الأخيرة، لا بدّ لنا من الإعتراف بكل تواضع وبمنتهى الشجاعة، أن الدولة العبرية أصبحت تملك من القوة العسكرية، والسلاح الإستراتيجي، والتكنولوجيا المتطورة، والإقتصاد المتين، واسباب التفوق على المستوى العالمي في ميادين العلوم والتقنيات الصناعية، والفعاليات الإدارية، والاستقطاب الثقافي والإعلامي، ما يستحيل معه على أي قوة في العالم أن تزيلها وتقتلعها من فلسطين.

يضاف إلى ذلك أن الدولة العبرية لا تتمتع فقط بدعم مادي ومعنوي غير محدود من جانب القوى العالمية العظمى، وفي طليعتها الولايات المتحدة الاميركية، بل إنها تستطيع اليوم، بما تفرضه اليهودية العالمية من تطويق أخطبوطي لهذه القوى، أن تملي عليها الشروط وتستصدر عنها القرارات الملائمة لمصالحها وأطماعها، وتخضعها، حكومات وقيادات ومؤسسات، لإرادتها الأوتوقراطية الهادفة. وهي تخطط في الوقت نفسه بإحتراف دقيق وإحتساب وبعد نظر، لليوم الذي تصبح فيه قادرة على الإكتفاء الذاتي، عندما تقرر هي نفسها أو يقرر الداعمون لها، وقف العمل بميثاق التبعية المتبادلة بينهما.

وما دام الأمر كذلك، فلا بد لنا من الإعتراف أيضاً بواقعية وتجرد، في معزل عن منطق لعاطفة وأسلوب المحاباة، بأن استئصال الورم الخبيث لا يتم بحرب نظامية، سواء أكانت إقليمية أم دولية، لأن قدرة ذلك الورم على الصمود، أصبحت بعد نصف قرن من التأهب والأعداد، اكبر من قدرة أي تحالف عسكري على الإنتصار دون أن يتحول انتصاره إلى انتحار جماعي للغالب والمغلوب معاً.

* * *

فما العمل إذن والحالة هذه؟

وكيف السبيل إلى تحجيم هذا العدو وتعطيل قدرته على التوسع والإمتداد بحيث يعجز عن تحقيق حلمه الدهري بإبادة شعب كنعان والحلول محله في الهلال الخصيب من النيل إلى الفرات؟

إن ذلك لا يتم إلا بوسائل عقلانية وافرة الإتزان لو تمكن العرب وحلفاؤهم في العالمين الإسلامي والمسيحي من إعتمادها، لما طال الزمن بالدولة العدوانية الغاشمة حتى نراها تتخبط في مأزق الإنحلال الذاتي:

منع العدو من الحرب

الوسيلة الأولى تكمن في «منع العدو المتأهب للإجتياح من ممارسة الحرب، وذلك بأسلوب يغفل عنه ذلك العدو أو لا يقدر عليه». وهو ما يقوله القائد الصيني الفيلسوف «صون تزو» في كتابه «فن الحرب» (منشورات دار الحياة سنة ١٩٦٩). وكان الجنرال الإسرائيلي موشي دايان أحد الاستراتيجيين البارزين في التاريخ الحديث، قد اطلع على نظريات «صون تزو» العائدة إلى ١٥٠٠ سنة ق.م. وطبّق هذه المقولة في حرب حزيران ١٩٦٧، حيث أقدم في اليوم الأول لتلك الحرب على تدمير سلاح الطيران المصري في مرابضه، فمنع الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان قد أعدّ العدة لإجتياح إسرائيل من مواصلة القتال، وذلك بعدما دخل الطيران الحربي المعادي المجال الجوي المصري من الغرب، فيما كان المصريون ينتظرون قدومه من الشرق.

وفي عداد الأدلة التي يقدمها «صون تزو» على صحة نظريته، وذلك أيام الحروب الكلاسيكية الأولى في التاريخ القديم، أن تحويل مجرى نهر مع الإفراج عن غمره المتلاطم في إبان معركة برية، كفيل بإغراق العدو بخيله ورجاله قبل أن يتمكن من نظم صفوفه واستعادة روعه. كذلك فإن تعطيل الآلة الحربية التي يعتمد عليها العدو ـ كما فعل الإسكندر المقدوني مثلاً عند اجتياحه الهند بتدمير جيش الفيلة التي كان الملك الهندي فورك قد وضعها في المقدمة لمنع تقدم الغزاة ـ يشل حركة ذلك العدو ويمنعه من مواصلة الحرب.

ولعل أكثر ما يهمنا من آراء «صون تزو» قوله أن الجيش الكثير العدد البائر السلاح يمكنه أن يغلب الجيش القليل العدد الفاتك السلاح، إذا كان هذا الأخير يخوض حرباً هجومية والآخر في موقف الدفاع، شرط أن يعرف المدافع كيف يستنزف بصموده الطويل وعدم اكتراثه لخسائره البشرية، طاقة السلاح المعادي وقدرته على الحسم.

ولا مشاحة في أن هذه الحقائق ما زالت هي إياها في الحرب الحديثة على ما ظهر من نتائج الغزو الهتلري لروسيا سنة ١٩٤٢، وليس من المفترض أن تتبدل حتى في الحرب الإلكترونية المعاصرة. والذي نخلص إليه في تقويمنا هذه الوسيلة الأولى من وسائل التصدي، هو أن سبيلنا الوحيد للوقوف بوجه إسرائيل يكمن في الحرب الدفاعية، شرط أن نكبد العدو، إن هو أقدم على إجتياحنا، خسائر فادحة قد لا تناهز خسائرنا المضاعفة، لكنها ستكون بالتأكيد أكبر حجماً من تقديره وإحتماله، فيستنكف تلقائياً عن ممارسة الحرب العسكرية، الأمر الذي يخالف طبيعته ويزجه في ما يسمى «بطالة

الجند»، وهو الداء الذي يعانيه معظم الجيوش النظامية في العالم المعاصر والذي يفقدها المناعة المكتسبة ويعرّضها للتآكل والهرم والإنحلال.

من هنا أن الرئيس حافظ الأسد الذي وقف نضاله الوطني والقومي طيلة ربع قرن على تأمين التوازن الإستراتيجي مع العدو، لم يتأثر على الإطلاق بإنتظام التحالف الدولي «غير المعلن» ضد سوريا، قبل التحالف «المعلن» ضد العراق وبعده، وبالتالي اختلال التوازن الإستراتيجي الذي طالما عمل في سبيل تحقيقه بين سوريا وإسرائيل. ذلك أن الأسد كان ولا يزال يدرك تماماً أن فقدان التوازن الإستراتيجي لا يهدد المصير القومي إذا عرف العرب وفي طليعتهم سوريا كيف يحافظون على الموقف الدفاعي، لأن ما يتمناه العدو هو أن يتورط العرب في أي هجوم، لكي يصيبهم ما أصاب العراق. ولذلك نسمع العدو يردد في كل يوم أن سوريا تستعد لمهاجمته، ساعياً من وراء هذه المزاعم الباطلة إلى تبديد قلقه الضاغط بمنطق التمني، كمن يسري في غابة موحشة ويصدح بالغناء ليطرد خوفه وتوجسه في عتمة الليل.

وبعد. لو فرضنا جدلاً أن منع العدو من ممارسة الحرب، على حد تعبير صون تزو، بات أمراً مستصعباً مع إنعدام التوازن الإستراتيجي، فإنه يظل ممكناً بل يسيراً أن يدافع العرب عن أرضهم وكرامتهم بما يسمى «سلاح الفقراء»، أي السلاح الجرثومي والكيميائي الذي يتعين على كل دولة في المنطقة أن تقتنيه وتطوره وتحفظه ليوم تفقد فيه دولة العدوان توازنها ويزجها صقور الليكود في حرب هجومية غير محسوبة العواقب. ذلك أن «سلاح الفقراء» سيكون قادراً على قتل الألوف من سكانها بالضربة الأولى أو الثانية أو الثالثة كيفما تيسر، حتى ولو قتلت هي مئات الألوف من جيرانها بالسلاح النووي. فالمهم ـ كما يقول نابليون ـ ليس أن يتعرّف القادة في المعركة إلى عدد الأموات في صفوف قواتهم، بل إلى عدد الذين لا يزالون أحياء قادرين على حمل السلاح (...).

ومهما يكن من أمر، فما من شرعة دولية تمنع جيران الدولة العبرية، أو أي دولة في العالم، من إقتناء السلاح الجرثومي والكيمائي أو حتى السلاح النووي. ولماذا يكون السلاح النووي حراماً على ألف مليون من جيران إسرائيل، وحلالاً لخمسة ملايين من سكانها؟! وكيف يضمن أولئك الذين يحرمون ويحللون في نادي الأقوياء، أننا لن نكون قادرين على إمتلاك هذا السلاح غداً أو بعد غد؟! ومن يؤكد لهم أننا لا نملكه الآن؟!

لا للتطبيع، ونعم للمقاطعة

أما الوسيلة الثانية التي تستأصل شأفة العدو وتفرض عليه القوقعة والخوف من المجهول، فهي خروج العرب نهائياً من عملية السلام، بعدما خرج العدو هو نفسه منها مفضلاً تعهد الحقد على غرس المحبة والبادىء أظلم. ولئن كان في المعسكر العربي الخائب من لا يزال يحفظ عهد الرئيس كلينتون ويرعى حرمة أميركا الراعية الأساسية لهذه العملية، فليثق وليتأكد أن الرئيس الأميركي وإدارته يعرفان تماماً أنّ الذي داس على السلام ونفض نعله من غباره، وألبس البيت الأبيض وشاحاً أسود في نظر كل مؤمن بالحق والعدل في العالم بأسره، ومن استهزأ بصاحب ذلك البيت واستهتر بوعده أو وعيده، هو بنيامين نتنياهو الذي رضع حليب النازية من ثدي جابوتنسكي، وكان تعليقه الوحيد أثر مقابلته الرئيس الأميركي لمرة الثانية التي قد تكون الأخيرة: «لا يستطيع أحد ولا يحق له أن يقرر عن إسرائيل ما لا تريده إسرائيل!».

ومع خروج العرب من عملية السلام، لا بد من وقف عملية أخطر وأدهى تعرف بالتطبيع، والعودة العاجلة إلى مقاطعة نظامية للدولة العبرية على أسس علمية مدروسة، وذلك في مختلف الميادين الإقتصادية والثقافية، سواء أبقي المخلوق العجائبي نتنياهو في سدة الرئاسة، أم خلفه ضريبه المستعجل ايهود باراك، وهما وجهان لعملة واحدة. فالدولة المزروعة في جسمنا العربي لم تعرف إلا رجلاً واحداً في تاريخها ينظر بعيداً في خواتيم الأمور، هو شمعون بيريس الذي رفع صديقه إسحق رابين إلى مصاف العظماء عندما أقنعه، بمساعدة زوجته ليا رابين، وهو أحد العسكريين الذي ضرّستهم الحروب، بأن عهد الله لموسى أعظم بكثير من عضلات شمشون. ولم يرق هذا الفكر المستنير لنتنياهو وشريكه السري باراك، فكان أن تدبرا معاً في الليلة الظلماء قتل رابين بمسدس قاصر أعمى، وقتل بيريس بصواريخ عميل سفّاح من جنرالاتهم الأشاوس في قانا (...).

لا للتطبيع، ونعم للمقاطعة. شرط أن يكون العقاب على التطبيع قطع العلائق كلياً مع أي دولة مهرولة إليه، وأن يكون العقاب على التعامل مع العدو إقتصادياً أو ثقافياً أو في أي مجال آخر، عزلاً قاتلاً مهلكاً للدول والمؤسسات المتعاملة، وحكماً صارماً على الأفراد المتعاملين يتجسد في العقوبة القصوى، كالتي أنحت منظمات حقوق الإنسان باللائمة على السلطة الفلسطينية لتطبيقها كي تمنع بيع ما تبقى من الأراضي الفلسطينية

للعدو، وهي عقوبة لو تم تنفيذها ضد السماسرة الخونة في الثلاثينات والأربعينات لما وصلنا إلى ما نحن فيه اليوم. وما كان أحد ليعرف أساساً، بأي منطق وأي قانون وأي خلق وأي شرع أو دين، يطلب هؤلاء العملاء الهادفون إلى إبادة الإنسان لا إلى إبانة حقوقه، أن يبيع المرء عرضه وأرضه لعدوه بعد أن يكون ذلك العدو قد تمادى في تجويعه حتى الإنتحار. وما دام هذا الإنسان البائس لا يقوى حتى على الإنتحار، أفليس أشرف وأشفى له ولعياله وقومه وأمته المقهورة أن يقتل سمسار عدوه ولو استشهد بعد ذلك راضياً مرضياً.

ولا حرج في أي حال - أن تيسر لهذه الأمة أن تشهد مقاطعة حقيقية للعدو كاتي تحلم بها أجيالها الجديدة الراصدة في كمين الثورة والإنتقام - لا حرج أن تطبق هذه العقوبة أيضاً على الذين باعوا ويبيعون منذ أعوام الستين والسبعين أرض الجنوب والجولان للعدو المحتل، عبر شركات أميركية وأوروبية مزيفة، وهم يحاولون اليوم بيع البقية الباقية منها لسماسرة متفوّقين أسلس لهم قدر الصهيونية عنانه كي يصبحوا أطول باعاً وأعظم نفوذاً! مع العلم أن أول ما يفترض في المخابرات اللبنانية والسورية هو أن تعرف أسماء هؤلاء وأوكار نشاطهم، والجرائم التي يرتكبون على هذا الصعيد في المناطق المحتلة وغير المحتلة!!

لهم أورشليمهم ولنا اورشليمنا

نصل هنا إلى بيت القصيد، وهي الوسيلة الثالثة التي تفضي بالعدو إلى أكل المرار في عزلة بغيضة تجعله يزم الحقائب ويعود من حيث أتى.

فعملاً بوصية غاندي الذي يقول: «لكي تنتصر على عدوك يجب أن تنتزع من جسمه القلب وتترك له العقل، لأن الذي يستغني بالقلب عن العقل يعيش معتوهاً، أما الذي يستغني بالعقل عن القلب فيموت مقهوراً». عملاً بهذه الوصية النادرة في تراث الحكماء، لا بد للمسلمين والمسيحيين من حرمان اليهود مقدّسات أورشليم التي هي قلب فلسطين، وذلك بنقلها إلى مدينة ينشئونها في بلد مجاور وتسمى القدس أو أورشليم الجديدة.

لنترك لهم أورشليم التراب والرميم والمقابر والكهوف المدفونة هناك من البحر الميت إلى المتوسط. ولنأخذ مساجدنا وكنائسنا ومدارسنا وأديارنا وحجارة تاريخنا كله ونرحل! ولنأخذ معنا أيضاً شعبنا الفلسطيني العزيز الشهيد قبل أن يبيدوه أو يبعدوه!

ولتكن لدى كبار المتمولين من شعب كنعان المجاهد في دول الطوق، شجاعة لاقدام على إنشاء شركة إقليمية دولية لنقل المقدسات المسيحية

والإسلامية إلى بيت المقدس الجديد.

إن المسلمين والمسيحيين يملكون صكوكاً واضحة موقعة بأختام الملوك والسلاطين منذ مئات السنين تخولهم التصرف بالأوقاف والحوازات الشريفة في القدس وبيت لحم والناصرة والخليل وغيرها، ولن تستطيع أي هيئة دولية منعهم من نقل تلك المعابد والآثار إلى حيث يشاؤون.

ثم إن الشركات العالمية الكبرى ستكون بالتأكيد على أتم الاستعداد لإقتلاع أي حجر مسيحي أو إسلامي في فلسطين المحتلة، بما في ذلك القبة والصخرة وقبر المسيح وكنيسة القيامة والمسجد الأقصى ومغارة المهد وباقي المعالم والمناسك والآثار، وتنصيبها كما كانت عليه تماماً في أورشليم الجديدة التي يمكن إنشاؤها في لبنان، الأرض التي صنع فيها السيد المسيح أولى عجائبه، أو في سوريا التي انطلقت منها الرسالة الإسلامية إلى العالم واعتنق فيها النصرانية بولس الرسول الذي نصرن العالم القديم، أوفي مصر التي لجأ إليها المسيح وأمّه من سيف هيرودس، والتي عبر منها الإسلام إلى المغرب الأقصى وأوروبا.

فالمسألة ليست من الصعوبة بالدرجة التي نتصوّر، لا سيما وإن نجاح الأميركيين في نقل معابد أبي سنبل في وادي الملوك إلى مرتفعات أسوان كي لا يطمرها السد العالي أيام الرئيس عبد الناصر، وإعادة تنصيبها حجراً حجراً كما كانت عليه، يعتبر سابقة مربحة لطواغيت المال في الغرب، ومعتقة للرئيس كلينتون من إلتزامات جاثمة على صدره يضغط بها الأخطبوط الصهيوني المتآمرك، في غفلة من الشعب الأميركي العظيم وتواطؤ صاغر من جانب إدارته.

نعم. لتكن لهم أورشليمهم قاتلة الأنبياء وقاهرة المرسلين، ولتكن لنا وللعالم بأسره أورشليم الجديدة حاضنة الأنبياء وسادنة المرسلين.

عندها سنرى إلى أي منهما سيحج المسلمون والمسيحيون، وأيا من المدينتين ستكتب له الحياة.

قالوا للخنساء: قبور زوجك وأخويك وأولادك نقلت إلى النفود. قالت: ألم تنتقل معها أرواحهم؟ قالوا: بلى. قالت: وما لي وللتراب.

١٩٩٧/٦/٢٥

«الزقزوق» والمياه والتبغ

كنت أمارس رياضة المشي منذ أيام على كورنيش البحر، فالتقيت واحداً من أولئك «الخوتان» المتبهّلين يقال له: «الزقزوق»، وهو بائع صحف قديم أعرفه من أعوام السبعين.

وبعد السلام وتبادل العبارات التقليدية، تطوّع الزقزوق للسير معي. ودخل رأساً في مواضيع الساعة وشؤون السياسة، ومصير الكون، وكوارث البيئة، من طبقة الأوزون إلى الزوفى التي تنبت في الجدار الشرقي من قلعة الشقيف. ويطيب لي أن أنقل كلام هذا «الأخوت» إلى المسؤولين بالدقة والأمانة المفترضة.

قال صاحبي:

«من يدعي أن البلد بحاجة إلى قروض وليس فيه موارد؟! عندنا مياه معدنية نقية لا مثيل لها في العالم، وهي أندر وأغلى من البترول، وتباع القنينة منها في مختلف بلدان الشرق الأوسط بسعر يفوق سبع مرات سعر قنينة البنزين. ولا أعرف يا أستاذ لماذا لا تؤمم الدولة هذا المورد الطبيعي الحيوي أو تنشئ شركة وطنية لمياه الشرب يكون للقطاع العام ٥١ في المئة من أسهمها. إن أصحاب الشركات الخاصة التي تقنّن المياه الصافية وتوزعها في الداخل والخارج أصبحوا كلهم من أصحاب المليارات».

قلت: «إن اقتراحك هذا يناقض مبادئ الحرية الاقتصادية التي يقوم عليها البلد. وقد أثبتت التجارب أن القطاع العام مدير سيء. لذلك اتجهت معظم الدول، حتى التي لا تزال تطبق النظام الاشتراكي، نحو التخصيصية في مختلف الميادين».

قال الزقزوق:

«بسلامة فهمك يا أستاذ. المسألة لا تتعلق بالحريات، بل بالذين يقبضون «الخوّات» من الشركات! وبامتلاك بعض الحكّام والسياسيين النافذين معظم الأسهم في تلك الشركات. ولو سلّمنا جدلاً بأن تأميم المياه وتقنينها (بمعنى تعبئتها في القناني) وتوزيعها، يعتبر خرقاً للدستور الذي يضمن الملكية الفردية والحرية الاقتصادية، فكيف تجيز الدولة لنفسها مثلاً أن تؤمم زراعة التبغ وصناعته والاتجار به؟ هذا مع العلم أن السيجارة تسبب السرطان وتخرّب الصحة، في حين أن جرعة الماء القراح تشفي العليل. وعلى

أنني لست من رجال القانون المتفقهين في الأنظمة الخاصة بالمياه، إلا أنني أعرف من خلال مطالعة بعض الصحف والمجلات الرصينة، أن المشترع وضع قيوداً محددة لتصرّف المالكين بمياه الينابيع، لأنّه يعتبرها أملاكاً خاصة ذات منفعة عامة، باعتبار أن الماء مشاع بين الناس كالهواء والنور، وذلك بحكم لزومه الأساسي للحياة كما في التنزيل الحكيم: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

وفي أي حال أعتقد يا أستاذ ان الدولة أساءت إلى نفسها وإلى مواطنيها بتأميم التبغ واحتكار موارده، قدر ما أساءت بتخصيص المياه وإباحة مواردها، لأن تأميم التبغ الحق ضرراً فادحاً بمزارعي هذه النبتة المرغوب فيها وهم يؤلفون نصف أهالي الجنوب، كما أساء إلى جودة السجاير الوطنية، وحوّل لبنان إلى سوق استهلاكية مثالية للسجاير الأميركية المعطرة بالمواد الكيميائية القاتلة. وأقول لك بصراحة أن البطريرك الأسبق أنطون عريضة كان بعيد النظر عندما وقف بوجه الاحتكار الحكومي لزراعة التبغ وصناعته أيام الانتداب الفرنسي وعارض بشدة إلغاء المعامل الوطنية وإنشاء شركة «الريجي». إن البطريرك عريضة رحمه الله، لم يكن عميلاً أميركياً في الثلاثينات يطارد المصالح الفرنسية، كما يبدو الصراع اليوم بين المطرقة الاميركية وكل يد تمتد إلى سندان الأرض والقمر والمريخ... بل كان وطنياً مخلصاً يحرص على ازدهار الجنوب الذي يزرع التبغ والجبل الذي برع في تصنيعه».

«ولقد كان في وسع دولتنا العلية أن تلغي ذلك الاحتكار وتستردّ امتياز الشركة بعد الاستقلال. وهي تستطيع أن تفعل ذلك اليوم، أو غداً، لكن بعض السياسيين المنتفعين من عائدات «الريجي» ومن «كوتا» الحصص الزراعية يرفضون ذلك، والدولة يهمها مع الأسف، أن تشبع الجلاوزة المتسارعين إلى اختلاس المال الحرام قبل الطوفان، حتى ولو مات شعب هذا البلد جوعاً، وهي لو احتكرت مياه الوطن، وحرّرت زراعة التبغ وصناعته، لدخلت إلى خزائنها ألوف الملايين وما اضطرت إلى الاستخذاء والاستجداء في دواوين العواصم الكبرى وأروقة البنك الدولي».

كنا قد وصلنا إلى الحمّام العسكري، والشمس قاربت الضحى، فودّعت صاحبي وقد تواعدنا على أن نلتقي غداً قرب جامع البحر في منطقة عين المريسة.

وبعد أن صحوت من خمرة ذلك المنطق المدهش أشفقت على صاحبي الذي لم يفكر أنه قد يكون من الأفضل أن تظل فوضى استثمار المياه على حالها، كي لا تنتظم السرقة انتظاماً شرعياً إن عمدت

الدولة إلى تأميم هذا المورد الطبيعي، فيتحول الماء النظيف بدخوله قناني الدولة إلى ماء ملوّث!

٢/ ٧/ ١٩٩٧

لماذا لا تزرعون الحشيش؟!

عندما انضم إلي «الزقزوق» قرب جامع البحر، كان يحمل بيده جريدة دفعها إلي قائلاً: «انظر. لقد تقرر منح أهالي منطقة بعلبك - الهرمل أكثر من مئة مليار ليرة لسد أفواه الجياع والحؤول دون العصيان المدني الذي أعلنه الشيخ صبحي الطفيلي في ٤ تموز (يوليو) والأرجح - كما علمتنا التجارب - أن هذه المليارات ستسد جيوب المحاسيب والمستزلمين للسلطة والموظفين المتلهفين إلى مسح عرق التنبلة بالورق النقدي القذر، ولن يصل منها إلى الشعب اليتيم إلا النزر اليسير على سبيل الصدقة!».

«أنا أعرف هذه المنطقة معرفة عميقة لأنها بلاد أمي. فأهالي بعلبك - الهرمل الذين شبّوا وشابوا على صهوات الخيل، ومنهم آل دندش وعلّو وناصر الدين وأمهز وشمص وغيرهم من عشائر السيف والضيف التي عجزت كتائب «الفرقة الأجنبية» أيام فرنسا عن تطويعهم، وفي عداد أبطالهم الشرفاء أبو علي ملحم قاسم قاهر الانتداب وناصر الفقراء، هؤلاء يرفضون الشفقة والصدقة والذل، خصوصاً عندما تأتي من جانب الحكومة التي يأكل عبيدها النوق السمان كي تنتفخ بلحمها وشحمها كروشهم الرهلة، ويتركون للجياع خفّ الناقة وذراعها الضحلة وذنبها القصير وأنفها البتير».

«لقد زرع أهالي تلك المنطقة، يا أستاذي الكريم، الأفيون والقنّب الهندي المعروف عند العامة بالحشيش، طيلة سبعمئة سنة، وأرضهم تصلح لهذه المادة المخدرة كما تصلح أرض الجنوب للتبغ. وفجأة، ما بين طرفة عين وانتباهتها قررت دول «النظام العالمي الجديد» منع المخدرات في العالم بأسره كي لا تصاب أجيالها النامية بالعطب».

«إنها قضية حق أريد بها باطل. فقد تعاونت جميع الأجهزة، إيماناً منها بالضرر الذي تحدثه المخدرات بوجه عام، في إتلاف تلك الزرائع التي ظلت طيلة سبعة قرون أحد موارد الرزق الأساسية في المنطقة المشار إليها، وأحد مصادر ثروتها واستغنائها وبحبوحة جوارها من زحلة إلى حمص».

«أما الذي حدث بعد ذلك، فهو انتشار البطالة والفاقة بين الناس، لا سيما

وأن الدولة التي وعدت أولئك المحرومين بزرع بديل أو مدد عاجل يساعدهم على الشروع في أعمال ترضي الأبواب العالية في عواصم القرار، كذبت على نفسها بعد أن كذب عليها أسيادها، فكذبت على الناس».

«ولا أعرف الأسباب الخفية التي دفعت تلك الدول إلى تحريم زراعة الحشيش والأفيون ما دامت الأسباب الظاهرة لا تقنع أحداً! فالقنّب الهندي والأفيون هما في عداد الأغراس الطبية التي يفيد منها العلماء في علاج أمراض مستعصية. أما تأثيرها السلبي على صحة مدمنيها وسلامة المجتمع، فقد ثبت علمياً أنه أدنى بكثير من تأثير تدخين السجاير الذي منعته الدول المشار إليها في المؤسسات والأماكن الخاصة والعامة داخل أراضيها، فيما هي لا تزال تحمي إنتاج سجايرها القاتلة وتصديرها إلى العالم الثالث بل العاشر الذي نحن فيه».

«والأغرب من ذلك أن الكرباج الدولي يحرّم زراعة هذه المخدرات الطبيعية في لبنان وغير لبنان من عالم الفقراء ويغض النظر عما تنشئه المافيا العالمية من مصانع ومراكز أبحاث متطورة لإنتاج المخدرات الكيميائية كالأقراص والحقن الفتاكة التي تقتل كل يوم ألوف الشباب بما يسمى «الأوفر دوز» في مختلف البلدان الصناعية».

«وبعد. لو كنت في موقع الشيخ الطفيلي، لما دعوت أهالي منطقة بعلبك - الهرمل إلى العصيان المدني الذي لا يقيم أود محروم، بل لعملت بوسائل شتى على إقناع السلطات والأجهزة المختصة بأن إباحة زرع الحشيش والأفيون، مع فرض رسوم معقولة للدولة على الإنتاج، خير من التحريم الذي يستنزف المال العام، مئة مليار بعد مئة مليار، يذهب معظمها هدراً».

«فليس في لبنان ولا في سوريا ولا في أي بلد عربي، باستثناء مصر، غير قلة ضئيلة ممن يتعاطون المخدرات. وحتى المصريون الذين يقبل بعضهم على تدخين الحشيش منذ عهد الفراعنة، كما يمضغ اليمنيون القات، فإن مجتمعهم لم يتأثر عموماً بهذه العادة إلا في حدود ضيقة».

«وأخيراً، لماذا نلتزم نحن من طرف واحد منع هذا الإنتاج وتسويقه، فيما يغرق العالم الصناعي أسواقنا بالمعلبات المحصنة بمواد ضد التلف تسبب السرطان، والسجاير الملغومة بالعطور والمهيجات الكيميائية المهلكة، واللحوم الاصطناعية التي تنتجها المختبرات، والأدوية القاتلة للحيويات ومناعة الكرويات البيضاء الدفاعية في الدم، ومستحضرات التجميل المتلفة لأنسجة البشرة والجلد، والمواشي المشبعة بالكورتيزون وفائض الإشعاع النووي في مراعيها الملوّثة، فضلاً عن البقر

المجنون، وشحوم الخنزير التي يزعمون أنها سمن خفيف على المعدة، إلخ... وفضلاً عن السلاح الذي عفى عليه الزمن، والمنشطات الجنسية التي تسرّع الدورة الدموية وتسرع معها الموت، وكتب الدعارة ومجلات الخلاعة، وأفلام المضاجعة، وبرامج التلفزة التي تعلم الجريمة والإباحية والسرقة والانحطاط...».

لقد أنهى صديقي خطبته وهو يتصبب عرقاً، ثم حياني بيده في صمت، وعاد القهقرى لا يلوى على شيء، أما أنا فبقيت مذهولاً على الرصيف الخالي أحدق في الفراغ.

١٩٩٧/٧/٢

حاجتنا إلى مجانين!..

عندما قرر الأمير بشير الهشابي الثاني أن ينقل مياه نبع الصفا إلى قصر بيت الدين، وجد المشروع بالغ الكلفة وصناديق الدولة فارغة، فوقع في حيرة من أمره ولم يشأ أن يفرض مزيداً من الضرائب على شعب مزقته حروب الإقطاعيين وافترسته غوائل الطامعين الأجانب في أوج الفتوح الاستعمارية الكبرى.

وكانت الاقتراحات والعروض التي رفعها الخبراء والسماسرة وقناصل الدول الأوروبية إلى الأمير حول تنفيذ المشروع قد خيّرت الشهابي الكبير بين أمرين أحلاهما مرّ. فإما أن يقترض المال من خزائن المستعمرين الأقوياء ويرهن لهم بالتالي إمارته الحرة، وإما أن يبتز شعبه حتى الرمق الأخير فيدفع به إلى العصيان أو الموت جوعاً.

وفي صبيحة يوم أبلج من ربيع السنة ١٨١٣، دخل مجلس الأمير فتى مجنون من بلدة «شانيه» الشوفية يعرف «بأخوت شانيه» كان الشهابي قد ألحقه بحاشيته لخفيف ظلّه وطريف نوادره، وخاطبه قائلاً:

«مولاي. خذوا الحكمة من أفواه المجانين. فأنا عبدكم أخوت شانيه أنصحكم أن تأمروا بأن يحفر كل رجل قادر على العمل في بلاد الجبل خندقاً بطول قامته من نبع الصفا إلى بيت الدين، فتصل المياه إلى هذا القصر بعون الرعية، ويكون أجر الناس بعدالة حكمكم وصلاح إدارتكم والأمان الذي تنشرون فينمو في ظله الضرع والزرع».

هذه الكلمات الصادقة والفكرة الألمعية التي عبرت عنها، استأثرت باهتمام الأعيان في المجلس، ورأى فيها الأمير من الواقعية والصواب ما يغنيه عن شركات الهندسة وتقارير الخبراء، فعمل فوراً بنصيحة «الأخوت» وما هي إلا بضعة أسابيع حتى تدفقت مياه نبع الصفا ونبع القاع إلى قصر بيت الدين حيث لا تزال تترقرق صافية إلى اليوم.

* * *

الكل يعرف أن الرئيس الحريري يعطي هذه الدولة أكثر مما يأخذ منها... ولكن الوزير السنيورة يأخذ من الناس أكثر بكثير مما يعطيهم، كما أن المشاريع الكبرى تحتاج إلى أموال، ومعظم الأموال

يأتي من طريق الدين، والدين همّ في الليل وذلّ في النهار، كما يقول الإمام علي. أما العجز عن تسديد الدين مع فوائده في أجل مسمّى، فيسترهن الإرادة الوطنية، ويقود البلاد بعد سنة أو سنتين أو عشر من السنين أو عشرين، إلى بيع الأرض والعرض والذهب الأصفر والقرش الأبيض في اليوم الأسود. والقليل القليل من الحلال الذي يبقى لنا بعد الإفلاس، تجرفه العولمة المتغوّلة المتعاظمة، ولا تترك في بحرنا إلا البواخر لترحيل الشباب، وفي برنا إلا المقابر لتدفين الشيوخ، وبعض التراب المحروق بزفت المشاريع التي تستطيع أول قذيفة يطلقها العدو على وسط بيروت أن تعترض نموها وتوقف تنفيذها، كي لا يكون في شرق المتوسط ضريب واحد لأمة المخلوق العجائبي نتنياهو، أو خليفته المرتقب شارون، أو أخيه الذي لم تلده أمه باراك...

إن ضربة واحدة لمفاعلات الكهرباء في الجمهور وبصاليم سنة ١٩٩٦ خلال عملية «عناقيد الغضب» كادت تبقينا إلى هذا اليوم كالحشرات الباحثة عن طريقها في الظلام، لولا تدخل فرنسا ومبادرة الرئيس شيراك الذي أمر بإعادة التيار في أقل من ثلاثة أشهر.

فلماذا لا تستخدم دولتنا، في عداد الألوف المؤلفة من الخبراء والمستشارين والسماسرة المحترفين، بعض المجانين الذين يمدونها بأفكار عبقرية تؤمن لها دخلاً وافراً يغنيها عمن يمدون لها حبل القروض الذي لا بد أن يلتف عاجلاً أم آجلاً على رقاب الناس؟!

٢/ ٧/ ١٩٩٧

على خطى الأمير
بين دمشق وبيروت

الذين واكبوا نهج ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز في العهود الملكية الأخيرة والعقود الزمنية المنصرمة، يعرفون أنه رجل الثوابت التي رسمها الملك عبد العزيز وأوصى بها خلفاءه من بعده.

وأول تلك الثوابت أن موقع المملكة الجغرافي في قلب جزيرة العرب، وكونها على الصعيد التاريخي منبت الإنسان العربي وظئر الكيان العربي، يحملانها مسؤولية قومية قطبية في الدفاع عن قضايا العرب، ونصرتهم على أعدائهم، وفضّ النزاعات التي قد تنشأ بينهم، ومدّ يد المساعدة إليهم مجتمعين أو منفردين بالوسائل الممكنة والمتيسرة.

ثم إن المملكة التي انطلقت منها الدعوة الإسلامية، هي سادنة الحرمين الشريفين وحامية العتبات المقدسة في مكة والمدينة. ولذلك تعيّن أن تكون المؤتمنة الأولى على رسالة التوحيد والتضامن بين المسلمين في مختلف ديارهم، وأن تظل الحكم الراشد المنزه في خلافاتهم والنصير الذي يحمل وزرهم ويشد أزرهم في صراعهم مع أعدائهم.

وقد تميز الأمير عبد الله، عملاً بهذه الثوابت وعناوينها البارزة، بسلوك معتدل تدعمه شخصية قوية متواضعة ومتفاعلة مع المجتمع. الأمر الذي أكسبه ولاء القبائل النجدية التي يتألف الحرس الوطني من رجالها الأشداء، فلقّبه شيوخها «أمير البوادي».

أما في الإطار العربي والإسلامي، فهو لم يقطع شعرة معاوية مع أي فريق، في مهب الزعازع التي يشهدها العصر وتنعكس على الشرق الأوسط مفاعيلها السلبية. كما عرف، من جهة ثانية، خلال تعامله مع القوى الدولية العظمى، كيف يميز تمييزاً دقيقاً بين التحالفات التي تتعهدها المصالح التقليدية المتبادلة، والصكوك الظرفية التي تفرضها الوقائع الموضوعية الطارئة. فظلّ الأخ الوفي في نظر الصديق والضريب الشريف في نظر العدو، ضمن حدود خلقية صارمة عصمته من مزالق الشطط ومقالب الانفعال.

ومنذ أن تولى الأمير عبد الله، باعتباره ولياً للعهد، مسؤوليات إضافية

في إدارة شؤون المملكة، ومشاركة أوسع في صنع قرارها السياسي، بسبب الوعكة الصحية التي ألمت بالملك فهد، يشهد المراقبون ولادة مرحلة جديدة من الانفتاح السعودي على الصعد الإقليمية، كان أولها ترميم الجسور المتداعية منذ انهيار حكم الشاه بين الرياض وطهران، ولن يكون آخرها فك الحصار التركي الإسرائيلي الذي يفرضه سماسرة الحروب على سوريا.

فزيارة الأمير عبد الله إلى دمشق التي استهدفت تنيشط العلائق الجيدة بين المملكة وسوريا، ودفعها إلى مستويات أعلى في مواجهة التحديات الراهنة، أكدت مجدداً بلسان الأمير، وذلك عبر البيانات التي صدرت عنه، تمسك العرب باستراتيجية السلام على أساس العدل والشمول، كما حملت في ذاتها، ودونما تلميح أو تصريح، مفهوم التسوية الجذرية للقضايا المستصعبة في المنطقة وأهمها ثلاث:

١ - إصلاح ذات البين وإزالة رواسب القطيعة التي استمرت بضعة عشر عاماً بين طهران ومجلس التعاون الخليجي، وبالتالي عودة إيران إلى انخراطها العضوي التاريخي مع المملكة السعودية وسائر الإمارات العربية في تقرير مصير الخليج وضمان أمنه وأمن الطاقة النفطية التي يحرص العالم بأسره على سلامتها.

٢ - تأمين عودة مشرّفة للعراق إلى الصفّ العربي، مع اعتبار وحدة أراضيه وسلامة حدوده ورفع الحظر المفروض على شعبه من الأولويات القومية.

٣ - إقناع تركيا بوجوب فسخ التعاقد الظرفي الذي فرضه وضعها الداخلي المضطرب مع الدولة العبرية، لأن مصالحها الحيوية وطموحات شعبها وشواهد تاريخها واستراتيجية موقعها، تقضي جميعاً بإقامة أطيب العلائق مع الدول العربية والإسلامية المحيطة بها.

أما زيارة الأمير لبيروت، فهي بصرف النظر عما قيل ويقال فيها من كلام الترحيب والإكرام، تعتبر وعداً عربياً بالمساعدة والدعم والتأييد ينضم إلى الوعد الأوروبي المماثل الذي تجلّى في زيارة الرئيس الفرنسي جاك شيراك للبنان مرتين في سنة واحدة، كما تعتبر عهد حماية معنوية من جانب «فاتيكان الإسلام» يضاف إلى العهد الذي حصل عليه لبنان من فاتيكان المسيحية بزيارة الحبر الأعظم يوحنا بولس الثاني.

بقي أن يرتفع اللبنانيون أنفسهم إلى مستوى الرسالتين، فيتوحدوا مصيرياً في إطار الوعدين والعهدين عوض أن يتخذ بعض قادتهم من الديانتين السماويتين متراسين للتطرف والتنابذ والتلاحي، إعداداً لحرب البسوس بعد حرب داحس والغبراء (...).

٢/ ٧/ ١٩٩٧

عقدة كُشاجِم الرملي
ومدفع الشيخ ابو نايف

عندما يهون الحكم على نفسه يفقد صدقيته ويهون على الناس. ولعلّ أسوأ ما يصيب الدول في انحطاطها وينبئ بقرب زوالها، هو أن تكثر من التبجح بالحزم والعزم، فيما تكون عاجزة عن ردع مختلس أو تأديب مخالف. وأسوأ من ذلك أن تتوعد أو تعد بإجراءات وتدابير حاسمة تحدد لها تواريخ، ثم تمتنع عن التنفيذ في الأوان المحدد، أو لا تنفذ أبداً.

وليس أدل على فقدان دولتنا المناعة المكتسبة والصدقية الموروثة، من سلوكها التقليدي المعيب في مسألة الإصلاح الإداري وتطهير الإدارة من الفساد والمفسدين.

فقد بدأت هذه الأرجوزة الشبيهة بمسلسل «دالاس» الذي لا نهاية له، في عهد الرئيس شمعون، يوم شمل التطهير انصار الحزب الدستوري وحشر في الإدارة فريق الشمعونيين. وكان مجلس الوزراء قد أوقف عقارب الساعة عند منتصف الليل من اليوم المحدد لنهاية «العملية الإصلاحية» ريثما تتم غربلة العناصر وترتيب البيادق على شطرنج الإدارة الجديدة، وذلك انطلاقاً من انتماء الموظفين الحزبي والسياسي، دون امتيازهم الخلقي وكفاءتهم المهنية.

وعلى أن عهد الرئيس شهاب زوّد الإدارة فيما بعد سنة ١٩٥٩ بعناصر شابة من حملة الشهادات العليا، وانشأ هيئات الرقابة، كمجلس الخدمة المدنية، والتفتيش المركزي، وإدارة الأبحاث والتوجيه كما نجح نسبياً في تحرير الدوائر الحكومية من فوضى التعيين والترفيع والتأديب والصرف من الخدمة إلخ... فهو لم يتمكن في أي حال من اقتلاع جذور الفساد. لكنه على الاقل، ونقول هذا شهادة للحقيقة، لم يهدد ولم يتوعد ولم يعمد إلى التصرف كيفياً بمصائر المواطنين.

وفي عهد الرئيس حلو رفعت الحصانة عن الموظفين، وسلط على رقابهم «سيف التطهير» كما سمته الصحافة في ذلك الحين. وقد انتهت العملية البوليسية الرهيبة بعد التطبيل والتزمير والتشهير، بسقوط عدد من الضحايا لا يتجاوز الخمسين موظفاً،

معظمهم من الأكفاء الأبرياء الذين أبعدوا عن جهاز الدولة لغاية في نفس يعقوب.

ثم في عهد الرئيس فرنجية عقد مجمع بعبدا للإصلاح الإداري، واستمرت محاولات التطهير والإصلاح في مختلف العهود، أثناء الحرب وبعدها، إلى يومنا هذا. وفي كل مرة كانت العملية الإصلاحية تولد ولادة قيصرية وتموت في مهدها، وما أن يرتفع السيف المصلت على الإدارة حتى يزداد فسادها استشراء وانحرافها شططاً.

أما وعود الدولة والتزاماتها وعهودها المقطوعة في صكوك مشروعة أو غير مشروعة، فهي عند الاستحقاق ممنوعة.

وعلى سبيل المثال نذكر مطالب العمال وذوي الدخل المحدود والعاطلين عن العمل والفقراء الذين تعللوا بالوعود الحكومية وطالما قيل لهم أن قضيتهم تطبخ على نار حامية، فاكتشفوا أخيراً أنهم أمام طبخة حصى، وبات على الدولة أن تعالج عصيانهم بأسلوب اللف والدوران الذي يستنزف هيبتها، بينما كان في وسعها، لو أنها صدقت، معالجة الفقر والجوع بالنزر اليسير من فتات موائدها.

ولكن يبدو أن بعض المتخمة كروشهم، وقد أصبحوا في عزّ بعد فاقة، هم أصحاب ذاكرة ضعيفة أنستهم الأيام التي كانوا عرضة فيها للقهر والحرمان، أو أن النعمة أبطرتهم، فباتوا يتمتعون برؤية المحرومين المتهالكين على بقايا الخوان، شأنهم في ذلك شأن كُشاجِم الرملي.

ففي نوادر الأقدمين أنه كان في بيت المقدس شاعر بائس من أهالي الرملة يدعى كشاجم أيام السلطان الكامل الأيوبي، يجلس تحت سور القَصر كلما علم أنّ هناك وليمة كبرى، وكان الحرس والخدم يرمون للكلاب خارج السور سقط الموائد من خبز ولحم وعظام بعدما يفرغ الضيوف من التهام أجودها، فتنتاش الكلاب المجتمعة بالمكان تلك الطروح الفاسدة وينهش بعضها بعضاً في حومة الافتراس. ولم يكن كُشاجِم يعفّ عن تلك الوليمة الكلابية، فيندفع بأسماله البالية يتخطف من أفواه الكلاب شرائح اللحم والعظم ليقيم أوده ويسد جوعه.

وفي أحد الأيام خرج السلطان يتفقد السور وأوضاع القائمين على حراسته، فرأى كُشاجم يصارع الكلاب وينازعها نفايات الطعام. وهاله هذا المشهد المفجع فسأل عن أمر ذلك الرجل ومن يكون، فقيل له أنه شاعر مطبوع أزرى به الدهر. فطلبه في مجلسه واستمع إلى عيون قصائده، ثم أمر بغسله وخلع عليه كسوة لائقة وسأله عما يرغب فيه. فقال كشاجم أنه بحاجة إلى بعض المال لتأسيس متجر متواضع في المدينة. فوهبه السلطان ألف دينار وطلب ألا يراه بعد اليوم في مثل هذه الحال.

وبعد انقضاء بضعة أعوام تنكر السلطان الكامل وراح يتجول في القدس مختلطاً بالناس مستمعاً إلى أحاديثهم مختلساً حقيقة ما يضمرون له ولرجال دولته من مشاعر. وفيما هو يجتاز الأسواق المكتظة لفته دكان قصّاب تجمع أمامه الكلاب، وقد أخذ صاحبه يرمي إليها بنوافل الشحم واللحم والعظام فتخوض في انتهاشها صراعاً قاتلاً. وسرعان ما تعرف السلطان إلى صاحب الملحمة، فناداه قائلاً: يا كشاجم. أعطيتك المال لتفتح متجراً ينسيك ما كنت فيه، فإذا بك تجمع الكلاب أمام هذا الحانوت، وتعيش من خلال صراعها أيامك الأولى؟!

قال كشاجم: ألا تذكر يا مولاي قول أبي تمام؟:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
من كان يألفهم في المنزل الخشن

فأنا أعطف على هذه الكلاب لأنها لم تلقَ الحظوة التي لقيتها عندكم، ويسرني أن أقدم إليها بعض الطعام. كما أذكر فضلكم عندما أراها تتهالك أمامي في الحصول عليه بعدما كنت أصارعها فيما مضى لاقتطاع حصتي منه!!

ثم أردف منشداً:

كانت تزاحمني الكلاب ببابكم
واليوم تزدحم الكلاب ببابي

* * *

وعد كاذب، ووعيد خائب، وتهديد سائب. ذلك هو شأن الحكومة وقراراتها، من مشاريع الإصلاح إلى مراقبة الأسعار، إلى مكافحة الدود الذي يفتك بالسنديان.

* الكسارات والمرامل والمقالع كانت تهاب الدولة قبل الوعيد والتهديد. أما اليوم فهي تعمل على هواها بترخيص أو بدون ترخيص. والفئة الضئيلة منها التي تلتزم قرارات الحكومة توقفت عن العمل، لكنها امتنعت عن تفكيك آلاتها المدمرة ومغادرة مواقعها، وهي تأمل في انقلاب الزمن وأهله، وقيام عهد أحرص على حماية البيئة من هذا العهد الميمون يسمح لها بتجديد فتكها بالأخضر واليابس، وطحن الجلمود، وتسميم العنقود والأملود، وتعرية الجبل من فروته الفردوسية البهية كي يتحول إلى صحراء قمرية غير قابلة لأي نوع من أنواع الحياة (...).

* أما اللصوص وشذاذ الآفاق، فكانوا يحسبون للحكومة ألف حساب، قبل أن تعلن بشدة وصرامة أنها استأصلت العصابات الشريرة وعممت الأمن في أطراف البلاد. لكنهم، بعدما عاينوا الفلوات والصحارى التي يتخبط الأمن في مجاهلها اشتد أزرهم واستعادوا روعهم وأثبتوا صدقيتهم، على ما نقرأ في الصحف كل يوم من روائع آثارهم، كما في الخبر الآتي المنشور بتاريخ ٣ تموز الجاري.

«سرق اللصوص ٦٠ ألف دولار

أميركي من محل حمزة عبد الله إسماعيل في برج البراجنة، و٤٠ مليون ليرة من منزل إبراهام إسكندر مانوسيان في أدونيس، و١٨ مليون ليرة من محل إيليا توفيق الخوري في جديدة بعلبك، و٢٤ مليون ليرة من منزل نقولا جورج أبو ضاهر في الدكوانة، و١٠ ملايين ليرة من منزل بياترو ريشا قرقماز في المعاملتين، و١٩ مليون ليرة من منزل أسعد عبد النبي دلول في رياق، و١٩ ألف دولار من مكتب فؤاد جوزف ثابت في البوشرية، و٦٥ مليون ليرة من منزل ألماظ حسين أبو حلوة في طرابلس».

* وأما النفايات، فحدث عن غرق الحكومة في صديدها ولا حرج. فالسواقي الجبلية الرقراقة، والأنهار البقاعية الدفاقة، والغابات والعقبات الخضراء، والوديان الحالمة جمعاء، هربت منها الثعالب والأفعاي وييبست في غدرانها الطحالب من رائحة النتن وسموم القذارة. وفيما تنادى أهل الضاحية الجنوبية إلى حرق المحرقة في العمروسية، يستعد أهل الضاحية الشمالية لكبّ المكب في برج حمود وإغراقه في بحر لم يعد ملحه قادراً على تعقيم الإفرازات الحيوانية والآدمية المتراكمة فيه عبر الحرب الأهلية ورديفها السلم الأهلي المسيخ طيلة ربع قرن.

كل ذلك، والدولة الدائلة ما زالت تعد وتتوعد وتضرب المواعيد للتنفيذ غداً أو بعد غد، وهي تتمنى لو يتعجل قدوم السنة ٢٠٠٠ التي يقول المنجمون أنها ستشهد نهاية العالم، كي لا تفي أبداً بما وعدت به.

* * *

في الحكمة المأثورة عن أجدادنا، أن من ضرب وأخطأ جعل غريمه أقوى على الصمود والاقتحام. ومن هدد بالقتل ولم يقتل قتل ومات حتف أنفه. ومن شهر سيفه ولم يقطع به جعل العصا في يد خصمه أمضى من السيف الذي بيده.

فقد عرفت في بلاد الجبل مزارعاً كنيته «أبو نايف» يملك بستان كرز مزدهراً أنشأه ونمّاه بعرق جبينه حتى أصبح مثالاً يحتذى في الروعة والبهاء والخصب والإنتاج.

كان أبو نايف يعاني أكثر ما يعاني من أسراب العصافير وسائر الطيور التي يطيب لها الكرز، فتلتهم غلة البستان قبل أن يقطفها صاحبه، الأمر الذي حدا بالرجل إلى شراء مدفع صوتي بدون ذخيرة، يطلق، بناء على توقيت خاص وبصورة تلقائية، قنبلة صوتية كل ١٥ ثانية تحدث دوياً هائلاً، فتفرّ الطيور مذعورة وتبتعد عن مزرعته.

لقد نجحت التجربة في اليومين الأولين. لكن الطيور سرعان ما اكتشفت أن ذلك المدفع يزعق ولا يؤذي، على غرار مدفع رمضان، أو مدافع المدمرة الأميركية العملاقة «نيوجيرسي» التي كانت تطلق

نيرانها إرهاباً من بحر بيروت كجزء من سيناريو الحرب اللبنانية السعيدة الذكر. وقد ألفت طيور الجبل طنين مدفع أبو نايف وصوته المتواتر الفارغ، فأصبحت تلم بالبستان، وتأكل ثماره في أمان، كما تحطّ على المدفع المتطبّل العنّين دونما اكتراث، وصارت كلما أطلق المدفع طلقته الخدّاعة، ترتفع لحظة عن مواقعها، ثم تعود إلى افتراس الطيبات بحماسة عارمة وشهوة مضاعفة.

أما الشيخ أبو نايف، فقد أصبح همّه الدائم وشغله الشاغل أن ينظف مدفعه الخاسر من سلح الطيور...

١٩٩٧/٧/٩

«العداء للسامية»، ومسألة الكلاب، ولافتة البرغوثي!

وضاح البرغوتي مواطن أردني من أصل فلسطيني يملك سوبر ماركت «سوق الزاوية» في جبل عمّان، وقد ساءه التطبيع الجاري على قدم وساق بين الأردن وإسرائيل، وتدفق السياح الإسرائيليين بأعداد متزايدة على العاصمة الأردنية والمرافق السياحية في البلاد، فعلق على باب مؤسسته لافتة باللغة الإنكليزية التي يفهمها أولئك السياح، كتب عليها: «ممنوع دخول الكلاب واليهود».

وتقول وكالات الأنباء أن السلطات الإسرائيلية التي أعلمها جواسيسها بوجود تلك اللافتة، قدمت مذكرة احتجاج إلى السفارة الأردنية في تل أبيب طالبة نزع اللافتة المذكورة لأنها «معادية للسامية». ونقل عن السفير الأردني عمر الرفاعي قوله أن هذا العمل «خطير جداً»، وأن حكومته لن تتهاون في الأمر وستزيل اللافتة فوراً.

وبالفعل، تم اعتقال البروغوتي في عمان، واستجوب حول أسباب فعلته، ثم أطلق بعدما تعهد خطياً نزع اللافتة وعدم إثارة النعرة «المعادية للسامية» بعد اليوم، لأن ذلك يعتبر «خرقاً للقانون»(...).

* * *

قرأت هذا الخبر، فانتابني شعور بالذل والمهانة لم أعرفه من قبل، وقلت في نفسي: لا بد أن يكون لدى صاحبي «الزقزوق» تعليق ما على هذه الواقعة، فهو العبقري المجنون العاقل الذي أستأنس برأيه في المستصعبات، وقد تعودت أن أصطحبه في نزهتي الصباحية حيث نروض النفس والجسد بالحوار في مسيرتنا على طريقة المشّائين من قدامى الإغريق في أروقة أثينا، فقصدته في تكيته، وبعثته من جحره، ثم توجّهنا معاً إلى كورنيش البحر حيث دفعت إليه بالخبر، فقرأه باهتمام، وهزّ رأسه مستهزئاً ساخراً، ثم قال:

خلفية هذا الخبر أوجزها لك يا صديقي في النقاط الآتية:

* **أولاً:** أن عبارة «ممنوع دخول الكلاب واليهود» غريبة عنا كلياً في العالم العربي، وهي ليست صناعة محلية ولا من اختراع البرغوتي، وأغلب الظن عندي أن الذي أملاها عليه ونصحه بتعليقها في باب متجره هو من رجال المخابرات الإسرائيلية. وقد علّقها صاحبنا مطاوعاً

أو مخدوعاً، لأن المقصود بها إحراج الحكومة الأردنية وتخييرها بين أمرين أحلاهما مرّ. فإما أن تغضّ النظر عن اللافتة وتسمح ببقائها في مكانها فتتهمها عصابة نتنياهو بإضمار الكره والاحتقار لليهود، وتعتبر ذلك بالتالي إخلالاً من الجانب الأردني بالمواثيق والعهود والاتفاقات المبرمة، وإما أن تأمر بنزع اللافتة، فتبدو في نظر الأردنيين والفلسطينيين والعرب أجمعين حكومة عميلة خاضعة لإرادة الصهيونية وقاهرة لعواطف شعبها ومشاعره القومية.

* ثانياً: قلت أن هذه العبارة غريبة عنا أساساً، وأضيف أنها من صنع اليهود أنفسهم، وقد ظهرت أول ما ظهرت بصيغتها تلك في أوروبا، وحتى في أميركا نفسها، خلال سيطرة هتلر والأنظمة الفاشستية بين الحربين العالميتين. ففي تلك المرحلة انتشرت في الغرب موجة عارمة من الحقد على اليهود، الأمر الذي حدا بهؤلاء إلى وضع العبارة المذكورة وطبعها على ألوف اللوحات الكرتونية والمعدنية ثم عرضها في المكتبات وأكشاك بيع الصحف حتى إذا اشتراها أحد الكارهين لليهود وعلّقها على باب متجر يملكه أو مطعم أو مقهى عرفوا أنه من أعدائهم فتجنبوه وتربصوا به الدوائر كيداً في الخفاء.

وكان يهود أوروبا، ومعظمهم من المتهوّدين الأشكيناز، أول من عني بالكلاب عناية خاصة منذ القرن الثامن عشر، وأول من أسس جمعيات الرفق بالحيوان، في مجتمعات عنصرية آرية تحتقر الحيوان وتعتبره مخلوقاً أدنى يحل تعذيبه وقتله، وقد رأى المتهوّدون المشار إليهم الذين كانوا يعانون الكره والاضطهاد في تلك المجتمعات، أن تعويد الناس الرفق بالحيوان الأليف كالكلب والهرّ وغيرهما من شأنه تلطيف النظرة القاسية إلى اليهودي والمتهوّد الذي هو أنسان، فلا يجوز بالتالي أن يعامل في تلك المجتمعات معاملة أسوأ من معاملة الكلب.

وقد اختفت العبارة التي نحن بصددها في أي حال، بعد أن خضع العالم الغربي للسيطرة الصهيونية في النصف الثاني من القرن العشرين، وعلى أن سحبها من التداول أطبق على صيغتها الأساسية بالنسيان، إلا أن أسلوبها البياني ظل يستعمل ضد عناصر بشرية مكروهة غير اليهود، فيقرن ذكرها بذكر الكلاب.

ذلك أن تحقير الكلب سليقة نفسية موروثة في المجتمع الغربي لم تتمكن من إزالتها الموضة التي روجتها الثقافة الصهيونية في أوروبا وأميركا إزالة كلية واقتلاعها من الجذور. فبالرغم من أن تلك الموضة الرائجة وفّرت للكلاب مقاصف ومآدب، ومآكل معلّبة جاهزة، وضمانات صحية، وقوانين حماية، ورعاية تفوق

أضعاف ما وفرته الحضارة الغربية للإنسان، وقد أصبحت للكلاب أنديتها المزدهرة ومقاصيرها الفاخرة في الدور والقصور، وحتى مقابرها «المقدسة» وأضرحتها الرخامية التي تحج إليها الأنيقات الثكالى فتؤنس وحشتها بالزهور... بالرغم من ذلك الانحراف المعيب، لا يزال الأميركيون يعلقون أمام بعض المطاعم والمقاهي والملاهي لافتات كتب عليها: «ممنوع دخول الكلاب والزنوج»، كما يعلق بعض الأوروبيين لافتات مماثلة كتب عليها: «ممنوع دخول الكلاب والغجر»، أو «الكلاب والملونين»، أو «الكلاب والعرب» (...) وهو تحقير للكلاب يفضح في الوقت نفسه نظرة الغرب الفوقية العنصرية إلى شعوب العالم الثالث ونفوره منها.

أما في تراثنا العربي، فالكلب كان ولا يزال مثال الوفاء والنباهة والفداء، وتختلف نظرة العرب إليه اختلافاً كلياً عن نظرة الآريين وغيرهم. فهو يحفظ الود ويرعى الذمام ويجزي على الإحسان بالإحسان. وفي أخبار العرب وأشعارها مئات الصحائف والفصول التي تمتدح فضله وتشيد بمآثره، وقد جاء في بعضها أن كلب «أهل الكهف» المسمى «قطمير» هو في عداد الحيوانات القليلة التي سُمِح لها بدخول الجنة، مع كبش إسماعيل، وناقة صالح، وبُراق النبي، وهو الجواد المجنح الذي حمل الرسول في ليلة الإسراء من مكة إلى القدس.

لذلك أرى - والكلام دائماً لصاحبنا «الزقزوق» - أنه كان على البرغوتي، صاحب اللافتة السعيدة الذكر، أن يوازن موازنة أدق بين النظرة العربية إلى الكلاب ونظرته الخاصة إلى اليهود، كي لا يظن أحد أن لليهود وفاء الكلاب، أو أن للكلاب دهاء اليهود...

* **ثالثاً:** إن ادعاء السلطات الإسرائيلية بأن اللافتة التي علقها البرغوتي فوق بابه «معادية للسامية» هو اتهام يتضمن في ذاته عناصر التبرئة... فالتاجر المذكور لم يقصد على الأرجح بعبارة «ممنوع دخول الكلاب واليهود»، يهود المشرق والمغرب من «السفرديم»، أبناء عمنا العبرانيين الصرحاء الذين ما زال بعضهم يعيش في البلاد العربية، فيما نزح معظمهم إلى إسرائيل طلباً لحياة أفضل، فإذا بهم يعانون الأمرّين من صلف المتهودين الغرباء الذين لا علاقة لهم بالتراث اليهودي العبري على الإطلاق... وإنما قصد البرغوتي بعبارته، أولئك الذين يشكلون الأكثرية الساحقة من سكان إسرائيل وحكامها الأشكيناز. وهؤلاء لا ينتمون إلى الساميين من قريب أو بعيد. فهم أخلاط جماعات آرية من السلاف والجرمان والساكسون والفرنجة وغيرهم من أبناء يافث الذين شقوا عصا الطاعة

بوجه ملوكهم في الأزمنة الغابرة، وسلكوا سبيل المغامرة والتمرد، فطوزدوا في بلدانهم وهدرت دماؤهم، حتى إذا ارتفع السيف عن رقابهم بمرور الزمن تهوّدوا وقنعوا مكرهين بالخضوع لأحكام أهل «الغيتو» - أي المجتمع المعزول - في الممالك المسيحية.

وإذا كان اليهود السفرديم قد تعرضوا للاضطهاد ظلماً وافتراءً في إسبانيا، أيام إيزابيلا الكاثوليكية ومحاكم التفتيش خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر، أو قبل ذلك بقرون في جنوب فرنسا خلال حكم شارلمان وخلفائه.. فإن المتهودين الأشكيناز هم الذين حكموا على أنفسهم بالاضطهاد عبر التاريخ من جانب القياصرة الروس والملوك الفرنجة والأباطرة الجرمان والنمساويين وغيرهم حتى المحارق النازية، وذلك لتآمرهم على الدول وابتزازهم للشعوب وتجريدهم الأرستوقراطية الأوروبية من أملاكها وسطوهم المنظم بالنشاط المصرفي المشبوه على أموال البورجوازية الفاسدة.

أما عبارة «العداء للسامية» (Antisémitisme) فهي من ابتكار صحافة المتهودين الأشكيناز، وأول من استعملها الكاتب الفرنسي المتهوّد إميل زولا الذي دافع دفاعاً مشهوراً في أواخر القرن الماضي عن الضابط المتهود دريفوس، وقد فصل هذا عن الجيش الفرنسي يومذاك فصل الجواسيس الخونة، فأحدث تجريده من رتبه العسكرية وطرده من الجيش شقاقاً خطيراً في الرأي العام الأوروبي بين أعداء اليهود وأنصارهم، وأصبح «العداء للسامية» منذ ذلك الحين مرادفاً لكره اليهود والتحامل عليهم في قاموس الإعلام والسياسة في الغرب.

لذلك، فإن اتهام الدولة الأشكينازية - ولا أقول العبرية - القائمة حالياً في فلسطين، لأعدائها العرب، بـ«اللاسامية»، هو اتهام مردود عليها، لأن العرب واليهود الشرقيين هم الذين يرقى نسبهم إل سام بن نوح، وليس أخلاط الأشكينازية وأوباشها من الروس والفرنجة والساكسون والجرمان الذين لبسوا رداء السامية واحتلوا فلسطين باسم الاستعمار الجديد في انقلاب الأزمنة سنة ١٩٤٨.

ثم، ألا ترى معي - والكلام أيضاً «للزقزوق» - أن هذا الاتهام الذي وجّهته دولة نتنياهو إلى صاحبنا البرغوتي بأن لافتته «معادية للسامية» في دولة يحكمها الحسين بن طلال الهاشمي الذي يرقى نسبه إلى بنت رسول الله فاطمة الزهراء عليها السلام، هو كمن يباهي الفيل بضخامة أنفه، أو كمن يباري هدير البحر وموجه بالعطاس؟!

وتحضرني بالمناسبة حكاية يونس البحري مع المغفور له الملك فيصل بن

عبد العزيز يوم زيارته باريس في الستينات. فالمعروف أن يونس البحري الذي كان مذيعاً في إذاعة برلين خلال الحرب العالمية الثانية هو جاسوس إنكليزي تمكّن بفضل حماته الأوفياء أن يصبح بعد الحرب مفتياً في جاوا، ثم إماماً لجامع باريس! وكان الملك فيصل رحمه الله، قد تبرّع بمبلغ مالي ضخم لتوسعة ذلك الجامع حتى أصبح مناراً إسلامياً ساطعاً في أوروبا. وقد رغب الملك خلال زيارته لفرنسا في عهد الرئيس بومبيدو أن يؤدي صلاة الجمعة في المسجد المذكور، فلما اقترب منه الإمام للتسليم عليه بعد الصلاة عرفه الفيصل وبادره بقوله: «اتّقِ الله يا يونس. أما كفى ما اقترفت من آثام وارتكبت من ذنوب، حتى تدّعي الإمامة في بيت من بيوت الله؟!».

فأجابه يونس: «كان هذا المسجد قبل تبرعك يا صاحب الجلالة مسجداً متواضعاً يليق بمثلي إماماً. ثم إنني مسلم حنيف وعربي أصيل يحمي في هذا المسجد تراث العروبة والإسلام!».

عندما قال فيصل لكبير مستشاريه الدكتور رشاد فرعون الذي كان بمعيته: «هيّا بنا يا دكتور قبل أن يبرز لنا يونس صكوك ملكيته لمكة والمدينة وعهدة موقعة من رسول الله!».

وما دام الشيء بالشيء يذكر، فما أغرب أن تدّعي الدولة الأشكينازية أنها دولة عبرية، وتحاول تجريدنا من هويتنا السامية واتهامنا بالعداء لتلك الهوية...

* رابعاً: قالت وكالات الأنباء أن تعليق البرغوتي لافتة منع الكلاب واليهود من دخول مؤسسته، هو «خرق للقانون» في الأردن. فما هو ذلك القانون الذي تعنيه؟

الكل يعرف أن معظم الدول الأوروبية التي ذلّت أمام الصهيونية بعد الحرب العالمية الثانية، وفي عدادها بريطانيا وفرنسا والمانيا وغيرها، استصدرت برلماناتها المدجّنة قوانين تمنع أياً كان من إعادة النظر فيما قرره الطاغوت الصهيوني حول وقائع المحرقة النازية المزعومة واضطهاد اليهود، كما تمنع حتى انتقاد أي جريمة ترتكبها الصهيونية في الشرق الأوسط والعالم، تحت طائلة الملاحقة الجزائية. ولكنني أستبعد كلياً أن يكون هنالك قانون في الأردن أو أي دولة عربية أخرى، يمنع انتقاد الإسرائيليين أو حتى مهاجمتهم إعلامياً، في الوقت الذي يقيمون فيه مآدبهم وأعراسهم على جثث الضحايا الفلسطينيين في القدس والخليل وبيت لحم وسائر مدن الضفة الغربية وقراها، وفي جنوب لبنان وبقاعه الغربي كل يوم.

فإن كان هنالك «قانون» في الأردن يمنع أي مواطن من رفع لافتة ضد

إسرائيل، لا سيما بعد الأسلوب الحقير الذي اعتمده المستوطنون المتهودون في الخليل واستنكره العالم بأسره، من تهجم قبيح سقيط على النبي العربي الكريم والسيدة العذراء مريم، بواسطة رسوم وملصقات تقشعر لها الأبدان، فمن حق المواطن العربي أن يسأل:

أي دولة هي دولة الأردن هذه؟ وهل هي عربية أم صهيونية؟

لذلك يتعين على الحكومة الأردنية الا تختبئ وراء صمت المخابرات وتنتظر أبالسة النسيان. بل أن واجبها الوطني والقومي هو أن توضح الأمر بتفاصيله الكاملة، كي لا تبقى هنالك ذرة من الشك في أن حكّام الأردن هم في الحقيقة من صلب إسماعيل، وإنهم ليسوا من أسباط إسرائيل.

* خامساً: وأخيراً، قال «الزقزوق» وهو منفعل بعد خطابه الطويل المثير: لو كنت مكان البرغوتي الذي أرغموه على نزع اللافتة عن متجره، لواجهتهم بما هو أشد وأدهى، فرفعت فوق المتجر لوحة كتب عليها بكل تهذيب:

«نعتذر لعدم استقبال اليهود في هذا المكان عملاً بالآية الكريمة: ﴿لَتَجِدَنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشرَكوا...﴾».

إنها اللافتة التي لا تقوى دولة إسرائيل ولا الدولة الأردنية أو أي دولة في العالم على انتزاعها، ولا كلاب الأشكيناز التي ولغت في تراث اليهود وجعلتهم يبيعون دينهم بدنياهم.

١٦/ ٧/ ١٩٩٧

دفاتر تموز وصراع العمالقة تحت الشمس

المؤامرة تضرب الحزب القومي بعد اغتيال سعادة ورياض

في ١٦ تموز (يوليو) ١٩٥١، قتل رياض الصلح برصاص القوميين السوريين في عمان. وكان رياض علماً من أعلام النضال العربي ضد الاستعمار، وسياسياً عريقاً اتقن هندسة الخطط وتوزيع الأدوار في الرهان على التناقضات الدولية لانتزاع استقلال لبنان وسوريا.

ويذهب معظم الباحثين والمؤرخين الثقات إلى أن هذا الرصيد النضالي الكبير الذي توجته شخصية قوية تمرست بالشدائد، كان أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت الرأي العام المحلي والإقليمي والدولي يحمّل رياض الصلح دون سواه من حكام لبنان يومذاك، مسؤولية الخطأ الجسيم الذي اقترفته الدولة اللبنانية بإعدام أنطون سعادة زعيم الحزب السوري القومي في ٨ تموز (يوليو) ١٩٤٩، وهو إعدام تم بعد ٤ ساعات فقط من اعتقال الرجل، أثر محاكمة صورية عاجلة، فكان بمثابة «اغتيال» في حمى السلطة الشرعية.

وقد ثبت فيما بعد لقيادة الحزب أن رياض الصلح كان آخر من وافق على ذلك «الاغتيال الشرعي» وأول من أتهم به. ولكن القاعدة الحزبية التي صعقتها الجريمة المرتكبة كانت قد خرجت عن احتواء القيادة تحت وطأة الانفعال الشديد، وتأثرت تأثراً بالغاً بموجة الاتهام الموجه إلى الرجل الأقوى في دولة الاستقلال، ذلك الاتهام الصارخ الذي دأبت الأجهزة الاستعمارية والصهيونية الحاقدة وعملاؤها داخل الحكم اللبناني على أذكائه وتضخيمه انتقاماً وتشفياً... حتى كان ما كان، فاغتالت المؤامرة رياض الصلح بعد عامين من اغتيال سعادة. ومنذ ذلك الحين أصبحت عمليات الاغتيال أبرز يومياتنا العربية السوداء.

وخلافاً لما كان شائعاً، ولا يزال، في بعض الأوساط البعيدة عن رصد الوقائع بالتحقق الدقيق، فإن قتل رياض لم يتم بقرار حزبي قيادي على الإطلاق. وهو ما يشهد به نفر موثوق من رجال الرعيل الأول في الحزب السوري القومي ويؤكدونه في كتاباتهم ومطارحاتهم.

* * *

ومهما يكن من أمر، فإن لهيب تموز

(يوليو) وأحداثه الدامية ودفاتره الطافحة بالانقلابات والثورات والمساحل والقوارع، تدفعنا بديهياً إلى قراءة جديدة في إضبارة الحركة القومية الاجتماعية التي لا تزال تعتبر من الناحية النظرية على الأقل، مشروعاً نهضوياً مثالياً لمجتمع قومي حديث قادر على مواجهة التحديات.

فلو حدّقنا تحديقاً جيداً في المجسّمات العقائدية للأحزاب والحركات السياسية والاجتماعية في الهلال الخصيب المترامي بين خطي العرض والطول ٢٥ و٣٥ درجة في وسط الأرض، لتبيّن لنا أن المجسم العقائدي الوحيد الذي اشتركت في رسم خطوطه ورصف مداميكه عوامل التاريخ والجغرافيا والطبيعة والبيئة، والتراث الديني واللغوي والحضاري، والتفاعل الاقتصادي والاجتماعي، والتداخل الثقافي المتنوع الأنشطة أقليمياً ودولياً هو مجسم الحزب السوري القومي الذي أسسه أنطون سعادة سنة ١٩٣٢، وتكاد تكون عقيدته الأكثر تكاملاً بين العقائد الماثلة في الڤيترينة السياسية المعاصرة.

ذلك أن معظم العقائد والنظريات، سواء أكانت أممية يطمح أصحابها إلى تطبيقها في قطاع واحد أو أكثر من قطاعات الوجود القومي، كالعقيدة الماركسية مثلاً.. أم أنها كانت پسيدو - قومية تفترض احتواء العالم العربي ومنادحه الواغلة في المدى الأسيوي الإفريقي على غرار القومية العربية مثلاً، أو تفترض القوقعة في إطر كيانية منغلقة داخل العالم العربي، على غرار ما تصطنعه بعض الأقليات العنصرية والطائفية في فراديس العزلة والإنطواء بداعي الخوف والحذر أو صيانة مكاسب خاصة واجتراح امتيازات شوفينية... وسواء أكانت دينية أو مذهبية تتصدى للعولمة المادية بعولمة روحية - مادية، وتفترض إمتلاك الحد الأدنى من القدرة على مواجهة الاستكبار العالمي المالك من جهته لأخطر وادق التقنيات الحديثة...

هذه العقائد والنظريات جميعاً - مع إحترامنا الكلي للمفكرين والمجاهدين الذين عملوا وناضلوا واستشهدوا احياناً في سبيلها - كانت، وما زالت، تسير في إتجاه مغاير لحركة التاريخ والواقع الوجودي المتبدل دراكاً، لأن معظمها ينطلق من سلبية رد الفعل وليس من إيجابية الفعل المستقل بفرادته والمتحقق في ذاته، أم إنه ينطلق من منطق التمني متأثراً بخلفيات عاطفية هباثية كالحنين الرومنسي إلى ماض مستهلك أو الطموح المجنّح إلى آتٍ مستحيل.

دخلوا كابرين، وخرجوا كافرين!

ولكن ما دامت عقيدة الحزب السوري القومي تتميز بهذا القدر من

عناصر التناغم والتكامل في إطار الهلال الخصيب، فلماذا بقيت علامة الاستفهام الكبرى مرتسمة أكثر من ستين عاماً حول فشل هذه العقيدة في الانتقال من التجريد إلى التجسيد؟! ولماذا تحول الحزب الذي ينادي بها إلى أحزاب، بل إلى شراذم وفلول تتجاذب شرف الدعوة وتتقاذف الاتهام بالعجز والتقصير عن تحقيق أهدافها؟!

هذه التساؤلات شغلتني ردحاً قبل حروب لبنان الانتحارية وبعدها، وكنت أتزندق في إبعادها رحمة بالبقية الباقية من صحتي النفسية وأنا أتشوّف الجحيم المؤجل الذي يبدو لبنان مرشحاً لولوجه بعد الجحيم المعجل الذي خرج منه... هذه التساؤلات عادت تراودني مراودة العانس للغرانق، عندما أهدى إليّ إبراهيم يموت أحد المناضلين القدامى في الحزب السوري القومي كتاباً في كتابين: الأول عنوانه «الحصاد المرّ»، ويبين فيه بأسلوب السيرة الذاتية والذكريات المحكية أسباب الشقاق والشرذمة في كيان الحزب، والثاني عنوانه «كيف يحلو الحصاد»، ويرى فيه الكاتب أن العودة إلى جذور العقيدة ـ أو ما أسميه تجاوزاً بالأصولية الحزبية ـ كفيلة بانقاذ الحركة من التلاشي والزوال.

ولا بد لي، فيما أهنئ الأخ إبراهيم يموت على هذا العمل التوثيقي والتوفيقي الأصيل، من تقرير حقيقة تاريخية ثابتة، وهي أن الحزب السوري القومي كان حزب الهلال الخصيب كله قبيل إنهيار الاستعمار القديم، وبعد مرحلة الاستقلال في سوريا ولبنان والعراق والأردن، وكذلك في مرحلة الاغتصاب الصهيوني لفلسطين سنة ١٩٤٨. فما من مثقف أو نابغ أو عبقري في السياسة والفكر والأدب والعلم والفن والصحافة، وما من مجاهد وطني أو قائد عسكري أو مناضل اجتماعي أو رائد اقتصادي، إلا وانضوى في تلك الحركة التي نبعت من صلب الأمة وعبرت في شرايينها بما يشبه السحر. ولو شئت أن أسمي الرعيل الأول والثاني والثالث من رواد هذه القضية ودعاتها البارزين في كل ميدان، لضاقت مئات الصفحات بأسمائهم وأوصافهم.

لكنهم خرجوا منها جميعاً خائبين ومحبطين، بعدما دخلوها بقلوب ملؤها العزم والثبات. هذا قبل أن تنقسم القيادات على ذواتها، وقبل أن يصبح الحزب أحزاباً في المرحلة التي سبقت حرب الانتحار اللبناني، ثم في غضون تلك الحرب وبعدها.

ويقيني أن الملامة في ذلك لا تقع على أحد، سواء في قطاع النخبة الأبداعية التي خرجت من صفوف الحركة، أم في قطاع الانتهازيين الذين فتتوا الحزب فيما بعد، وحولوه إلى جمعيات برمكية تقيم

المآدب والمنادب لتخليد ذكر النكبات. ذلك أن العمل الدؤوب الذي تنكبته الصهيونية في العالم العربي بعد أن تحرر شكلياً من الاستعمار القديم، قد استهدف أول ما استهدف إحكام السيطرة على البلاد العربية بأسلوب التعطيل والتمزيق والتفرقة والتخريب، في مرحلة كان العرب لا يزالون خلالها، تائهين سكارى بخمرة الاستقلال.

وصيّة ميترنيخ ومعصية اوروبا

ففيما كانت أوروبا بين ١٩٤٨، و١٩٧٠، تلملم أشلاءها وتعيد بناء مؤسساتها بعد حرب مدمرة لم تبق فيها على رمق من حصانة أو طموح... وفيما كانت اميركا تنتقل مثقلة الأعباء من حرب كوريا إلى حرب فيتنام، إلى حرب التناقضات الاجتماعية والأوبئة الوجودية التي لن تجد في المريخ، ولا في المشتري، دواء لأدوائها القاتلة، كما لم تجد قبل ذلك في القمر... وفيما كانت الأمة الروسية مثقلة بسلاسل وأصفاد أحكم النظام السوفياتي فرضها على خليط متنافر من الشعوب لمنعها من الوثوب، وتعطيل قرارها بتواكل روتيني أورثها الموت بوعد الحياة...

فيما كانت عواصم القرار تلك جمعاء، قابعة خلف اغلاق متاعبها الكامنة، متلمسة أعضاءها في شتاء الحضارة القاسي... كانت الصهيونية تعمل جاهدة بواسطة عملائها على تحقيق ما تبتغيه من ثورات وانقلابات فوضوية وشروخ سياسية واقتصادية واجتماعية في الهلال الخصيب، وتتفرغ في الوقت نفسه لضرب سائر المجموعات العربية المتكاملة في وادي النيل وجزيرة العرب والمغرب العربي الكبير، بحيث عمت النزاعات والفتن والحروب الأهلية والمغامرات العشوائية من المحيط إلى الخليج.

وكان في رأس اهتمامات الحركة الصهيونية تدمير الحزب الذي يناقض مشروعها التوراتي الهادف إلى تحقيق إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، بمشروع عربي كنعاني يؤكد وحدة سورية الكبرى أو سوراقيا، من النيل إلى الفراتين، ويعمل على إزالة الكيانات السياسية المصطنعة التي فرضتها المشيئة الصهيونية على الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى وكرستها في اتفاقية سايكس - بيكو، ثم في معاهدة لوزان.

وقد لقي تفتيت الهلال الخصيب، وبالتالي تمزيق الحركة القومية الاجتماعية التي تناضل في سبيل وحدته، ترحيباً قوياً من جانب الدول الكبرى في الغرب، لأن ذلك التفتيت جاء مطابقاً لسياسة أوروبا،

ثم الولايات المتحدة، اللتين عملتا بوصية ميترنيخ، وهي تقضي بالحؤول دون قيام أي دولة عظمى في سورية الطبيعية تمسك بمفاتيح ثلاث قارات اقتصادياً واستراتيجياً.

وكانت التجربة الأوروبية المريرة مع الامبراطورية العثمانية التي وصلت في عصرها الذهبي إلى أبواب فيينا، أهم حافز دفع ويدفع بالأوروبيين إلى منع تكرارها، لا سيما وأن تصفية تلك الامبراطورية استهلكت جهوداً مضنية طيلة ما يزيد على ١٥٠ سنة صرفها الغرب متآمراً على العثمانيين في مراحل إنحطاطهم ضمن ما يعرف عند المؤرخين «بالقضية الشرقية».

وفي إطار هذا المبدأ الاحتراسي الوقائي الذي يطبقه الغرب في الشرق الأدنى، نجد التفسير الأعمق والأدنى لتحالف القوى الدولية العظمى مع الصهيونية وإسرائيل في كبح توسع الحركة الناصرية في الستينات، ثم ضرب الوحدة المصرية ـ السورية وكل المحاولات الوحدوية في المشرق العربي، كما نفهم استدراج القيادة العراقية إلى خطأ اقبح من جرم في غزوها الكويت، الأمر الذي أدى إلى تصفية القوة العسكرية والإنمائية العراقية بالضربة القاضية... ونفهم أخيراً، وليس آخراً، التهديد المتواصل من جانب الغرب، عبر الحلف التركي الإسرائيلي، للتقارب القائم بين دمشق وطهران، أو بين دمشق والرياض، أو بين دمشق وبيروت، وكذلك التقارب الذي بدأ ينمو بين دمشق وبغداد.

وإذا كانت أوروبا التي ترصد التطورات الخاصة بموازين القوى في المنطقة من موقع الجوار الأدنى، قد بدأت تدرك مؤخراً تفاقم الخطر الإسرائيلي على مصالحها، وتنظر بإمتعاض إلى امتناع الولايات المتحدة عن تطبيق المبدأ الاحتراسي الوقائي المشار إليه أعلاه على الدولة الصهيونية التي بدأت تتحول إلى امبراطورية توسعية على حساب محيطها... فإن التسلط الأميركي على القرار الأوروبي لا يزال يحول دون أي تدخل من جانب أوروبا لردع إسرائيل. وما لم يطرأ تبدّل في العمق ـ وهو مستبعد كلياً في الظروف الموضوعية الراهنة ـ على السياسة الأميركية، فإن الأمل بإيقاف إسرائيل عند حدّها يظل ضرباً من الرجم بالغيب، أو مجرّد سراب خادع في صحراء.

العيوب التي لم يحفلوا بها...

ولكن ثمة أسباباً أخرى ذات طابع كياني أثرت تأثيراً مباشراً على مسيرة الحركة القومية الاجتماعية بالاضافة إلى العوامل والأسباب الخارجية، كما أدت إلى تهميشها في لبنان وسورية الطبيعية بوجه

عام. وأهمّ هذه الأسباب في رأي الباحثين الثقات تختصر في الوقائع الآتية:

* أولاً: لقد فرضت شخصية زعيم الحركة أنطون سعادة منذ البداية على القوميين السوريين، نوعاً من الدمج المطلق بين الرجل والعقيدة، إلى حدّ بلغ مستوى عبادة الفرد. فلمّا اغتالته المؤامرة سنة ١٩٤٩، لم تغنهم العقيدة عن الرجل، لأنهم كانوا قد تعوّدوا تجسيدها في كائن بشري حيّ، وهو أسوأ ما يصيب الجماعة التي تفقد راعيها أن لم يترك لها شرعة كاملة في كتاب. ولعلّ الفضل الكبير الذي يعود إلى الخليفة عثمان بن عفّان، هو أنه أمر بعد وفاة النبي بتدوين القرآن في ست نسخ وزعها على الأمصار في مشارق الأرض ومغاربها، فجمع العقيدة السماوية في كتاب حفظ الديانة الإسلامية من تضارب منقول الرواية ونصوص الوحي المبين، وإلا لما صمد الإسلام بعد الرسول ولا كانت له مرجعية تعصم المؤمنين من الخروج على جوهر الرسالة.

والذي ينطبق على الإسلام في هذا المجال ينطبق على المسيحية تماماً. فلو لم تقرّ المجامع المسكونية الأولى صلاحية أربعة أناجيل متشابهة كلياً، من أصل بضعة عشر إنجيلاً تروي سيرة السيد المسيح وتنطق بآياته، لما كانت للمسيحية مرجعية موثوقة على الإطلاق.

لذلك كان على رفقاء أنطون سعادة في الحزب السوري القومي، أن يبادروا بعد اغتيال زعيمهم إلى وضع دستور عقائدي متكامل يصهر مقولاته وكتاباته في أثر مرجعي واحد يخضع للتشذيب والتطوير طبقاً لتبدلات الأزمنة، ويكون مناراً هادياً للذين خلّفهم سعادة وراءه من دعاة قضيته، وهم لا يعرفون حتى الآن إلى أي مرجع يركنون، بالرغم من المجموعات التراكمية التي نشرت فيما بعد لمحاضرات انطون سعادة ومقالاته، وهي بمثابة تآليف يجمع شتاتاً سرعان ما يتيه فيه الباحث والمريد بالرغم من كونه يبلور جوهراً محكم الرؤية موفور السداد في علاج مشكلات الأمة والكون والوجود.

* ثانياً: أن عبادة الفرد في شخصية «الزعيم» عوّدت السوريين القوميين نوعاً من الاستهزاء غير المقصود بمبادئ الحرية والديموقراطية، فجنح البارزون منهم بعد وفاته إلى التشبّه الأرعن بشخصيته الخارقة وهم دونها، كما أعرضوا كلياً عن تلمّس أفكار القاعدة واستكشاف طموحاتها، الأمر الذي طوّح بكل محازب له بعض النفوذ والمال وشهوة السلطة، إلى ادعاء الزعامة والتعالي نحو مستواها، فتحوّل الحزب إلى مجموعة اقطاعات سياسية لا ترى فيها القاعدة الحزبية شفاءً ولا برءاً من علة الشقاق. وهي، وإن كانت تساير تلك الزعامات الحزبية الطارئة في المناسبات

الاستعراضية، فلأنها تحترم العقيدة وتحرص على كرامة «الزعيم» وذكراه، دونما احتفال بتجارة المتزعمين من بعده.

لذلك كان على الأمناء الذين خلفوا سعادة بعد اغتياله أن يدفعوا الحركة باتجاه الديموقراطية والخيار الحرّ، بحيث يتم تعيين القيادة باستفتاء القاعدة. لكن ذلك لم يحصل مع الأسف، وغار الفتح في دكاكين ملوك الطوائف.

* **ثالثاً**: لقد استزلمت معظم قيادات الحزب السوري القومي المتعددة الاتجاهات بعد وفاة سعادة لحكام الانظمة السياسية في سورية الطبيعية والعالم العربي والأجنبي استزلاماً معيباً، وذلك في مراحل ومناسبات لا عدّ لها ولا حصر، من سنة ١٩٥٠ إلى ١٩٩٧، الأمر الذي لم يخف على أي قومي شريف، خصوصاً قدماء الحركة الذين دخلوا الحزب ليفتحوا أو يموتوا. وقد أسهم ذلك في تشويه صورة الحزب لدى الرأي العام والنخبة الواعية في دول الهلال الخصيب جمعاء، كما أدى إلى تقزيم الحركة خلال الحرب اللبنانية ودفع المؤمنين بها إلى انضواء وقائي في صفوف التشكيلات الميليشياوية الطائفية المسترهنة للأجنبي والتي لم تغسل بعد أيديها من الدماء.

* **رابعاً**: بدأت الحركة القومية السورية في الثلاثينات واستمرت في الاربعينات حركة ثقافية إجتماعية تتوخى التوعية في لبنان وبلدان سورية الطبيعية عموماً. وقد عجزت في بداياتها، تحت وطأة الاستعمار وهجرة زعيمها واعتقال كوادرها العليا، وتحت ضغط إمكاناتها المادية وبدائية وسائلها الإعلامية، عن أن تتحول إلى «حركة جماهيرية» قادرة على تعبئة الطاقة البشرية العظمى في بلوغ الأهداف. وفي طليعة عللها الجذرية والجوهرية أنها بقيت بعيدة عن السواد الأعظم من الناس، فيما كان بإمكان معظم أقطابها الذين تقوقعوابعد سعادة في نفسية «من يتآمر علينا ومن نتآمر عليه»، أن ينطلقوا بها زوبعة جماهيرية رهيبة ذات قوة «لو فعلت لغيّرت وجه التاريخ»، كما يقول زعيمها. لكنهم في الحقيقة لم يفعلوا لأنهم عجزوا عن «اختراع» زعامة أصيلة بعد الرجل تحقق ذلك التغيير، فتحولت الحركة إلى تجمع هامشي، بل تجمعات تضم أرستوقراطية فكرية تنظيرية، ولا ترى فيها جماهير الأمة ما يحثها على التضحية والفداء.

* **خامساً**: لا شك في أن الحزب السوري القومي حسم الموضوع الطائفي حسماً راديكالياً مثالياً منذ تأسيسه، وتمكن من صهر عناصره صهراً كاملاً في البوتقة القومية، كما حرّرهم من الانتماء المذهبي والطائفي، في بلاد تتحسس الوجدان الديني أكثر من أي

بلاد أخرى في العالم، لا سيما وإنها كانت منطلق الديانات الإبراهيمية الثلاث. لكن الحزب لم يركز تركيزاً أساسياً من الناحية العقائدية، على دور الهلال الخصيب في بلورة الحضارة العربية والإسلامية، مع أنه دور تواصل دونما انقطاع طيلة أربعة عشر قرناً مرّت خلالها على الشرق الأدنى حروب وأهوال، وتناوبت فيه عصور انحطاط وازدهار ظلّت عاجزة عن الانتقاص من شخصيته الريادية وخصائصه المميزة في العالمين العربي والإسلامي.

* **سادساً:** لقد كان الحزب السوري القومي، منذ نشأته، وبدرجات متفاوتة إلى يومنا هذا، كبير الصراحة مثالي الوضوح في الشأن السياسي، خلافاً لمعظم الأحزاب والحركات الأصيلة والطارئة في المنطقة، التي تتقن لعبة الظاهر والباطن، كالحركة الصهيونية مثلاً ذات البهارج المعلنة والخبائث المضمرة، الأمر الذي عرّضه باستمرار للاضطهاد والتنكيل. وهو لم يراع في أي حال خصوصية بعض الأقليات المترسبّة في وحول التعصب والرفض، بحيث ينقذها من خطر ذلك الترسّب، عبر تصور متكامل للنظام السياسي الذي ينوي اعتماده في المستقبل، فيتجنّب بالتالي العداء المسبق من قبل تلك الأقليات المنغلقة التي تصدمها فكرة الذوبان في المجتمع القومي العريض.

* * *

بعد هذا، لا عجب أن يقف المواطنون في الهلال الخصيب، بلا هدف ولا أمل ولا ظل يتحرك تحت شمس تموز (يوليو)، متسائلين: «إلى أين»؟!

فالمقاصل المنشارية تتنقل بلا هوادة على رقاب الأبرياء، من صعيد الجزائر إلى صعيد مصر، باسم الإسلام الذي ختم الأديان العظمى وصهر جوهر الرسالات السماوية، وهي قد تصل إلى صعد أخرى بلا رقيب أو حسيب...

أمّا الأخلاق والمثل الإنسانية العليا، في السياسة والمجتمع والأعمال والعلم والفكر والأدب والفن، تلك التي اشترعها سقراط وأفلاطون وأرسطو وبوذا وكونفوشيوس وموسى وعيسى ومحمد، فقد سقطت في هستيريا الكسب والجنس والقتل والزور والهتك والزنى، فبات كل قبيح مقبول، وكل جميل مزدول، وكل سليم مهزول، وكل عليم مجهول، وكل حكيم مخبول، وكل بريء مسؤول، وكل رصين مذهول، وكل عقيل محلول، وكل حليل مملول، وكل خليل مقتول، وكل شريف معلول، وكل مومس بتول!

وأما العولمة، فقد طمست «الدوللة»، وسحقت «الأقلمة»، وسحلت «الوطننة» و«القوممة»، واستهلكتها جميعاً في بطن حوت لو دخله يونان لخرج منه بلا عينين ولا أذنين!.. لقد جمعوا خير الأرض في

إهراء روما العصر، وقالوا للعبيد: لن نعطيكم حتى الكراع كي لا تطمعوا في الذراع!.. موتوا في كمد ولا يعلم بكم أحد، لأننا ذاهبون إلى المريّخ على خيل مطهمة فارعة، ولكم بعدنا صحراء نيفادا أو شرف المسادا!..

إلى أين؟ نحن لا نعرف حق المعرفة. لكن دوننا المدّ الآسيوي البعيد. وكأني أرى بعين الخيال على سطح السفارة الأميركية في سايغون، وقد دخلها الجنرال «جياب»، رجلاً يلوّح للهيليكوبتر كي تدفع إليه بحبل النجاة، اسمه نتنياهو.

إلى أين؟ نحن لا نعرف إلى أين، ولا نتنياهو. ففي زمن القرصان لا يحلم الربّان بشطئان الأمان... ومع ذلك علينا أن نجذّف ونغنّي ونصغي إلى أناشيد الحياة في أطراف المجاذيف.

٢٣/ ٧/ ١٩٩٧

رياضة السوق ورياضة الوثوق

كتبت هذه المقالة عند افتتاح المدينة الرياضية والدورة العربية الثامنة في ٤ تموز (يوليو) الجاري. لكنني فضلت عدم نشرها في تلك المناسبة كي لا يذهب المتحمسون لهذا الحدث الرياضي إلى تكفيري وإتهامي بالسلبية، وكي لا يحمل كلامي على محمل الأساءة إلى الذين أسهموا في بعث المدينة الرياضية من رميمها فاستحقوا الشكر والتقدير. وقد دفعت بها إلى الطبع اليوم بعد انتهاء الدورة المذكورة، عسى أن يستخلص منها المسؤولون اللبنانيون والعرب بعض العبر في المستقبل، فيميزوا تمييزاً دقيقاً، بحكم الظروف الموضوعية التي يجتازها لبنان والبلاد العربية جمعاء، بين «رياضة السوق» و«رياضة الوثوق».

ذلك أن «رياضة السوق» ضرب من ضروب التجارة بالكدية والحيلة تسخّر البطولة الإنسانية للكسب المادي والمعنوي، وهي تظاهرة إعلانية تستقطب الجماهير وتحصر اهتمامها بالانتصارات الفارغة في نطاق التباري والتنافس المسرحي بين المتفوقين، كما تصرف المجتمع القومي عن الاهتمام بالقضايا المصيرية الكبرى.

وإذا كانت «رياضة السوق» تخدم السياحة وتنشط الحركة الاقتصادية بنسبة محدودة، فإنها في المقابل تضعف اهتمام الشباب بالشؤون الفكرية والعلمية والثقافية، وتفرغ تعبئته النفسية في تحزّب سطحي للتفاهة الاستعراضية العابرة.

أما «رياضة الوثوق» فهي عمل إبداعي غير مدجّن يدأب على اجتراح البطولة والتفوق بالمراس الطويل، بعيداً عن الصخب الجماهيري و«بانوراما» الزعاق والتصفيق والصفير والتزمير وغير ذلك من تقاليد ما يسمى بـ «المهرجان».

وهذا النوع من الرياضة يُعدّ الشباب إعداداً كاملاً واعياً للطريق الصعب والصراع الوجودي الهادف، كما يكسبه الإرادة والمناعة النفسية والجسدية القصوى للصمود بوجه التحديات.

بين المواسم والمآتم...

بعد هذا الفصل الموضوعي بين الرياضتين لا بد من الاعتراف بأنه ما من دولة واعية أو أمة حية تحترم نفسها سمحت في أي مرحلة من التاريخ بإقامة المهرجانات الكبرى تحت عنوان «رياضة السوق» عندما تكون في حالة حرب.

فكيف بالدولة اللبنانية التي يحتل جزءاً غالياً من ترابها الوطني عدو غاشم يفتك بالأبرياء العزّل في القرى الآمنة...

وكيف بالأمة العربية التي الحق بها ذلك العدو من عار الهزائم في نصف قرن ما ليس يمحوه ثأر مؤجل في ألف عام محجّل...

لقد ظهرت المفارقة على نحو يصدم الأرصاد والرقباء في المنطقة والعالم، وذلك باندفاع عشرات الألوف ليلة افتتاح الدورة إلى أولمبياد العروبة الرياضية في بيروت بعد مصارعة «جودو» فوضوية مع رجال الأمن على المقاعد في المدينة الشمعونية الحريرية الهراوية، إلخ... فيما كان مئات الألوف من سكان المناطق الحدودية يلوذون بالمغاور والكهوف اتقاء لقذائف إسرائيل، ومئات الألوف من سكان منطقة بعلبك ـ الهرمل، يحتشدون في الساحات العامة معلنين «ثورة الجياع». ومن المتوقع أن تستمر المفارقة طيلة هذا الصيف بين صورة الجياع المتنقلين بثورتهم من منطقة إلى أخرى، وصورة المتخمين المتنقلين بمقاصفهم ومآدبهم في ليالي الأنس ومواسم الرياضة والسياحة والجنس، من بيروت إلى عاليه وبيت الدين وبعلبك وفقرا وجبيل وصيدا وزحلة وطرابلس، إلى آخر قرية أو مدينة في «لبنان الأول».

بقليل من الخبز لسد الرمق، وكثير من الخمر لمدّ الشبق، وبمشاهد السيرك وبرامجه الصاخبة، كان الأباطرة الرومان المتألّهون يطفئون لهب الجماهير ويخمدون براكينها الثائرة، فتخلبها فصول المبارزة والمصارعة وألعاب القوى، وتصرفها عن محاسبة الجبابرة العابثين بمصيرها والدائبين على استنزافها.

هكذا كان الأمر في زمن الرومان، وهكذا هو الآن في «إمارة» لبنان. ولا جديد تحت الشمس.

الأولمبياد العربي والمكابياد العبري

قلت لصاحبي «الزقزوق» الأبله الذي يباريني كل يوم في رياضة المشي المتواضعة المعروفة من عهد آدم: «أن أفكاري مشوّشة لا يقر لها قرار. فأنا أستهجن من جهة، إحياء المهرجانات الرياضية والسياحية ما دمنا في حالة حرب مع إسرائيل. وأعجب من جهة ثانية، كيف تقيم إسرائيل ألعابها الاولمبية

الخاصة قرب تل أبيب حيث يشارك ٥٥٠٠ رياضي يهودي أتوا من ٥٣ بلداً في دورة المكابياد الخامسة عشرة... أليست هي أيضاً في حالة حرب مع العرب؟ يبدو لي أنها أصبحت مثلنا لا تقيم لذلك أي اعتبار!».

قال «الزقزوق» وهو يبتسم بخبث العارف المتغابي:

هذا كلام سطحي أجلّك عن مثله يا صديقي. فإسرائيل هي الدولة الوحيدة القائمة في قلب العالم العربي والتي ليست في حرب مع أحد. فيوم كانت هذه الدولة تمارس الحرب قبل سنة ١٩٨٢ التي شنت خلالها آخر حروبها على العرب في لبنان، لم تكن تقيم أي مهرجان رياضي، حتى المكابياد أو الألعاب الأولمبية اليهودية التي بدأت بعد اجتياح لبنان وضرب المقاومة الفلسطينية فيه. أمّا بعد ذلك، فقد أصبحت الدولة «المزعومة» أكثر من معلومة تنعم باستقرار وازدهار وسلام دائم، وتجيز لنفسها إقامة مهرجانات رياضية تقتصر على اليهود المقيمين فيها ويهود الشتات، لأن شريعتها لا تسمح بأن يتبارى اليهودي والأممي. فاليهودي هو السيد المختار من يهوه إله إسرائيل، والأممي أيا كان هو في عرفها مجرد عبد. وقد تعين ألا يتاح أبداً للعبد أن يربح بفعل قصور خصمه أو تقصيره، على السيد المتاله في أي مباراة، حتى ولو كانت رياضية.

ثم إن حكام إسرائيل الذين يؤمنون هذا الإيمان، لا يختلفون إطلاقاً عن آدولف هتلر، ربيبهم الأقرب إليهم والأخلد في وجدانهم وخزانة عرفانهم. فهو حكم ألمانيا للقضاء على أوروبا. ومعروف أنه رفض مصافحة العدّاء الزنجي الذي أحرز ميدالية ذهبية في أولمبياد برلين سنة ١٩٣٦، لأنه - أي هتلر، ابن بنت اليهودية المزروع في قلب أوروبا - كان يطبّق مبدأ التفوق العرقي من موقع آريٍّ مميز في ألمانيا قررت له الصهيونية أن يمثل ضمن إطاره دورها المستقبلي في فلسطين، بحيث تسجل نجاح التجربة العنصرية أو فشلها من خلال حكمه. وكان عليه بالتالي أن يرفض مصافحة ذلك «الخصيّ» الأسود الذي تفوق على «الفحول» البيض (...).

إسرائيل إذن، يا عزيزي، هي وحدها التي تنعم بالسلام الحقيقي في هذه المنطقة. وكل الدول المحيطة بها لا تزال في حالة حرب معها من الناحية المبدئية، وفي حالة استسلام وخضوع لها من الناحية الواقعية. ولذلك يقيم أعداؤها المزعومون المهرجانات الرياضية الكبرى هرباً من قهقرية وجودهم، وليس ارتياحاً إلى استقرارهم وسلامة مصيرهم.

أمن إسرائيل صناعة عربية!

ومضى «الزقزوق» قائلاً:

قد تبادرني بأن ذلك العدو الذي لم يعد يعترض مسيرته أحد، مهدد باختلاف زعمائه على المناصب والمكاسب، فأقول لك أن تلك الخلافات هي من قبيل تصفية الحسابات على مال مسروق بين جماعة من القراصنة قد تفضي إلى اختلاس أحدهم حصة الآخر، أو حتى إلى اغتيال سارق لسارق. لكن مردود السرقة يبقى على أي حال في حوزة «المؤسسة». ولا يخرج من عمق المغارة.

ثم تبادرني بأن هنالك فضائح وموبقات تظهر ثم تتوارى في إدارة الدولة المعادية، أمثال بيبي غيت، وشارانسكي غيت، وميريدور غيت، وتاتيانا غيت، وغيرها... فأقول لك أن كل ما تسمعه أو يطالعك به إعلام إسرائيل غيت هو توزيع أدوار.

وأرجو ألا تحرجني بحديث لا أحب الخوض فيه، حول تأثير الانتفاضات الشعبية والعمليات الانتحارية في إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة، وما تلحقه المقاومة في جنوب لبنان وبقاعه الغربي من خسائر بجيش العدو لم يعرف لحجمها مثيل من قبل. فإن هذا الجهاد المثالي الذي نعتبره في عداد مقدساتنا الوطنية والقومية، ونقوّمه نحن بلغة العاطفة والإيمان وفداء الشجعان، تنظر إليه إسرائيل نظرة علمية براغماتية وتقوّمه بلغة الترقيم ومنطق التحجيم على الأساس الآتي:

* الجدار الذي يفصل بين «إسرائيل الأولى» وكل من قطاع غزة والضفة الغربية، أي «إسرائيل الثانية»، هو في قاموسهم، محروس منيع يصعب اختراقه إلا نادراً، وذلك بفعل الحصار الذي فرضه الجيش الإسرائيلي على ما يسمونه اليهودية والسامرة منذ بداية الثمانينات.

* أما الجدار الذي يفصل بين «إسرائيل الأولى» و«إسرائيل الثالثة» - وهي التسمية التي يطلقها شارون على الأراضي اللبنانية المحتلة في الجنوب والبقاع الغربي - فيعتبرونه أيضاً محروساً منيعاً، وإن يكن بنسبة أدنى من الجدار الأساسي داخل فلسطين، وذلك بفضل الخدمات التي يؤديها لهم «جيش لبنان الجنوبي»، والردع الديبلوماسي الذي تؤمنه اللجنة المنبثقة من تفاهم نيسان، بحيث بات حزب الله يحسب ألف حساب للعواقب قبل أن يفكر بمحاولة اختراق ذلك الجدار المصطنع.

* أن مصر تحمي أمن إسرائيل الجنوبي، والأردن يحمي أمن إسرائيل الشرقي، وسوريا البعيدة النظر مضطرة إلى حماية الأمر الواقع على حدودها مع العدو ما دام الأمن مخيّماً على الجبهتين

الجنوبية والشرقية، وليس في عرب المشرق ولا في عرب المغرب، من هو مستعد لركوب الأسنّة وامتطاء «نعامة» الحارث البكري[١].

* في رأي العدو الإسرائيلي، ليس لبنان «خاضعاً» لسوريا بمقدار «تورط» سوريا في حماية لبنان. وفي رأيه ايضاً أن الوجود السوري في لبنان الذي فرضته الظروف الموضوعية في الأعوام الأخيرة، مرفوض من جانب سوريا التي لم تعد تعرف كيف تتخلص منه، بمقدار ما هو مقبول من جانب إسرائيل التي تسعى إلى إطالته قدر المستطاع لإضعاف سوريا، حتى إذا غادرت سوريا ارض لبنان التي ولجتها مكرمة من الباب الواسع، دخلتها إسرائيل من الباب الضيق في أمان.

* أن الخسائر البشرية التي تكبدتها إسرائيل خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى بين عامي ١٩٨٨ و١٩٩١، لا تتجاوز ٣١٥ قتيلاً، والذين قتلوا من اليهود في العمليات الانتحارية التي قامت بها حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٦، لا يتجاوزون ١٧٥ شخصاً، والذين أودت بهم نيران المقاومة الإسلامية والوطنية في لبنان من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٧، لا يتجاوزون ١٦٠ قتيلاً. أي ما مجموعه حوالي ٦٥٠ قتيلاً، وهو عدد ضئيل جداً من الضحايا يوازي عدد القتلى في أي كارثة بحرية أو جوية، أو أي إعصار أو زلزال مدمّر عادي. لذلك لا يعيره العدو أهمية تذكر بالنسبة لدولته التي يبلغ مجموع سكانها ستة ملايين، ويتألف جيشها النظامي من ستمئة ألف مقاتل بدون الاحتياط، وتملك أقوى سلاح جوي في الشرق الأوسط، وأول سلاح نووي ضارب في آسيا وأوروبا وأفريقيا، باستثناء فرنسا والصين، كما أن لديها كل معطيات التكنولوجيا الحديثة في مختلف الميادين، وهي مرتبطة بمعاهدة دفاعية استثنائية مع الولايات المتحدة الأميركية، القوة العالمية الأعظم التي وصلت إلى المريخ...

نعم، يا صديقي - والكلام دائماً للزقزوق - أن مفهوم إسرائيل لأمنها وسلامتها لا يرتبط إطلاقاً بمعاهدات السلام ولا بمفاوضات السلام أو عملية السلام، بل بمفهوم العرب «لحالة الحرب»! وإذا كان صحيحاً ما تفضلت به من أن المهرجانات الرياضية لا تليق بنا ونحن في حالة حرب، وأن الرياضة الحقيقية لشبابنا يجب أن تمارس في ساحات القتال، فإن أصح من ذلك هو الاعتراف بأن مفهومنا لحالة الحرب هذه، بتآمر بعضنا على بعض، واسترخاء حكامنا في طمأنينة الاستسلام، واتكال جيوشنا النظامية على منظمات أهلية مؤمنة يستشهد فتيانها في أوج الحماسة التي

يفجرها اليأس، كي لا تفرّط ـ أي الجيوش ـ بحديدها المتعطل وعديدها المترهلّ... إن مفهومنا هذا لحالة الحرب هو في ذاته مصدر الأمن والسلام لعدونا، وكان أولى بنا والحالة هذه، أن نقيم المآتم في ربوعنا بدلاً من المهرجانات!.

متى انتصرنا مثلهم...

أطرق «الزقزوق» لحظة يلتقط أنفاسه بعد تلك المحاضرة الشافية الوافية، ثم تلفّت إليّ وأمسك بيدي مستوقفاً كأنما خطرت له فكرة يرغب في تداركها قبل أن تتوارى، ومضى قائلاً:

تذكرون جيداً يا أستاذ، أن ألمانيا النازية استضافت سنة ١٩٣٦ دورة الألعاب الألمبية. وكانت تلك آخر دورة رياضية دولية جرت في العالم قبل الحرب. ثم توقفت الألعاب الأولمبية أكثر من عشرة أعوام، لأن جميع الدول انشغلت بهموم مصيرها، وعبأت شبابها لساحات الشرف والفداء، دون ساحات الهتاف والتصفيق. وإذا كانت هذه الأمم تجيز لشبابها اليوم إحياء المهرجانات الرياضية، فلأنها تعيش منذ خمسين سنة مرحلة سلم وطمأنينة ورخاء.

هذا في الزمن المعاصر. أما في التاريخ القديم، فيوم تعرضت مدن اليونان العامرة لغزو الفرس، أوقفت الألعاب الرياضية الموسمية على جبل الأولمب، وجنّدت المصارعين والعدائين ورماة الجريد والمبارزين الأبطال لمواجهة العدو الذي هبّ ملك سبارطة ليونيداس لمواجهته في مضايق ترموفيل، فأوقف زحف عدوه وقتل في المعركة دون أن يلقي خطاباً أو يستحمّ ـ كما يقول الفرنجة ـ ببحر الجماهير، وقبل أن تحلق فوق رأسه المغرور أسراب اليمام. وقد انتصر بعد ذلك القائد الإغريقي الشهير ملتيادس على الفرس انتصاراً ساحقاً في وقعة ماراتون سنة ٤٩٠ ق.م. فحمل العداؤون الأولمبيون خبر انتصاره إلى أثينا، وعندما هبّ شعبها لاستقباله استقبال المنقذين الأبطال رفض أن يتوج بأكليل غار أو أن تسمّى باسمه بلدة ماراتون، وأمر بتوزيع المغانم التي حصل عليها من الجيش الفارسي على اليتامى والأيامى أبناء قومه الذين أودت برجالهم مهالك الفداء.

الشواهد التاريخية لا عدّ لها ولا حصر، وهي تنبئنا جميعاً بأن الأمم تعدّ كل طاقاتها المادية والمعنوية لمواجهة عدوها في حالة الحرب. ولكن عندنا يبدو أن «لبنان الأول» لا يحفل ولا يهتم بمصير «لبنان الآخر». فهو في غمر السياسة والرياضة مشغول عن الإحتلال الرهيب الرابض في الجنوب ويطوقه تطويقاً محكماً براً وبحراً وجواً، حتى إذا ضرب العدو ضربته الموجعة في مجرى الليطاني

وما وراءه، لم يعترض زحفه إلا فلول البؤساء الجياع والأحياء الأموات المكفّنين بالأطلال.

وبعد. ألم يكن واجب دولتنا المقدس منذ حلول السلم الأهلي في البلاد، أن تعزز صمود الجنوبيين في أرضهم المكشوفة بإنشاء الملاجئ الحصينة لهم وتأمين أسباب العيش الكريم بدلاً من انفاق المليارات على المطارات والأوتوسترادات والملاعب الرياضية وقصور المؤتمرات؟! وهل كانت مجزرة قانا وغيرها من المجازر حدثت لو وفرت دولتنا لأبناء الجنوب ملاجئ مانعة آمنة تقيهم صواعق إسرائيل؟!.

كنت أجادل شباب حارتنا في هذه الأمور أمس بالذات، فقال لي أحدهم: أن الاوروبيين مولعون بكرة القدم، والاميركيين مولعون بالرغبي وكرة السلة والغولف، والكنديين والروس والاوستراليين واليابانيين وأهل الصين مولعون بألعاب أخرى متنوعة، وهم يقبلون بمئات الألوف على الملاعب الدولية لمشاهدة مبارياتها، كما يتسقطون أخبارها باهتمام بالغ في الجرائد والمجلات ومن محطات الاذاعة والتلفزة. فمتى يحق لنا أن ننعم بذلك مثلهم؟!.

قلت: «متى انتصرنا على عدونا مثلهم...».

* * *

بدأت تلفحنا شمس الصباح فتوقف «الزقزوق» عن الكلام المباح. وصاح المؤذن في منارة جامع البحر: حيّ على الفلاح.

فاعتبرنا، وانكفأنا وافترقنا.

Post-Scriptum

لم يكن ينقص نفخ النافخين يومياً في موقد العلاقات اللبنانية السورية لذرّ رماده في العيون وإثارة الجمر الكامن تحت ذلك الرماد، إلا «رياضة السوق» التي كادت تؤدي قبل يومين من انتهاء الدورة العربية الثامنة في أولمبياد بيروت، إلى معركة دامية بين انصار الفريقين اللبناني والسوري في كرة القدم، تندفع اندفاع كرة الثلج إلى كل مكان. ولولا تدخل الجيش، لكنا اليوم في حالة حرب انتحارية جديدة يخوضها الشعب الواحد في البلدين التوامين ضد نفسه!

«رياضة السوق» كادت تئد في بداية الدورة علاقتنا الهشة مع العراق قبل أن تولد. ولا يعرف حتى الآن هل ستخرج هذه العلاقة من رحم الديبلوماسية مسخاً أم تكون مولوداً طبيعياً قابلاً للحياة[٢]...

و«رياضة السوق» كادت تزلزل في نهاية الدورة علاقتنا الراسخة مع سوريا التي وجدت منذ الازل، وجمّدها الأجنبي نصف قرن، ثم قرر أن يبعثها بعثاً جديداً لتأمين مصالحه وتحقيق أهدافه، بعملية قيصرية عام ١٩٩٠، وهو لا يزال يضغطها في الحاضنة الوقائية إلى اليوم، أما الاطباء المكلفون في البلدين اخراجها من العناية الفائقة إلى الأفق الحياتي العريض، فمعظمهم يختلفون لأسباب مريبة على طريقة قتل تلك العلاقة وطرحها في مرحاض الفتن والفوضى والدماء، عوض أن يتفقوا على إخراجها حية من دائرة الاستشفاء المغلقة إلى رحبة الاستقواء المنفتحة الواثقة.

«رياضة السوق» طعنت في لبد الأحرار وكبدهم، لأنها ذكّرتهم، مع اقتصاد السوق، وحكومات السوق، وطوائف السوق، وأحزاب السوق، وزعامات السوق، وبرلمان السوق، أنهم يعيشون في سوق... وليس في وطن!.

٣٠/ ٧/ ١٩٧٧

---

(١) الحارث البكري أحد سادات العرب الذين خاضوا حرب البسوس الشهيرة في الجاهلية طيلة أربعين سنة بين قبيلتي بكر وتغلب. وكان قد اعتزل القتال بعدما بلغ من العمر عتياً. لكن تطورات الصراع بين القبيلتين ألزمته، وهو ابن سبعين، أن يخوض المعركة من جديد، فطلب فرسه «النعامة» وعاد إلى القتال فأبلى البلاء الحسن ونال من أعدائه كل منال، كما أصبح مع «نعامته» مضرب المثل في الشجاعة والأقدام.

(٢) إشارة إلى رفض المسؤولين عن الدورة إشرك الفريق العراقي فيها، فعاد إلى بلاده خائباً.

زمن القصور...

ما أقبح أن يسكن الإنسان في قصر...

خصوصاً إذا كان ولد في خيمة أو نشأ في كوخ.

فيوم دخل الملك عبد العزيز آل سعود قلعة «المُسَمَّك» في الرياض سنة ١٩٠٤ واحتل قصر آل الرشيد، قال لرجاله: «عليكم أن تناموا في العراء. فالقلعة سقطت على القصر، والقصر سقط في التراب»!

ولم يكن ذلك صحيحاً على الإطلاق. فعجب الرجال وقالوا: «لماذا تدعونا إلى افتراش الرمل نحن المنتصرين؟ إلا يحق لنا أن نستريح في هذا المُسَمَّك؟».

قال: «اذكروا قول الإمام علي: لا تأتي نعمة إلا بذهاب أخرى. وأنا أخشى أن تنعموا بالرقاد فتنصرفوا عن الجهاد».

ومما حدثني به الأمير سلمان بن عبد العزيز حاكم الرياض، وهو فريد الأسلوب في استخلاص العبر من الذكريات، أن بعض المقربين من أبيه الحوا عليه في ابتناء قصر يكون رمزاً للسلطة وشاهداً على هيبتها. وبعد جدال طويل وافق عبد العزيز على بناء ذلك القصر، لكنه لم ينم فيه ليلة واحدة، بل كان يتلحف عباءته وينام تحت نخلة مجاورة. ولما سئل عن سبب ذلك قال: «القصور منائر للحاسدين ومقابر للراقدين!».

ثم أن الملك فيصل بن عبد العزيز كان هو أيضاً يكره القصور. ومما قاله لي سنة ١٩٦٢ يوم زرته في قصر النيابة في جدة: «بهاء هذه القصور من إباء تلك الخيام».

والحق يقال أن الذين غيروا التاريخ لم ينشأوا في القصور ولا خرجوا منها. فالخلفاء الراشدون لم يسكنوا القصور ولا غررت بهم أبراجها السامقة وقبابها العالية. ويوم جاء رسول قيصر إلى عمر بن الخطاب وجده نائماً في ظل نخلة، فقال له: «أعجب لأمير المؤمنين كيف لا يسكن في قصر». قال عمر: «القصور تقصرّ الأعمار وتباعد القلوب»!.

وكان يوليوس قيصر يقول: «أفضل ألف مرة غبار المعركة على قصري في روما حيث انشغل بدسائس كالپورنيا وپورسيا»(*).

أما جنكيز خان الذي سمي «فاتح العالم»، فقد ولدته أمه تحت بغلة في سهوب منشورياً حيث نشأ وشب في حضن الطبيعة، حتى اقتلعه القدر وصكه على صهوة جواد تناهى به إلى أقاصي المعمور.

وأما صلاح الدين الأيوبي، فيوم دخل قصور الفاطميين في القاهرة، لم يجد فيها من الذكور إلا الخليفة وأبناءه الأربعة يمخرون في بحار المتعة والفحشاء مع اثني عشر ألف جارية وخصي!.

ونابوليون بونابرت لم يكن هو أيضاً يرغب في القصور، خصوصاً قصر «مالميزون» الذي تسكنه زوجته الأرستوقراطية اللعوب جوزفين دي بوهارنيه، فكان يكتب إليها وهو يبغيها في طريق عودته من ساحة الحرب إلى باريس: «أحب أن أرى القصر الذي تعيشين فيه قذراً كالبيت الذي ولدت فيه. فلا تغتسلي لأنني تائق إلى رائحة العرق!».

ولو عدنا إلى سير العظماء جميعاً، لرأينا أن معظم الذين اسهموا في صنع الحضارة على كلّ صعيد، ونبغوا في السياسية والحرب والعلم والأدب والفن، طلعوا من الأكواخ لا من القصور. وإذا كان بعضهم قد أجاز لنفسه بعد وصوله إلى قمة النجاح، تشييد قصر يباهي به سائر الخلق فلأنه يكون قد استحق ذلك بفضل صنيعه الخارق وإنجازه الفريد.

* * *

تلك هي القاعدة والقدوة في كل زمان ومكان، إلا عندنا في بلد العجائب لبنان!

فما من لقيط سارق أثرى في حروب الرعاع، وما من قوّاد تاجر بالرقيق الأبيض، أو مهرب تهدي الكلاب البوليسية إلى حقائبه رائحة الهيرويين، وما من جاسوس عميل، أو تاجر سلاح ينتهز الفتن، أو متسلط يغرف من خزائن الدولة وودائع الشعب، إلا وقد عمّر قصراً من قصور ألف ليلة وليلة، وزين مراحيضه بالذهب واللؤلؤ والماس والياقوت.

قصور أشبه بالمتاحف رفعوها إلى باب السماء، ونهبوا حجارة بعلبك وزخارف قلعتها وتماثيلها الدهرية، لأغناء قاعات القصور الباردة وحدائقها الباثرة بكنوز الأولين، كما زودوها بالنوادر من التحف الأثرية التي لا تقدّر بثمن من روائع فينيقيا وبابل وأشور والفراعنة والأغريق.

لم تبق تلة مشرفة على بحرنا الملوث، ولا هضبة شامخة في جبالنا التي كانت خضراء إلاّ وتعالى فوقها بناء شاهق يناطح الجوزاء، وفي السفوح القريبة مخلوقات بشرية يائسة بائسة تتنزى

ألما وتتضور جوعاً في الخرائب والأطلال، تمتع الأعين والأنوف بمناظر النفايات المتكثرة وروائحها المتخثرة، ثم تبترد في آب اللهاب بمياه جرثومية آسنة مشفوعة بالسوائل السارية من المجارير (...)

عشرات القرى والبلدات تشرب مياه نبع العسل الذي تحول إلى نبع الموالح، ونبع اللبن الذي تحول إلى نبع الحوامض، وينابيع أخرى وعيون ماء كلها ملوثة بنسب متفاوتة من آبار الصرف الصحي العائدة إلى قصور «فرساي» و«شامبور» و«شونبرون» والخورنق والسدير في أعالي فقرا. ولا يختلف الأمر في منطقة أدما لبنان التي تفوق قصورها عظمة وبهاء قصور «يني بستان» في إسطنبول، وقصور وادي «اللوار» في فرنسا، أو قصور العرب والعجم والبربر في الأندلس...

ولو أحصينا عدد القصور التي بنيت في هذا البلد، من شماله المحروم إلى جنوبه المظلوم، خلال الحرب التدميرية والسلم التكفيري والتهجيري، لفاق عدد الفضائح التي سجلت حتى اليوم، مع أن هذه الناطحات السحابية هي من نتاج تلك السرقات الحسابية. ولكنها، ما شاء الله... ظاهرة رائعة من ظواهر المعجزة اللبنانية، والمبادرة الفردية والعبقرية الخلاقة، والإشعاع (...).

* * *

أيضاً ثم أيضاً. ما أقبح أن يسكن الإنسان في قصر.

خصوصاً عندما يعرف أن نصف مليون لبناني هدمت الحرب منازلهم وهجَّرتهم من أحيائهم وقراهم، ينام معظمهم على الأرصفة...

وخصوصاً عندما يعرف أن مليون لبناني يعيشون تحت الحد الأدنى للفقر، والضرائب الفاحشة تنذرهم بالموت أو بالرحيل...

وخصوصاً عندما يعرف أن أهل بيته والناس كلهم يعرفون، أنه بنى قصره بالمال الحرام...

هذا، إذا كان عنده ضمير. وهيهات لا يؤتمن السارق والفاسق والمارق على ذرة من ضمير.

وأخيراً. ما أقبح أن يسكن المرء في قصر نافر قبيح.

فلو كان لقصور أولئك المماليك من أغنياء الجعالة والعمالة جلال العمائر الشرقية الأصيلة وجمال الدور اللبنانية الفيحاء، لعوضت المرء متعة النظر إليها عما يصيبه من قرف وازدراء كلما فكر في لوثة أصحابها. ولكنها خليط متنافر من هندسة جزر «هاواي» ومواخير «بيغال» في كرخ باريس، ينفر منها الذوق السليم وتقشعر النفوس الكلفة بالجمال.

إلا رحم الله كمال جنبلاط. فيوم زار القصر الجمهوري في بعبدا للمرة الأولى

بعد إنجازه في الستينات، وسئل رأيه فيه، أجاب: «يا عمي، هيدا مش قصر. هيدا كازينو».

٦/٨/١٩٩٧

(*) كالپورنيا زوجة قيصر، وپورسيا زوجة ربيبه بروتوس الذي اشترك في قتله مع سائر أعضاء مجلس الأعيان في روما، فقال يوليوس قيصر وهو يعاين الخنجر الذي شهره بروتوس لطعنه كلمته التي ذهبت مثلاً: «وأنت أيضاً يا بروتوس؟».

الحاكم والقاضي

اثنان يصنعان مجد الأمة: حاكم زاهد عادل، وقاض نزيه جريء. فالأول يشجع أهل الصلاح على الصلاح، والآخر يزهد أهل الإساءة في الإساءة. وكلاهما يحيا غنيا بحب الناس واحترامهم، ويموت غنياً بنعمة الله ورحمته.

اذكر من الحكام الزاهدين العادلين الرئيس فؤاد شهاب الذي عاش في بيته اللبناني العادي في صربا، ومات في بيت آبائه اللبناني العريق في عجلتون. وكذلك الرئيس الياس سركيس الذي أهدى إليه حاكم دولة عربية مليون دولار، فوهبها للخزينة الحكومية مبرراً تنازله عنها بالقول أنه لو لم يكن رئيساً للجمهورية لما أهديت إليه، ولذلك فهي من حق الجمهورية وليس من حقه! كما اذكر الرئيس الفرد نقاش الذي المت به الفاقة وهو ابن ثمانين، فأمر الرئيس فؤاد شهاب بأن تخصص له الدولة الف ليرة لبنانية شهرياً كي لا يموت جوعاً...

* * *

عرفت الرئيس الفرد نقاش، وأنا فتى يافع، في بيت نسيبي الأستاذ جورج كفوري الذي كان وزيراً للمعارف في حكومته أبان الحرب العالمية الثانية، فأدهشني علمه وذكاؤه وثقافته وسعة إطلاعه. ثم التقيته في جريدة «الأوريان» عند نسيبه الأستاذ جورج نقاش، وكان يرغب في تدوين مقالة أيام حكم الرئيس شمعون ينبه فيها إلى خطر الإنزلاق في تيار الساكسونية والابتعاد عن فرنسا.

واذكر أن المعلم والصحافي الكبير جورج نقاش أدخله إلى الغرفة التي كنت أشغلها في قسم التحرير، وقال له: سيدي الرئيس. تستطيع أن تكتب هنا دون ازعاج. ولديك في جعبة هذا الشاب حافظة غنيّة للمساعدة وخلق سوي للتصرف بإحترام.

فجلس الرئيس معي يكتب في هدوء. وبعد نحو عشر دقائق، شعرت أنه يواجه عسر من يتوخى الكمال في نقل افكاره إلى الورق. فعرضت عليه سيجارة تقبلها شاكراً مبتسماً ووضعها بين شفتيه، لكنه رفض إشعالها وقال لي بلغة فرنسية راقية: «كنت أدمن التدخين ثم امتنعت عنه، ووجدت في صعوبة الامتناع لذة تفوق متعة الاستهلاك السهلة المتيسرة».

قلت: «وإلى متى تعتقد فخامتك أنك

ستصمد في هذا الموقف؟».

قال: «إلى أن تطرد متعة الموت متعة الحياة (Juqu'à ce que le plaisir de mourir chasse le plaisir de vivre!)

لقد فارقني يومها الرئيس الفرد نقاش بعدما أوصاني بأمرين: أن تكون ارادتي أكبر من عادتي، وندمي أصغر من زلتي...

لكنني لم أقو على ذلك. وما زلت إلى اليوم أفلسف العادة لتعطيل الإرادة، واستعظم الزلة مهما تكن صغيرة أو تافهة لكي أتمتع باسترخاء طويل في سلبية الندم الكسول.

* * *

أعود إلى الحاكم الزاهد العادل، فانقل ما رواه لي أحد الشيوخ الذين عاصروا الرئيس أيوب تابت، وكان يشغل مركزاً مرموقاً في إدارته، قال:

كان أيوب تابت زاهداً متقشفاً يكره المظاهر ويعيش حياة متواضعة في محلة فرن الحايك القريبة من حي اليسوعية في بيروت. ولم يكن يستقل السيارة إلا نادراً بل يذهب إلى مركز عمله في السرايا مشياً على الأقدام بلا حرس ولا عسس ولا حماية.

ويوم عين رئيساً للدولة من قبل السلطات الفرنسية المنتدبة كانت الحرب العالمية الثانية في أوج أحتدامها وقد فرض نظام تقنين الحبوب وغيرها من المواد الغذائية الأساسية في لبنان وسوريا، وهو ما عرف بنظام «الإعاشة» في تلك المرحلة.

وما أن أذيع نبأ اختيار أيوب تابت لرئاسة الدولة حتى تنبه المرحوم نصري لحود الذي كان مديراً للإعاشة (وهو عمّ الأستاذ نصري لحود مفوض الحكومة الحالي لدى المحكمة العسكرية) إلى أن الرئيس الجديد يقيم بالقرب من فرن الحايك، ولا بد أن يأكل من خبز الفرن المذكور. فوجد الفرصة مؤاتية للمبادرة إلى الترحيب بالرئيس وتكريمه. واتصل بمطاحن بيروت طالباً من المراقب المسؤول تزويد فرن الحايك استثنائياً بطحين أبيض من النوع الممتاز.

وفي اليوم التالي، عاد أيوب تابت إلى منزله لتناول الغداء فوجد على المائدة خبزاً أبيض، وذلك خلافاً للعادة باعتبار أن بيروت بأسرها كانت تأكل الخبز الأسود تحت نظام التقنين. فاكفهر وجه الرئيس وسأل أهل بيته عن مصدر ذلك الخبز، فقيل له أنه من فرن الحايك. فأمر بإعادة الخبز إلى مصدره وأنب صاحب الفرن تأنيباً قاسياً جعله يخشى أن تتخذ بحقه إجراءات تأديبية فبادر إلى إعلام الرئيس بأنه تلقّى ذلك الطحين بأمر من مدير الإعاشة.

عندها استدعى أيوب تابت نصري لحود إلى مكتبه، وبعدما استوثق من

سلامة نيته، أحجم عن معاقبته، وقال كلمته الشهيرة التي ذهبت مذهب الأمثال:

«لقد أسأت إلي من حيث أردت أن تحسن، لذلك أصفح عنك. ولا تنس بعد اليوم أنه خير للحاكم العادل أن يأكل مع شعبه الخبز الأسود ويحافظ على وجهه الأبيض، من أن يأكل وحده الخبز الأبيض ويطل على الناس بوجه أسود»...

* * *

أما القاضي النزيه الجريء، فلعل أفضل من يمثله رجل من الرعيل الأول في القضاء السوري يدعى محمد أقبيق لا يزال أهالي دمشق يستخلصون العبر من حزمه وشجاعته في زمن التقنين أيضاً، والشيء بالشيء يذكر.

ففي سنة ١٩٤٣ كان قمح القامشلي يمون سوريا ولبنان. وكانت الكميات المخصصة لمدينة دمشق تصل بالسكة الحديد إلى محطة القَدَم، ثم تنقل وتخزن في المستودعات.

وصدف أن الشيطان وسوس لسائق إحدى الشاحنات، فأنزل كيساً من القمح إلى بيته الذي كانت تمر به شاحنته كل يوم في ضواحي دمشق.

وسرعان ما افتضح أمر السائق المنكود الحظ عند تسليم البضاعة في المستودع، فأحيل على التحقيق واعترف باختلاسه كيس القمح، ثم مثل أمام القاضي محمد أقبيق الذي حكم ببراءته وأطلق سراحه!

ومما جاء في حيثيات الحكم، أن ذلك السائق هو رب عائلة لم تكن تكفيها حصص «الإعاشة»، وكان كلما مر أمام بيته وهو يحمل أطنان القمح، يتحرق شعوراً بالغبن وخوفاً على أهله وعياله من غائلة العوز والضيق، حتى لقد صدق فيه قول الشاعر:

كالعيسِ في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمولُ

ويمضي القاضي معللاً حكمه، بأن السائق كان يعرف أن رئيسه في أمانة المستودعات، وكثيرين أرفع منزلة في الإدارة الحكومية من ذلك المسؤول، يستعملون نفوذهم لخرق نظام التقنين والحصول على حصص إضافية من المواد الغذائية يتاجرون بها دون حسيب أو رقيب. فظن، وهو الساذج المغفل، أن في وسعه التشبه بهم ، ومّد يده إلى البضاعة التي ائتمن عليها. لذلك حكمت المحكمة ببراءته «ما دام قد أقر بذنبه وتبينت سلامة نيته، كما ثبت الجرم على من علمه السرقة بالقدوة من رؤسائه المختلسين الذين أفلتوا حتى الآن من يد العدالة، وهم أولى بالملاحقة والمحاكمة».

وقد ثارت ثائرة الحكومة يومها، وخصوصاً سلطات الانتداب التي كانت قد فرضت الأحكام العرفية في البلاد، فأخذت

على القاضي تساهله في حالة حرب مع «مختلس للأموال العمومية»، وأمرت بعزله وصرفه من الخدمة، الأمر الذي أوغر صدور الدمشقيين على السلطة، لكنهم كظموا غيظهم واستياءهم، والحوا على محمد أقبيق أن يرشح نفسه للانتخابات التي جرت بعد فترة وجيزة، فرآها القاضي مناسبة ملائمة للثأر من ظالميه ومبعديه وخاض المعركة الانتخابية واثقاً من تأييد الشعب.

ويوم الانتخاب زحف أهالي دمشق إلى صناديق الاقتراع بكثافة لم يعرف لها مثيل، فانتخبوا القاضي النزيه الجريء بعدد من الأصوات فاق ما حصل عليه أي زعيم وطني في تاريخ سوريا قبل الاستقلال. وكان شعار المعركة:

سائق في ضيق
خلصه أقبيق من الزناديق
فاسلكو الطريق
إلى الصناديق

١٩٩٧/٨/٦

في معالجة العدو الذي لا علاج له (...)

من ١٩٦٧ إلى ١٩٩٧، تدأب إسرائيل على تجربة سلاحها في الجنوب وغير الجنوب قتلاً وتهجيراً وتدميراً واجتياحاً. وقد أحصيت في محفوظاتي الشخصية، وهي غير كاملة ولا رسميّة، عدد المدن والقرى اللبنانية التي وقعت عليها القرعة، وزارها «الوحش الطالع من البحر» - كما ورد في رؤيا يوحنا - فإذا هو ٤٢٥ قرية ومدينة. ومن سخرية القدر وغريب المصادفة أن يأتي هذا الرقم مطابقاً لرقم القرار ٤٢٥ الصادر عن مجلس الأمن في ١٩ آذار ١٨٧٨ والذي يدعو إسرائيل إلى الإنسحاب.

طيلة ثلاثين عاماً لم تنقطع هجمات إسرائيل وعملياتها العسكرية الإجرامية براً وبحراً وجواً.

في كل مرة كان المشهد نفسه يتكرر...

جثث محروقة مشوّهة، ورؤوس وأعضاء مقطعة، وإشلاء أطفال.

مجازر وحرائق ومنازل مدمّرة... وإطلال.

وفي كُل مرة كان رد الفعل يتمثل في هذه النماذج من العناوين التي أذكّر بها القارئ، وقد طفحت بها وبامثالها مجموعات الصحف والمجلات، من أواخر الستينات إلى يومنا هذا:

- مجزرة وحشية في هذه البلدة أو تلك...

- ٢٧ شهيداً من الأبرياء العزل في القرى الأمامية.

- العدو يقصف تجمعات الأهالي بالقنابل الانشطارية.

- الوف النازحين من الجنوب نحو العاصمة.

- تنديد واسع بجرائم العدو في عواصم القرار.

- واشنطن وباريس تدعوان إلى ضبط النفس.

- الجيش يرد على مصادر النيران ويوقع أصابات مباشرة فيها.

- المقاومة: سنلقن العدو درساً لا ينساه.

- شكوى لبنانية عاجلة إلى مجلس الأمن.

- اتصالات على ارفع مستوى للجم التدهور.

- وزارة الصحة تتولى معالجة الجرحى على نفقتها.

- إسعافات أولية ومستشفى ميداني لعلاج المصابين.

- الملوك والرؤساء العرب يستنكرون ويقدمون التعازي.

- وزراء ونواب وسفراء يعودون الجرحى في المستشفيات.

- زوجات الرؤساء وكبار المسؤولين يزرن النازحين في مراكز تجمعهم ويوزعن الملابس والإعانات.

- طائرات محملة بالأدوية تحط في مطار بيروت.

- مساعدات غذائية وخيم وبطّانيات تصل تباعاً من الدول الشقيقة والصديقة.

- طائرات العدو تغير على الجسور ومحطات توليد الكهرباء.

- القوى الوطنية تدعو الجنوبيين إلى الصمود في قراهم.

- الرؤساء الروحيون يشجبون ويستنكرون.

- تبرعات من المؤسسات الخيرية اللبنانية والدولية لعائلات الشهداء.

- مجلس الجنوب انجز مسح الأضرار ويباشر اليوم دفع التعويضات.

- وحدة من الكومندوس الإسرائيلي تتوغل خارج المناطق المحتلة، فتقتل أربعة مقاومين تخطف قيادياً بارزاً.

- هدف إسرائيل من المجزرة أحداث فتنة طائفية.

- إلخ... إلخ... إلخ...

إنها عناوين الذّل والعجز والياس، تظهر بالحروف البارزة والصور الناطقة في وسائل إعلامنا كلما خطر للعدو أن يختبر آلته الحربية في لحمنا البشري الطري!.

فكيف العمل؟ وأين المفر في عتمة هذا الليل الطويل؟

* * *

سنة ١٩٦٩، جمعتني الصدفة في باريس بالمؤرخ العلامة «بينوا ميشان» صديق العرب، وكان يضع الخطوط العريضة للكتاب الذي نشر عام ١٩٨٠ حول سيرة الإمبراطور الجرماني «فريديريك دي هوهانستوفن» ملك صقلية ومعاصر السلاطين الأيوبيين الذي أسهم أسهاماً كبيراً في نقل التراث العلمي والفلسفي العربي المتفوّق في القرن الثالث عشر إلى اللاتينية. ولم يكن قد مضى عامان بعد على الهزيمة النكراء التي منيت بها الأمة العربية في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. وقد دار الحديث بيننا على كيفية النيل من العدو الشرس الذي يصعب التخلص منه. فاطلع من حقيبته صورة وثيقة نادرة قال لي انها رسالة بعث بها العالم الفيلسوف ابن

سبعين المرسي الأندلسي إلى ملك صقلية جواباً على مسألة طرحها الملك عليه في «معالجة العدو الذي لا علاج له».

يقول ابن سبعين في تلك الرسالة «أن العدو الشديد المراس الذي يحاصرك من كل جهة يفرض عليك واحداً من خمسة مسالك: المواجهة التي يحكمها الغضب، أو الانتحار الناتج عن اليأس، أو الفداء الذي ينجيك حيناً ويرديك أحياناً، أو النزوح الذي لا حياة بعده، أو فلسفة أهل الكهف».

المواجهة العفوية الغاضبة

* أما المواجهة الناشئة عن ردود الفعل العفوية، أو ما يسميه ابن سبعين بـ «الغضب»، فقد خبرناها في هذا البلد ولقينا الأهوال مما أوصلتنا إليه. فكنا، منذ أيام الشقيري رحمه الله، ومنظمة التحرير السعيدة الذكر، نبادر بلا فكر ولا حسبان ولا احتراس، إلى نسف عبّارة أو تدمير مجنزرة في الأرض المحتلة من عريش مصر إلى ضفاف الليطاني، فنقتلع شعرة من ذنب الجاموس، وننتظر متكلين على الغيب في جحورنا الآمنة، تدمير قرانا بالطيران وحرق أطفالنا بالقنابل الفوسفورية، دأبنا في ذلك دأب الهر الذي يرتد عليك ارتداد المفترس غير المحترس إن أنت صفعته على قفاه، دون أن يحسب حساباً للمدية التي بين يديك والتي سرعان ما تقطع بها رأسه.

العجز حتى عن الانتحار

* وأما الانتحار الذي يختص به الإنسان دون الحيوان، فمعظم المسؤولين من ولاة أمرنا غير قادرين عليه، لأنهم يفتقرون إلى الضمير، وهو أيضاً ميزة إنسانية لا يعرفها الحيوان.

لقد أطلق الوزير الفرنسي الأول «بيار بيريغوفوا» في عهد الرئيس ميتران، رصاصة على رأسه، لمجرد إتهامه بأنه ابتاع شقة في باريس بتسهيلات مالية من صديق. وكثيرون مثله في الأزمنة القديمة والحديثة انتحروا خجلاً من كبائرهم أو صغائرهم وفراراً من حساب ضمائرهم. لكنني لا أذكر أن أي مسؤول في هذا البلد أقدم على الانتحار محاسباً نفسه على التخاذل أو التجاوز، اللهم إلا واحداً غير مسؤول من المثقفين يستحقّ فعلاً هذه التسمية، هو الشاعر خليل حاوي الذي انتحر يوم دخول جيش العدو إلى بيروت سنة ١٩٨٢، فكان انتحاره لعنة كافرة لضمائر الحكّام، ورصاصة رحمة لنفسه المعذّبة في مهرجان احتفالهم بالجريمة وانتصارهم للهزيمة...

أن يوضاص المعروف بيهوذا الأسخريوطي لم يتحمل عذاب ضميره بعد أن باع معلمه لصالبيه اليهود بثلاثين من الفضة، فشنق نفسه، أما كليوبطره، فقد انتحرت بلسعة الأفعى لأنها لم تغفر لنفسها التسبّب في هرب أنطونيوس خلال

معركة آكسيوم، وهو ما أدى إلى انتصار عدوّها وعدوه أوكتافيوس الذي قرر بعد فتحه الإسكندرية أن يحملها إلى روما أسيرة مغلولة اليدين والقدمين فريسة للسباع.

وليس المطلوب في أي حال، من تجار «الزلابية والتمرية» الحاكمين بأمرهم في ربوعنا، والمالكين لأرزاقنا وأعناقنا، فيما يخوض الوطن معركة وجود أو عدم، أن ينتحروا زرافات ووحدانا، ما داموا عاجزين عن ذلك بفقدان الضمير. بل المطلوب منهم أن يعتصموا بالصمت على الأقل، لأن الصمت خالصة العبر، وهو ستار العيوب... فلا يتناظروا مناظرة صاحب الغلمان وصاحب الجواري تحت قبة البرلمان، ولا يتراشقوا أمام شهود الزور بالكراسي ويترافعوا بالشتائم وأيديهم ملطخة بدماء الجرائم ونقيع الفضائح والسرقات.

لقد وقف أحدهم في صيدا منذ أيام، ودم شهدائها لا يزال طليلاً في مصارعهم، ليقول بالعين الوقحة واللسان السليط، أن مقابل الضرائب التي يفرضها على الشعب «تقديمات» توفرها الدولة للمواطن... «كالماء والكهرباء والطرق ووسائل الاتصال والنقل والصحة والأمن والمدارس وغيرها...» حتى ليظن من يسمع هذا الكلام أننا نعيش في جمهورية أفلاطون، وأن دولتنا الحاتمية المشهورة بالكرم والسماح تتفضل علينا مجاناً بالماء والنور والخدمات، والواقع أن الماء الذي تبعثه إلينا من خيرات جبالنا العلياء، في مجاري الصرف الصحي وعبر المراحيض ملوث بنسبة ٦٠ في المئة وقد رفعت سعره بنسبة ٤٠ في المئة فقط عما كان عليه في عهد الحكومات السابقة. أما الكهرباء التي منن بها المواطنين صاحب المعالي، فهي ذات نور متواتر الانقطاع، خاضع لأحكام التقنين الكيفية الذي يتزايد في أواخر كلّ شهر لتكثير غلة أصحاب المولدات بحيث يتمكنون من تسديد الحصص المفروضة لبعض المتنفذين كما يقال ويشاع ويملأ الأسماع. هذا مع العلم أن ثمن الكهرباء ارتفع هو أيضاً بنسبة ٤٠ في المئة عما كان عليه في الماضي القريب.

ويطول الحديث في شأن الخدمات الأخرى التي يتبجج الوزير الكريم بتقديمها، كالطرق التي يتوجه فيها السائق والسابل طبقاً لخريطة مرسومة في ذاكرته اتقاء لمطباتها وحفرها وأخاديدها العائدة إلى زمن الحناطير. وكذلك الهاتف الآلي الذي تنازل عن كل امتيازاته وصلاحياته لعشيقه الخلوي الرشيق الأنيق الذي فتنه وطرحه في المزبلة مستأثراً وحده بتفريغ الجيوب. ثم المدارس الحكومية التي تتحول بسحر يعجز الوزير الجدي المكابر جان عبيد عن

فك طلاسمه، من معاهد إلى زرائب، كي تفسح في المجال أمام بعض المدارس الخاصة لإبتزاز الاغنياء وتحريم العلم والمعرفة على الفقراء... إلى آخر ما هنالك من خدمات معجزة وانجازات خارقة ومميزة، في مبرة الدولة وجمعية حكومتها الخيرية الغيرية الفاضلة المحسنة أم الصدقات التي لا بد أن يدخل رئيسها والمتوزّرون المؤتزرون به رحاب الجنة بعد العمر الطويل، وعلى رؤوسهم قناديل، وفي أرجلهم خلاخيل، لكي يهدوا الملائكة سواء السبيل...

شرط الفداء تعبئة الأمة

* وأما الفداء الذي يضمن الغلبة على العدو المتفوق، فهو فداء تلتزمه الأمة بأسرها، ولا يتنكّب وزره فريق واحد من أبنائها أو أفراد قلائل من أبطالها، لأن تقاعس معظم الأمة عن طلب الفداء ما يلبث أن يزهد ذلك الفريق وأعوانه في خوارق البطولة، ويزوّد العدو الذي يكون أرهقه صمود غريمه، بحوافز الأقدام.

والفداء المثالي الحقيقي الذي ترجح معه إمكانية الانتصار على احتمالات الهزيمة، هو أن تتصدى الأمة بكل طاقاتها وفئاتها وأحزابها وقواها البشرية من عسكرية ومدنية للعدو الجاثم على صدرها، فتقتلعه من أرضها وتفرض عليه القهقرية والإنكفاء.

فلا الجيش الروسي وحده، ولا المقاومة الروسية وحدها، ولا أي فئة أو جماعة أو طائفة معينة وحدها تمكنت من رد الاجتياح الهتلري في الحرب العالمية الثانية. بل أن تضافر قوى الأمة الروسية جمعاء هو الذي مكنها من الانتصار على عدوها.

ولعل أبرز الأمثلة التاريخية المتوافرة حول هذا النوع من التصدي الجماعي للعدو، هو ما ذكره ستانلي لين پول في كتابه «قصة العرب في أسبانيا» من أن عبد الرحمن الأموي المعروف بـ«الداخل» والملقب بـ «صقر قريش» كان قد أفلت من سيف العباسيين في الشرق ولجأ إلى أخواله البربر في شمال افريقيا حيث جند فريقاً منهم ودخل بهم أسبانيا. وبعد حروب طاحنة مكّنته من إعادة تأسيس الدولة الأموية هناك، حاصره في مدينة ملقة جيش جرار يربو عدده على ٣٥ ألف مقاتل من العرب والبربر الذين ازعجتهم انتصارات ذلك الفاتح الغريب.

ولما يئس عبد الرحمن من فك الحصار الذي دام أشهراً بالمفاوضة والحسنى، جمع كل من كان قادراً على حمل السلاح في المدينة، فإذا هم الفان من الرجال الأشداء يردفهم الفان من الكهول والفتية والنساء. وبُعيد منتصف الليل، أمر بإضرام نار عظيمة ألقى فيها بقراب سيفه، فاقتدى به أعوانه وأحرقوا أغماد السيوف،

ثم انقض من داخل السور على الجيش المحاصر، وعديده بين مخمور ونائم، فما طلعت شمس ذلك اليوم إلا وكان العدو قد تقطع أرباً أو تدفع هرباً.

فأين نحن من أمثال هذا الفداء الذي يجترح المعجزات؟! حيث يجتمع ستة وعشرون حزباً وفصيلاً وتشكيلاً، وإخلاط منظرين وفلول أحزاب، سبقتهم حركة التاريخ ويكاد أنصار بعضهم لا يتجاوزون عدد الأصابع، ليطلعوا بوثيقة فسرّت الماء بعد الجهد بالماء، وينفّروا حركات وجبهات عريضة في الوطن والمهجر بعزلها عن قلب المعركة وحرمانها شرف المشاركة في التضحية والفداء، فإذا باجتماعهم يصب الزيت على النار بدلاً من إخمادها، ويزيد الشرخ إتساعاً بين المواطنين عوض أن يسهم في تضييقه، حتى ليعيدنا بالذاكرة مع الأسف، على اختلاف الزمن وأهله، إلى مواقف التخوين والنبذ المتبادل التي أدت سنة ١٩٧٥ إلى أضرام فتنة لا تزال عواقبها المنكرة تفترس مناعتنا وتعطل وحدتنا الوطنية إلى اليوم.

لقد كان أولى بحزب الله، وهو قطب الدائرة في مقاومة العدو، ورأس الحربة المسددة إلى كيانه، أن يوجه الدعوة إلى كل الوطن في سبيل اجتماع مصيري بهذه الأهمية. وليكن هنالك مربد للمناضلين من جميع الأوساط والاتجاهات، تتصارع فيه الأفكار وتتصارح الأطراف بالحجة والبرهان والعتاب الذي يبرئ القلوب من حزازاتها، فيخلص المؤتمرون إلى كلمة سواء في وثيقة مهمورة بخاتم الإجماع الوطني. وعندها تكون الحصانة لمن أثبت حقاً ونطق صواباً، وتكون البيّنة على من ادّعى باطلاً ونطق زوراً.

إن مجرد ظهورنا أمام عدونا بستة وعشرين حزباً وهيئة ومنظمة، هو مدعاة إلى استخفاف المجتمع الدولي وعدم أكتراثه بنا. وكان على اللبنانيين، جميع اللبنانيين، أن يرفعوا جهاراً نهاراً علم حزب واحد هو حزب المقاومة الرافضة لكل العصبيات والتناقضات، كما فعل الفرنسيون والروس والبولونيون وغيرهم في زعزعة الاحتلال النازي، أو كما فعل الجزائريون أيام حرب التحرير الوطنية ضد فرنسا، أو كما فعل الفيتناميون الذي هزموا الأمبراطورية العسكرية الفرنسية في معركة ديان بيان فو، والأمبراطورية العكسرية الأميركية في معركة سايغون. لا كما فعل أخواننا الفلسطينيون حين امتنعوا عن تأليف حزب واحد للمقاومة العسكرية، وحكومة سياسية واحدة في المنفى، فتفرقوا طرائق وتمزقوا خرائق، كما يقول ابن المقفع، وافضت بهم الحركات والمنظمات والقيادات والزعامات المتناظرة والمتصادمة، إلى ما هم عليه اليوم...

زعيم رهين المحبسين بين أمرين أحلاهما مر: فأما أن يفتك بأهله وبنيه من رجال «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، وأما أن يموت في المنفى أن لم تودِ به رصاصة من عملاء الموساد في جهازه المخروق، فيتولى بعده الزعامة عميل تكون الحرب الأهلية الفلسطينية من أولويات «جهاده»...

... ثم شتات بائر من فصائل وزعامات في الأرض القريبة والبعيدة، ترصدهم عيون المخابرات اليهودية الساهرة وتمحضهم لبن التململ في أصفادهم، حتى يرحلوا بلا خلائف للثار ولا صحائف للذكرى.

مأساة النزوح

* وتبرز بعد ذلك في رسالة ابن سبعين مسألة النزوح، وفيه منجاة من السيف، لكنه يؤسس للظلم والحيف. فما من شعب في تاريخ الأمم نزح عن أرضه وتمكن من العودة إلا بفتح.

يقول جمال عبد الناصر: «أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة». هذا صحيح. وصحيح أيضاً «أن الأرض للذين يرثون الأرض». ومن المفجع والمعيب الذي لم نكن نتصور حدوثه في يوم من الأيام، أن ينزح اللبنانيون عن بلادهم، عقولاً بارزة وسواعد فتية وكفاءات نادرة، فيما ترفض حكومتنا القائمة على خدمة «القرار المجهول»، أن تمد إليهم حبلاً يتمسكون به لتجديد ثقتهم بالوطن، وهي تروض المستحيل برافعاتها المأجورة، فتبني شواهق للأواخر فوق أطلال الأوائل يسكنها العدو في أجل مسمى بعد أن يكون تنفض من لوثة الجريمة وغسل يديه من دم الصدّيق.

فلسفة الاضطرار على الانتظار

* واخيراً يبدو أن أفضل وسيلة للتخلص من العدو تكمن في فلسفة أهل الكهف. فالذي يرمز إليه القرآن في قوله أنهم: ﴿لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾، يعني إنهم صبروا طويلاً. ذلك أن الذين ادّعوا أنهم «شعب الله المختار» ليسوا من اختياره في طمأنينة كما يبدو، ولا من رضاه في سعة. وإذا كان قد كتب علينا الاضطرار على الانتظار حتى يسقطوا في أوجار ما سلكوه من مسالك، فقد كتب عليهم الاضطرار الدائم على الانتظار هم أيضاً، حتى يقتاد بعضنا بعضاً إلى المهالك. فهل نحقق أمانيهم ونسير سير الماشية إلى المقصلة؟...

إن قدرتنا على الانتظار واسعة راهنة أن نحن وثّقنا العرى في التضامن وكففنا عن سلوك التحدي، وحزمنا امرنا في الصمود، وتعلمنا رسالة الغفران وفضيلة النسيان، فتصالحنا وتصافحنا

وتسامحنا وحددنا ما نريد وعرفنا كيف نعمل، وذكرنا أن لنا وطناً يتقدم على كل معتقد أو مصلحة أو حزب.

أما قدرة عدونا على ذلك الانتظار فمحدودة محكومة برفضنا لأي تطبيع أو أي مساومة على الحق، في حين أن قدرته على الانتصار أصبحت في هذا المنقلب التاريخي بالذات مجرد وهم ينظر إليه العالم نظرته إلى جريمة حرب، وذلك بعدما اكتشف العالم خلال مئة عام هول المؤامرة الكبرى التي خططت لها الصهيونية في مؤتمر «بال» سنة ١٨٩٨ لتقويض الحضارة الإنسانية.

وفي مقالة لاحقة سنسلط الأضواء على ظاهرة الإنحلال المبكر في الدولة العبرية التي يتخبّط رئيسها بين اتجاهين هربا من ظله الذي يطارده باستمرار، وهو رغبة شعب إسرائيل في العيش بسلام. فنراه يهرب حينا من شمس الحقيقة فيتمثل الظل أمامه، ويتصدى أيحاناً لتلك الشمس فيشعر بالظل وراءه. ومهما يكن من أمر، فلن يكون له بين أفراد شعبه إلا شرذمة ضئيلة موتورة تزكي الانتحار الجماعي على طريقة «مسعدة» أن هو قرر إعلان حرب على الشمس في صحراء العرب.

١٩٩٧/٨/٢٧

المطلوب نيابة عامة صحية
تحمي المواطن والدولة
من عصابة المبضع والمختبر(*)

كل شيء في العالم المعاصر يتوخى الربح ويخضع لشهوة المال. ولكن ليس بالقدر الذي نشهده في لبنان. فالتجارة التي اقترنت في تراثنا الفينيقي القديم بروح المغامرة وميزة الأقدام، ما لبثت أن تبرجت بالخدعة الليفانتينية والمكر الأسيوي، عبر تناوب القراصنة والفاتحين على أرضنا وتنكيل الطغاة بشعبنا الذي ضاع أصله وتزايلت ملامح شخصيته من فرط ما دخله من إخلاط وأوباش... حتى تصعلك معظمه أخيراً، وأصبحت غاية الكسب في شرعه تبرر الواسطة أيا كانت مواصفاتها الإبتزازية وطبيعتها الانتهازية وشكلها الأباحي.

وإذا كان احتراف الرأسمالية العالمية للنهب والسطو احترافاً ذكياً يعتمد الأساليب العلمية الحديثة في الدعاية، فيغسل الأدمغة ويثير الغرائز والشهوات ليبتز جيوب المستهلكين ويفترس مدخراتهم، فإن إحترافنا للتجارة بالاحتيال في لبنان هو احتراف غبي يضحكنا مرة ويبكينا بعدها ألف مرة.

وفي عداد النماذج الواقعية المعبرة عن هذه الحقيقة، أن الأميركيين مثلاً، وجدوا بعد الحرب العالمية الثانية أن لديهم مخزوناً هائلاً من الزيوت النباتية الصالحة للأكل، كزيت الصويا والذرة ودوار الشمس وغيرها، باستثناء زيت الزيتون الذي لا ينبت في أرضهم. فأوعزوا إلى بعض المختبرات والمراكز الطبية بالإدعاء زوراً أن زيت الزيتون خطر على الصحة، وأنه يزيد مادة الكولستيرول وسائر المواد الدهنية في الدم، ويؤدي بالتالي إلى الذبحة الصدرية وسداد الشرايين. الأمر الذي جعل العالم بأسره يقاطع زيت الزيتون ويتهافت على الزيوت النباتية الأخرى. وحتى بلدان الشرق الأوسط والبحر المتوسط التي تزرع «الشجرة المباركة» منذ ألوف السنين وتعتبر الزيتون وزيته من مقومات غذائها الرئيسية، توجّست خيفة من تلك المادة الحيوية تحت تأثير الدعاية المغرضة. وقد تبين فيما بعد أن لزيت الزيتون مزايا

ومنافع شتى وكل ما قيل حول أضراره كذب وافتراء.

وخلافاً لمسألة زيت الزيتون الذي عرف منذ القدم بفوائده، فإن هناك مواد ومآكل عرفت بخطرها على الصحة وتعمل الدعاية والتقارير ذات الصفة العلمية الكاذبة في معظم الدول الصناعية على ترويجها لتحقيق أرباح طائلة بما في ذلك بعض الأدوية التي يصفها الأطباء اليوم، ويأتي من يكتشف غداً أنها تسبّب أمراضا قاتلة. وما دامت الحال على هذا المنوال، وما دامت المصالح المالية هي التي تحكم بالفائدة أو بالضرر على هذه المادة أو تلك، فقد تتبدل هذه المصالح فيما يتعلق مثلاً بالتدخين وتنقلب التقارير المموهة ذات الصفة العلمية التي تحذر من مضاره، فيقال لنا في أجل مسمى أن له منافع لا تعد ولا تحصى!...

* * *

أما عبادتهم للمال فتنعكس جرائمها على الآخرين بذكاء...

وأما عبادتنا له فتنعكس جرائمها علينا بمنتهى الغباء!...

فما من قيمة أخلاقية، أو رسالة إنسانية، أو حرفة نادرة، أو مهنة شريفة، إلا وابتذلناها رغبة في الكسب، وحولناها إلى تجارة أفقرتنا عوض أن تغنينا.

الدين الذي كان ينبوع شفاعة وخلاص متعدد المقاصد الخيرة والأهداف السامية مسخناه دكاكين تتاجر بالسماء وتتعهد الحقد والشقاق والبغضاء في المجتمع المواحد. وبعد أن كان الناس يلتمسون في رحاب الدين وجه الله، ويتعلمون في حوزته التقى والعفة والتسامح والمحبة، أصبحوا في قلاع الطائفية ومتاريسها البغيضة يتراجمون بالكراهة والحقد والتعصب ويستحلّون كل حرام.

وما ينطبق على الدين في هذا المجال ينطبق أيضاً على الثقافة والتربية والإعلام والمهن الحرة والاختصاصات العليا وكل ما يتصل بالمجتمع الحضاري من وجوه العمل والإنجاز في مختلف الميادين. فقد غدا كل ذلك في إطار ممارساتنا الشاذة ودائرة الجشع المادي الذي انطبع به وجودنا، أشبه بالسُّجُف المطرّزة المزركشة والستور المنمقة ذات الألوان البهية التي تخفي وراءها النتن والقمامة والعفن والإهتراء.

ولعل أخطر ظواهر الانحطاط والإبتزاز هي تلك المتمثلة مع الأسف الشديد في أجهزة بعض القطاعات الطبية وسلوك فريق لا يستهان به من الأطباء الذين يتمتعون بحصانة نقابية وعصمة قانونية فائقة موروثة عن الجمهورية الفرنسية الثالثة أيام الانتداب، تحرم على

اي كان محاسبة الطبيب، حتى على الخطأ المهني الجسيم، أو حتى على الاحتيال النفعي المعيب، لكي لا أقول على السرقة المفضوحة بكل مواصفاتها.

وأنا، فيما اتمنى على نقابة الأطباء وسائر الهيئات المعنية بهذه المهنة الكريمة وجمهرة الأطباء اللبنانيين، إلا يحملوا كلامي هذا على محمل التشكيك، لا سمح الله، في كفاءة الجسم الطبي اللبناني بوجه عام والمناقبية المشهودة لمعظم عناصره، لا بد لي من أثارة بعض القضايا أمام الراي العام، والإدارة الحكومية، والحقوقيين الثقات، والقطاع الطبي نفسه، عسى أن يجدوا الحلول المناسبة للكارثة الطبية والاستشفائية التي حلت بنا من جراء الفوضى المستشرية في سياسة هذه المهنة القطبية التي تتحكم بالحياة.

في اصول الطبابة ومرجعية العلاج

ابدأ بأصول الطبابة، اي بالفرنسية (La procedure médicale)، فارى بحكم المنطق السليم أن يتوجه المريض الذي يشعر بأي عارض أو طارئ صحي، غير مستعجل أو صاعق، إلى طبيبه الخاص المعروف عند آبائنا وأجدادنا «بالحكيم» صديق العائلة، وهو الأعلم بطبيعة زبائنه ومكامن الضعف والقوة في أجسامهم وخصائصهم الوراثية، إلخ... فيعاينه الحكيم معاينة دقيقة، ويستعين أحياناً على تشخيص علّته بالفحوص المخبرية من تحليلية أو شعاعية، ثم يقرر له العلاج المناسب إن تبين له أن شفاءه في متناول قدرته، أو يحيله على حكيم آخر اختصاصي في الموضوع.

أما الحكيم الأول، فيعرف علمياً في البلاد المتطورة بالطبيب الداخلي (Ge-neraliste-Interniste) وأما الحكيم الآخر، وهو الاختصاصي الخبير بهذا الجزء من الجسم البشري أو ذاك، فيعرف بصفة (Interniste Specialiste).

ولكي أكون أكثر وضوحاً أقول أنه لو أصيب مسيو دوبون مثلاً في باريس، أو مستر سميث في لندن، بدوار وآلام في الراس، يفترض أن يذهب أولاً إلى حكيم الطب الداخلي الذي يخضعه لمعاينة عاجلة ويكتشف أنه يشكو من ارتفاع ضغط الدم، فيعالجه فوراً بعقاقير آنية فعالة كي لا يحدث له انفجار، ثم يطلب منه إجراء فحوص مخبرية للكلي والكبد والشرايين والمواد الدهنية والسكري إلخ... فإن تبين للحكيم أن مريضه ذو علة يستطيع علاجها والسيطرة عليها منفرداً، باشر عمله بثقة وطمانينة، وإن لم يتأكد من سيطرته على الموقف وشعر أن وضع المريض يتجاوز قدرته على

شفائه، أحاله على الاختصاصي الخبير في مسألة الضغط. فإن تمكن هذا من اكتشاف مصدر العلة ومعالجتها كان خيراً، وإلا فإن الطبيبين يعملان معاً بالتكافل والتضامن والتشاور على اتخاذ القرار النهائي باللجوء إلى الجراحة أو أي وسيلة أخرى يريانها مناسبة لانقاذ الرجل من علته.

وللتدليل على أهمية هذه الأصول في ممارسة الطبابة أشير إلى أن الصندوق الوطني للضمان الصحي في فرنسا ونقابة الأطباء الفرنسيين، عقدا في ٣ تموز (يوليو) الماضي، إتفاقاً يقضي بتعزيز دور حكماء الطب الداخلي في النظام الصحي المعتمد، والعمل على تحسين أساليب العلاج وطرق متابعته لدى مختلف مراجع الاختصاص. وتقول جريدة «لوموند» الفرنسية التي نشرت الخبر في عددها الصادر بتاريخ ٥ تموز (يوليو) ١٩٩٧، أن هذا الاتفاق الذي يدخل حيز التنفيذ في ١٢ آذار (مارس) المقبل، هو بمثابة «اكتتاب» من جانب المضمونين في عيادات الطب الداخلي يؤمن لهم عناية مميزة، كما يجعل الطبيب الداخلي المرجع الأول للمريض، ويخوله دون أي مرجع آخر، أحالة ذلك المريض على الاختصاصي الذي يراه مناسباً بمقتضى وضعه الصحي.

كانوا أطباء وليس تجارا

تلك هي أصول الطبابة المعتمدة في البلاد المتطورة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. أما عندنا في لبنان فالمسألة تختلف كلياً. وهي تنعكس أسوأ انعكاس على رسالة الطب أولاً، وسلامة المريض ثانياً، وميزانية وزارة الصحة ثالثاً.

فمن غريب الشذوذ الذي نعانيه على هذا الصعيد، أن حكماء الطب الداخلي الذين يتمتعون بامتياز أكاديمي حقيقي، ويملكون الخبرة العميقة المكتسبة عبر المراس الطويل والعمل الدؤوب، أصبحوا أندر من الأولياء في زمن الفساد والالحاد، وكانوا بالأمس القريب، أي منذ ثلاثين أو أربعين سنة، الصفوة المختارة والكثرة العاملة المميزة بين الأطباء. اذكر منهم في عداد الذين انتقلوا إلى الملأ الأعلى، نطاسيّين إعلاماً وروداً، أمثال الدكتور شفيق حداد عضو الجمعية الملكية البريطانية للطب، والدكتور محمد خالد، وحبيب همّام، وأنطوان جدعون، ونسيب البربير، وتوفيق رزق، وغيرهم. وكان بعضهم يمارس الجراحة، وبعضهم صاحب اختصاص معيّن عرف به واشتهر، إلا أنهم كانوا جميعاً، على اختلاف ممارساتهم، يلمون بالطب الداخلي الماماً واسعاً، ويحيطون بأسباب العلل وطرق علاجها، إحاطة جامعة

ودقيقة، طبقاً لمستوى ذلك العصر وحدود علمه، أمّا الميزة الأساسية التي شرّفتهم وبوّأتهم صدارة المجتمع، فهي إنهم لم يكونوا تجاراً بل أطباء.

وقد تبدل الواقع الطبي في لبنان خلال الربع الاخير من هذا القرن تبدّلاً كلياً. ففي مقابل الكشوف والتقنيات الحديثة التي حققت في ميادين الطبابة إنجازات تقارب المعجزات، ظهر اختلال كبير في توازن المهنة أدّى إلى انحراف عن أصولها المتبعة في البلدان المتطورة، كما سبق وأشرنا. فقد تضخّم عدد الجراحين وأطباء المساندة الجراحية حتى بلغ رقماً خيالياً قفز خلال عقدين من بضع مئات إلى بضعة الآف، كما تضخّم في الوقت نفسه ـ وبنسبة كبيرة ـ عدد أطباء الاختصاص، واصبح الاختصاص الواحد عدة اختصاصات، حتى لتكاد تجد مثلاً في عداد المختصين بأمراض الأنف من هو خبير بعلاج أرنبته دون أن يفقه من سائر وظائف الأنف إلا القليل، وفي عداد المختصين بأمراض الجهاز الهضمي من هو خبير بالجزء الأخير المتصل بالشرج من الأمعاء الغليظة دون أن يفقه من وظائف الكبد والمعدة والإمعاء الضيّقة إلاّ العموميّات، إلخ...

أمّا قطاع الطب الداخلي، فهو يتقلص باستمرار في خط مواز لذلك التضخم.

وباستثناء الاطباء المقيمين في الارياف ممن تتزايد خبرتهم بتنوّع الأمراض التي يعالجون، ويتناقص علمهم لصعوبة حصولهم على المراجع الكتبية الحديثة واستحالة متابعتهم للمستجدات العالمية في حقول الطبابة، فإن حكماء الطب الداخلي من ذوي الممارسة الجدية الموثوقة في العاصمة والمدن الكبرى، ما انفكوا يتضاءلون تدريجياً، فيما تزدحم عياداتهم بألوف المراجعات والاستشارات بحيث ينتظر طالب المعاينة أحياناً بضعة أشهر قبل الحصول على موعد من طبيبه، وهو ما ينطبق مثلاً على أحد البارزين في هذا القطاع الدكتور إيلي غياض أستاذ الطب الداخلي في جامعة القديس يوسف ورئيس هذا القسم في مستشفى أوتيل ديو، فإن عيادته مكتظة بأكثر من عشرين ألف ملف، وكذلك عيادات النطاسيين القلائل الذين يشرفون قسم أبقراط على صعيد الطب الداخلي، وهم لا يتجاوزون اليوم عدد أصابع اليد الواحدة.

يختارون «منجم الذهب»

ولا شك في أن السبب الرئيسي لندرة المختصين بالطب الداخلي يعود إلى آفة الكسب السريع التي تجتاح المجتمع اللبناني وتحكم تصرفات اللبنانيين في مختلف المرافق والمواقع والمهن. فإن ٩٥

في المائة من طلاّب الطب يختارون الجراحة والاختصاصات المتصلة بها منذ بدء دراستهم الجامعية. وهم يقصدون الدول المتطورة طلباً لمزيد من الاختصاص في هذا الفرع من الجراحة أو ذاك. وقليلون جداً هم الذين يختارون الطبّ الداخلي، وأقل منهم أولئك الذين يواصلون دراسة هذا الطب الأصيل في الخارج.

ذلك أن الجراحة، كما قال لي أحد طلاّبها، «منجم ذهب»، أمّا الطب الداخلي فهو «مهنة الفقراء»!! وأضاف أن ما يكسبه الجرّاح الماهر في عملية واحدة تستمر بضع ساعات، يفوق ما يكسبه أي طبيب ماهر في قطاع الطب الداخلي خلال بضعة أشهر (...).

وعندما قلت للطالب المذكور أن الطب الداخلي أساس الطب، وأنه حكمة يزينها العلم ورسالة إنسانية يحكمها الضمير، وذلك بخلاف الجراحة التي لا تعدو كونها حرفة تكتمل بالمهارة، وتتعامل بالمبضع مع الأعضاء المريضة في الجسم دون أن تهتم لأسباب المرض وتتعقّب جذوره لاستئصالها من النفس والجسد معاً... عندما قلت له ذلك ضحك «جرّاح المستقبل» وقال بشيء من الهزء: أنا لا أفهم الفلسفة يا أستاذ. والذي أفهمه أن المال يصنع كل شيء. وما قيمة مهنة لا تغني صاحبها!.»

ومهما يكن من أمر، فإن النقص الذي يصعب تعويضه في الأطباء المختصّين بالطب الداخلي جعل المرضى يتوجهون إلى الجرّاح دون المرور بالحكيم. الأمر الذي شجّع بعض أصحاب المطامع المادية المتمادية من الجرّاحين الحسني الدعاية على التجاوز اللاّأخلاقي في سبيل الكسب، كما جعل المرضى السيّئي التقدير عرضة للابتزاز.

ومن ضروب الاحتيال الشائعة التي يلجأ إليها فريق الجرّاحين الطامعين بالمال الذين بنوا قصوراً خيالية في بيروت وموناكو وپروڤانسة وماربيا الإسبانية، وغدوا من أصحاب الودائع القارونية في البنوك المحلية والخارجية، أخذ مريض مصاب بتقلّص عضلات ظهره على حين غرة، وإجراء عملية جراحية في عموده الفقري تعطّل قدرته وتشل أزره لمدى الحياة، باعتباره مصاباً «بالديسك»، أي انحراف كعوب العمود عن مواقعها وضغطها على نخاع السلسلة العصبية، وهو يكون في الحقيقة مصاباً بلفحة برد أورثته ألماً حاداً في ظهره يمكن أن يزال بعقار متيسرّ ضد التهيّج أو الالتهاب!

ومن أمثال ذلك أيضاً أجراء عملية قلب مفتوح مع تبديل الشرايين التاجية لإنسان مصاب بعسر الهضم أو التوتر العصبي أو تضخم الإمعاء الغليظة أو حمى

«الكريب»، مما أحدث له آلاماً في الصدر والذراع الأيسر! أو إجراء عملية جراحية في المعدة لمريض أوهموه أنه مصاب بالقرحة، لمجرد أن جهازه الهضمي يفرز حوامض من خلل بسيط في وظيفة الكبد يمكن علاجه بسهولة فائقة، إلخ...

والغريب الأغرب من هذا كلّه أن وزارة الصحة تتحمّل مردود هذه الفوضى الجراحية على خزانتها التي تكاد تكون فارغة ومواردها المحدودة التي تكفي بمنتهى العسر والضيق للقيام بالتزامات طارئة أساسية تبرز كلّ يوم فضلاً عن رواتب الموظفين واعتمادات جهازها الاستشفائي في المناطق اللبنانية كافة، وهي لا تحرك ساكناً ولا تأتي جديداً في التصدي لهذا الأخطبوط الشره، فيما تتخبّط يائسة أمام الأبواب الموصدة في وجهها كلّما طلبت من الحكومة رفداً لدفع الديون المستحقة للمستشفيات بمئات المليارات، والمترتبة أصلاً من جراء عمليات كيفية اعتباطية تم التفاهم على أجرائها بالتراضي بين مريض جاهل بائس متلهف للشفاء وجرّاح خبيث طامع متلهّف للثراء يتحكم بذلك المريض تحكم الذئب بفريسته!.

هكذا الجرّاح يبتز المريض. والمريض يبتز المستشفى. والمستشفى يبتز الدولة. والدولة تبتز المواطن لتأمين الحدّ الأدنى من الخدمات والضمانات الصحية له. والكل يدور في حلقة مفرغة لا نهاية لها.

اختصاص في قتل الحياة

أما عثرات الاختصاص عمداً أو سهواً، فالحديث المتعلق بها يطول ويطول. واكتفي بإيراد مثل واحد من ألوف الأمثلة التي يتداولها الناس في مجالسهم حول تلك العثرات والأخطاء التي كثيراً ما تكون قاتلة.

أعرف شاباً تزوّج بفتاة من عائلة كريمة. وبعد أسبوع من الزواج انتشرت في الجزء الأسفل من جسم الزوجة بثور متقيّحة منعت على الزوجين متعة الحياة، فذهبا إلى طبيب للأمراض الجلدية أحالهما على أحد المختبرات الخاصة حيث تم استخراج عينات من قيح تلك البثور وفحصها. وبعد يومين أكد التقرير المخبري أن المرأة مصابة بجرثومة (Staphilocoque)، وهي جرثومة منتشرة في كلّ مكان يلتقطها المرء صدفة وتعالج بأبسط الوسائل.

ولما وصل التقرير إلى الطبيب المعالج نادى بالويل والثبور وعظائم الأمور وقال للرجل أنه يشك في كونه نقل جرثومة مرض جنسي خبيث يحمله منذ أيام العزوبة إلى زوجته البريئة، وعليه

بالتالي إجراء فحص عاجل لإفرازه المنويّ، وذلك للتأكد من صواب التشخيص.

فتوجّه صاحبنا الى المختبر نفسه وأجرى الفحص المطلوب، فجاءت النتيجة أنه يحمل في منيّه بالفعل كميات هائلة قديمة ومتجذرة من جرثومة (Staphilocoque)، وأنه نقل تلك الآفة إلى زوجته بالعدوى، كما أن الجرثومة المذكورة أضعفت قدرته الجنسية التناسلية بحيث لا يستطيع الإنجاب!

وكانت وصفة الطبيب أن يتناول الرجل وزوجته أقراصاً من مضاد حيوي حديث بالغ القوّة والتأثير لمدّة ستة أشهر يتّضح بعدها أن كان الشفاء ممكناً أم مستحيلاً!

وفي ليلة شتوية ليلاء دخل عليّ ذلك الشاب وهو يرتجف من هول النكبة التي حلّت به، فأخبرني القصة بتفاصيلها وقال لي بالحرف الواحد: «لقد ظلمت فتاة بريئة نقلت إليها مرضاً خطيراً يصعب شفاؤه. وأنا مريض لا أستطيع أن أنجب لي ولزوجتي ولداً. ولا يحق لي أن أضاجعها لأنني مريض، ولو فعلت لشعرت أنني أرسّخ الداء الذي ابتليتها به. لقد ارتكبت جريمة مزدوجة تستحق الإعدام».

ثم شهر مسدّسه وصوّبه إلى رأسه. لكنني تمكنت من إقناعه بعد جهد جهيد الاّ يطلق النار منتحراً قبل استشارة طبيب آخر، وارسلته في اليوم التالي إلى اختصاصي أثق بعلمه وأخلاقه. وقد تبيّن بعد إجراء الفحوص المخبرية في مستشفى الجامعة الأميركية أن الشاب سليم من أي مرض، وأن الكائنات المجهرية التي ظنها موظف المختبر الخاص جراثيم (Staphilocoque) ما هي إلاّ خلايا منوية تشبه تلك الجراثيم في مرحلة من مراحل نموّها وتكوينها، فاشكل الأمر عليه وصنفها تصنيفاً خاطئاً...

أما الزوجة، فقد نصحها الطبيب باستعمال صابونة صحية!! مجرّد صابونة... كانت كافية لشفائها كلياً!! ورزق الزوجان بعد ذلك الكابوس الرهيب أربعة أولاد يتمتّعون بصحة ممتازة.

لو كنّا نعيش في بلد ترعاه دولة لها حزم الدول الحريصة على سلامة رعاياها، ولها أخلاقيات الدول التي تحترم الحياة الإنسانية وحقوق المواطن، لما تردّد الكثيرون من رجال الفكر والقانون والثقافة والإعلام، وعلى رأسهم السواد الأعظم من الأطباء العلماء الشرفاء، في المطالبة بنيابة عامة صحية تضع حداً بتدخلها الفوري، لفوضى المستشفيات، وفوضى المختبرات، وفوضى العيادات المشبوهة التي تحترف مع الأسف صناعة

القتل بالأجر. ولتبدأ تلك المرجعية القانونية وضع اليد على دكاكين جراحين واختصاصيين يمارسون القرصنة والشعوذة باسم الطبّ، وهو أكرم لؤلؤة في تاج الحضارة.

ولكن، ما الذي نرتجيه في هذا القطاع الحيوي وغيره، من دولة عاجزة عن كبح جرائم الشاحنات وتطهير البلد من النفايات، ترعى التجاوزات، وتهتك الحرمات، وتشرعن السرقات!؟.

أيُطلب من شركة الموت هذه «بوالص» تأمين على الصحة والحياة؟!.

١٩٩٧/٩/٦

(*) أثارت هذه المقالة ضجّة كبرى في الأوساط الاجتماعية كافة، وتلقّيت رسائل تأييد عديدة من المواطنين، وردوداً مثيرة من بعض الأطباء، بينها ردّ مباشر من نقابة الأطباء بقلم نائب النقيب ورئيس لجنة ا لإعلام في النقابة الدكتور بلال عبد الله؛ وقد هدّد بعضهم بإقامة الدعوى، الأمر الذي دفعني إلى وضع النقاط على الحروف حول هذا الموضوع في مقالة نشرت بتاريخ ١/١١/١٩٩٧ فجاءت فصل الخطاب الذي امتنعت بعده عن أي جواب. (هذه المقالة عنوانها «كيف نصحّح الأخطاء إذا كنا لا نعترف بها» وهي مدرجة في موضع لاحق من هذا الكتاب).

حكاية زهرة في صخرة

من بديهيات الصحافة ومبادئها الأساسية أن لكل خبر حياة. فهو يولد ويكبر ثم يهرم ويموت، ما عدا خبراً واحداً هو خبر الموت الذي يولد ميتاً ويسجى فترة وجيزة على صفحات الجرائد والمجلات، ثم يوارى في غيابة النسيان.

ولكن هنالك ميتات تبدو مستحيلة، فتسلط فكرة الغياب في الوجدان البشري على فكرة الموت. وأشهرها ميتة السيد المسيح الذي تؤمن النصرانية أن موته كان طريقاً إلى القيامة ثم الصعود بروحه وجسده إلى السماء، وأنه «سيعود بمجد عظيم ليدين الأحياء والأموات». وفي النص القرآني نفسه إيثار لفكرة غياب عيسى بن مريم في الملأ الأعلى على فكرة موته مصلوباً، حيث ينفي القرآن ذلك بقوله: ﴿... وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾(*).

وفي معزل عما يحفل به التراث الديني من خوارق متصلة بالحياة والموت، فإن البشر الذين يرهبون الموت باعتباره قدراً محتوماً ينذر بالفناء الجسدي ينفرون عند الوهلة الأولى من التصديق والتسليم بأن المتفوقين أيضاً يموتون. وكثيراً ما يرسخ في قلوب الناس وعقولهم أن هؤلاء الرموز، سواء أكانوا موضع حب واحترام أم موضع كره وازدراء، يغيبون فقط، ولا يموتون!...

وقد تحيط بوفاة المتفوق أحياناً شكوك حقيقية في كونها نتجت عن اغتيال أو تآمر. كما قد تحيط بها أسرار تكتنف بالغموض كيفية حدوثها وهوية المتسببين فيها والمستفيدين منها. ويتمادى الخيال الشعبي والتكهن الإعلامي في نسج الحكايات والطرائف والأساطير حول المسألة حتى تتحول مادة وافرة الخصب للتحقيق والتأليف والانتاج المسرحي والسينمائي.

وفي هذه الحالات جمعاء يصبح خبر الوفاة خبر حياة وعنوان قضية تتوالد فوصلها وتتوالى بمرور الزمن، إلى أن تسقط الأيام عناصر الشك باليقين.

* * *

* يوم قتل الرئيس الأميركي الأسبق جون كندي سنة ١٩٦١، وقتل قاتله لي هارفي أوزولد، ثم قتل أخوه

روبرت كندي، بدأ مسلسل قتل وانتحار ذهب في سياقه إلى هذا اليوم أكثر من أربعين شخصاً في عدادهم شهود ومحلفون وقضاة وشرطيون وجواسيس من مختلف المذاهب والمشارب، وتألفت لجان، وجرت تحقيقات ومحاكمات، ولا تزال أعمدة الصحف العالمية تزخر بالوف الأبحاث والمقالات والدراسات المتعلقة بهذا الحدث، ولا تزال المؤلفات الخاصة به تصدر بمعدل سبعة كتب كل شهر في الولايات المتحدة وغيرها.

* ويوم انتحر أدولف هتلر وعشيقته ايفا براون تحت انقاض برلين سنة ١٩٤٥، ولج الخيال في صميم الحقيقة و اختلط بها حول ذلك الانتحار، فما برح الأعلام قرابة نصف قرن يشكك في وفاة زعيم المانيا النازية وينشر المقالات والريبورتاجات الوثائقية حول الموضوع. وهناك من كان يؤكد وجود هتلر في الأرجنتين، أو ينقل عن شهود عيان أنهم رأوه في كندا أو في أوستراليا أو إسرائيل إلخ... حتى مالوا جميعاً إلى ترجيح وفاته ابتداء من سنة ١٩٨٩، باعتباره ولد سنة ١٨٨٩، ويكون قد بلغ المئة فيما لو بقي على قيد الحياة، فأراحوه هكذا واستراحوا...

* أما الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، فلم يصدّق أحد أنه توفي بنوبة قلبية سنة ١٩٧٠ لما كان يتمتع به من حيوية ونشاط. وقد استغل العدو موجة التشكيك العارمة في أسباب تلك الوفاة المفاجئة، فاخترعت الصحافة الصهيونية أخباراً ملفقة مفادها أن إسرائيل هي التي قتلته بواسطة معجون فتّاك يتسرب من مسام الجلد إلى خلايا القلب استخدمه أحد عملائها في تدليك جسم الرئيس طيلة شهور! وقد انطلت هذه الخرافة على الرأي العام العربي المفجوع لتزيد إحباطه وشعوره بالهزيمة امام دولة تصل إلى مخادع أعدائها لتقضي عليهم في عقر دارهم...

* وأخيراً، لا آخراً، منذ أن فقد الإمام السيد موسى الصدر عقب زيارته ليبيا سنة ١٩٧٨ مع رفيقيه الشيخ محمد يعقوب والزميل عباس بدر الدين، لا يزال السواد الأعظم من اللبنانيين الذين استأثر الإمام بمجامع قلوبهم مع الأعجاب والإكبار، يعتقد جازماً أنه مغيّب وليس مقتولاً.

* * *

هذه الأمثلة وغيرها في يوميات الوجود البشري مما يتعذر حصره وإحصاؤه، خطرت لي دراكاً وأنا استمع إلى تعليق سطحي في إحدى المحطات الأذاعية يقول صاحبه أن العالم سينسى ديانا أميرة ويلز بعد مرور أقل من أسبوع على الحادث الذي أودى بحياتها مع صديقها عماد الفايد!

لقد فات المعلق المذكور، وهو ينتمي على الأرجح إلى ثقافة معظم وسائل الإعلام العربية التي يتناهى مطافها عند «جوائب» أحمد فارس الشدياق في إسطنبول القرن التاسع عشر، أو عند «مقامات» أحمد سعيد في إذاعة «صوت العرب» العائدة إلى ستينات القرن العشرين، أن العالم يتبدل اليوم بسرعة المركبات الفضائية التي وصلت إلى القمر والمريخ وهي تستعد لبلوغ عطارد والمشتري...

لقد فات ذلك المعلق، في رتابة قياسه البدائي للرؤية، أن خبر ديانا خبر مركّب ينبئ بولادات سوف تنبعث من وفاة!

* ولادة ملكية بريطانية جديدة لا بد لها من انتفاضة جذرية تحول دون اختناقها بالزهور التي غطى الشعب أرض المملكة المتحدة بالبلايين من باقاتها، وهي تتألق روعة وبهاء على تراب ديانا وتهدد العائلة المالكة بالإعدام على الطريقة الصينية القديمة التي تقتل بما تنفثه الأزهار من ثاني أوكسيد الكاربون...

* وولادة إحساس جديد لدى كل متفوق في أي ميدان، وكل من حول القدر مآسيه إلى بطولات، أنه ملجوم بشكائم المسؤولية ويتعين عليه الإلتزام بسلوك وجودي شريف لا يصح تجاوزه، لأن المتفوق الذي ينتقل من الدور المأساوي إلى الدور البطولي في مسرحية الحياة، يصبح ملكاً للإنسانية وليس ملكاً لخطرات هواجسه ونوازع هواه.

* ثم ولادة سؤال غامض سيبقى عشرات السنين بدون جواب، كما بقيت شخصية «جاك السفّاح» الذي كان يذبح البغايا في مواخير لندن أواخر القرن الماضي، ولا يعرف أحد إلى اليوم هل كان من أفراد العائلة المالكة، كما يؤكد بعض الباحثين، أم من العيّارين المجانين شذاذ الآفاق...

كذلك سوف يبقى مصرع ديانا علامة استفهام كبرى في صحائف التاريخ الغامضة، ربما إلى يوم القيامة! هل هو القضاء والقدر أودى بالزهرة التي نبتت في صخرة الملكية بلا جذور... أم قتلها «المجهول» أياه الذي بات معروفاً، لكي يذرف الأسد البريطاني دموعاً مالحة في غروب عصر الأسود وازدهار مملكة الخنافس والخفافيش والثعابين!؟.

١٣/٩/١٩٩٧

(*) سورة النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

رسائل متأخرة في البريد

لا شك في أن رسائل «الزعيم» زعيمة الرسائل... كما أن كلام الملوك ملك الكلام.

هذا ما يقوله الكثيرون عندما يقرأون رسائل أنطون سعادة إلى إدفيك جريديني[1].

ولكن المسألة لا تعدو كونها غمامة صيف لم تمطر.

فمن قراءة الرسائل الثماني عشرة التي كتبها أنطون سعادة بخط يده وأرسلها إلى أدفيك في أواخر الثلاثينات، فنشرتها في خريف العمر، أخلص إلى إقتناع ثابت بالوقائع الآتية:

* أولاً: أن أنطون سعادة الذي كان يتخبط في تلك المرحلة، بين مثله الأعلى الداعي إلى بعث الأمة السورية من رميمها، وكفاحه السياسي الساعي إلى تجنيب الأمة حرباً عالمية طاحنة بدأت رياحها تنذر بالأعصار في عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨، قد وجد في وجه تلك الفتاة البريئة المحافظة وجه أمه... بل وجه امته ـ كما يقول جبران ـ ... وأحب سورية في أدفيك... سورية المسحوقة بين اهلها التقليديين وطموحها الانعتاقي المتجسد في جمال فتاته وعقلها وعفتها وصبرها، وخصوصاً في قدرتها على الحب. لأن في القدرة على الحب جبروتا أعنف وأصفى من القدرة على أي شيء آخر، حتى على البعادة.

والذين عرفوا أنطون سعادة المترهب لحلم الأمة السورية يومذاك، وبعده في كل يوم حتى اللحظة التي سجي فيها على رملة الإمام الأوزاعي، يعرفون بالتأكيد أنه كان يبحث في وجه كل فتاة سورية عن أمه. عن أمته...

لقد تفرّس في وجه فايزة معلوف، وفي وجه زاهية أيوب، وفي وجوه كثيرة أخرى. لكنه أختار أخيراً جولييت المير قرينة له، لأنها كانت مهجرية لا تعرف الكثير من استحالة قضيته في وطن يحكمه الاستعمار الأجنبي منذ ألف سنة، وهو ما كانت الفتيات المقيمات في الوطن يعرفنه جيداً ويترددن بالتالي في أعتناق حلم يكاد يكون مرادفاً للسراب.

* ثانياً: تقول أدفيك في مقدمة الكتاب أنها رفضت لقاء سعادة بعد عودته إلى الوطن سنة ١٩٤٧، إحتراماً منها لارتباطه المصيري بزوجته وطفلتيه،

وكانت تعيش يومذاك في مكان قريب من محل إقامته في رأس بيروت، وتعيل ولديها سرمد وسناء شيبوب بعد الكارثة التي حلت بزوجها المهندس الشاب توفيق شيبوب وقد إغتاله سفاح مهووس له عدة سوابق عام ١٩٤٤، فكان ذلك القاتل المحترف أول مجرم أعدم شنقاً في عهد الاستقلال.

وليس المهم أن تكون أدفيك الزوجة الوفية لذكرى حليلها المقتول والأم الحريصة على تشريف حضانة ولديها اليتيمين بالسمعة الطيبة واجتناب الهوى، قد رفضت ذلك اللقاء الذي كان يمكن أن يؤدي إلى علاقة تخرّب العائلتين وتسقط هالة المناقبية المثالية التي تميز بها سعادة وألزم بها محازبيه... بل المهم هو أن «الزعيم» لم يستأنف سعيه إلى ذلك اللقاء، ولم يصر عليه لسببين:

الأول عائد إلى اقتناعه بأن حبه لادفيك مات مع الشباب (كان في الثانية والثلاثين يوم عشقها) وأن ذلك الحب لم يعدُ كونه كما ذكرت أعلاه، غمامة صيف طاحت بها الزوبعة في حومة الأيام.

أما السبب الثاني، فيعود إلى نفسية سعادة الذي كان يؤلّه «المطلق» وينفر من «النسبي». وهو في ذلك نقيض جبران الذي تحمل رسائله إلى ماري هاسكل صديقته الأميركية الثرية ذات الفضل الكبير على ثقافته الغنية وأبداعه الفكري والأدبي[٢]، حباً يشبه إلى حد ما عقدة «أوديب» وتختلط فيه عاطفة الأمومة بشهوة الجسد، بينما تحمل رسائله إلى مي زيادة[٣] حباً عذرياً مثالياً يعترض استهلاكه بعد المزار ويمتزج فيه الحنين إلى الوطن بالأنين العاتب على ظلم القدر.

* **ثالثاً:** يكتشف قارئ الكتاب جوانب كانت غامضة من شخصية أنطون سعادة عبر أسلوبه الرومنطيقي السلس في رسائله. فهو لم يترك خواطر أدبية شعراً أو نثراً، كما فعل بعض القادة والفاتحين وأصحاب الرسالات القومية، أمثال الشعراء الفرسان العرب والفرنجة، ومعظم الملوك والخلفاء والسلاطين في الشرق والغرب، لكن رسائله إلى أدفيك اظهرت خلف قناع الزعامة والقوة والمنعة، تسليماً إنسانياً رائعاً وثورة داخلية عارمة، رافضة للعقلانية أحياناً، وراغبة في استنزاف العاطفة اذعاناً لسلطان الجمال وجاذبية الحب، وهو جديد يثبت أن الرجل كان أشبه بقيصر الذي ركع في عبودية العاشق أمام كليوبطرة، وليس كما صوروه خطئاً وظلماً، بأنه ذلك الفاشي النازي الذي لا يؤمن إلا بمنطق القوة، ويكره ما بين الفتح والموت من لذة الاستسلام للعشق والحلم والنشوة والسكينة.

* * *

ولست أذكر في أي حال أن هنالك

امرأة شرقية تجرأت على نشر ما نشرته أدفيك جريديني شيبوب من رسائل حبيب لها خلال حياتها. فهي في ذلك رائدة تستحق وسام السفور. سفور القلب، وليس فقط سفور الوجه...

وأنا بصفتي صديقاً لإدفيك، كنت أتمنى لو نشرت هذه الرسائل قبل أربعين سنة. أذن لتهافت عليها المعجبون ممن يسعون إلى التشبه بالعباقرة والعظماء، وما أكثرهم، فاختارت أليفا صالحاً تجتنب في حماه مرائر العزلة بعد «الصبى والجمال والأمل المنشود»، وتحتل بما لقلبها الكبير من بوارق الألمعية ومواهب الإبداع، بساطاً أرحب في رواق التاريخ.

١٩٩٧/٩/٢٠

---

(١) كتاب «رسائل حب من أنطون سعادة إلى أدفيك جريديني» - منشورات «موشن للدعاية والتسويق» - بيروت، ١٩٩٧.

(٢) «رسائل الحب بين ماري هاسكل وجبران» - جمع وتنسيق فيرجينيا حلو، تعريب الأب لوران فارس، مراجعة يوسف الحوراني - الدار الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت ١٩٧٤.

(٣) «الشعلة الزرقاء. رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة» - تحقيق وتقديم سلمى الحفار الكزبري وسهيل بشروئي - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق ١٩٧٩.

شهادة من صديق في عيد بلاده

منذ أن عادت الخطوط الجوية السعودية إلى بيروت مطلع هذا العام، بدأ الاهتمام السعودي باستقرار لبنان واستدراك مصيره ينتظم في «روزنامة عمل» بعد «إعلان المبادئ» الذي تجلى في «وثيقة الوفاق الوطني» الصادرة عن مؤتمر الطائف سنة ١٩٨٩، والتي لم يتحقق من بنودها إلا وقف القتال وإنهاء حالة الحرب.

فكانت فاتحة الروزنامة زيارة ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وهي أول زيارة قام بها مسؤول سعودي كبير إلى لبنان منذ بدء الصراع الدامي على أرضه سنة ١٩٧٥.

ثم تم تدشين المدينة الرياضية التي أسهمت الحكومة السعودية اسهاماً رئيسيا في ترميمها، وحضر التدشين الأمير فيصل بن فهد المسؤول عن رعاية الشباب في المملكة ورئيس الاتحاد العربي للألعاب الرياضية. كما علم في حينه أن الأمير عبد الله بن عبد العزيز هو الذي تمنى على المسؤولين اللبنانيين المحافظة على التسمية الأصلية لذلك الصرح الأولمبي، أي «مدينة كميل شمعون الرياضية»، فحسم بفتواه البعيدة النظر، الخلاف التافه الذي كان قائماً حول هذا الموضوع.

وقد زار لبنان في هذه الفترة أيضاً الأمير خالد الفيصل حاكم عسير والمشرف على جائزة الملك فيصل للآداب والعلوم، كما وفد على العاصمة اللبنانية عدد من الأمراء والأعيان ورجال الأعمال السعوديين خلال الصيف الحالي لم يسبق له مثيل في الأعوام التي أعقبت السلم الأهلي.

وفي سياق «روزنامة العمل» هذه اقدم صندوق التنمية الإسلامي على تمويل عدد من المشاريع الحيوية، فوقع الموفد السعودي باسم هذه المؤسسة المانحة الشيخ عبد العزيز الصقير عقوداً بمبالغ تفوق المئتي مليون دولار مع مجلس الإنماء والإعمار، وفي عداد المشاريع التي خصّصت لها هذه المبالغ، أوتوستراد الدامور ـ الجية، وأوتوستراد كفر حزير ـ البحصاص عند مدخل طرابلس، وجسر العدلية ومستشفى بيروت الحكومي، ومستشفى زحلة... إلخ.

وتأتي زيارة الأمير سلمان بن

عبد العزيز للبنان، فتعيد العلائق بين البلدين إلى شبابها الأول، وتؤسس للمرحلة الجديدة بعداً فكرياً وثقافياً واجتماعياً آخر يتميز عن البعد السياسي والقومي بطابع إنساني فريد.

فالأمير سلمان هو أقدم ملك غير متوج في جزيرة العرب، يحكم الرياض عاصمة الملك عبد العزيز منذ أربعة عقود. وقد عاصر جميع العواهل السعوديين إلى هذا اليوم، ويعتبر المقدّم في شرعة القبائل بين أمراء الخليج العربي وشيوخه الذين يعودون إليه قبل أي مرجع آخر في الشؤون المصيرية، لأنه سيد وادي حنيفة حيث تقع بلدة الدرعية في إطار سلطته الإدارية، وهي موطن الإمام محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي الذي ينتمي إليه معظم حكام الإمارات الخليجية المجاورة.

وقد حول الأمير سلمان مدينة الرياض خلال ولايته عليها من كومة أطيان بدائية غارقة في رمال الصحراء، إلى عاصمة عصرية تباهي بشواهد عمرانها، وناطحات سحابها، وبهاء حدائقها، وغنى مرافقها، أحدث المدن وأكثرها تطوراً في العالم.

ثم إن هذا الأمير الذي عشق بيروت في روق الشباب، وتألق في مجالسها ومجتمعاتها الراقية، محض اللبنانيين ثقته منذ الخمسينات والستينات، وأولاهم كل رعاية، حتى ليصح القول أن وراء كل مشروع قام به سلمان بن عبد العزيز في الرياض، يداً لبنانية أفسح لها الأمير في كنفه ورعايته.

وأشهد للحقيقة بأمانة كلية عندما أقول: إنه ما من كاتب أعسر، أو شاعر أقوى، أو صحافي أفلس، أو جريدة رزحت بأعبائها، أو مجلة عثرت في مجالها، أو مؤسسة علمية أو ثقافية نضبت مواردها، أو دائرة تربوية، أو جامعة أو مدرسة نكبتها الضائقة المادية، في أمة تستهتر بالفكر والنبوغ، وتهزأ بالعبقرية، وتسحق المتفوقين، إلا وكان سلمان بن عبد العزيز أول من خف إلى نجدة هؤلاء جميعاً وإسعافهم على استنهاض عزائمهم بما تيسّر من ماله الخاص وأموال إمارته عند المقتضى.

ولم تقتصر نجدة الأمير في هذه الميادين على لبنان، بل كان عوناً للمثقفين والإعلاميين في سوريا والأردن ومصر والعراق والمغرب العربي وأوروبا. وذلك من منطلق إيمانه العميق بأن مثلث «العلم والتعليم والإعلام» هو السلاح الأمضى الذي يتعين على العرب امتلاكه لتغيير ما بأنفسهم قبل أن يغيّر الله ما بهم، وأن توعية الأمة وتعبئة نوابغها وتنشيط قواها الروحية والفكرية هو ما يدفعها إلى الأمام في مواجهة عدو يحاربها بالسلاح المعنوي الذي لولاه لما تمكّن سلاحه المادي، كائناً ما كان امتيازه، أن يفتك بها

ويتحكم بمصيرها، دون أن يكون لها في انقلاب الدهر سميع أو شفيع.

إنها ليست قصيدة مدح أرفعها في المناسبة إلى أمير الرياض. ولكن ما تعمّدته اليوم في الكشف عن طوية هذا الرجل وسيرته، هو استحضار صورة بيانية لصفات الإمارة الراشدة ومثلها العليا أبعث بها إلى طغمة «الأمراء» الماكيافيليين من طواغيت المال وحيتان الشراهة في بلدي، أولئك الذين جاوزوا الحد والمدى في نهب خيرات الوطن، وهم يبحثون في أكياس الفقراء، وقد حوّلوا معظم اللبنانيين إلى فقراء، عن بقايا من العفن والنتن والملح يضيفونها إلى ما زرعوه في الأرض من جُفاء القذارة، كي لا تنبت، أبداً...

وأنا، فيما أعتذر للقارئ عن استطراد جاء عفو الخاطر هاتفاً من دخيلة الوجدان، قائلاً: شتّان بين هذه الماكيافيلية وتلك الأريحية، أعود فأذكّر بأن لبنان أكبر وأخلد في ضمائر أشقائه المخلصين من دولة دائلة ومحنة زائلة، وذلك بفضل رسالته التوحيدية الخالدة.

وليس أدل على هذه الحقيقة من توقيت الأمير زيارته لبنان قبيل «اليوم الوطني السعودي» الذي تحتفل به المملكة في ٢٣ أيلول (سبتمبر) من كل عام.

ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٣٢، وحّد الملك عبد العزيز نجداً والحجاز، وأعلن قيام دولة جديدة باسم «المملكة العربية السعودية».

وعلى أن الأمير سلمان سيغادر لبنان يوم الاثنين المقبل في ٢٢ أيلول (سبتمبر) للمشاركة في اليوم الوطني لبلاده في الرياض، إلا أنه قال رداً على سؤال صحفي طالبه السائل من خلاله أن يحتفل بهذه المناسبة في لبنان:

«إن إجراءات توحيد المملكة تمت في الثلث الأخير من أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٢. وقد تم فيما بعد تعيين ٢٣ أيلول (سبتمبر) يوماً وطنياً بطريقة استنسابية. لذلك، فإن وجودي هنا من ١٩ إلى ٢٢ منه هو بمثابة احتفال بهذه الذكرى في لبنان الحبيب الذي يحمل هو أيضاً رسالة التوحيد دون التفرقة، وقد انتصر بوحدة شعبه على مؤامرات الفتنة والانقسام. ولا ننسَ أن لبنان كان أول من دعا لوحدة الصف العربي والتعاون المثالي بين الأخوة العرب منذ القرن التاسع عشر. ونحن نتمنى أن يظل قدوة للعرب جميعاً في تضامن أبنائه ووحدتهم الوطنية عملاً بقول مأثور عن الملك عبد العزيز: لو لم يكن لبنان موجوداً لوجب على العرب أن يوجدوه».

١٩٩٧/٩/٢٠

«لبنان أولاً» في مسرح هافل العبثي

أسَدُ الرُّخام وإنْ حكى في شكله
شكلَ الغضَنْفَرِ ليس بالفرّاسِ

إيليا ابو ماضي

لا نعرف من أي كوكب هبط علينا رئيس الجمهورية التشيكية الحالي ورئيس تشيكوسلوفاكيا السابق السيد فاكلاف هافل، كما تسمّيه الصحافة الناطقة بالفرنسية، أو ڤاتسلاف هافل، كما تسمّيه الصحافة الناطقة بالإنكليزية، أو ڤراتسلاف (Vratislav)، كما يسمى باللغة التشيكية ذات الجذور الجرمانية السلافية، وذلك على اسم الملك ڤراتسلاف الثاني الذي عاش في القرن الحادي عشر للميلاد ومنح اليهود المضطهدين في أوروبا امتيازات خاصة في براغ عاصمة ملكه.

كذلك لا نعرف هل أن وصوله إلى بيروت بعد يومين من مغادرة السيدة مادلين أولبرايت إلى واشنطن، كان مجرد مصادفة، أم أن زيارته تندرج في إطار التنسيق وتوزيع الأدوار مع مواطنته السابقة السيدة أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية.

لكننا نعرف بالتأكيد أن تشيكوسلوفاكيا السابقة التي تتألف الجمهورية التشيكية الحالية من ثلث مساحتها، كانت إحدى الدول الخمس الأولى التي اعترفت بإسرائيل عام ١٩٤٨، وأن معظم الأسلحة التي تدفقت على عصابات «الهاغانا»، و«شترن»، و«الأرغون»، منذ العام ١٩٤٦، لاحتلال فلسطين جاءت من تشيكوسلوفاكيا إحدى أهم الدول الشهيرة في معالجة الصلب وصناعة السلاح في أوروبا.

ونعرف كذلك أن الجمهورية التشيكية الحالية ترعى إلى اليوم في مدنها الرئيسية، براغ، وبرنو، وبراتسلاڤا، وغيرها، اكبر جالية يهودية في العالم بعد الولايات المتحدة وروسيا، وأن هذه الجالية هي التي موّلت شراء السلاح عام ١٩٤٧ لغزو فلسطين، وهي التي موّلت ثورة المجر عام ١٩٥٦ بقيادة إمري ناجي والكاردينال مندزنتي، وثورة دوبتشيك في تشيكوسلوفاكيا نفسها عام ١٩٦٨ ضد الهيمنة السوفياتية.

كما نعرف في الوقت نفسه أن الرئيس هافل كاتب وشاعر مسرحي ملتزم حارب النظام الشيوعي حرباً لا هوادة فيها، وعبر من حلبة النضال السياسي إلى

سدة الرئاسة في بلاده بمساعدة الغرب بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وانهياره. لكنه تأثر في مسرحه العبثي المظاهر والانقلابي المرامي، بالكاتبين اليهوديين التشيكيين، يروسلاف هاسيك (١٨٨٣ - ١٩٢٣) صاحب رواية «الجندي التشيكي الشجاع» التي تسخر بأسلوب الهزء والتحقير من فضائل الجندية، ومعاصره الكاتب والشاعر فرانز كافكا الذي تنطوي مؤلفاته على ازدراء بالوجود البشري وتركيز محبط على تفاهته.

ونعرف أخيراً أن الرئيس هافل صديق شخصي للسيدة أولبرايت التي زارت الجمهورية التشيكية في تموز الماضي، وقصدت مدافن اليهود القديمة في براغ باحثة عن ضرائح لأفراد من عائلة كوربل اليهودية التي تنتمي إليها في الأصل، قبل أن تصبح كاثوليكية ثم بروتستانتية في أميركا.

وقد عثرت أولبرايت على مدفن جديها لأبيها إرنست وأولغا كوربل بين قبور اليهود الذين قتلوا على أيدي النازيين في الحرب العالمية الثانية. وبالغ الرئيس هافل في تكريمها حيث قلّدها ارفع وسام في بلاده هو «وشاح الأسد الأبيض» (...) تقديراً للجهود التي بذلتها في ضم الجمهورية التشيكية إلى حلف شمال الأطلسي.

وفي عداد القليل الذي نعرف من الكثير الذي لا نعرف أن الرئيس هافل معجب بإسرائيل التي كانت أول بلد أجنبي زاره عام ١٩٩٠ يوم أصبح رئيساً لتشيكوسلوفاكيا. لذلك لا نستغرب أن تشمل زيارته المنطقة اليوم دولة إسرائيل التي يعتبرها صديقة بامتياز، والمملكة الهاشمية صديقة الصديقة، والخيمة العمّارية القائمة في حمى الصديقة، والتي يحكمها أبو عمار بصفته «تشيرمان» (Chairman) أي «صاحب الكرسي»، لا بصفته «رئيساً» صاحب دولة.

ولكننا نستغرب فعلاً أن يكون الرئيس هافل حشر لبنان هكذا في جولة خص بها إسرائيل واثنتين فقط من الدول العربية الصديقة لإسرائيل. فقد كنا نفضّل، لو أن الهدف من جولته اقتصر على المجاملة والتعبير عن الصداقة وإبرام الاتفاقات الثقافية والاقتصادية، وأن تأتي زيارته للبنان مستقلة عن زيارة أي بلد آخر في المنطقة. غير أنه أعلن في أكثر من مناسبة خلال جولته، أنه يسعى هو أيضاً إلى إنقاذ عملية السلام ومعاودة مفاوضات السلام.

وما دام الأمر كذلك، فلماذا استثنى الرئيس هافل سوريا من جولته، وهو يعلم حق العلم إنه لا سلام في الشرق الأوسط ولا مفاوضات سلام ولا عملية سلام بدون سوريا، وأن الموقفين اللبناني

والسوري من هذه المسألة متلازمان لا ينفصلان، فقد يختلف اللبنانيون والسوريون على كل شيء بحكم الخصوصيات الكيانية والنظامية، وبحكم الاتجاهات الفكرية والثقافية، أو الفوارق الاجتماعية والمصالح السياسية والاقتصادية... ما عدا حقيقة أساسية عمّقتها تجارب نصف قرن في الضمائر والأذهان، لا يمكن أن يختلفوا عليها أيّاً تكن مشاربهم وانتماءاتهم، وهي أن أي انفصام بين لبنان وسوريا في مواجهة العدو الإسرائيلي أو التفاعل معه حرباً أو سلماً، سيؤدي إلى انهيارهما معاً ويخضع المنطقة بأسرها للإمبريالية الصهيونية التصفوية الهادفة إلى قيام إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات.

لكنه يبدو أن مشروع «لبنان أولاً» يختفي حيناً ثم يظهر بحلّة جديدة كلما أدلى فريق ديبلوماسي نافذ بدلوه في بئر القضية الميداء أو تطوع لسبر أغوارها السحيقة وفتح أبوابها المرصودة.

ولا يستبعد المراقبون الحرفاء الذين ألفوا تحليل الرموز والألغاز وتعوّدوا فكّ الأرصاد عن مغزى الكلمات والإشارات، أن تكون «التغييرات الكثيرة» التي وعدتنا بها السيدة أولبرايت، والتي اقترنت بعد أيام قلائل بإعلان هاڤل أنه مستعد لاستضافة أي مفاوضات للسلام في بلاده، بمثابة تلويح لبعض السياسيين اللبنانيين خريجي مدرسة «قم لأجلس مكانك»، بمفاوضات في براغ على طريقة أوسلو تحرج دمشق إحراجاً بالغاً، وتضعها أمام خيارين أحلاهما مر. فإما الانسحاب من لبنان وإما المواجهة العسكرية.

١٩٩٧/٩/٢٧

أحزان الخريف

ردّ على رسالة وردتني من لبنانية
مقيمة في باريس منذ أربعين سنة.

في الزمن الرمادي الحائل والفلك الترابي الزائل، تتناهى ظلال الخريف وترقد في الأطلال.

وتسألين حبيبتي، عن الورق الأصفر والغمام الأربَد والنسم الأبرد والطيور المهاجرة، وقد نضج التين والعنب واحمرّت خدود التفاح، والتفّت الأودية بعباءة من نسيج الخالق لونها ألف لون؟

وتتلهفين من دارك الباريسية الآمنة لخريف بيروت، ودفء سماواتها المغرورقة بالشفق، والقبلة الحمراء يطبعها البحر على وجنة الشمس في الأصيل وهو يعاقر خمرتها الذهبية مستسلماً؟!

قرأت رسالتك بشغف، وطويتها على دمعة خرساء طيّ الذكريات الخالدة في الشغاف. وتمثّلتك لحظة في خيالي، كما رأيتك منذ عامين على ضفاف نهر السين، وقد طفح البهاء من وجهك الخريفي الطاعن في الستين، فرحت استظهر الأبيات التي أهديتها إليكِ مردداً:

قصّري العمر بالوصالِ وتيهي
لا تخافي غداً ولا ما يليه
فالخريف الذي عرفتكِ فيه
ودّ لو يشتريه منكِ الربيعُ

لست أدري عن أيّ بيروت تسألين، ولا بأي خريف لبناني تحدّثين، أو إلى أي مرتَبَع خريفي حالم تتلهفين يلهبك الحنين؟!

لو رجعت اليوم إلى هذه الأرض لما ابتلّت جوارحك من هرولة الجداول وعندلة البلابل ونفح الخمائل، ولا انشرح صدرك للفرح في عيون الأطفال والنور في وجوه الشيوخ والأمل في قلوب الشباب... فالخريف الذي نحن فيه خريف لا يحول ولا يزول... خريف لا ربيع بعده. وتمر الفصول بنا مرور الأشباح المهزولة والطيوف المسحورة بالقبور!

هنا في أرض سادوم، لا مكان لقدود الخيزران وسعف النخيل بين أعمدة الصلب وغابات العمائر الغبراء. فالنبات الوحيد هو من صفائح الإسمنت والحديد، والبشر الذين تحولوا تدريجاً، من كائنات يشبعها الحب والإيمان والعمل والإبداع، إلى مخلوقات عجائبية تمضغ وتجترّ

مأكولات بلا طعم ولا خواص ثم تطرحها نفايات... هؤلاء الآدميون من خلائف الشراهة والزنى، مسخوا الشطآن الزاهية الزرقاء جبالاً من سقيط الأمعاء والكروش ومستنقعات من الأملاح الباثقة والصديد المعلّب!.

أوراق الشجر الخضراء والصفراء والحمراء تبدّلت أكياساً معبأة بالقذارة فاغرة أحشاءها على الأرصفة للقطط والكلاب الشاردة تلتهم «خيراتها» التهام الجوارح والضواري للجيف النتنة في العراء.

والغمائم التشرينية التي بعثرها النّداف الأعظم في سماء الخريف، تصدت لها مداخن المازوت وزوابع النقع المتصاعد من ولائم الأعمار، فباتت ترشح بأنداء زيتية قاتمة وأبخرة زئبقية قاتلة تخطف الأنفاس وتقتلع الحياة من شعب الصدور.

أما النسائم المنعشة التي تقولين أن عطرها متغلغل والج في تلابيب الذاكرة، فقد أبادها الفحيح الملوث يتقياه التنين الصناعي بانتظام، من نهر الموت إلى معامل شكا، ومن كهوف الضاحية الجنوبية إلى مكبّات الزهراني.

وأما التين، فقد غلّفته الكسارات بكفن أبيض من مساحيق الصخور الشهيدة، فيما العنب لا يزال حصرماً لم يبتكر حلاوته صيف عطلت شمسه رطوبة يفضّ عذريتها البريئة شبق الدخان الفحل من ريف الجبل إلى سيف البحر... وأما التفاح الذي كانت تفوح كفوحه خمرة الحسن بن هاني في قوله:

سلافٌ دنٍّ إذا ما الماء خالطها

فاحت كما فاح تفاحٌ بلبنانِ

هذا التفاح ذو الخدود الملاح، يتساقط بلا قطاف، أو يتنزّى ألماً ويتضور قهراً في صناديق العفن على أرصفة الموانئ المنسية، قبل أن يرتجع خائباً إلى منشئه حيث يلقى بعضه للأبقار، وبعضه لسوائم الكورتزون، ومعظمه للخنازير!!

لقد هربت من سمائنا طيور أيلول العابرة وحلت محلها طيور إسرائيل الكابرة، تخترق جدار الصوت، فتخترم النفوس الحائرة والقلوب الصابرة والعزائم الخائرة كلما ارتاد الضحى. ويختنق النعيب في حلوق البوم الذي يسكن اليباب، والعواء الأجش في مخاطم الذئاب عبر الهضاب...

ثم إننا تعوضنا عن السيدة العذراء بالمجدلية أولبرايت.

وعن النبي محمد بقارون العصر ولفنسون.

وعن السيد المسيح بالإله مايكل جاكسون.

وحوّلنا كل مليح إلى قبيح، وكل

ربيع في أرضنا إلى خريف!..

فسلام على كل شهيد سقط دون أسوار طروادة... أعني بها لبنان... من سناء محيدلي إلى هادي نصر الله. وطوبى لهؤلاء الذين يقول هوميروس في الألياذة أنهم لن يشهدوا ذلّ الوطن.

أنا لست كافراً، ولا يائساً، ولا مستسلماً، يا حبيبتي. لكنها أحزان الخريف... فلا تصدقيني...

وقولي مع الشاعر القديم:

خَفِّضِ الجأشَ واصبِرَنَّ رويداً
فالرزايا إذا توالتْ تَوَلّتِ

١٩٩٧/٩/٢٧

السيف الذي لا يقطع يقتل صاحبه

ونبكي حين نقتلكم عليكم
ونقتلكم كأنا لا نبالي

شاعر من بني عقيل

عندما يعجز المرء عن تحقيق ذاته بالتزام المثل العليا وسلوك الطريق الصعب نحو الأهداف السامية في الحياة، يجنح معظم الأحيان إلى الانتقام من نفسه تشفّياً، ويصبح أسير عاداته السفلى وعيوبه الطاغية.

فالخاسر في تجارته كثيراً ما يتعوّض بالمجون. والفاشل في مهنته يميل إلى الارتزاق بالحيلة والكدية. والخائب في حبّه يتوق إلى معاقرة الخمر. والهارب من ضميره يحترف الميسر. والخائف من غضب ربّه يتزندق.

وما ينطبق على الأفراد في هذا المجال ينطبق على الأمم والجماعات. فالشعوب التي لا تنشد الأهداف الرفيعة والمثل العليا، ولا تتمرس بالقضايا الكبرى أو تحمل الرسالات الخالدة، تغرق في اليأس والإحباط، وتوغل في ضروب الفتن وذنوب الشقاق، فيصرفها الجدل عن العمل والتذمّر عن التجمّل والنفاق عن الأخلاق.

ومن المؤسف أن يكون معظم اللبنانيين، حكاماً ومحكومين، يخبطون في هذا المستنقع الفاسد خبط المتصارعين تحت الشمس للسيطرة على بئر في صحراء، يطرحون في أعماقها جثث قتلاهم، حتّى إذا تمكّن أحدهم من الانتصار على الآخرين، فأقبل يبترد ويشفي غليله من ماء تلك البئر، مات مسموماً بخمير الجثث المتحلّلة في قعرها.

أذكر، فيما أذكر، بالمناسبة، أحد الأفلام الكلاسيكية الخالدة في تراث الفن السابع، بطله الممثل السلفي الكبير همفري بوغارت، وعنوانه «كنوز سييّرا مادره» (Treasures of Sierra Madre). وهو يروي حكاية أربعة من الأميركيين قصدوا نهراً في المكسيك يختلط بحصبائه مسحوق الذهب. فما انفكوا يعملون كادحين في ظروف قاسية، حتى صوّلوا كميّات وافرة من المعدن الثمين عبّأوها في أكياس وحمّلوها ظهور البغال. لكن كان في نيّة كلّ منهم وفي دخيلة نفسه أن يقتل الآخرين للاستيلاء على حصصهم من تلك

الغلّة النادرة.

وفي طريق العودة المحفوفة بالمخاطر، تمكّن أحدهم (بطل الفيلم بوغارت) أن يصفّي زملاءه ويستأثر بالذهب. ثم وقع ما لم يكن في حدود ظنّه وحسبانه. فقد برزت له في بادية مقفرة عصابة لصوص أمطرته وابلاً من رصاصها حتى سقط يتخبّط بدمه. ومزّق الرصاص أكياس النضار على ظهور البغال التي شردت لا تلوي على شيء، فتناثر المسحوق الأصفر على الرمل في مهبّ عاصفة هوجاء، وذهب الذهب مع الريح...

حقائق ليتها أكاذيب

لا أعرف لماذا تبرز تباعاً في ذاكرتي أحداث هذا الفيلم كلّما عاينْتُ صراع حكّامنا وظلمهم للمواطنين وظلم المواطنين لهم. فالذي يدخل الحكم في لبنان شجاعاً حسن النيّة رائداً طموحاً كبطل الفيلم بوغارت، سرعان ما يتحوّل جباراً عنيداً مستأثراً مستكبراً لا يسأل عن أحد ولا يلوي على شيء، حتى يرتمي على قارعة الصالونات وينتهي معه كلّ شيء.

إنني لا أقصد حاكماً لبنانياً معيّناً بهذا الكلام، ولا سيّما الرئيس رفيق الحريري الذي يتعرض مع الأسف لحملات كثيرة مغرضة. بل أسأل الله أن يسدّد خطاه ويقوّم أخطاءه، فلا يصل إلى منعطف خطير كالذي تحدّثت به يطيحه كما أطاح غيره. فقد استمعت إليه في المقابلة التلفزيونية الأخيرة التي دامت أكثر من ثلاث ساعات، وأكبرت فيه الصراحة والشجاعة والمضاء. لكنني أودّ في المناسبة أن أذكّره ببعض الحقائق اللبنانية المخزية التي لا بدّ من إزالتها بإجراءات ثورية ليستقيم الميزان ولا يقول دولته بعد فوات الأوان:

أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا
ليوم كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

* الحقيقة الأولى أنّ اللبنانيين يذكرون لبنان ألوف المرّات كلّ يوم، في أحاديثهم وكتاباتهم وصلواتهم ومؤتمراتهم ومؤامراتهم ومآدبهم ومنادبهم، حتى ليفوق ذكره عندهم ذكر الله سبحانه وتعالى. لكنّ معظمهم لا يؤمن بلبنان على الإطلاق! فهنالك لبناني عربي، ولبناني سوري، ولبناني أميركي، ولبناني فرنسي، ولبناني إيراني، ولبناني روسي، ولبناني عراقي، ولبناني مصري، ولبناني سعودي، وحتى لبناني إسرائيلي!..

* والحقيقة الثانية أن اللبنانيين بوجه عام لا يثقون بالدولة، بل يعتبرونها عدوّ الشعب لفرط ما كابدوا من طغيان الدول وفساد الحكّام من أيام العثمانيين

إلى يومنا هذا. وأوّل صورة ترتسم في أذهانهم عند ذكر الدولة هي صورة الأخطبوط الإداري الذي يلتفّ على أعناقهم، يبتزّ أموالهم وينهب خيراتهم باسم القانون، ولا يقدّم لهم في المقابل إلاّ امتياز التسكّع والتسوّل على أبواب النواب والوزراء الذين يدخل معظمهم قلاع السلطة وهو أفقر من ذئب يزدرد لعابه في الجليد، ويخرج منها بأموال قارون.

* والحقيقة الثالثة أن اللبنانيين المعدمين وحدهم، أولئك الذين خلقوا بعد قسمة الأرزاق فلصقوا بالدّقعاء، يعتبرون لبنان وطناً دائماً. أمّا معظم الميسورين، حكّاماً ومحكومين، متعلّمين وأميّين، سماسرة أو عباقرة، فيعتبرون لبنان «بابور سفر»، ولديهم شعور دائم بزواله. لذلك يحمل الكثيرون منهم جنسيتين أو ثلاثاً، ويفتحون حسابات سريّة في مصارف أوروبا واميركا، ويسعون لامتلاك شقّة على الأقل في دولة أجنبية. وفيما يلتحق أولادهم بالمدارس والجامعات في الخارج حيث تقيم عائلاتهم، تراهم يحرصون شخصياً على البقاء في البلد كي لا يضيّعوا فرصة سانحة للكسب أو للنهب، حتى إذا ما دعا الداعي فاكفهرّ وجه السماء وارتفعت أمواج البحر، تركوا «بابور السفر» ويمّموا رصيف أول ميناء في بلاد الله الواسعة.

* أما الحقيقة الرابعة، فهي أنّ معظم اللبنانيين تعلّموا الكذب والمناورة والمداورة بالمراس الطويل. وهم يكذبون في كلّ شيء. فلو وقفت بباب دكّان يبيع الفلافل مثلاً، ورأيت أكثر من مئة رغيف تخرج من ذلك الباب كل خمس دقائق ومئة يد تمتد لاختطافها، والناس يتدافعون إلى الزاد كأنهم في يوم الحشر، ثم سألت صاحب الدكّان عن الأحوال والأعمال، لأجابك فوراً: «أحوال زفت مثل ما شايف!» حتى إذا شعر أنك حصيف لا تكذّب نفسك عمّا ترى، همس بأذنك على انفراد: «لا تصدّق. أنا أشكو سوء الحال خوفاً من العين!».

ثمّ إن الكثيرين من ذوي الدخل المحدود، وحتى المعوزين منهم، يقيمون الدنيا ويقعدونها لزيادة ألف ليرة على ثمن البنزين، لكنهم لا يتورّعون عن المراهنة بعشرين ألف ليرة في سباق الخيل أو لعب «دقّ المحبوسة» بخمسة آلاف.

* وأمّا الحقيقة الخامسة، فهي أنّ اللبنانيين عموماً، يعتبرون الصلف والاستعلاء من شروط حفظ الكرامة، وهم يؤثرون التنبلة على «البهدلة» والكسل الأرستوقراطي على العمل البروليتاري. ومن ظواهر الخلل في مفاهيم الكثيرين منهم أنهم يفاخرون بخدمة الضيوف وتقديم القهوة وغير ذلك من الأعمال المجانية في مجالس «البكوات»، ويأنفون من الخدمة في المنازل العادية

بأجور محترمة. ولو دعوتهم إلى ركوب الباص أو سيارة السرفيس لتوفير البنزين الذي تستهلكه سياراتهم الخصوصية لاعتبروا ذلك إهانة لهم وتحقيراً، في حين أنهم عندما يغتربون لا يرون غضاضة في ركوب حافلات المترو وباصات النقل المشترك في عواصم السيدا والسعال والأمراض الزهرية والكلاب المدللة، ولا يتأففون من أي عمل يعرض عليهم، حتى ولو كان غسل الصحون في المقاصف والمواخير، أو تنظيف المداخن في الدور والقصور، أو حتى كنس المراحيض والمبولات العمومية...

* وأخيراً لا بد من تقرير واقع ربما كان أسوأ العيوب وأقبحها، الا وهو الإثم الطائفي البغيض الذي يتحكم بالمجتمع اللبناني ويزيده تقصير الدولة أو غيابها أو سوء تدبيرها حدة وتشنجاً. هذا مع العلم أن اللبنانيين، خلافاً للاعتقاد السائد، ليسوا من الطائفية والتعصب في شيء، بدليل إنك لا تجد لاختلاف الدين والمذهب أي أثر لدى جالياتهم المنتشرة في الخارج. لكنهم في الداخل ينضوون اضطراراً وليس اختياراً في حزب الطائفة، بانتظار حزب الوطن.

آخر الدواء الكيّ

إزاء هذه المخازي التي تقابلها محاسن وفضائل جمّة تخلّق بها اللبنانيون أفراداً وتنفّروا منها جماعات، تبدو الإجراءات الثورية واجبة الوجود، وإن على حساب الديموقراطية اللبنانية المعاقة. ونذكر من هذه الأجراءات، في سياق الافتراض النظري ليس إلا، التدابير الآتية:

* أولاً: يعترف الرئيس الحريري بأن للحالة الأمنية الشاذة في الجنوب تأثيراً مباشراً على أوضاع البلاد الاقتصادية والاجتماعية، وخصوصاً على الدين العام والجباية والتوظيف المالي والعجز في الميزانية وفوضى الإنفاق إلخ.. وذلك نظراً إلى مساحة لبنان التي لا تتجاوز ١٠,٤٠٠ كيلومتر مربع، وهو عمق جغرافي ضئيل لا يقوى البلد معه على تحمل حرب استنزاف في المناطق الجنوبية المحتلة، مع كل ما ينجم عن ذلك الاحتلال من تخريب وتدمير وتهجير.

وقد تبيّن من جهة ثانية أن الهدر والتبذير هما في طليعة أسباب التردي. وانطلاقاً من هذا الاقتناع الصحيح عمل رئيس الحكومة طوال الأسبوع المنصرم على خفض الاعتمادات وصولاً إلى ترشيد الإنفاق في مختلف مرافق القطاع العام.

والسؤال الذي يطرح نفسه إزاء هذه المعالجة الجزئية للهدر، هو: لماذا لا تعالج المشكلة من أساسها، فتكون لنا حكومة مصغّرة من خمسة وزراء أو سبعة على

الأكثر، بدلاً من ثلاثين وزيراً، مع جيوش من المستشارين والمعاونين والحرّاس والسكرتيرات، وما تحتاج إليه تلك الجيوش من مكاتب ومفروشات ومخصصات وآليات وكماليات؟!

ولماذا لا نعيد مثلاً وزارة الثقافة والتعليم العالي إلى كنف وزارة التربية الوطنية بعدما ثبت أن حضورها لا ينفع وغيابها لا يضر، وكذلك وزارة التعليم الفني والمهني بعدما ثبت أن الدولة غير جادة ولا راغبة في إمدادها بالأموال التي تستحق لكي تصبح كما يجب أن تكون وزارة رئيسية في إنهاض الوطن وشبابه المتعطل؟! ثم لماذا لا نبادر إلى إلحاق وزارتي الصناعة والنفط بالإقتصاد الوطني، ورد وزارة المغتربين إلى أحضان الخارجية، والشؤون البلدية والقروية إلى ملاك الداخلية، إلخ... ما دامت هذه الوزارات وغيرها من المؤسسات العامة والمجالس والإدارات المستقلة، عاجزة عن تأدية دورها بالفاعلية المطلوبة لأسباب تتعلق إما بقلة الاعتمادات المخصّصة لها، وإما بعدم أهلية القيّمين عليها، وإما باعتبارها خلقت لأيام السلم وليس لدهياء الحروب؟

* ثانياً: يشهد التاريخ في كل زمان ومكان، بأن الأمم العريقة في الديموقراطية، عندما تخوض الحرب أو تتعرض للعدوان والاحتلال، تجتزئ من أدوات الحكم المدني الفضفاض والممارسات الروتينية للحياة الديموقراطية، فتكل أمور التشريع والرقابة على السلطة التنفيذية إلى هيئة برلمانية وطنية عُليا تقوم بوظائف مجلس النواب واللجان البرلمانية، كما تختصر الإجراءات القضائية وأصول المحاكمات إلى أبعد مدى، وتشرك العسكريين وضباط الاحتياط في تسيير العمل الإداري وتسهيل المعاملات وتنشيط الإنتاجية الإدارية وقطع دابر الفوضى والرشوة، وذلك بانتظار عملية الإصلاح الإداري التي يستحيل إجراؤها تحت الظروف الحربية الضاغطة.

فالناس يسألون عما يبرر وجود ١٢٨ نائباً يتقاضون رواتب ومخصصات في بلد عاجز عن إعادة نصف مليون مهجر من ضحايا الحرب الأهلية إلى منازلهم منذ إن وضعت تلك الحرب المشؤومة أوزارها، فيما يلوذ بالعاصمة وسائر المدن الرئيسية مليون مهجر آخر من أبناء الجنوب والبقاع الغربي يتراكمون في أكواخ الضاحية الجنوبية خصوصاً، وهم عامليون أهل حضارة كابرة وتراث عريق، لم يقصدوا بيروت وغيرها على غرار الذين يؤلفون أحزمة البؤس حول سان باولو ولوس انجلس وطوكيو، طلباً للميسر والهيروويين والدعارة والبغاء، بل

هرباً من الموت في قرى مكشوفة بلا ملاجئ، وحقول مزروعة بالفخاخ والألغام واللعب المسمارية التي تقتل الأطفال.

والناس يسالون عما يبرر وجود ٥٠٠ ألف موظف في الدولة، أي سدس الشعب اللبناني، يقول الرئيس الحريري: إن صرف عشرة آلاف منهم قد يخلق أزمة اجتماعية، في حين أن عدد موظفي لبنان في عهد الأمير بشير الشهابي الثاني لم يكن يتجاوز ألف موظف بمن فيهم أجهزة الأمن والجباية. أما في عهد المتصرفية فقد وقف عند ١٦٠٠ موظف في الجبل و٦٠٠ في ولاية بيروت. وبلغ العدد في عهد الانتداب الأول الذي شمل لبنان الكبير ١٢ ألف موظف، ويوم حصل لبنان على استقلاله سنة ١٩٤٣ كان عدد موظفيه في حدود ٢٧ ألفاً، ثم وصل في عهد الرئيس كميل شمعون إلى ٣٦ ألفاً، بمن فيهم الجيش والأمن الداخلي والمكلفون والخبراء والمتعاقدون والمتعاملون.

لذلك يقول المنطق السليم إن آخر الدواء الكيّ. والكيّ قد يؤلم، لكنّه يشفي. وفي يقين الخبراء العارفين بنفسية شعبنا وعبقريته المشهودة في حسن التخلص من الحاجة بالحيلة والاختراع، إن الدولة اللبنانية تستطيع الاستغناء عما يناهز ٣٥٠ ألف موظف من الطحالب المتعيشة في مستنقعاتها، وتحتفظ فقط بعدد لا يتجاوز ١٥٠ ألفاً من العناصر النشيطة المختصة والنافعة، بمن فيهم عديد الجيش وقوى الأمن، مع إيجاد حل شامل وحديث لسد حاجات التعليم في مختلف المراحل وتعويضات المعلمين الرسميين، بمشاركة القطاعين الخاص والعام، يعود المعلم في إطاره رسولاً وليس مجرد أجير يده على الدفاتر وعقله في الاضراب لتأمين لقمة العيش. كل هذا يمكن أن يتم دون كارثة اجتماعية أو زلزال اقتصادي، شرط أن يبدأ الحكم بنفسه، فيقلّم فروعه اليابسة وغصونه المهترئة، وشرط أن تأخذ الفأس القاطعة مداها في الجميز والسنديان قبل أن تضرب العوسج والعلّيق.

وليس أدل على هذه الحقيقة مما خبرته بنفسي مع الشيخ أبو يوسف الذي جاء سنة ١٩٦٩ من حاصبيا إلى بيروت واشتغل ناطوراً للبنانية التي أسكن فيها بحي الأشرفية. وقد سالته يومها عما دفع به إلى العاصمة. فقال: إن قرشها أسهل والحياة فيها أطيب وأهون. ولما وقعت الحرب سنة ١٩٧٥، وبدأت ذئاب العمالة تبحث عن خرفان الأضاحي في الشرقية والغربية، هرب أبو يوسف فيمن هرب من الأعصار وعاد إلى حاصبيا.

وبعدما دخل الردع العربي والجيش السوري إلى لبنان، قدم أبو يوسف لزيارتي آمناً مطمئناً، حاملاً التين والزيتون والزبيب ورطلين من لبن الماعز الشهي العذري. فاستقبلته بمنتهى

الإكرام، وكنت أكنّ له المودة والتقدير نظراً إلى أمانته ودماثة أخلاقه وروحه الجبلية السامية.

قلت: كيف الدهر عليك يا بو يوسف؟

قال: «يا أستاذ، ساترها المولى. عندما غادرت بيروت منذ عامين، لم أكن أملك شيئاً. أمّا اليوم، فعندي ١٥٠ رأس ماعز يساوي كلّ منها حوالي ١٥٠ ليرة لبنانية، وهو المعاش الذي كنت أتقاضاه شهرياً من صاحب البناية. أي إنني أملك بفضل هذا القطيع مبلغاً مقداره ٢٢,٥٠٠ ليرة لبنانية».

هكذا أصبح أبو يوسف صاحب ثروة لا بأس بها بالنسبة إلى مواطن يسكن في الريف، لأن سعر الدولار لم يكن يتجاوز يومذاك ٣ ليرات لبنانية، فبلغت موجوداته العينية إذن ما يوازي ٧٥٠٠ دولار أمريكي. وهو مبلغ يساوي اليوم ٢٠ ألف دولار إن نحن أخذنا فرق التضخم وتدنّي القيمة الشرائية للنقد في الحسبان.

ولا بدّ من إبداء ملاحظة في ضوء ما تقدّم، هي أنّه ما من لبناني طلب الوظيفة إلا طمعاً في مال سهل المنال وكسب لا يحتاج إلى جهد. ولو عاد الموظف إلى الأرض التي هجرها مستسلماً لجاذبية التنبلة أو العنترة، لوجد فيها من الخير أضعاف ما يقبضه ذليلاً في الإدارة الحكومية. ولست أنسى في أي حال ما قالته لي أمّ أحد الموظفين المرموقين منذ أيام في قرية جبلية نائية: «كيف بدّك تتأمل خير من هالبلاد. عندي سبع شباب وثلاث بنات عايشين ببيروت. شوف هالبستان المليان تفّاح وخرما ودرّاق وعريش. بستحلي واحد منهم يمدّ إيدو ويقطف عنقود عنب. لازم السرلنكي يقطفلو إيّاه. ولو صدف إنو آخذ إجازتو، بيشتروا ولادي العنب من السوق!!».

* **ثالثاً**: إن أغرب ما يصدمنا اليوم ونعجب له ونتألم، هو أن لبنان بلد فرضت عليه الحرب، وممنوع عليه أن يحارب أو يلقي السلاح. ولو كان الأمر عائداً إلى قصور أو إعاقة، لهان علينا التسليم بالأمر الواقع طوعاً وإذعاناً. ولكن البلد يرقص ويغنّي ويقيم الحفلات والمهرجانات. والفنّانة الشهوانة التي يخدّش نعيبها أذن الغراب، تقبض في لبنان من جنى فرجها قبل صوتها، خمسين ألف دولار، مقابل وصلة لا تتجاوز نصف ساعة من الغناء الطمطمائي كلّ ليلة، وهو ما لا يحصّل ربعه أديب أو عالم أو فيلسوف خلال سنة كاملة من العمل المضني والمكابدة القاهرة.

وقد تعوّدنا، ويا للأسف، أن نطمر وجوهنا في وحلة اللّامبالاة، فيما تمطرنا طائرات الدولة العبرية «المثالية» منذ عشرين عاماً سموماً كيميائية وجراثيم وباكتيريا تبتلي الناس بالعصاب

والسرطان وأمراض أخرى غريبة الأعراض، كما تنفق الطيور والمواشي وتفتك بالزرائع والغابات.

لقد رشحت بعض المواد السامة من باخرة محمّلة بالنفايات الصناعية في ظاهر حيفا منذ أسابيع، فقامت قيامة «غرين بيس» لهذا الحدث الذي «يهدد حياة المدنيين في إسرائيل(...)» لكن السيدة الوقورة «غرين بيس» التي لا تنفكّ تذكّر العالم كلّ يوم بوجود نفايات سامة في بحر بيروت، ومجرى نهر أبو علي، وعيون السيمان، وشننعير، لم تلفت العالم مرّة واحدة إلى عشرات البواخر الإسرائيلية التي تطرح نفايات عدونا على شواطئنا من رأس الناقورة إلى النهر الكبير، لكي تموت أسماكنا ويزدهر السمك التركي في أسواقنا، وهو أيضاً ملوّث بمكبات الأتراك في خليج الإسكندرون.

* * *

بعد هذا أقول للرئيس الحريري الذي يخوض معركة وجود أو عدم في صراعه مع «المجهول»، إن المشكلات التاريخية الكبرى لا تحلّ بالتراضي والحوار والوعود البرّاقة والمراهم الغرّارة. وإنه إن كان يرغب فعلاً في أن لا يتكرر مجلس العشاء الوزاري السرّي الذي باعه خلاله ١٣ وزيراً ما بين طرفة عين وانتباهتها بالثمن البخس، فقد تعيّن عليه أن يعالج الوضع المأساوي بعملية قيصرية يولد من خلالها لبنان الجديد:

١ ـ حكومة حرب تقطع الأذناب الملتوية وتستعين بالرؤوس المبدعة الخلاّقة على البلاء المقيم والخطر المتفاقم.

٢ ـ صهر الجيش والمقاومة وجميع القوى القادرة على حمل السلاح في مؤسسة عليا للدفاع الوطني تخوض حرب التحرير على أساس القرار الدولي ٤٢٥ واتفاقية الهدنة ١٩٤٩، وليس انطلاقاً من أي شعار آخر.

٣ ـ تسليم الإدارة إلى الجيش حتى نهاية الحرب.

٤ ـ إعلان حالة طوارئ إعلامية تتمّ في إطارها تعبئة الإعلام الوطني كلّه، من وزارة الإعلام إلى الصحافة والإذاعة والتلفزة جمعاء، في مؤسسة مرحلية واحدة، تتعاون مع أهل الرأي والفكر والثقافة والأوساط الجامعية ومراكز الأبحاث في لبنان والعالم، لبلورة «قضية لبنانية» و«صوفية لبنانية»، و«رسولية لبنانية»، تدخل في اقتناع الشعب وترسخ في أعماق ضميره. وهو عندئذ سيختار الكرامة الحقيقية بالتأكيد، ولن يفكر بسعر البنزين والويسكي والتبغ الأميركي، ولا حتى بمسلسل الرتب والرواتب، بل يندفع اندفاع السيل الجارف لاسترداد مكانه تحت الشمس دونما استخذاء أمام العدو ولا استنجاد ذليل بالأخ والصديق.

264

إن كان رجل الساعة قادراً على هذا، فليفعل الآن وليس غداً. وإلاّ فدونه قول المتنبي:

إذا ترحّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا
أنْ لا تفارقَهم. فالراحلون هُمُ

٤/١٠/١٩٩٧

من جبال زَبَرْبَر إلى جبل الزيتون

قد يبعد الشيء عن شيء يشاكله

إن السماء نظير الماء في الزرق

ابو العلاء المعرّي

بين عنتر الزوابري «أمير» الجماعة الجزائرية المسلحة المقلب «أبو طلحة»، وعنتر نتنياهو «أمير» الجماعة الإسرائيلية المسلحة الملقّب «بيبي»، صفات مشتركة أهمها العطش الدائم إلى الدم.

وقد يختلف أسلوب كل منهما عن أسلوب الآخر في شفاء غليله وإطفاء عطشه، لكن النتيجة واحدة. وربما وجد الجزائريون للزوابري أسباباً تخفيفية لا يجدها الإسرائيليون لنتنياهو.

وفي وجوه الشبه بين الرجلين أن كليهما يحترف القتل ويعتقد أن الإرهاب وحده قادر على مواجهة الإرهاب، كما يعتبر التنكيل بشعبه خير وسيلة لتأديب عدوه. ثم إن الغاية في عرفه تبرر الواسطة، والسيف عنده «أصدق إنباءً من الكتب...».

عنتر الزوابري هذا يتزعّم جماعة تدعى «الغاضبون على الله» في جبال زبربر، تبقر بطون الحبالى كي لا يلدن من أصلاب المسلمين كفاراً كما يزعم، لأنه يؤمن مع جماعته بأن كلّ من لا يرفع سلاحاً بوجه السلطة في الجزائر كافر يحل قتله بالساطور أو الفأس أو المنشار مع أهل بيته شيوخاً ونساء وأطفالاً.

أما عنتر نتنياهو، فهو يتزعم في إسرائيل جماعة «الغاضبين على موسى» لأن الله أوصاه على جبل الطور في سيناء، ألا يكون له إله غير الله، وألا يكذب ولا يقتل ولا يزني ولا يشهد بالزور ولا يشتهي امرأة قريبه...

وفي سياق الغضب والغاضبين، نذكر أن الصديق الأقرب إلى عنتر نتنياهو في الحكومة الإسرائيلية، هو رفائيل إيتان وزير الزراعة الذي ألّف أوائل السبعينات بتكليف من أستاذه موشي دايان وحدة كومندوس متخصصة بالقتل سمّاها «غضب الله»، استأجرت عام ١٩٧٤ في عاصمة البلد الذي اعتمد يومها سياسة «افتحوا أبوابكم»، أكثر من ٥٠٠ شقة سكنية. فلما اندلعت الحرب سنة ١٩٧٥، شرع الرماة المهرة من قنّاصة هذه الوحدة في قتل الناس بلا تمييز، في الشوارع والأزقة والأرصفة والمباني المجاورة، لتصح

التسمية ويقال إن «غضب الله» نزل فعلاً بلبنان...

كل ما حرّمه الله سبحانه وتعالى، إله موسى وعيسى ومحمد، يفاخر بتحليله العنتران. فالزوابري ساعد في قتل بطل التحرير في الجزائر محمد بوضياف، وتحول هكذا من عنيتر صغير إلى عنتر كبير. ونتنياهو من جهته ساهم في قتل ضمير الشعب اليهودي إسحق رابين، فتحول هو أيضاً من عنيتر في «الموساد» إلى عنتر بن شداد.

ولكن، إذا كان الزوابري يحترف القتل ويهتاج لرائحة الدم، فهو، على الأقل، لا يكذب. يقول سأقتل فيقتل. ويقول سأزني فيزني في سباياه الأيامى والبكارى. لكنه لا يشهد بالزور ولا يشتهي امرأة أخيه، ويؤمن بالله على الطريقة التي يتصورها بمنطق السفاح.

أما نتنياهو فيقتل ويتنصل من القتل، ويكذب ويدعي شرف الصدق. وهو لا يؤمن بالإله الحق بل بشخصه المتألّه، ويزني بمحارم أخوته، والكل يعرف ذلك في دولته.

* * *

وبعد. لو أنعمنا النظر في «الإنجاز» الذي حققه الزوابري وأعوانه في قهر بلاده وسحقها وتصويرها بصورة مسلخ بشري لم يعرف التاريخ له مثيلاً، لتبين لنا أن كل ما فعله عنتر الجزائر لا يشكل نزراً يسيراً مما فعله عنتر إسرائيل.

فكل ما ارتكب في الجزائر من فظائع ومجازر وأهوال، سوف يسقط دفعة واحدة عندما يتفق العالم على رفع يد «المجهول» عن ذلك البلد الذبيح، مثلما اتفق على رفعها سنة ١٩٨٩ عن لبنان، وسنة ١٩٩٦ عن البوسنة.

لكن ما ارتكبه عنتر نتنياهو في إسرائيل، وهي دولة ذات هشاشة وطراوة عود، بالرغم من رؤوسها النووية، ورؤوسها التكنولوجية، ورؤوسها السياسية النافذة، ورؤوسها العسكرية الجاهزة... سيظل إلى الأبد ماثلاً في ضمير الشعب اليهودي الذي لا يعرف الغفران.

فقد وصل نتنياهو إلى الحكم سنة ١٩٩٦ ونصب عينيه أهداف ثلاثة:

١ - تهويد فلسطين الطبيعية من البحر إلى النهر، وطرد الفلسطينيين، كل الفلسطينيين، منها بالتجويع والإرهاب.

٢ - استئصال حلم السلام من عمق النفس الإسرائيلية المضطربة، وإكراه «الشعب الأبدي» على الإيمان الراسخ بمبدأ «الحرب الأبدية»، لأن السلام في رأيه مرادف للزوال.

٣ - تحقيق إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات على مرحلتين: الأولى تفرض الاستعانة بالأتراك الذين بنوا هم أيضاً دولتهم على الحرب والإغتصاب، واقتسام النفوذ معهم في الهلال الخصيب.

والثانية تقضي بالتخلص لاحقاً من الشريك التركي، وبناء امبراطورية يهودية في الشرق الأدني والأوسط عاصمتها القدس.

ارصدة حكم الإرهاب

وفي أقل من سبعة عشر شهراً تولى خلالها عنتر إسرائيل الحكم، تمكن من وأد عملية السلام في مهدها، وكرّس خروج دولته على الإنتظام العالمي بصورة نهائية، مع ردّها إلى جذورها «دولة عصابات»، بعدما كانت بدأت في عهد رابين وبيريس تكتسب حداً أدنى من الهوية الشرعية في نظر أعدائها. فشهدنا على يد نتنياهو مسلسل أحداث تتجلى في وقائعها عناوين الشذوذ:

* في كانون الثاني (يناير) الماضي، عين نتنياهو المحامي المغمور روني بار - أون في منصب المستشار القانوني للحكومة، وهو من أهمّ المراكز الحساسة في إسرائيل. وقد تم هذا التعيين لحماية زعيم حزب «شاس» الديني آرييه درعي من الملاحقة القضائية بسبب الفضائح والإختلاسات المعيبة التي ارتكبها. وبعد مرور ٢٤ ساعة فقط على ذلك، عزل نتنياهو المحامي بار - أون، وعين مكانه الحقوقي الكبير المشهود له بالحكمة والنزاهة إلياكيم روبنشتاين. إلا إن الشرطة القضائية واصلت تحقيقاتها، فاستجوبت ٢٢ شخصاً من أركان الدولة، وقضت في النهاية بتجريم آفيغدور ليبرمان مدير مكتب نتنياهو، وتساحي عانغبي وزير العدل، في تلك المسألة التي عرفت بفضيحة «بيبي غيت».

* وقد أبرم نتنياهو من جهة ثانية حلفاً مصيرياً مع «المافيا» وهو في سدة الحكم، فضم إلى وزارته منذ أوائل عهده مغامراً قذراً هو اليهودي الروسي ناتان شارانسكي الذي قضى بضعة عشر عاماً في السجون السوفياتية أيام بريجينف، ثم تحول في عهد يلتسين إلى مدير لشبكات الدعارة والجريمة والمخدرات في موسكو، ولا يزال يدير إلى اليوم من موقعه في الحكومة الإسرائيلية أجهزة المافيا الروسية ويضخ اموالها السوداء في بئر حساباته المصرفية الخاصة وحسابات نتنياهو وغيره من زعماء «ليكود».

* كذلك أحاط نتنياهو نفسه بعدد من القتلة والسفاحين بحجة مكافحة الإرهاب، على راسهم ضابط سابق في الأمن العام الإسرائيلي «شين بيت» يدعى ايهود ياتوم، هو الشقيق الأصغر لقائد الموساد الجنرال داني ياتوم الذي تربطه صداقة متينة برئيس الوزراء. وايهود ياتون هذا يفاخر علناً بانه سحق بحجر ضخم عام ١٩٨٦ جمجمتي اثنين من المقاومين الفلسطينيين الذين وقعوا في قبضته.

* وفي ٩ تموز (يوليو) الماضي، صوّت الكنيست الإسرائيلي على تعديل حكومي عزل نتنياهو بموجبه رجل الأعمال القوي دان ميريدور من وزارة المال، وعين مكانه أحد أصدقائه الخلّص المحامي يعقوب نيمان لتسهيل تصرفه بالأموال العمومية. ومعروف أن نيمان هذا سبق أن خلّص عنتر إسرائيل من مآزق وفضائح موصوفة.

* ثم في ٢٣ تموز (يوليو)، صوت الكنيست بتواطؤ وتحريض من نتنياهو على قانون يقضي بأن يحصل أي قرار متعلق بإنسحاب كلي أو جزئي من الجولان المحتل، على أكثرية ثلثي الأصوات في البرلمان (٨٠ من أصل ١٢٠)، وأن يخضع القرار المذكور لاستفتاء شعبي، مما أفقد الرأي العام الإسرائيلي المعتدل كل أمل بالتسوية السلمية مع سوريا.

* وبعد فتح نفق هيرودوس في القدس، وسقوط ما يزيد على مئة قتيل معظمهم من الفلسطينيين، شرعت حكومة الليكود في توسيع المستوطنات في الضفة والقطاع، وأباحت قضم الأراضي الفلسطينية للمستوطنين المتعصبين بأسلوب تدريجي خبيث، فيما العمل يجري على قدم وساق لبناء مستوطنة «هار - حوما» على جبل أبو غنيم في ضاحية القدس الشرقية... وبعد قتل الفلسطينيين عمدا في أسواق الخليل، ونشر الملصقات المسيئة إلى النبي محمد والسيدة العذراء مريم، وتمزيق المصاحف في مدرسة اليعقوبية للبنات في شارع الشلالة الدائم التوتر بمدينة الخليل... وبعد الخرق اليومي المتواصل لنص اتفاقات اوسلو وروحها... توج بنيامين نتنياهو «مآثره الحميدة» برعاية النشاط المشبوه الذي يبذله المليونير اليهودي الأميركي ايرفينغ موسكوفيتز في إثارة الفتنة، حتى أجمعت الصحافة الإسرائيلية على تسميته «مرتكب الحرائق».

فقد مول هذا المتعصب الأحمق إنشاء المساكن لبعض المستوطنين الغلاة في حي رأس العمود بالقدس الشرقية، وهو ما اعتبره الفلسطينيون تسللاً خطيراً إلى المعقل الوحيد الباقي من الإحياء العربية في المدينة. وكاد التسلل أن يؤدي إلى مجزرة حقيقية لو لم تتدارك السلطات الأمر في اللحظة الأخيرة.

والمعروف أن موسكوفيتز هذا كان أحد الممولين الرئيسيين لحملة نتنياهو الإنتخابية في أيار (مايو) ١٩٩٦، وقد أغدق عليه يومذاك من الهبات المالية ما يشكل في حد ذاته ثروة طائلة. ومما كتبه ناحوم بارين المحرر في جريدة «يديعوت احرونوت»، أن نتنياهو كان على علم قبل أيام عدة، بما يخطط له موسكوفيتز في

رأس العمود، ولما سئل لماذا لا يرحّل هذا الرجل إلى أميركا، أجاب بخبث: «لا يحق لي ولا لأي كان أن يبعد يهودياً عن أورشليم!».

* حصار للفلسطينيين، وتنكيل وتجويع واعتقالات وتعذيب ونسف بيوت وسفك دماء... كان من الطبيعي أن تستتبع عمليات استشهادية يسقط خلالها عشرات من المدنيين الإسرائيليين بين قتيل وجريح، فيما يواصل نتنياهو حربه القذرة وإحتلاله المشؤوم لجنوب لبنان وبقاعه الغربي، غير حاقل بازدياد عدد القتلى من جنوده يوماً بعد يوم، ولا مكترث لثورة الأمهات ومعظم الرأي العام الإسرائيلي المطالب بالإنسحاب الفوري من طرف واحد. فمما قاله لأمّ مفجوعة بوحيدها في عملية الصرفند الأخيرة الفاشلة: «ابنك يا سيدتي ليس أغلى من أخي الذي قتل في مطار عنتيبي سنة ١٩٧٢، فالجيش الذي لا يحارب يترهل. والأمة التي يترهل جيشها تموت».

* يضاف إلى ذلك كله أن نتنياهو برع في اجتذاب الكراهة، حتى من جانب الدول والقوى التي تدعم إسرائيل، وذلك بسبب وقاحته واستكباره. ولكي يأخذ القارىء فكرة أوضح عن صفاقة الرجل وغطرسته، يكفي أن نشير إلى الطريقة الفظة التي واجه بها رئيس الإتحاد الأوروبي في لاهاي الوزير الأول الهولندي ويم كوك في ١٠ نيسان (أبريل) الماضي. فقد أصدرت دول الإتحاد «شرعة مسلكية» يومذاك طلبت فيها من حكومة إسرائيل أن تلتزم الإتفاقات المعقودة مع الجانب الفلسطيني في اوسلو. الأمر الذي دفع نتنياهو إلى زيارة هولندة حيث أعلن باستهزاء رفضه القاطع لتلك الشرعة، وقال أن دور أوروبا في الشرق الأدنى يجب «أن يقتصر على الدعم الإقتصادي لا أكثر ولا أقل!» وأن يكون دوراً «أكثر توازناً»، لأن أوروبا - على حد زعمه - «منحازة إلى الفلسطينيين».

وقد ثارت ثائرة الحكومات الأوروبية التي تتميز عادة بضبط النفس، لهذه التصريحات الاستفزازية. لكن وزير خارجية هولندة علق عليها بجملة واحدة كانت أبلغ من أطول وأعنف بيان حيث قال: «يبدو أن السيد نتنياهو لا يعرف أن الحكم الناجح يعتمد اللياقة الديبلوماسية في أدب المخاطبة، وأن الاستعلاء في موضع المرونة والإتزان ينفّر الأصدقاء ويكثّر الأعداء!...».

* ولعل أسوأ ما جناه عنتر إسرائيل على دولته، بعدما أخرجها من دائرة الإنتظام العالمي وعرضها للشبهات والإنتقادات المباشرة، حتى في البيت الأبيض و١٠ داوننغ ستريت، أنه قرر مواجهة النضال الوطني والقومي الذي

يسميه إرهاباً والذي يخوضه الفلسطينيون واللبنانيون لإتقاء شرّه لا لتدمير دولته كما يدعي سيادته مع الحاخامين الهستيريين السائرين في ركابه... قرر مواجهة هذا النضال «بالإرهاب الأصيل» الذي حازت فيه الدولة العبرية أرفع الأوسمة خلال خمسين عاماً، فاتخذه شعاراً لعهده، من اغتيال يحيى عياش سنة ١٩٩٦ إلى محاولة اغتيال خالد المشعل ممثل «حماس» في عمان منذ أسبوعين.

وتفيد مصادر ديبلوماسية دقيقة الإطلاع، أن عميلي الموساد اللذين يحملان الجنسية الكندية واللذين حاولا اغتيال مشعل، هما بالتأكيد المجهولان اللذان أطلقا النار قبل ذلك بأيام معدودة على الحارسين اليهودين في سفارة إسرائيل بعمان متعمّدين أصابتهما بجروح طفيفة لا تقتل! وقد مهد العميلان المذكوران هكذا «بالإعتداء الناقص» على الحارسين الإسرائيليين، «للاعتداء الكامل» على خالد المشعل بقصد تضليل التحقيق. لكن يد العناية أحبطت الإعتداء الأخير وأنقذت حياة الرجل.

وشهد شاهد من أهله

بعد هذه الجردة العمومية غيرالمتكاملة لنكبة الإسرائيليين والفلسطينيين والعرب أجمعين بحكم عنتر نتنياهو، لا بد من إعلان الحقيقة التي يجمع الباحثون والخبراء الثقات عليها، وهي أن أهداف نتنياهو الإمبريالية القائمة على العنصرية والإرهاب قد تلقى التجاوب والتأييد لدى فريق متشنج حاقد من فصيلة الرجل وعشيرته، لكن معظم البنى الأساسية للمجتمع اليهودي داخل إسرائيل وخارجها تنفر من هذا التوجه وتعتبره إنتحارياً بدليل الوقائع والشهادات الآتية:

* في ٢٥ آب (اوغسطس) الماضي ذكرت وكالات الأنباء أن نسبة البطالة في الدولة العبرية بلغت ٧,٦ في المئة من الشعب العامل حتى نهاية حزيران (يونيو) ١٩٩٧، وهي أعلى نسبة خلال الأعوام الثلاثة الماضية، خصوصاً في جنوب إسرائيل حيث نال بنيامين نتنياهو أكبر عدد من الأصوات.

كذلك ارتفعت نسبة التضخم واضطر البنك المركزي إلى رفع أسعار الفائدة، مما أدى إلى موجة إضرابات لم يسبق لها مثيل، وأعرب الإقتصاديون عن تخوفهم من هروب الأموال الأجنبية إن أقدمت الحكومة على أي خفض في سعر صرف الشاقل بسبب الإضطراب المالي العام.

ثم إن عدد السياح تدنى بنسبة ١٧ في المئة عما كان عليه قبل أيار (مايو) ١٩٩٦، وتباطأ معدل النمو من ٦ في المئة

بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩٦، إلى ٢,٥ في المئة سنة ١٩٩٧، فيما نقابات «الهستدروت» العمالية تهدد بإضرابات جديدة بالغة الخطورة.

* صرح الناطق باسم وزارة المهاجرين اريك هيلمان في ١٩ آب (أوغسطس) الماضي أن الهجرة من الإتحاد السوفياتي السابق انخفضت بنسبة ١٦ في المئة خلال ١٩٩٧، بسبب تحسن الأوضاع الإقتصادية في روسيا، وسوء الأوضاع الأمنية الناجمة عن سياسة الحكومة في إسرائيل.

* أعلن شيقا ليفي أحد كبار الفكاهيين ممثلي الكوميديا في الدولة العبرية لجريدة «الفيغارو» الفرنسية إنه رحل إلى فرنسا لأن الوضع السياسي في بلاده «يقلقه جداً» كما قال. وأضاف: «هذه البلاد تغيرت جذرياً بعد اغتيال إسحق رابين. رئيسها أميركي وليس إسرائيلياً. وفيما أهل هذه البلاد يقتلون في عمليات عسكرية من مختلف الأنواع، يجد ذلك الرجل عزاءه في استسقاء المتعصبين من أنصاره وأعدائه مزيداً من الدماء».

* أما مغني الروك عفيف غيفن الذي يتمتع بشعبية واسعة في أوساط الشبان والمراهقين، فقد رحل إلى بريطانيا وقال لصحيفة «الأوبزرفر» اللندنية: «بنيامين نتنياهو شخص فارغ وأد السلام وجلب لنا الحقد والعار. وأنا أشم رائحة البارود في إسرائيل، وأرى الدم يراق أنهاراً. يقتلون ويقتلون، ويقتلون. الكل يقتل باسم الله!».

* الكاتب المعروف افراهام يهوشوا قال لصحيفة «جيروزاليم بوست»: «البلاد تعود القهقري. وتعبنا إلى حد أننا لم نعد قادرين على البدء مجدداً من نقطة الصفر».

* والمغنية الإيرلندية سينيد اوكونور داعية السلام ألغت حفلة موسيقية كان من المقرر أن تحييها في القدس خلال الصيف الماضي، بعدما تلقت تهديدات بالقتل. وقالت صديقتها الممثلة الإسرائيلية ريبيكا ميكائيلي: «ما دام دعاة السلام مهددين بالموت، فلنترك هذه البلاد لحفاري القبور!».

* ذكرت وكالة الصحافة الفرنسية في ١٧ آب (أوغسطس) الماضي أنّ ايهود باراك الزعيم الجديد لحزب «العمل» اضطر للقيام بخمس رحلات إلى الخارج طالباً مساعدات مالية لحزبه الذي قطع نتنياهو موارده باستعمال ضغط صارم على الشركات والمؤسسات التي تموله. هذا مع العلم أن باراك أقرب إلى نتنياهو في عنتريته منه إلى بيريس في طموحه السلمي. ويرى المراقبون في محاولة نتنياهو إلغاء حزب العمل نية مبيتة تقضي بإخضاع إسرائيل لنظام الحزب الواحد.

* رفض المخرج السينمائي الأميركي برانكو لوستيغ تصوير فيلم

«عصر أكواريوس» الذي مهد له النقاد بدعاية واسعة، في إسرائيل، «لأن هذه البلاد - كما نسب إليه مدير المؤسسة السينمائية الإسرائيلية قوله - ينتشر فيها الإرهاب، ويحكمها نظام سياسي مهدد بالإنهيار لأنه خاضع لرجل لا يعرف ماذا يريد». وقد تحول الأميركيون، بالفعل إلى المغرب لإنتاج هذا الفيلم الذي كان يمكن أن يعود بفوائد مادية ومعنوية جمّة على الدولة العبرية.

* وأخيراً لا آخراً، نتوقف لحظات أمام شهادة أمّ إسرائيلية قتلت ابنتها في العلمية الاستشهادية التي حدثت بتاريخ ٤ أيلول (سبتمبر) المنصرم في شارع بن يهودا في القدس الغربية وذهب ضحيتها ثمانية قتلى وعدد كبير من الجرحى.

الأمّ هي السيدة نوريت بنت الجنرال ماتيتياهو بيليد أحد مهندسي حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ الذي أصبح بعدها من أكبر دعاة السلام الراغبين في كسب ثقة العرب وصداقتهم.

قالت نوريت التي تعرف نتنياهو منذ أيام الصبى، في اعترافات نقلتها جريدة «لوموند» الفرنسية في إصدارها الديبلوماسي الشهري (تشرين الأول - اكتوبر ١٩٩٧):

«أنا لا ألوم الإنتحاري الفلسطيني الذي قتل ابنتي سمدار ذات الأربعة عشر ربيعاً. فقد مات معها بريئاً. لكنني ألوم الذين دفعوا ذلك الفلسطيني إلى النحر والإنتحار بعدما قتلوا أولاده، وذبحوا أمه وأباه، واغتصبوا نساءه، ونسفوا بيته، واستولوا على أرضه، وشردوا عائلته!... ألوم ذلك الإنسان المنحرف الذي لا يفكر إلا بالإرهاب!... إرهاب له وإرهاب عليه!... ألوم بيبي الذي لا يمضي يوم إلا ويذكر فيه الإرهاب مئة مرة في مئة خطاب ومئة مناسبة!... هذا الرجل يجب أن يترك الحكم قبل أن يقتلنا جميعاً. تصوروا أنه المسؤول الأول عن موت سمدار، وبكل وقاحة بعث إليّ اليوم تعازيه في مكالمة هاتفية!!».

* * *

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير... وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم...).

وعسى أن يديم الله على إسرائيل هذا الفحل الزوابري العنتري كي تتساوى دولته معنا في القهقرية والإنحلال.

فقد نجد معاً أسباب الوصال في توازن الإنحلال.

١١/ ١٠/ ١٩٩٧

افكار من بلاد الأمل بلا عمل
إلى بلاد العمل بلا أمل!..

مهداة إلى السيدة مارتين أوبري
وزيرة العمل والتضامن في الحكومة الفرنسية

في مثل هذه الأيام من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٧، اندلعت الثورة الروسية البولشفية، وسالت دماء الشعب الغاضب في موسكو أمام قصر الكرملين، فأطلق على ميدان القياصرة اسم الساحة الحمراء.

وبعد ثمانين عاماً من قيام تلك الثورة بقيادة لينين، تعود القضية الاجتماعية للظهور بأضعاف ما كانت عليه من عنف المظالم واستشرائها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

ذلك أن الحلول الشيوعية التي اقترحها ماركس في كتابه «رأس المال» عام ١٨٦٧ لهذه القضية الناشئة عن تقدم العلم، وبالتالي تقدم الصناعة ونموّها المطرد في الغرب، وهي حلول نجح لينين وخلفاؤه السوفيات في تطبيقها حتى سنة ١٩٨٩، إنما اعتمدت وسائل ثلاثاً لتحقيق العدالة هي نقيض العدالة بالذات:

الأولى عنوانها التحدي: وتقوم على صراع الطبقات.

الثانية عنوانها التملك: وتقوم على نقل الملكية من الأفراد إلى الجماعة.

الثالثة عنوانها التسلط: وتقوم على استغلال الإنسان ومحو شخصيته الفردية وسحق خياره الحر.

هذه الحلول الشيوعية أسست في الواقع لنظام «رأسمالي جماعي» يصارع النظام الرأسمالي الفردي وتكتلاته. فقد نابت في إطاره مواجهة الطبقة العمالية للطبقة البورجوازية، عن مواجهة الفرد الأعزل أو الجماعة المحدودة المستضعفة من العمال والمستخدمين، لتلك الطبقة البورجوازية القوية، كما ناب المالك الحكومي في النظام الشيوعي المشار إليه، عن المالك الفرد، سواء أكان مؤسسة شخصية أو مؤسسة معنوية بالمفهوم القانوني لهذه العبارة، وأصبح للعمل رب واحد هو الدولة يحتكر المال والسلطة دون سائر الأرباب.

هكذا يتضح أن الشيوعية لم تقدم بديلاً نوعياً جوهرياً عن الرأسمالية يقتلع الظلم ويعتق الإنسان من تحكم رأس المال، بل إن هذه نازعت تلك امتيازاتها

السلطوية، وظلت النظرة «المادية» إلى التفاعل الاجتماعي هي القاسم المشترك بين النظامين ونقطة الارتكاز الأساسية لكل منهما في صراعه مع الآخر.

وكان لا بد لإحدى الفلسفتين الماديتين اللتين تعايشتا من ١٩١٧ إلى ١٩٨٩ في توازن سلبي مصطنع، أن تسبق الأخرى إلى الزوال. وإذا كانت ظروف موضوعية معينة، آنية أو تاريخية، قد أسقطت «الرأسمالية الجماعية» المتعارف على تسميتها بالشيوعية، قبل «الرأسمالية الفردية» أو الكتلوية الاحتكارية، فإن هذه تواجه اليوم ظروفاً موضوعية من نوع آخر وتحديات مستجدة لم تكن في الحسبان تهددها بالسقوط الوشيك، ما لم تجترح معجزة ثقافية روحية خلقية تحرر العقد الاجتماعي من ديكتاتورية رأس المال وجاذبية العولمة الاقتصادية.

فقد عادت المشكلة الاجتماعية سيرتها الأولى، واستقلّت مدارها السابق لثورة لينين واختراعه الضريب السوفياتي، مع فرق هائل بين توترات الأمس وتحديات اليوم. ذلك إن التطور العلمي المذهل في مختلف الميادين، وما استحدثه من تقنيات ألكترونية وطاقات إشعاعية فيزيائية لا حدود لها، أدّى إلى تضخم وتنوُّع صناعي أين منه التقدم العلمي والصناعي المراهق الذي تسبب في أواخر القرن الماضي بنشوء طبقة البروليتاريا.

فالانفجار الكبير الذي نشهده اليوم على صعيد الاختراع والتصنيع، بدّل جذرياً وسائل الإعلام والاتصال، وأحدث انقلابات واسعة في مفاهيم التجارة وحدود الأسواق ومداها الأفقي والعمودي، كما أثّر تأثيراً هائلاً في حجم الإنتاج ونوعه وأغراضه، وانعكست مفاعيله المباشرة على آلة الحكم وأدوات الحرب وروح الشرائع وأساليب البيان وأسباب الترفيه والمتعة وعادات البشر وأزيائهم ومآكلهم، حتى ليمكن القول إن الحضارة المعاصرة تخضع منذ بضعة عشر عاماً لتواتر صدمات كهربائية أفقدتها التوازن والقدرة على استلحاق المستجدات المتدافعة بسرعة جنونية يستحيل على الإنسان احتواء وتيرتها والسيطرة عليها.

وعوض أن يلتزم رأس المال، في غمرة هذه التبدلات، دستوراً مناقبياً قادراً على مواكبة التغيير والتكيف بحسب مقتضياته الراهنة والآتية، نراه يمعن في استبداده الهستيري الجشع العائد إلى أزمنة الرق وعصور الظلام، فينشئ في عالم الفقراء شركات استغلالية محدودة مع حكّام الصدفة والعمالة تنهب البقية الباقية من خيرات الأمم المستضعفة، ويضغط بأساليبه الماكيافيلية المجرّبة

على حكومات في عالم الأغنياء ركبتها وساوس الديموقراطية وحقوق الإنسان ومبادئ الليبرالية المطلقة إلى حد أنها تتجنّب الحزم كأنه جرم وتفلسف التنازل على أنه فضيلة، في دول تعتبر استعمال الشرطي سلاحه دفاعاً عن نفسه تجاوزاً لحد السلطة(*).

هم البطالة في أوروبا

ولعل أخطر الأزمات التي تهدد البلدان الصناعية هي أزمة البطالة المتفاقمة بسبب امتناع الحكومات عن التدخل في ترشيد الإنتاج والحد من طغيان الرأسمالية المتوحشة التي استغلت كشوف العلم أبشع استغلال مستخدمة اليد الآلية والدماغ الإلكتروني بديلين من اليد البشرية والدماغ الإنساني، فاقدمت على تسريح الملايين من الموظفين والعمال بحيث تخطّت نسبة البطالة في مجمل الاتحاد الأوروبي ١١,٤ في المئة من أفراد الشعب العامل، وزادت في فرنسا والمانيا على ١٤ في المئة، فيما يتزايد عدد العاطلين عن العمل في الدول الخمس عشرة التي تؤلف الاتحاد تزايداً مطرداً، حتى بلغ ٢٤ مليوناً في أيلول الماضي بحسب إحصاءات صندوق النقد الدولي، وهو ضعفا عدد المتعطلين في الولايات المتحدة وثلاثة أضعاف عددهم في اليابان.

وتبحث أوروبا التي يعقد رؤساؤها مؤتمر قمة لعلاج مشكلة العمل خلال الشهر المقبل في لوكسمبور، عن حل وسط لتفاقم البطالة، بين الاقتحام الأميركي المدهش لسوق العمل الذي حول الإنسان إلى آلة ميكانيكية تعمل برتابة العداد الغبي من المهد إلى اللحد، وخلق منذ العام ١٩٨٠ وحتى اليوم، أكثر من ٣٠ مليون وظيفة جديدة بأجور تفوق المعدلات الوسطى، وبين الحل الصيني القائم على قهر النفس بالأجر البخس وهو يظل في نظر الاشتراكية الصينية أفضل من البطالة.

وعبثاً حاول الوزير الفرنسي الأول ليونيل جوسبان أن يجد حلولاً مقبولة لمشكلة تهدد يوماً بعد يوم بالتحول إلى كارثة، فإن تيار الآلة الجارف سبقه إلى احتلال أريكة الواقع، وجاء قراره الأخير في «المؤتمر الوطني للعمل» الذي عقد في باريس منذ أيام خفض ساعات العمل إلى ٣٥ ساعة في الأسبوع بدلاً من ٣٩، بحيث تضطر المؤسسات والشركات الكبرى إلى استيعاب المزيد من المتعطلين... جاء هذا القرار بمثابة خطوة في المجهول غير محسوبة العواقب، لأن اتحاد أرباب العمل تأهب فوراً لإلقاء جوسبان مع قراره في الجحيم، وهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور، منذراً برد الاشتراكيين الذين فازوا بأكثرية المقاعد البرلمانية في الانتخابات

الأخيرة إلى ما سماه «حجمهم الطبيعي».

كذلك، عبثاً حاولت السيدة مارتين أوبري وزيرة العمل والتضامن في حكومة جوسبان، بكل الوسائل العلمية، خفض نسبة البطالة وابتكار وظائف جديدة للشباب، لا سيما وإنها ابنة الرئيس السابق للمفوضية الأوروبية جاك دولور، وتعرف بدقة مدى الانتكاسات المعنوية التي قد تتعرض لها فرنسا إن هي دخلت الوحدة النقدية الأوروبية في مطلع السنة ١٩٩٩، بأربعة ملايين عاطل عن العمل.

السلم والرخاء وانعدام الشهية

وبعيداً عن طروحات علماء الاقتصاد المتضاربة، وفي معزل عن الإحصاءات واستطلاعات الرأي والأرقام التي تحجب المنطق السليم والرؤية السديدة بازدحامها الصاخب اللامتناهي، دوّنت بعض الخواطر على هامش ما أقرأ كل يوم حول نكبة الاتحاد الأوروبي بالازدياد الهائل في عدد العاطلين عن العمل، وقررت نشرها في هذه «المفكرة»، عسى أن يكون نصيبها من الاهتمام لدى مجتمعات وحكومات راشدة في أوروبا ترصد الأفكار الجديدة والاجتهاد المفيد، غير ما يلقاه عنائي وعناء أمثالي من الباحثين والكتّاب والمفكّرين في بلدنا المصلوب على خشبة الزراية والإهمال، من مصير خامل لدى حكم جاهل، هو أشبه بمصير النفايات في سلال المهملات. وفي السياق الآتي أهم تلك الخواطر:

* قرأت منذ أيام في الصحف البريطانية إن بعض المؤسسات الصناعية الكبرى في بريطانيا أدخلت إلى ملاك عمّالها وموظفيها حكواتيين هزليين يجيدون الحركات البهلوانية والقصص والنوادر المضحكة المسلية، وإن السواد الأعظم من العاملين في تلك المؤسسات، تحت كابوس الجهامة والمرارة، تحسّن إنتاجهم وازداد بفضل أولئك البهاليل المهرّجين الذين أعادوا إليهم الفرح والابتسام، وعطّروا الكأس المريرة التي يشربون كل يوم بقطرة من ماء الزهر.

والعبرة من هذه التجربة الفريدة ليست في كونها فقط تحسن الإنتاج وتضاعفه، بل في كونها أيضاً تثبت أن العمل الجيد والإقبال عليه يتأثران إيجاباً بالحافز المعنوي والارتياح النفسي مقدار تأثرهما بالأجر العادل والكفاية المادية.

فالمصريون القدامى الذين شيدوا الأهرام ومعالم وادي الملوك، لم يكونوا فقط عبيداً كما يدّعي معظم علماء الآثار، لأنه كان مستحيلاً على أي حاكم في العصور الغابرة أن يسوق بالسوط وحده عشرات الألوف من العبيد دون أن يرتدوا عليه وعلى جنده فيدوسوا الجميع بأقدامهم، على غرار ما فعله الزنج في البصرة أواخر الزمن العباسي. لذلك يميل

فريق مستنير من المؤرخين إلى الاعتقاد إن بعض الذين استخدمهم الفراعنة في بناء الأهرام وغيرها كانوا عبيداً بالفعل، ولكن معظمهم كان بالتأكيد مأجوراً أو متطوعاً يؤمن بقضية دنيوية أو ما ورائية تحفزه على تأدية ذلك العمل الشاق وتعينه على احتماله.

أما الكاتدرائيات الشامخة المعجزة التي لا تخلو منها مدينة عامرة أو حتى مقاطعة غامضة في عمق أوروبا... فهل يتصور مسيو جوسبان ومدام أوبري أنها بنيت فقط بفضل النقود الفضية التي كان الملوك والأمراء يتصدقون بها مكرهين على ألوف الصنّاع والعمال المهرة في زمن الأقطاع؟! إن معظم الذين عملوا في بناء الكاتدرائيات لم يغنموا بالتأكيد ما يعادل النزر اليسير من ثمن جهدهم. لكن إيمانهم الديني العميق هو الذي كان يدفعهم إلى التضحية والتفاني في سبيل ذلك الإنجاز.

* في ضوء هذه الملاحظات يتضح إن شعور الإنسان العامل بوجود غاية مثالية وراء جهده المبذول، من شأنه أن يضاعف ذلك الجهد ويرفع قدره بالجودة والاتقان. كما أن صدود الإنسان في المجتمع الصناعي المعاصر عن العمل، يعود إلى فقدان ذلك الحافز الأساسي، وهو أمر لا يعالج باستحداث الوظائف الجديدة ورفع الحد الأدنى للأجر وما إلى ذلك من وسائل الترغيب المادية وحدها، بل يقتضي إعطاء العمل معنى رسولياً خارقاً وإكسابه صفة الواجب المقدس.

فهنالك نسبة كبيرة من المتعطلين تعطلوا بفعل القرف والقنوط النفسي وحالة «انعدام الشهية». لذلك فإن القول بتكثير فرص العمل وتوسيعها للحد من انتشار البطالة هو قول مردود، لأنك لا تستطيع إقناع فاقد الشهية بالإقبال على الطعام لمجرد تنويع المآكل الطيبة التي تقدمها إليه. فهو أساساً لا يملك الرغبة التي تشرط الاختيار.

* وقد أسهمت من جهة ثانية مكاسب الحضارة المادية والرخاء الاجتماعي إلى حد بعيد، في تعميم الكسل والاستسلام لنوع من الخدر والسلوك الانحلالي. كما أسهمت التقديمات المالية للعاطلين عن العمل في تثبيت هذه الحالة الشاذة ما دام المبلغ الذي يتقاضاه المتعطل من دولته يوفر له الحد الأدنى من الأمن السكني والغذائي في البلدان المتطورة، ويقعده عن طلب المزيد.

فكيف لا يستمرئ العاطل عن العمل في أوروبا أو غيرها من بلاد الرخاء، نعيم البطالة، وهو قادر على مشاهدة أروع البرامج التلفزيونية من فراشه الرخو أو مقعده الوثير، عبر محطات لا تتوقف عن البث ليلاً نهاراً... كما هو قادر على ارتياد المسارح ودور السينما والملاعب

الرياضية بأسعار زهيدة، والتنزه في الحدائق العامة ودخول المتاحف الوطنية مجاناً، والمراهنة في سباق الخيل بمبالغ قد تكون ضئيلة لكنها كثيراً ما تعود عليه بربح قليل يكفي لسد الرمق... ثم هو قادر في نهاية يومه على التغرغر بزجاجة نبيذ من الصنف المتواضع يبتاعها بمبلغ زهيد ويتمتع بها خليلته الشمطاء على الرصيف.

* كذلك أسهم تقلص المبادئ القومية، وغروب شمس الدين، وانهيار المثل والأخلاق التراثية التي تحفز المرء على العمل والكفاح، في إزالة شعارات من قاموس التربية كان العالم الأول يؤمن بها ويأتّم بهديها، إلى الأمس القريب، من مثل: «العمل يصنع السيد»، «أيها العمل، يا قانون الطبيعة المقدس» أو «بعرق جبينك تأكل خبزك»، أو «البطالة أم الخبائث» إلخ...

ولا ريب في أن دوام السلم على أوروبا خصوصاً، والدول الصناعية عموماً، طوال خمسين عاماً، وهو ما لم يحصل في التاريخ إلا نادراً، كان من أهم العوامل الحاسمة في نموّ تلك الأمم وازدهارها، لكنه أدى في الوقت نفسه إلى ترهل الإرادات، وعوّد الناس في ظل استقرار الأنظمة السياسية على نوع من الطمأنينة الاتكالية، عبر الضمانات الاجتماعية والصحية وضمانات الشيخوخة ومجانية التعليم والمكاسب النقابية وغيرها، حتى أصبح الإنسان يتعب من الراحة وذلك خلافاً للطبيعة التي تقضي بأن يستريح من التعب...

في سبيل العودة من الغربة

ومن ظواهر المفارقات والتناقضات التي تختزن العبر وتحيّر الباحثين، إن الصناعة التي كانت حجر الزاوية في نهضة أوروبا المعاصرة وسائر البلدان المتطورة، أصبحت هي مصدر البطالة الرئيسي، ليس فقط باستغنائها المأسوي المتواصل عن العنصر البشري واتكالها المتزايد على التقنيات الآلية، بل بانسياقها اللامسؤول نحو زيادة الإنتاج، حتى أصيبت بالتخمة فاعسرت، وحشرت نفسها في مأزق تسويقي خانق، لا سيما وإن الحرب التي تخوضها الدول الصناعية فيما بينها لابتزاز العالم الثالث، عممت الفقر في ثلاثة أرباع المعمورة، وبات عالم الفقراء هذا غير قادر على استهلاك الفائض من إنتاجها.

وفي مقابل هذا الورم الصناعي الخبيث، تعاني سوق العمل في المجتمع الزراعي الأوروبي نقصاً فادحاً، والعاطلون عن العمل الذين ألفوا حياة الرخاء النسبي في المدن الكبرى يرفضون العمل في الريف. لذلك كله، لا بد من تخطيط إعلامي دقيق وشامل، تتسرب مفاعيله السيكولوجية إلى عمق النفوس المتعطلة المعاقة، بحيث يسهل اقتلاعها من سكينة

الاستسلام والتواكل، ودفعها قدماً في الطريق الصعب. ولا بد في الوقت نفسه من تدخل حكومي، وإن على حساب الليبيرالية المدللة، في سياسة صناعية تتحكم بها الفوضى ومطامع رأس المال الذي لا يشبع، بحيث يتم توقيع دولاب الصناعة على حاجات سوق العمل وكفايات سوق التصريف. كما يتعين من جهة ثانية، توجيه مراكز الأبحاث لتلبية المطلوب لا لزيادة المعروض في الأسواق العالمية. فلا يجوز مثلاً أن تسجل كل يوم عشرة اختراعات لتطوير حاسوب إلكتروني يستعمله ألف شخص، ولا يسجل اختراع واحد في عشرة أعوام لتطوير آلة حلاقة أو ماشطة كهربائية يستعملها مئات الملايين. وأخيراً، إذا كان دولاب الصناعة مخلوقاً عجائبياً ذا حركة دائمة لا تستطيع أي قوة في العالم إيقاف دورانه، فيبدو ان خير وسيلة للتخلص من فائض خيراته، هو اعتماد «الكبّ الصناعي»، كما تفعل البرازيل باعتماد «الكب الزراعي» فتلقي فائض البن الذي تنتجه أرضها في البحر.

وأهم من ذلك كله، أن يعود العالم من غربته في غابة الافتراس المحكومة بشرعة الصراع الطبقي، سواء أكان الصعاليك والمماليك متحدين أو غير متحدين في حمى الشيوعية أو غير الشيوعية من مذاهب الحقد والعصيان، وسواء أكان حيتان الشراهة وغيلان البطر متضافرين أو متنافرين في حمى الرأسمالية أو غيرها من مذاهب القهر والطغيان... أهم من ذلك كله، أن يعود العالم من غربته في تلك الغابة الموحشة، فيؤسس من جديد لعلاقة أخوية صادقة بين رأس المال ورؤوس العمل والإبداع في خدمة الإنسان.

أقول هذا بمنطق الساذج المؤمن، ولا أدري إن كانوا جميعاً، سلاطين أو مساكين، أساطين أو عيّارين، أغنياء فقراء أو فقراء أغنياء معظمهم أغبياء، ينتظرون كارثة بيئية أو كارثة فضائية كوكبية أو كارثة نووية مقصودة أو غير مقصودة أو كارثة انخسافية تودي بعاد وإرم ذات العماد... أم إنهم ينتظرون الطوفان حتى يستقلوا سفينة كوفي عنان!...

عفواً. لقد نسيت إن الأمم المتحدة التي أرادها التائبون بعد الحرب العالمية الثانية، جواداً ابيض تركبه الإنسانية هرباً من المصير الأسود، قد مسخه الساحر الاميركي، جحشاً ابن أتان أسود وربطه على باب الياخور في حديقة البيت الأبيض، لكي لا يكون للإنسانية أبيضان في مسيرتها الكئيبة السوداء التي تجري بها وتجري إلى حيث لا تدري...

فهلاّ أدرك ليونيل جوسبان ومارتين أوبري، وهما يعانيان غلبة المرابي الصهيوني الجاثم على صدر

أوروبا بسندات «دَينه الأبدي»، ما عناه الشاعر العربي القديم بقوله:

متى يبلُغُ البنيانُ يوماً تمامَهُ
إذا كان ما تبنيه غيرُكَ يَهدِمُهُ؟!!

١٨/ ١٠/ ١٩٩٧

(*) نشرت الصحافة الفرنسية في ٤ تموز (يوليو) الماضي دراسة للعالم الديموغرافي نيكولا بورغوان حاول فيها التقليل من أثر الكبت الذي فرضته الأنظمة المتساهلة مع المجرمين على رجال البوليس، والتي تمنعهم من استعمال سلاحهم إلا في حالات محدودة جداً. وكان هذا الكبت قد دفع الكثيرين منهم إلى الانتحار. وقد شككت مصادر صحفية عدة في كون الخبير بورغوان تعمّد من خلال تلك الدراسة، وبتوجيه من بعض المسؤولين الكبار في أجهزة الأمن، أن يحدّ من ثورة الرأي العام واستنكاره الشديد للأنظمة المعمول بها، لا سيما وأن ٧٠ شرطياً فرنسياً أقدموا على الانتحار سنة ١٩٩٦، وهو رقم قياسي لم يعرف له مثيل في أي مكان أو زمان آخر.

ألقاب في السوق السوداء
بعد هبوط السعر الرسمي

كتب احمد شومان في جريدة «الجريدة» عام ١٩٥٤: «أعجب لقبيح اسمه جميل، وبخيل اسمه كريم، وفاسق اسمه عفيف، وفاسد اسمه صلاح، وزنديق اسمه تقي، وبغيض يدعى حبيب، وحيوان يزعمون انه إنسان...».

لمناسبة إلغاء الألقاب الرسمية في مجلس الوزراء بمبادرة من الرئيس إلياس الهراوي، لا بد من تدوين بعض الملاحظات التي لا تخلو من تحفظات في سياق الموضوع:

١ ــ في منشأ الألقاب الحكومية

خلافاً لما قاله بعض المعلقين في الصحف المحلية، فإن ألقاب الفخامة والدولة والعطوفة والمعالي والسعادة إلخ... ليست عثمانية، بل دخلت علينا مع الانتداب الفرنسي، واعتبرت في حينه ثورة على الألقاب التركية من مثل الباشا والآغا والبيك ودولتلو وعزّتلو، إلخ... وقد بحث الباحثون في قاموس الجمهورية الفرنسية يومذاك عن ألقاب تصلح لأهل الحكم في لبنان، فلم يعثروا إلا على عبارة (Son Excellence) تستعمل لأصحاب السلطة المدنية.

ومما حدّثني به المؤرخ يوسف إبراهيم يزبك والأديب اللغوي إلياس خليل زخريا، رحمهما الله، أن سلطات الانتداب حارت في تجزئة هذا اللقب الفرنسي الوحيد وتوزيعه على الرؤساء والوزراء والنواب وغيرهم، في بلد ألفت دواوينه الرسمية تعظيم المتقدمين في المراتب والمناصب الحكومية طيلة قرون.

وقد تألفت لجنة في مطلع العشرينات من قضاة وتراجمة ولغويين لعلاج هذه المسألة، فأفتت بأن تترجم كلمة (Excellence) بخمس كلمات عربية هي: الفخامة (لرئيس الجمهورية)، والعطوفة (لرئيس مجلس النواب)، والدولة (لرئيس الوزراء)، والمعالي (للوزير)، والسعادة (للنائب والسفير والمدير العام)، وذلك لعدم إثارة الحساسيات بين الطوائف التي يمثلها هؤلاء. هذا مع العلم ان كلمة (Excellence) الفرنسية لا تعبّر عن أي من هذه المعاني، وترجمتها الصحيحة هي «الامتياز». فكان يقال تأدّباً للمتقدم أو المتفوّق في فرنسا (Son Excellence)، أي «صاحب الامتياز»،

سواء أكان حاكماً أو محكوماً.

٢ ـــ في ألقاب رجال الدين وما إليها

وعندما قررت دولة الانتداب اعتماد ألقاب رسمية لرؤساء الأديان مسيحيين ومسلمين ظهرت بعض التعقيدات الشكلية الناتجة عن اختلاف النظرة إلى المراسم بين طائفة وأخرى واضطلاع كل منها بمسألة الألقاب.

فالموارنة كانوا قد اطلقوا لقب (Monseigneur) المستعمل في فرنسا، على الأسقف ورئيس الأساقفة، منذ القرن السابع عشر، بصيغة عربية هي «صاحب السيادة».

كما حافظوا على لقب «مار» للبطريرك، وهو يعني بالسريانية «السيد».

أما ألقاب البطاركة والأساقفة من الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك الملكيين، فكانت ألقاباً يونانية، على غرار «كيريوس كير» مثلاً. وقد اعتمد هؤلاء لأساقفتهم العرب من أبناء المنطقة نفس اللقب الماروني، أي «صاحب السيادة». لكن بطاركة إنطاكية وأورشليم والإسكندرية للروم الأرثوذكس كانوا دائماً من الأكليروس اليوناني، فبقيت ألقابهم يونانية حتى انتخب البطريرك غوريغوريوس حداد في أوائل هذا القرن رئيساً للكنيسة الإنطاكية البيزنطية، فكان أول بطريرك أرثوذكسي عربي في المنطقة، وظل بطريرك الإسكندرية وبطريرك أورشليم إلى هذا اليوم من حاملي الجنسية اليونانية.

واثر انتخاب البطريرك حداد اختار له المجمع الإنطاكي الأرثوذكسي لقب «صاحب الغبطة» نقلاً عن العبارة الفرنسية (Sa Béatitude) التي كانت نادرة الاستعمال في فرنسا، باعتبار أن للغرب كله بطريركاً واحداً هو البابا، لقبوه منذ البداية وما زالوا (Sa Sainteté) أي «صاحب القداسة» فيما اختاروا للذين يعينهم البابا برتبة كاردينال، وهي أعلى رتبة كهنوتية في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، لقب (Son Eminence) أي «صاحب النيافة».

ويقول أسد رستم في كتابه «تاريخ إنطاكية العظمى»، أن كلمة «غبطة» التي يوصف بها البطريرك، تختزن معنى «الفرح المطمئن»، والفرح سمة رئيسية من سمات الطقوس البيزنطية تعبّر عن تألق السيد المسيح وانتصاره على الموت. وقد أضافت معظم الطوائف المسيحية الشرقية فيما بعد لقب «صاحب الغبطة» هذا إلى ألقاب بطاركتها، كما زاد الموارنة على ألقاب بطريركهم لقب «النيافة» منذ المجمع الفاتيكاني الثاني في الستينات، وكان أول من حمله البطريرك بولس بطرس المعوشي.

أما المقامات الدينية الإسلامية، فلم

تعرف تراتبية خاصة بالألقاب في تاريخها كله، باعتبار أنه لا كهانة ولا رهبانية ولا نظام أكليريكياً في الإسلام. فرجل الدين المسلم لا ينتمي إلى طبقة معينة أو فئة خاصة. وليست له رتبة نظامية، اللهم إلا على صعيد الإفتاء والقضاء المذهبي. فهو إذن إنسان عادي كأي فرد آخر في المجتمع الإسلامي يجري عليه ما يجري على سائر الناس من أحكام الشريعة وفرائضها. إلا أنه يجب أن يتميز بالعلم والتقوى، وأن يكون متضلعاً من علوم الدين حافظاً للقرآن والحديث والسيرة وتراث الأئمة ونتاج السلف.

وهو بهذه الامتيازات الأساسية يؤمّ المصلّين ويرعى شؤون المؤمنين ويفتي في قضاياهم. أما الرئيس الروحي أو القطب الديني في المذاهب الإسلامية كافة، فيتعيّن أن يكون في المبدأ والأساس، متفوقاً على سائر العلماء في مسائل الدين والفقه، متمتعاً بصفات خلقية رفيعة وثقافة أكاديمية واسعة.

وعلى أنه لم تكن يوماً لرجال الدين المسلمين والمتقدمين من أئمتهم وفقهائهم، ألقاب تراتبية حصرية، إلا أن أسماءهم كانت ولا تزال تقترن دائماً بصفة «المشيخة» التي يقصد بها المنزلة المميزة في العلم والفضل والصلاح. فقيل منذ القدم لرجل الدين أياً كانت منزلته «فضيلة الشيخ». أما الأعلام البارزون منهم، فكانت أسماؤهم تقترن بعبارات الإكرام والتقدير التي تجود بها القرائح ويتبارى في استنباطها كتبة الدواوين في دار الخلافة وممالك الإسلام. فيقال مثلاً «العلامة الإمام الهادي فلان»، أو «حجة الإسلام وآية المنطق والبرهان»، أو «شيخ الإسلام ونبراس الهدى»، أو «سراج الدين ومصباح اليقين»، أو «آية الله العظمى»، إلخ...

وإزاء هذا الواقع الذي لا حدود لرسومه البيانية، وجدت السلطات الفرنسية المنتدبة على لبنان، بعد أن تم تنظيم الإفتاء والقضاء لدى المذاهب الإسلامية، أنه لا بد من لقب يطلق على رؤساء تلك المذاهب لحفظ التوازن في المراسم العامة والمناسبات الوطنية والنصوص الإجرائية المختلفة، بينهم وبين رؤساء المذاهب المسيحية.

ولا يعرف بالضبط من ابتكر لقب «صاحب السماحة» لكبار رجال الدين المسلمين. فقد نسبه فريق من الباحثين إلى العلامة الشيخ عبد القادر المغربي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق الذي استوحاه من صفة السماح، وهي كثيراً ما ترافق ذكر الشريعة الإسلامية، فيقال «الشريعة الإسلامية السمحاء». وذهب فريق آخر إلى أنه من ابتكار الفقيه الطرابلسي الشيخ نديم الجسر شقيق رئيس مجلس النواب الأسبق

الشيخ محمد الجسر، وقال غيرهم انه من صنع الأديب والوجيه البيروتي محمد جميل بيهم. وأيا كان مصدر هذا اللقب، فقد حقق التوازن البروتوكولي بين الرؤساء الروحيين، وأطلق أول الأمر على مفتي الجمهورية السني، وشيخ العقل الدرزي، ثم ابتداء من الستينات، على رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى والمفتي الجعفري الممتاز، ومقامات قضائية وافتائية أخرى.

٢ ــ بين الحكم المدني والنظام الطائفي

في البدء كانت القاب الحكام والرؤساء المدنيين مقبولة من جانب المواطنين، لأن زعماء لبنان كانوا على خلق سوي واستقامة مشهودة، وقد ختموا صكوك الولاء الشعبي لهم بالعمل والتضحية والمواقف الوطنية الجريئة، فاستحقوا تلك الألقاب ردحاً من الزمن تساقطوا بعده تدريجاً، وتآكلت معظمهم جراثيم الوصولية والانتهازية والكسب الحرام والتحزب الأعمى والتعصب العشائري والطائفي، فاصبحت القابهم أضحوكة المازحين والعوبة الساخرين، وبقي لألقاب الرؤساء الروحيين احترامها، والناس يتمسكون بها لانها من كرامة المذاهب والطوائف التي ينتمون إليها، بصرف النظر عن آرائهم في رؤساء أديانهم ومللهم.

لذلك يبدو أن الرئيس إلياس الهراوي الذي أراد التعبير، من خلال إلغاء الألقاب المدنية الرسمية، عن مزيد من الديموقراطية، ومزيد من التجاوب مع المواطنين الرافضين لتعظيم أناس قد لا يستحق بعضهم ولاء الشعب واحترامه... لم يتنبّه إلى أن هذا الانتقاص من كرامة الحكم المدني الذي لم يبق له من هيبة الحكم إلا الألقاب، قد أسهم، من حيث لم يقصد فخامته بالتأكيد، في ترسيخ هيمنة النظام التيوقراطي الديني الذي نقول بصراحة، مع احترامنا الفائق لمقاماته الروحية، أنه يعزز بحضوره المتزايد وأجهزته المتعددة الأنشطة، الإنتماء الطائفي والمذهبي في البلاد، على حساب الولاء المطلق للوطن. وقد كان أولى بالمبادرة الرئاسية في منح الألقاب، أن تصدر بعد التفاهم مع الرؤساء الروحيين على إلغاء القابهم هم أيضاً، لا سيما وأن ممارسة الحكم المدني بالأسلوب الطائفي خلال الأعوام السبعة الأخيرة، كاد أن يحوّل البلد من جمهورية ديموقراطية إلى دولة تيوقراطية دينية تتجاذب أطرافها المصالح والامتيازات التقسيمية سياسياً واجتماعياً وثقافياً وتربوياً، وهي لا تملك إلا الصلاة في مواجهة القضايا الوطنية والمصيرية الكبرى.

٤ ـ لقب «السيد» ومفهوم السيادة

ومهما يكن من أمر، وبانتظار أن يصدر قرار الإلغاء بقانون وينشر في الجريدة الرسمية فيصبح نافذاً، لا نزال نجهل اللقب البديل الذي تعين إطلاقه على المسؤول أو صاحب المنصب المرموق في الدولة اللبنانية. وأخشى ما نخشاه أن يتورط المعنيون بالموضوع في استعمال صفة «السيد» عوضاً عن اللقب التقليدي، لأن معنى السيادة أهم وأعمق من كل القاب التفخيم والتعظيم، وهي تحتاج إلى من يشرفها باعتزاز ويحميها بقوة.

فقد رفض ميرابو، ودانتون، ومارا، في إبّان الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، أن يستعاض عن الألقاب الأرستوقراطية القديمة بلقب «السيد» (Monsieur)، لأن للسيادة نكهة أوتوقراطية تفوق الألقاب الأرستوقراطية تعبيراً عن السلطان وتمييزاً بين استعلاء الحاكم واستخذاء المحكوم. ولذلك اطلقوا على كل إنسان في الجمهورية الفرنسية الأولى بعد الثورة لقب «المواطن» (Le Citoyen)، سواء أكان حاكماً أم محكوماً.

كذلك رفض لينين في إبان الثورة الروسية عام ١٩١٧، اقتراحاً تقدم به فريق من عملاء الصهيونية الذين انخرطوا في صفوف البولشفيك يقضي بأن يستبدل لقب «السيد» بالألقاب الأرستوقراطية القيصرية، للأسباب نفسها، فقرر أن يكون البديل في روسيا السوفياتية لقب «الرفيق» (Le Camarade)، ولازمت هذه الصفة كل محازب أو مواطن حتى إنهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٨٩.

وقد استعاض الإسلام من جهة ثانية عن لقب «السيد» الذي كان قائماً في الجاهلية حيث يقال «فلان سيد قومه»، بلقب «أمير»، فقيل في الإسلام أمير المؤمنين»، و«أمير الجند»، و«أمير الجباية»، إلخ... ويقصد بذلك صاحب الأمر بمعنى الرأي والمشورة والقرار، لا بمعنى التسلط والتحكم والامتياز.

والعرب في الجاهلية سوّدوا بعض رجالهم حرصاً على أرزاقهم واعراضهم، في مجتمع بدوي كان لا بد في متاهته الخطرة من حصر السلطة في يد رجل فرد. سوّدوا الزنجي عنترة بن شداد، والصعلوك عامر بن الطفيل، و الحماسي الخيالي عمرو بن كلثوم، وسودوا حتى الجبان حسان بن ثابت الذي كان يختبئ إبان المعارك في دور الحريم، لكنهم لم يسوّدوا بخيلاً ولا سارق عرض. أما في الإسلام، فلم يسوّدوا احداً على الأطلاق. ولم يلقب أحد النبي محمداً بالسيد، اللهم إلا في قول بعضهم أنه «سيد المرسلين» تقديماً له على سائر الأنبياء وتعزيزاً لمكانته في نفوس اتباعه، ولكن أحداً بعد النبي من الخلفاء والملوك والحكام لم

يحمل لقب «السيّد» على ما نذكر.

وقد فضل الأولون من المنتسبين إلى آل البيت، لقب الشريف على لقب «السيد»، كالشريف الرضي والشريف المرتضى. ولا تزال الأرومات التي ترقى بنسبها إلى آل البيت في الحجاز والشام والعراق تعتمد هذه الصفة. وإذا كان بعض أصحاب هذا النسب في إيران والنجف ولبنان العاملي والبقاعي والجبيلي يحملون لقب «السيد»، فإن ذلك يعود في عرفهم إلى مفهوم روحي خلقي للسيادة يختلف كلياً عن المفهوم السلطوي.

وبالرجوع إلى صلب موضوعنا نشير إلى أنه صدف خلال الأعصر المتأخرة أن استغنت فرنسا عن لقب «المواطن» بعدما توالت عليها أمبراطورية نابوليون الأول، وأمبراطورية نابوليون الثالث، ثم جمهوريات الانحطاط، فاعتمدت عبارة (Monsieur) أي السيد، التي ما لبثت أن أصبحت أممية، وانتقلت إلى العالم العربي والإسلامي بدءاً بمصر في إعقاب ثورة ٢٣ تمرز (يوليو) ١٩٥٢، التي أطاحت الملكية في أرض الكنانة، ومروراً بسوريا بعد الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨، ثم الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠.

وقد اعتمدت معظم الجمهوريات العربية الحديثة لقب «السيد» دون سواه للرؤساء والزعماء والمواطنين جميعاً، في زحمة المتغيرات الثورية، وتحت ضغط التحديات المعادية التي كانت ولا تزال تفرض نفض العباءة التقليدية والانخراط في مسيرة العصر، حتى أن الملك فهد بن عبد العزيز أمر بالاستغناء عن لقب الجلالة وهو من «صفات الله الحسنى جل جلاله»، وسمى نفسه بكل اعتزاز «خادم الحرمين الشريفين».

وقد كنا نفضل لو أن المفكرين والباحثين العرب اجتهدوا في استنباط كنية يتم الإجماع عليها غير كنية السيد التي تحمل في ذاتها معنى الطبقية وتترك في خلفية الأذهان شعوراً بوجود سيّد ومسود في الأمة الواحدة والبيت المشترك. وكم يكون مشرّفاً للبنان الذي وضع لغوبيوه في القرن التاسع عشر، أمثال إبراهيم اليازجي وأحمد فارس الشدياق وأمين باشا المعلوف وغيرهم، المصطلحات الخاصة بالحياة المعاصرة، لو استحدث مشترعوه ضمن القانون المتعلق بإلغاء الألقاب صفة مبتكرة من صلب تراثنا العربي تقترن بأسماء المواطنين من قمة الهرم الاجتماعي إلى قاعدته، ويصح تعميمها على الدول العربية الشقيقة.

* * *

وقبل أن اختتم هذه الجولة المرهقة على عالم الألقاب، أود تذكير الرئيس إلياس الهراوي الذي أقدر عصاميته

وسلامة نيّته وحماسته الوطنية والقومية تقديراً فائقاً، بأن الألقاب مادة زئبقية يصعب حصرها والسيطرة عليها، حتى بقانون! فعبثاً حاول الرئيس بشارة الخوري بطل الاستقلال أن يقنع الناس بأنه هو رئيس البلاد وليس أخوه سليم الذي أطلقوا عليه لقب «السلطان»، وعبثاً حاول الرئيس بشير الجميل في أوج لمعانه أن يقنع الناس بإنه هو زعيم المسيحيين وليس الرئيس كميل شمعون الذي اطلقوا عليه لقب «الشايب» تقديماً له على بشير الشاب. ولا ننسَ أن اللبنانيين والعرب الغاضبين على فرنسا وإنكلتره في الأربعينات أطلقوا على هتلر لقب «أبو علي»، والمتحمسين للوحدة العربية وقهر الاستعمار الأجنبي أطلقوا على الرئيس جمال عبد الناصر لقب «صلاح الدين»، واعتبروا الاسم الحقيقي للرئيس حافظ الأسد خير لقب يطلق عليه، فقالوا «الأسد»، والذين آمنوا بعبقرية رياض الصلح وما تختزنه صلعته البراقة من دهاء كانوا يسمونه «أبو الطربوش»، وفي أوج نفوذ المكتب الثاني أطلقوا على سامي الخطيب لقب «الوالي» ، وهم يطلقون اليوم على شوقي فاخوري لقب «الكاردينال»، وعلى رفيق الحريري لقب «البولدوزر»، وعلى فارس بويز لقب «الداماد».

وبعد. من يستطيع إقناع الكتلويين الأدّويين والناس أجمعين، إلا يطلقوا على ريمون أده لقب العميد، أو إقناع أنصار الرئيس نبيه بري ألا يركزوا في تسميته على صفة الأستاذ، أو إقناع أنصار الرئيس الحص إلا يكتفوا من اسمه بلقب الدكتور؟!

وحدنا أنت وأنا، يا فخامة الرئيس، سنظل بدون لقب بعد إلغاء الألقاب، لأنك أنت مواطن أكثر من عادي، وأنا مواطن أقل من عادي، فالعاديون فقط هم الذين يعدون وراء الألقاب، سواء أتم إلغاؤها أو لم يتم. أما السلاطين فيستهزئون بها. وأما المساكين فلا تعني لهم شيئاً، لأن وجودها لا يحيي وزوالها لا يميت.

٢٥/ ١٠/ ١٨٩٧

كيف نصحح الأخطاء إذا كنا لا نعترف بها؟

في ٦ أيلول (سبتمبر) الماضي طالبت في «مفكرة الأيام» بنيابة عامة صحية تحمي المواطن والدولة من تجاوزات «بعض» الأطباء و«بعض» المستشفيات.

وقد أوضحت في ذلك البحث أموراً جوهرية تتصل خصوصاً بممارسة مهنة الطب التي قلت بالحرف الواحد أنها «أكرم جوهرة في تاج الحضارة»، وحملت على «بعض» الأطباء والجراحين الذين يخفون وراء شهاداتهم واختصاصاتهم المزعومة علماً ناقصاً أو خلقاً بائقاً. ويوجد أمثال هؤلاء في كل مهنة، من الكهانة إلى العتالة، وفي كل بلد، من الولايات المتحدة إلى جزر القمر.

وما كنت لأخوض في هذا الموضوع لولا المظالم التي صدمتني والشكاوى التي وردتني، باعتباري كاتباً وصحافياً يحمل رسالة مقدسة هي الدفاع عن حقوق الناس، من ضحايا الأخطاء التي وقع فيها «بعض» الأطباء، والابتزاز الذي تناهى إليه فساد هؤلاء وعبادتهم للمال.

وقد أشرت في تلك المقالة أيضاً، بالتلميح دون التصريح، إلى أن «بعض» العمليات التي تجري في «بعض» المستشفيات على حساب وزارة الصحة، وتتم بالتراضي بين المريض والطبيب والمستشفى، ترتّب على الدولة أعباء إضافية مرهقة وتجعلها في موقع المدين من الدائن والقاصر من القادر.

وحاولت أن أكون إيجابياً قدر المستطاع في التنبيه إلى شروط أساسية للطبابة النافعة والاستشفاء المفيد أوجزها في النقاط الآتية:

١ ـ لا يجوز أن يذهب المريض مباشرة إلى الجراح، بل أن الاختصاص الموثوق في الطب الداخلي هو الذي يقرر الجراحة أو أي علاج آخر لشفائه.

٢ ـ ليس كل من درس الطب العام يستحق أن يسمى طبيباً داخلياً، بل أن الطبيب الداخلي لا يعتبر موثوقاً إلا إذا حمل شهادات اختصاص قد يستغرق الحصول عليها نفس المدة التي صرفها في دراسة الطب العام أو اكثر.

٣ ـ أن شروط انتساب أي طبيب إلى الجسم الطبي الممارس يجب إلا

تقتصر فقط على كفاءته العلمية، حتى ولو كان أبقراط نفسه أو محمد الرازي أو مايكل دبغي. بل يتعين أن تحقق النقابة المعنية في إخلاقه الشخصية ومحيطه الاجتماعي والبيت الذي نشأ فيه، وأن تتحرى عيوبه وفضائله وتتأكد من صحته النفسية والجسدية، قبل أن تسمح بانخراطه عضوياً في كيانها. وأقول بكل اقتناع والتزام أنه ينبغي حتى إعادة النظر في أهلية «بعض» الذين باشروا ممارسة المهنة بعد العام ١٩٧٥، مستفيدين في شرعنة ممارستهم من الضغوط الحزبية والحروب الفوضوية، وهم لا يعرفون من الطب إلا القليل، ولم يجر التحقق الجدي والتثبت القاطع من قيمة الشهادات التي جاؤوا بها من الخارج والطرق التي حصلوا بها عليها.

وليس المطلوب هنا في أي حال، أكثر مما فرضته الأنظمة المعمول بها من شروط الأهلية النفسية والخلقية على الراغبين في الانتساب إلى الأمن العام أو أمن الدولة أو المدرسة الحربية أو معهد قوى الأمن الداخلي.

والذي يفترض تطبيقه على هذا الصعيد بالنسبة للأطباء، ينبغي أن يطبق أيضاً، وبنفس المستوى من الدقة والجدية، بالنسبة للمحامين والمهندسين والعاملين في أي مهنة معنية بمصير الأفراد أو الجماعات، كما هو مطبق في المؤسسات العسكرية أن لم يكن بمزيد من التشدد والتحوط والحذر.

٤ ـ لا يجوز أن تتمتع جمعية مهنية، أياً كان موقعها النافذ، بسلطة قضائية مستقلة. ففي جميع بلدان العالم يحق للمواطن أن يقاضي الطبيب أو المستشفى أمام المحاكم المختصة طبقاً لأصول محددة. أما عندنا فالطبيب والمستشفى معصومان لا يخضعان لأي مرجع قضائي رسمي على الإطلاق. ولو شاء مواطن لبناني أو أجنبي مقيم في لبنان، وقع عليه الخطأ الطبي أو تعرض لابتزاز ما من جانب المستشفى أو الطبيب، أن يحاسب هذين على ما اقترفاه أو يطالبهما بالعطل والضرر، فهو لا يملك إلا أن يقدم شكوى خطية إلى نقابة الأطباء أو نقابة أصحاب المستشفيات اللتين أولاهما القانون امتيازاً قضائياً خاصاً. فتنظر النقابة في المسألة وتقرر بنفسها تبرئة المدعى عليه أو تجريمه، وبالتالي معاقبته بالطريقة التي تراها مناسبة.

وأقلّ ما يقال في هذا الامتياز النقابي، أنه تجاوز واضح لصلاحيات السلطة القضائية، وانتهاك يحميه القانون لحقوق المواطن وحقوق الإنسان.

* * *

وبعد.. على الرغم ممّا أبديته في المقالة المشار إليها من احترام فائق للجسم الطبي اللبناني، وكفاءته المشهودة،

ومناقبية الأغلبية العظمى من أفراده، آملاً ألا يحمل كلامي على محمل الإساءة بأي وجه من الوجوه إلى المهنة القطبية المنزهة التي أجلّ، ونقابتها المميزة وعلى رأسها الدكتور فائق يونس الذي أكنّ لنضاله المهني والوطني كل تقدير وتربطني بالبيت اللبناني العريق الذي ينميه أواصر ود قديم وعاطفة مخلصة، وكذلك نقيب أصحاب المستشفيات الصديق الدكتور فوزي عضيمي المشهود له بالخلق الرفيع والضمير الحي... وعلى الرغم من أن مقالتي تندرج تحت عنوان الاجتهاد الإصلاحي، ومعاذ الله أن أكون قصدت بها الإفتراء والتجريح... فقد فوجئت في ١٧ أيلول (سبتمبر) برد على صفحات «النهار» موقع من رئيس لجنة الإعلام في نقابة الأطبّاء، ونائب النقيب الدكتور بلال عبد الله، ما زلت أكذّب نفسي عما ورد فيه من تحامل وصل إلى حد إتهامي بالوقاحة والصغارة والشهوة الغريزية والشبهة والإساءة، إلى ما هنالك من نعوت وأوصاف مهينة أجل مسؤولاً في موقعه عن تهدئة إنفعاله وشفاء غيظه بأمثالها.

فأنا على يقين أن الدكتور عبد الله لم يقرأ مقالتي قراءة موضوعية دقيقة. وهو لو فعل لشكرني على ما كشفته للمسؤولين في نقابته من تصرفات بعض الطارئين على المهنة واللائذين بحماها ممن حولوا الطبابة إلى تجارة، ونحمد الله أنهم قلة لم تتمكن حتى الآن من تشويه صورة هذه المهنة الشريفة، لكن صرف النظر عن أخطاء هؤلاء وتجاوزاتهم من شأنه أن يسيء إلى سمعة الطب أضعاف ما يسيء إليها الإعلام الذي ينبه إلى السلوك المنحرف. ولذلك أعجب كيف أسهب الدكتور عبد الله عبر ذلك الرد، في الغمز من قناتي بلوم شديد تخطى العتب إلى التجني.

وأخشى ما أخشاه، أن يكون رئيس لجنة الإعلام في النقابة قد واجه ضغطاً من بعض الذين جرحتهم حقيقة ما كتبت، فاستجاب لإلحاحهم بدافع المجاملة أو المسايرة، ورد عليّ بكلام قاس جاء في غير موضعه.

ذلك أن خير ما ينطبق على هؤلاء، قول المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدّق ما يعتاده من توهُمِ

* * *

ومهما يكن من أمر، فقد توالت علي شخصياً وعلى مكاتب «النهار» منذ نشر المقالة المذكورة رسائل واتصالات، بعضها من أطباء مزعومين لم أسمع بهم من قبل حملوا علي بعنف وابتذال، وبعضها الآخر من نطاسيين كبار يعملون في لبنان، أو بين لبنان والعالم

العربي وأوروبا، أثنوا عليّ ثناء أخجل تواضعي، ومعظمها من مواطنين ضحايا الخطأ الطبي والإبتزاز، امتدحوا موقفي وأكبروا إثارتي للقضية بحماسة وامتنان. كما أن إحدى محطات التلفزة عقدت ندوتين حول هذا الموضوع شارك فيهما النقيبان يونس وعضيمي واستشهد خلالهما بعض المنتدين بفقرات رئيسية من مقالتي.

وأود التأكيد هنا للذين لم تعجبهم مبادرتي تلك في «مفكرة الأيام»، فهددوا برفع المسألة إلى النيابة العامة، أنني تلقيت اتصالات عديدة من قضاة كبار هنأوني على ما كتبت وطالبوا بالمزيد. وفي أي حال فإن التهديد المشار إليه كان بمثابة بضاعتي التي ردّت إليّ. فقد كنت الأسبق إلى المطالبة بنيابة عامة صحية تلاحق المتمترسين وراء «المحمية النقابية الوطنية» التي قد يصعب عليها فضحهم والتشهير بهم، وأنا أتفهم تماماً تحرّجها في ذلك، لأنها الأمّ الحقيقية الحريصة على حياة مولودها، وقد تتنازل عنه للعاهرة التي سرقته وتدعي أنه ولدها حفظاً لحياته وضماناً لسلامته (...).

كما أود التأكيد لأولئك الذين أزعجتهم مبادرتي أنني لا أتنازل عن أي حرف مما دونته في ٦ أيلول (سبتمبر)، بل أزيد عليه الوقائع الآتية التي تؤيد كلياً ما ذهبت إليه:

الحسم وحده ينجي من التهلكة

* بتاريخ ١٠/١٠/١٩٩٧، وخلال حوار على شاشة «تيلي لوميير»، قال الدكتور فائق يونس رداً على المحامي أنطوان مراد الذي أثار عاصفة من الأسئلة حول هذا الموضوع: «لقد عملنا ونعمل بكل طاقتنا على إنشاء المجلس الأعلى للطبابة والاستشفاء، وهو كفيل بضبط الأوضاع نهائياً». وفي هذا الكلام اعتراف غير مباشر بأن هنالك أوضاعاً شاذة تحتاج إلى ضبط، وهو تصديق لما أعربت عنه وما يتمناه ويرجوه اللبنانيون جميعاً.

* وبتاريخ ٢١/١٠/١٩٩٧، عقد وزير الصحة سليمان فرنجية ندوة صحفية قال خلالها أنه سيخفّض عدد المستشفيات المتعاقدة مع الدولة، من حوالي ١٥٠ إلى ٧٠، وعدد مراكز جراحة القلب المفتوح من ١٥ إلى ٥ فقط. وليس هاجس التوفير وحده بالتأكيد هو الذي أملى على الوزير الشاب هذا الموقف الضميري الشجاع، بل إدراكه المستند إلى قرائن ثابتة، أن نصف المستشفيات المتعاقدة مع الدولة على الأقل، يبتز الدولة والمواطن معاً، وأن معظم مراكز جراحة القلب المفتوح يجري عمليات قلّما استوجبتها حالة المريض، فيستنزف بذلك أموال الدولة، ويحوّل الإنسان المعافى إلى «كوباي» في مختبره

الجراحي! وعندما سئل الوزير فرنجية أمام عدسات التلفزة في الندوة الصحفية التي ذكرت، لماذا يجتزئ الثلثين من مراكز عمليات القلب، أجاب بالحرف الواحد: «لأن هنالك عمليات تجري دون أن يكون المريض بحاجة إليها!».

وفي أي حال، فإن كلام الوزير المختص يؤيد ما ذهبت إليه، ويبرز توجسي من أخلاقية بعض الجراحين.

* ثم أنه قيل في بعض الردود التي وردتني أن التصدي لموضوع حساس في هذه الأهمية من شأنه أن يحبط المقامات الطبية والحكومية الراغبة في أن يعود لبنان كما كان «مستشفى الشرق»، والحقيقة هي خلاف ذلك تماماً، لأن تنقية الجسم الطبي والاستشفائي اللبناني من كل شائبة أو عائبة - وهي شوائب ومعايب ضئيلة جداً إذا قيست بما يتميز به ذلك الجسم من كفاءة وحداثة ومعرفة ونبوغ - ستكون هي الحافز الواقعي المضمون لجعل لبنان «مستشفى الشرق». ولو بقيت أوضاع الطبابة والاستشفاء غير نقية مئة في المئة، فإن الإخوة العرب سيظلون يقصدون مكرهين المصحات والمستشفيات. وعيادات الأطباء في الغرب، مع العلم إنها غير سليمة هي أيضاً مئة في المئة، لأنهم تعودوا ذلك خلال العقدين الآخيرين، يوم كنا نتذابح على الهوية، ونختلف على رموز السماء، فنخسر الأرض التي آمل ألا نكون في الواقع قد خسرناها إلى الأبد.

ذلك أن الحسم وحده ينجي من التهلكة ويهدي سواء السبيل. ولو لم تحزم الدولة أمرها سنة ١٩٦٥، وتنقي القطاع المصرفي بعد إنهيار بنك «انترا» وما رافقه من تآمر صهيوني للقضاء على حصانة النظام المصرفي اللبناني بدعاية عالمية واسعة مغرضة، لما عاد لبنان «بنك الشرق» وعادت الثقة الكاملة بمصارفه، حتى أن سبع عشرة سنة من الحروب العبثية لم تؤثر على قطاعه المالي. فما أن وضعت الحرب أوزارها، حتى عادت الأموال العربية تتدفق ودائع في بنوك لبنان واستثمارات في ورشة إعماره، وهي تفوق اليوم إلى حد بعيد ما كانت عليه سنة ١٩٧٥.

* وقد تبين لي أخيراً، عبر هذه التجربة أن الرأي العام اللبناني لا يرى مبرراً للحساسية المفرطة التي تثير القطاع الطبي عند أي انتقاد أو اجتهاد يظهرفي وسائل الإعلام، حتى ولو كان يهدف إلى تامين المصلحة العامة ومصلحة الطب والأطباء معاً. فما أن يثار أي موضوع متعلق بالطبابة والاستشفاء في لبنان، حتى تقوم القيامة وتتحرك الهيئات والنقابات المختصة، ويتهم الإعلام بسوء النية، فكأن هناك انتهاكاً لكيان مقدس هو في عداد المحرمات (tabous)، مع أن

الصحافة في العالم بأسره، وخصوصاً في البلدان التي تفاخر بانجازاتها المتقدمة الباهرة في هذا القطاع، كثيراً ما تجاوز حد الانتقاد إلى التشهير، دون أن تهتز سمعة البلد أو تكسد فيه مهنة ابقراط. بل أن المؤسسات الطبية التي تعتبر نفسها متضرّرة تلجأ الى القضاء المختصّ الذي يفصل بهدوء في تلك النزاعات مستنداً إلى البينات والوقائع الثابتة.

وآخر الأمثلة على ذلك، التحقيق الضخم الذي نشرته مجلة «العلوم والمستقبل» الفرنسية الشهرية (Sciences et Avenir) في عدد تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٧، ودعمته بالوثائق والتقارير الثبوتية، مع إفادات المرضى ومطالعات الخبراء، مؤكدة في سياقه أن ثلث المستشفيات الخاصة والعامة في فرنسا يفتقر إلى مقومات فنية وكفاءات بشرية متقدمة، وهو ما يعرّض الملايين من زبائنها «لخطر جسيم وضرر بالغ» بسبب مخالفات وأخطاء طبية لا تغتفر ـ كما يقول التحقيق ـ وذلك في أقسام التوليد والبنج والجراحة العامة، خصوصاً.

وأحصت المجلة ٤٧٨ مؤسسة استشفائية في ٣٧٨ مدينة فرنسية سجلت فيها مخالفات وأخطاء قاتلة عامي ١٩٩٥ و١٩٩٦، بينها ٢٥٥ مستشفى حكومياً، و٢٠٧ مستشفيات خاصة، و١٦ مركزاً استشفائياً جامعياً. كما فنّدت المجلة الحالات التي وقعت فيها التجاوزات، وظروف الإهمال والنواقص والأخطاء الجراحية في هذه المؤسسات جمعاء بالأرقام والأسماء، ونشرت لائحة كاملة بالوفيات والإعاقات التي نشأت عن التقصير. وكان عنوان التحقيق الصحفي المذكور: «لائحة المستشفيات السوداء».

وقد أحدث هذا التحقيق الخطير الذي نزل إلى الأسواق في أواخر أيلول (سبتمبر) زلزالاً هائلاً في فرنسا بأسرها. وفيما بادر بعض المستشفيات المتهمة إلى الرد بنشر وقائع وأرقام تثبت براءتها، وبادرت مستشفيات أخرى إلى الإدعاء على المجلة أمام القضاء، تفاوتت تعليقات النقابات والهيئات الطبية والاستشفائية والمراكز الجامعية ونقابات العمال والمهن الحرة والقطاعات الانتاجية والأحزاب السياسية، بين التزكية والتحفظ، لكن معظمها اعترف بالتقصير.

أما الدولة، فأقرت علنا بصوابية التحقيق، وبادر مجلس الوزراء فوراً بتاريخ ٢٤ أيلول (سبتمبر) إلى تخصيص خمسمئة مليون فرنك لدعم تحديث المستشفيات وتجهيزها، وقال برنار كوشنير وزير الصحة الفرنسي في تصريح نشرته صحف باريس في ٢٥ أيلول (سبتمبر): «يجب أن نملك دائماً الجرأة على إعلان الخطأ والاعتراف به، لكي تكون لنا القدرة على تصحيحه».

* * *

لم يبق مواطن في فرنسا وفي الغرب كله، إلا وشعر بالهزة العنيفة التي أحدثتها مجلة «العلوم والمستقبل». ولم يبق مسؤول في الحكم أو في الطب وسائر المهن الحرة ومختبرات العلم وقطاعات العمل، إلا وانفعل بالحدث الرهيب سلباً أو إيجاباً.

لكن صوتاً واحداً في أوروبا وغيرها، وخصوصاً في البلاد التي انجبت أطباء وعلماء أمثال آمبرواز پاريه، ولويس پاستور، وماري كوري، وجان برنار، ولوك مونتانييه، لم يرتفع ليقول: أسكتوا هذا الإعلام. وأخفوا الحقيقة على الرأي العام. لأننا مجتمع آلهة لا يخطئون!!.

١٩٩٧/١١/١

Post-Scriptum

أنصح اللذين يكابرون ولا يريدون الانضمام الى حزب الناس وحزب الحقيقة في هذه القضية الوطنية والانسانية الكبرى، ولا يرغبون في تصحيح الانحراف بل يصرون على اعتباره شرفاً واستقامة، ألا يتعبوا أنفسهم بالرد عليّ تكراراً في أي وسيلة اعلامية، لأنني لن اشتغل بعد الآن في الدعاية لهم من خلال أي جواب.

ثائر يطالب بحقّ الجياع

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له:
إياك إياك أن تبتلّ بالماء

لأن الاعتماد على قوة خارجية ما شرط أساسي للعمل السياسي في لبنان...

ولأن رجل السياسية الذي يستمد قوته من الشعب فقط يكاد يكون مفقوداً بعد زوال الرعيل الأول من الزعماء الوطنيين الفدائيين...

ولأن معظم الأحزاب السياسية لا يزال يستر عورته الطائفية بالخطاب الوطني الزائف، كما يستر ولاءه للمرجعيات الغربية بالكذب على محازبيه ومعارضيه معاً فيما يتلقى المساعدات المالية من ولاة أمره في الخارج...

ولأن المواطن اللبناني الذي لدغ من جحر العمالة ألف مرة طيلة خمس وخمسين سنة من الاستقلال المعاق، لم يعد يؤمن أن هنالك حركة سياسية نظيفة، أو زعامة سياسية منزّهة، أو عقيدة وطنية خالصة مما يشوه أو يهدم أو يفرّق...

ولأن التجارة أصبحت شرعة الوطن ودينه، بل قدس أقداسه، وقد أسس علوج الكسب والنهب شركات عالمية لهذا الغرض وحولوا البلد إلى منطقة حرة للبضائع والسلع يتاجرون في مساحتها الضيقة بكل شيء... من حشد الجماهير إلى بيع تماثيل المتحف وخشب الأرز، إلى طحن صخور الجبل واستملاك سِيف البحر، فضلاً عن تسويق المولدات الكهربائية والطوابع الأميرية المزورة وبوالص الشحن الوهمية وأفلام الدعارة ومستحضرات رجوع الشيخ إلى صباه(*)...

لهذه الأسباب وغيرها مما يجري في «مغارة علي بابا» حيث يتصارع الغيلان والقراصنة على الجواهر المنشودة وكنوزها المرصودة... لا يصدّق أحد أن الشيخ صبحي الطفيلي رجل مؤمن شريف يعمل بوحي ضميره وإرادة ربّه، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، طالباً حق الجياع من الضباع!.

فهو إن لم يكن مدفوعاً من «الطليان»، أو جماعة محمد لويس الفرقان، لا بدّ أن يكون قبض من الأكوادور أو البرازيل أو حتى إسرائيل!.

وإلا فمن أين أتى بالمال والسلاح؟!

وهل يعقل ألا يكون مرتبطاً بقوى عظمى تسعى إلى التقسيم؟!

وإلا فلماذا المهرجانات الشعبية ومجلس الأعيان وتحريم دخول المنطقة على أي كان من خصومه في الحكومة والبرلمان؟!

لقد عجزت دولة الفرسان الثلاثة، عن إشباع البطون الخاوية في مجلس الطرشان. فكيف يستطيع هذا الشيخ المنتوف أن يقري الجياع والعشرات الذين يمثلونهم في مجلس الأعيان دون أن يكون متكلاً على مرجع غريب، كائناً من كان؟!.

* * *

الواقع أن الطبقة السياسية عندنا لا تستطيع أن تفهم معنى الثورة أو الانتفاضة أو العصيان، لأنها طبقة مترهلة منذ عقود، بل هي رهينة المحبسين: الخضوع التام والتبعية المطلقة لمن يحركون دماها من وراء الستار، ثم الأرباح والمكاسب التي تجنيها من تسلّطها «الشرعي» على موارد الأمة.

وتفترض هذه الطبقة القابعة في نعيم «الاستابليشمانت» أن الجوع غير موجود، لأنها لا تشعر به. فهي في مرايا نفسيتها الكفية الغنية لا ترى إلا وجهها المكتنز بالشحم واللحم، ولا تتصور إطلاقاً أن هناك فقيراً مريضاً معدماً يبحث في القمامة عن بقايا خبز تساقط عن موائدها وتعفن في أكياس نفاياتها، أو أن هنالك أجيراً عاجزاً عن دفع الضرائب الفاحشة التي فرضت عليه، أو مزارعاً كافح سنة كاملة في خدمة بستانه، حتى إذا آن الأوان للإفادة من ثمرة جهده وعرق جبينه صُكّت أمامه أبواب التصريف، واضطر إلى إتلاف زرعه أو إلقائه في البحر، إلخ...

ثم إن هذه الطبقة السياسية التي تعودت الاستهزاء بالشعب واستغلال حساسياته الطائفية والمذهبية للإمعان في تفريقه وتمزيقه، سرعان ما تضطرب وتفقد إتزانها عندما تواجه ظواهر وطنية لا تجد لها تفسيراً في قاموسها المحدود، كظاهرة الشيخ صبحي الطفيلي.

فهنالك ظواهر مشابهة لهذه الظاهرة أصلاً، وإن اختلفت شكلاً عن «ثورة الجياع» في تاريخنا الحديث، سبق وأجبرت السلطة على تنكيس البنادق وسلوك سبيل الحوار مع أصحابها.

ذلك أن البطريرك الماروني مار انطونيوس بطرس عريضة أعلن في الثلاثينات حرباً لا هوادة فيها على المفوض السامي الفرنسي والحكومة اللبنانية المؤتمرة بامره، بسبب مشروع الاحتكار لصناعة التبغ وزراعته الذي تجسد لاحقاً في شركة الريجي. وكان البطريرك حريصاً على حرية هذه الزراعة في الجنوب وغيره، وعلى استقلال المعامل الوطنية للسجاير، وذلك لعلمه أن الاحتكار سينزل ضرراً فادحاً بالمزارعين

والصناعيين على حد سواء، وتبين فيما بعد أنه كان على حق.

وقد أثار غبطته في الوقت نفسه عاصفة من الاحتجاج ضد الفرنسيين الذين أغرقوا الأسواق اللبنانية والسورية بالجلود والأنسجة الحريرية المصنوعة في مدينة ليون وغيرها من مدن فرنسا، مما انزل بالدباغة وانتاج الحرير في لبنان وسوريا ضربة قاسية لا تزال البلاد تتحسس نتائجها السلبية إلى اليوم.

ونشير هنا إلى أن الصراع بين البطريركية والدولة وصل يومذاك إلى حد التهديد بالعصيان المدني، مع أن الموارنة كانوا محسوبين على فرنسا في ذلك الحين، بمقدار ما يبدو معظم الشيعة اللبنانيين، وفي طليعتهم الشيخ صبحي الطفيلي، مؤيدين لسوريا اليوم، وموالين عموماً للحكومة اللبنانية المحسوبة عليها. وهو من المصادفات التاريخية التي تؤكد انه لا موالاة ولا معارضة يمكن أن تعلو على الحق إن هو حصحص وتدثّرته الضمائر الحية.

وثمة مثل آخر يرد في هذا المجال، هو مثل النائب الشيعي الأسبق عبد الله الحاج الذي كان يدعو المحرومين إلى العصيان المدني في عهد الرئيس كميل شمعون. فقد استعملت الدولة كل قواها لإسقاطه في انتخابات ١٩٥٧ التي سقط فيها بضغط من السلطة زعماء كبار أمثال صائب سلام وكمال جنبلاط ورشيد كرامي وغيرهم. لكن شمسية عبد الله الحاج كانت أصلب وأمضى من سيف السلطان، فحمل تلك الشمسية وقام بحملته الانتخابية في دائرة المتن الجنوبي (بعبدا) مشياً على الأقدام، من بيت إلى بيت. وكان فقيراً معدماً لا يملك سيارة، فذرع تلك المنطقة من ساحل الشياح إلى جرود المديرج متكلاً على نفسه، مؤمناً بالله، واثقاً من عدالة الشعب. ويقول أحد المسؤولين الذين أشرفوا على فرز الأصوات في وزارة الداخلية يومذاك: «كان اسم عبد الله الحاج ماثلاً على كل لائحة وفي جميع الصناديق، بحيث أننا لو لجأنا إلى التزوير، وكنّا في الواقع عازمين عليه، لأسقطنا عبد الله الحاج ومعه جميع الموالين»!

* * *

بعد هذا أقول أن الرئيس الحريري فهم ما لم تفهمه السلطة المدنية والعسكرية من حركة صبحي الطفيلي، ذلك أن المنطقة التي اختارها الطفيلي منطلقاً لثورته حرموها مورد رزقها الأساسي دون أن يقدموا لها أي بديل.

فقد كانت زراعة الأفيون والقنّب الهندي تعود على لبنان بأسره، لا على منطقة بعلبك ـ الهرمل وحدها، بما يربو على ٥ مليارات دولار كل سنة. فاستراحت أميركا، ومن حقها أن تستريح، لكن من

حقنا أيضاً أن نقبض ولو بعض الثمن الذي قبضه غيرنا. ومن منا يستطيع أن يلوم اناساً حولهم سوء التدبير وظلم المصالح الدولية في هذا المجال، من زراع نبات محرّم إلى تجّار سيارات مسروقة؟ لقد أرغموهم على الانتقال من كسب حرام إلى كسب أكثر من حرام، دون أن يفتحوا أمامهم باباً واحداً للكسب الحلال. وها هم يطاردون «ابن الحلال» مهددين متوعدين، لأنه شجعهم على العصيان تبعاً لشريعة الغاب القائمة في لبنان والتي تقضي أن يحصّل المرء حقه بيده.

٨/ ١١/ ١٩٩٧

(*) بالاضافة إلى التماثيل والعينات الأثرية المسروقة من المتحف الوطني وهياكل بعلبك وغيرها خلال الحرب، والتي تحاول الدولة استردادها عبثاً ولا يزال معظمها في حوزة هواة أثرياء مجهولين، فقد أسرّ إليّ صديق لبناني يعيش في الولايات المتحدة أن هنالك شركة يهودية تعنى بشراء خشب الأرز اللبناني بأسعار خيالية، وترسله إلى إسرائيل لاستعماله يوماً ما في بناء هيكل سليمان الجديد على انقاض المسجد الأقصى. وقد أكد لي صاحبي نقلاً عن بعض مراجع الشركة المذكورة، أن الطيران الحربي الإسرائيلي يلقي منذ بضعة عشر عاماً على غابة الأرز الكبرى في بشري، وعلى أرز تنورين وأرز الباروك، مواد مسمومة تؤدي إلى يباس تلك الغابات، فيبادر مجهولون من عملاء الشركة المذكورة إلى قطعها دون اعتراض أحد، ويرسلونها إلى إسرائيل عبر مؤسسات للشحن في إيطاليا واليونان!!!

٣٠٠٠ سنة
في ابتسامة الشيخ السائح

لم تترك الصحافة اللبنانية والأوروبية فسحة لمزيد ينشر حول زيارة الرئيس الإيطالي أوسكار لويجي سكالفارو التخصيصية للبنان، سواء فيما يتصل بالعلائق الاقتصادية والميزان التجاري بين البلدين، أو بالمشاريع الإنمائية التي تنفذها الشركات الإيطالية في لبنان والتي تناهز أكلافها ٧٠٠ مليون دولار، أو غير ذلك من دواعي الحماسة الإيطالية لانسحاب إسرائيلي وشيك من الأراضي اللبنانية تنفيذاً للقرار ٤٢٥، وسعي إيطاليا ضمن المجموعة الأوروبية إلى إقامة سلم عادل وشامل بين الدولة العبرية وجيرانها.

وقد أسهبت وسائل الإعلام في التركيز على شخصية الرئيس سكالفارو ونضاله ضد الفاشية في الحرب العالمية الثانية، ثم اضطلاعه بالمسؤوليات الإدارية والسياسية طيلة نصف قرن، تبوأ في أعقابها منصب الرئاسة، وتكفل شرعية العبور بالبلاد من حكم الأوليغارشية الحزبية الفاسدة التي أطاحتها الحركة القضائية التصحيحية، إلى حكم ديموقراطي ديناميكي يتقرّى اتجاهات الإرادة الشعبية دونما احتكار لمراكز القوى.

إلا أن أحداً لم يتوغل في البعد الإنساني والتارخي لهذه الزيارة. وفيما تبادر إلى خلفية بعض الأذهان الليڤانتينية المسيّسة أن الرئيس الإيطالي عبّر عن تأييد غير مباشر لمشروع «لبنان أولاً» من خلال زيارته لبنان أولاً، قال آخرون أنه وقف هنا بباب الشام أو المدخل الطبيعي للولايات السورية (Les Provinces Syriennes) ـ كما يسمي المؤرخون القدامى بلاد المشرق القائمة على شطئان بحر الروم أو «بحيرتنا الرومانية»، بالتعبير اللاتيني (Mare Nostrum) ـ وأضاف هؤلاء أن الدليل القاطع على بعد الرئيس كل البعد عن مشروع «لبنان أولاً»، اهتمامه الخاص بالجنوب، ووقوفه على ضرائح الشهداء في قانا، وزيارته المعاقين من ضحايا الجرائم الإسرائيلية في الصرفند وغيرها.

* * *

ومهما يكن من أمر، فقد خفقت

قلوب اللبنانيين حباً واحتراماً لذلك «الشيخ السائح» وهو يتأبط ذراع إبنته الأنيقة، وفي ابتسامته المؤثرة الصافية حكايات ثلاثة الآف سنة من تواصل حضاري بين «الجزمة» الإيطالية و«النعلة» اللبنانية، يغتسلان معاً في الأبيض المتوسط، وينشران معاً ألوية المعرفة وأشرعة الإبداع والعبقرية من سواحل فينيقيا إلى أعمدة هرقل[١].

ثلاثة آلاف سنة كانت سجالاً بين هذا المنقلب من الأرض وذاك، غلبتنا خلالها روما وغلبناها مراراً. فما زالت جبال الألب وسهول البو تصطك تحت سنابك الخيل التي ساقها هنيبعل القرطاجي ابن هملقار الصوري، من عمق أفريقيا إلى «المدينة الخالدة». وصحيح أن الرومان قهروه، فدمر قائدهم «سيبيو» قرطاجة الفينيقية وزرع في ترابها الملح كي لا تنبت أبداً ولا تنجب رجالاً أشداء. لكن «الولايات السورية» عادت وانتقمت بأسلوب آخر، فاعتلى سبعة عشر ملكاً من رجالها الأشداء عرش روما وعرفوا بالأباطرة السوريين، أشهرهم سبتيموس سويروس، وكركلا، وهيليوغابال، والكسندروس سويروس.

ولم يكتف اللبنانيون والسوريون والفلسطينيون الأوائل بنشر الأبجدية التي حملها قدموس الفينيقي إلى ضفاف الأدرياتيك والبحر التيراني[٢]، بل صدروا إلى روما الإنجيل منذ فجر المسيحية على يد بولس الرسول، وأسسوا فيها كنيسة بطرس التي نصرنت الغرب وجذبت إلى قبلتها الفاتيكانية بعد سقوط القسطنطينية طوائف مسيحية راسخة الجذور في هذه المنطقة الريادية المقدسة.

وكان للإسلام فيما بعد تألق حضاري عظيم الأثر خلال بضعة قرون في إيطاليا بأسرها، وخصوصاً في صقلية وسردينيا حيث تبدو السمات العربية في الوجوه، والتقاليد العربية في المجتمع المدني والريفي، كما تتجلى الحماسة العربية في صراع القبائل والعائلات الشرقية المتغربة، حتى ليحسب الزائر المتنقل في تلك المناطق وهو يراقب هرولة الناس بين المعالم والصروح العربية القائمة إلى اليوم، أو يتابع صخب أصواتهم وقرقعة لهجاتهم، إنه في بيروت أو اللاذقية أو طرابلس، أو في دمشق أو صيدا، أو في دساكر وأحياء القدس العربية وغزة والخليل.

ولا ننس الحركة الفكرية التي ازدهرت في باليرمو عاصمة صقلية من القرن التاسع إلى الرابع عشر خلال الفتح العربي للجزيرة وبعده، حيث نقلت معظم الآثار العلمية والفلسفية والأدبية من العربية إلى اللاتينية، وكانت عملية النقل والترجمة هذه منطلق النهضة الإيطالية الكبرى في الفكر والفن والكشوف العلمية

الجغرافية التي أسست لتفوق أوروبا من ذلك الحين إلى يومنا هذا.

ولم يكن غريباً على الإطلاق، والحضارة العربية الإسلامية في أوجها يومذاك، أن يحتضن ملوك صقلية عدداً من كبار علماء المسلمين أمثال الشريف الأدريسي الذي عاش في بلاط الملك روجر وصنع له كرة مستديرة رسم عليها خريطة الأرض، فأوحى من خلال ذلك لغاليليو وكوبرنيك بنظريات الحركة الكونية ودوران الكواكب، كما لم يكن غريباً على الإطلاق إن يتعلم البابوات والأباطرة والملوك في شبه الجزيرة الإيطالية والجزر التابعة لها، لغتنا العربية، وهي لغة العلم والثقافة والتجارة في ذلك الحين، وأن يعلّموا طب ابن سينا ورياضيات الخوارزمي ونباتات ابن البيطار وفلسفة ابن رشد وموسيقى الفارابي في جامعاتهم، وأن يراسلوا الخلفاء والملوك والقادة المسلمين، وينظم بعضهم الشعر باللغة العربية. كما نظم وأجاد الأمبراطور فريدريك الثاني دي هوهانستوفن.

* * *

وقد ردت لنا إيطاليا ما استلفته منا سابقاً، فأمدّتنا في عصور الانغلاق العثماني بكل جديد حضاري، من فن العمارة، إلى الإزياء والملابس، والقوانين البحرية، وأثاث البيوت، وأصول الطبابة والاستشفاء، والعلوم الاختبارية، والزراعة، والحرف اليدوية، والمهارات المتنوعة... وذلك خصوصاً في لبنان منذ عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير الذي تحالف مع إمارة توسكانا، ونفي إليها، ثم عاد منها لينتصر باللوجستية الإيطالية والبسالة اللبنانية على ولاة العثمانيين ويوسع حدود إمارته من مشارف حلب إلى عمق فلسطين.

وكان من جراء هذا التفاعل الرائع طيلة خمسة قرون، أن انتشرت الكلمات الإيطالية في لغتنا المحكية حتى باتت لا تعد ولا تحصى، كالبالكونا (Balcone) والترّاسينا (La terrassina) والبندورة (Pomodoro) والبلاطة (La Plata) والبندا (La Banda) والفيراندا (La Veranda) والكوموديـنا (La Commodina) والمارتاديلا (La Mortadella) والترابيزا والفيترينا والبوصلة والبوليصة... ومئات الكلمات الأخرى التي تؤدي طائفة كبرى من المعاني في مختلف ميادين الثقافة والحياة.

ولو كان بيار دانينوس صاحب كتاب «دفاتر الميجر طومسون»[٣] حياً يرزق، لوجد مادة غزيرة في السلوك اللبناني والإيطالي، من روح الدعاب وأسلوب التندر، تمتزج معها الحقيقة بالخيال، ودوّن في دفاتره مفارقات ومطابقات وحكايات لا نتمالك أنفسنا

حيالها عن التمثل بالقول المأثور: «شر البلية ما يضحك»!

ففي ملامح كل إيطالي، خصوصاً أبناء الجنوب، عروب صريح يذكرنا باستعلاء المتنبّي وفروسية أمرئ القيس. وفي أسارير كل مغامر لبناني شيء من ثورة غاريبالدي، وصلابة «العرّاب» الصقلي، ودموية «المافيوزو».

ولعل أروع لص ظريف لقيته في حياتي، هو ذلك الذي خدعني في باريس وما أنا ممن يخدعون بسهولة. ففي صبيحة يوم رمادي كئيب من خريف السنة ١٩٩٢، كنت أذرع شارع «بينّا» في العاصمة الفرنسية، وإذا بسيارة أنيقة من طراز «فراري» تقف أمامي ويخاطبني سائقها بلهجة مصرية: «اسمع يا بيه. أنا إيطالي في ورطة. خسرت كل فلوسي أمس في الكازينو، وما بقاش معاي إلا البالطو دا من الجلد الأصلي (ماركة ڤالنتينو) اشتريته هدية للستّ بتاعي بثمانية الاف فرنك. أنه لا يزال في غلافه النايلون وأنا مستعد للتنازل عنه مقابل ألف فرنك فقط أملأ بها خزان السيارة دي بالوقود كي أصل إلى روما. فارحمني الله يرحمك...».

قلت، وأنا أتلمس نقودي القليلة ولم يخطر ببالي لحظة أن الرجل محتال: «لقد أخطأت الهدف يا صاحبي. فأنا أيضاً اقتّر على نفسي لتأمين بطاقة سفري إلى بيروت».

وكأنما هبط على مخاطبي وحي آخر في تلك اللحظة. فقفز من السيارة في الحال، وضمني إليه، ثم راح يقبلني هاتفاً: «بيروت. بيروت. لبنان. أخي. حبيبي. ظننتك مصرياً أو جزائرياً أو كويتياً. لا أريد شيئاً. خذ هذا البالطو وأعطني فقط ٥٠٠ فرنك ثمن البنزين. مبروك على زوجتك. فكأني قدمته لزوجتي!».

كان ذلك الاندفاع مثالياً إلى حد أن دمعة ترقرقت على خدي من فرط ما تأثرت. فهدّأت من روع الرجل الذي كان يتظاهر بالبكاء، وناولته ورقة ٥٠٠ فرنك، ثم أخذت السترة وتابعت طريقي.

لم يكن بقي أمامي غير مئتي متر تقريباً لكي أصل إلى محطة المترو، وقد أخذ رذاذ المطر يتساقط علي وتصفعني ريح الشمال الباردة. فأزلت غلاف النايلون عن السترة الثمينة وتمنطقتها غير حافل بطرازها النسوي. ولما دخلت حافلة القطار أخذ الناس يحدقون بملابسي ويتهامسون ضاحكين. فاقتربت من أحدهم وسألته لماذا تضحكون. فقال لي: «ألا ترى أنك ملون بالأحمر من أذنيك إلى قدميك؟!».

عندها تأكدت من أمرين: الأول أن السترة كانت من نوع خسيس وذات طلاء أخسّ. والثاني أن اللبناني الذي يخدع العالم بأسره لا يخدعه إلا الطليان.

* * *

وبعد. لو تعاون اللبنانيون والإيطاليون على خداع الدنيا لما وقف بوجههم أحد. وقد شهدنا تعاونهم في مسألة النفايات الصناعية السامة التي استوردها اللبنانيون وشركاؤهم الطليان خلال الحرب وبعدها ودفنوها في لبنان. فقد وقعت القرعة في التخلص منها آخر الأمر على الألمان والفرنسيين، فيما كان اللبنانيون يقولون: «الحق على الطليان» والايطاليون يقولون: «الحق على اللبنانيين».

وهل كان بالإمكان إيجاد وزير للمالية في بلادنا قادر على اصطياد أموال الناس بالخدعة، أمهر من الوزير السنيورة الذي يمتزج في عروقه دم جدته الـ (Signora) الإيطالية وجده اللبناني الصيداوي «أبو العجب»؟!.

فقد سمعت أن الوزير السنيورة قرر إنشاء حاووز في وسط بيروت على شكل حاووز «تريفيا» في وسط روما، يلقي في صحنه العشاق بقطعة نقدية مع إضمارهم تحقيق أمانيهم في الغرام... عندها تفرغ جيوب الصغار من الفضة والنضار لتمتلىء بهما جيوب الكبار، عسى أن يزهدوا في المال الحرام.

* * *

لاكي لوشيانو الاميركي الإيطالي الأصل، كان هو أيضاً والشيء بالشيء يذكر، ابن سنيورة. لكنه كان مجرماً خطيراً من زعماء المافيا أطلقه الاميركيون سنة ١٩٤٤ من سجن «ألكاتراز» وأرسلوه إلى إيطاليا حيث مهد لنزول الحلفاء بالجزمة في أطراف «الجزمة»، لتدمير أمبراطورية الدوتشي بينيتو موسوليني... وهكذا «لكلّ زمان دولة ورجال».

١٩٩٧/١١/١٥

---

(١) «أعمدة هرقل» هو الاسم الذي كان يطلقه القدماء على مضيق جبل طارق، أو الطرف الأغر.

(٢) البحر التيراني أو بالفرنسية (La mer Tyrrhenienne) ربما كان اسمه عائداً إلى مدينة صور، بالفرنسية (Tyr).

(٣) Pierre Daninos: Les Canets du major Thompson - Hachette, - Paris, 1945.
وهو كتاب نقدي فكاهي يغمز فيه صاحبه بأسلوب جذّاب من قناة الفرنسيين مسلكاً وطباعاً.

الإذاعة البريطانية في يوبيلها الماسي

توجت هيئة الإذاعة البريطانية «بي.بي.سي» مرور خمسة وسبعين عاماً على إنشائها، باحتفالات رسمية وندوات تاريخية وبرامج من وحي المناسبة، على موجاتها المرئية والمسموعة، بدأت في ١٧ تشرين الأول الماضي، وافتتحت خلالها الملكة إليزابيت معرضاً دائماً لهذه الشبكة العالمية المالكة سعيداً في ميادين الإعلام، بأسلوب رفيع يتنبأ وهو ينبئ، ويبلغ بالإشارات النابعة من الكلمات، لا بالكلمات الصادرة عن الرغبات...

وإذا كانت «بي.بي.سي» تبث اليوم بـ ٤٣ لغة على مدار الكرة الأرضية، وتملك أحدث نظام عالمي للإذاعة والتلفزة، كما تستخدم الأقمار الصناعية والتقنيات الرقمية المتطورة، فإن ذلك لم يتحقق بقوة رأس المال أو روح المغامرة التجارية التي حولت الإعلام في معظم الدول من آية ثقافية نافعة إلى آفة بائقة مثيرة للغرائز، بل بجهد رعيل مارد صابر من حملة الأقلام والمفكرين والباحثين وأهل التقانة والاختصاص شبّ معظمه وشاب في تأدية رسالة إعلامية مثالية على الصعيد الإنساني.

ومن دواعي إحترامنا لهذه المؤسسة الرائدة وتحزّبنا لها، أن اللغة العربية كانت إحدى اللغات الخمس الأولى التي اختارتها لتقديم البرامج ونشرات الأخبار في الثلاثينات. كما إنه من دواعي فخرها واعتزازها أن تكون نسبة المستمعين العرب إلى تلك البرامج والنشرات، بحسب آخر الإحصاءات المتوافرة، أعلى نسبة بين شعوب الأرض قاطبة.

فقد توالى على القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية منذ تأسيسه لغويون وأدباء من أعلام العرب طوروا لغة البلاغ الإعلامي، واستحدثوا الاشتقاقات القياسية والتعابير الجديدة التي تجري اليوم على كل شفة ولسان وتعتمدها الإذاعات العربية والصحافة والتلفزة معجماً موثوقاً ومرجعاً صالحاً لا جدال في صوابيته ومحكم بيانه.

أما على الصعيد الثقافي والاجتماعي، فإن المعلومات الحديثة والحقائق العلمية الثابتة والتوجيهات الإصلاحية التي تقدمها الـ «بي.بي.سي» للإنسان العربي حيثما كان، منذ أكثر من

نصف قرن، قد أخرجت ذلك الإنسان من كهوف عزلته الدهرية، وأمنت له سياحة مجانية في الآفاق العريضة، كما أزالت غشاوة الجهل وضبابية التردّد عن بصره وبصيرته، بالخبر اليقين والمعرفة الدقيقة، وكان لها أعمق الأثر في كبح طغيان الرجل وتخفيف آلام المرأة، وذلك عبر مناقبية نموذجية تكرس الفضائل والأخلاق التراثية ولا تنزلق أو تجنح قيد أنملة باتجاه المنحدر الذي يدفع بالحضارة المعاصرة نحو الهاوية. ولو أخضعنا برامج الإذاعة البريطانية منذ الحرب العالمية الثانية إلى يومنا هذا، لفحص هادف ودقيق، لاكتشفنا أنها أسهمت إلى حد بعيد في توحيد المصطلح العلمي والأدبي بين المشرق والمغرب، وشجعت باستمرار كل نتاج أصيل وإبداع خارق في الأدب والعلم والفكر والفن والشعر والموسيقى والفلسفة والتربية، ولم نلحظ على الإطلاق في أدائها المتواصل أي ارتباك أو عثار أو نشاز.

وأما على الصعيد السياسي، فقد خدمت الإذاعة البريطانية مبادئ الوحدة العربية والتضامن العربي أكثر مما خدمتها أي دولة أو حزب سياسي أو مؤسسة إعلامية في العالم العربي، ذلك أنها أملت من خلال رصانتها وموضوعيتها على أجيال من القادة والزعماء ورؤساء الأحزاب وأصحاب النظريات الأيديولوجية والعقائد الدينية، دروساً في التزام التقية والتحلي بفضيلة الصبر، والاعتراف بالآخر وإحترام رأيه وموقفه، وتبدئة الحوار الهادئ على التلاحي المعيب، ودفع الخصومة بسعة الصدر وهيبة الحلم الذي يتوج أخلاق الملوك، والرصانة التي تعصم المرء عن المهانة، والإقناع الذي يغني عن ركوب الأسنة وإحتراف الصراع.

وقد استطاعت الـ «بي.بي.سي» أن تحافظ على استقلالها التام بوجه ضغوط الأنظمة السياسية العالمية بدءاً بالحكومات البريطانية نفسها. فمارست رقابة صارمة على رجال السياسة ومؤسسات الحكم في الداخل، ولم تهادن أي نظام في الخارج تجاوز حد السلطة أو تمادى في سلوك انتهازي منحرف أفقده ولاء شعبه، حتى ولو كانت للدولة البريطانية علائق ممتازة مع ذلك النظام ومصالح أساسية حيوية تفرض مسايرته.

كذلك حافظت الإذاعة البريطانية على حياد نسبي قوامه الاحتكام إلى العقل دون العاطفة، في مختلف النزاعات الإقليمية والدولية، حتى إبان الحرب الباردة، فلم تقطع شعرة معاوية مع أي فريق، واعتمدت نهجاً فريداً في النقد السياسي يدفع بالجانب المتورط في الخطأ والانحراف إلى تقويم أعوجاجه بنفسه،

وذلك بأسلوب التأثير المهذّب غير المباشر، ودونما إكراه أو محاباة.

واذكر، فيما اذكر، من شواهد الحرص الدائم على ضبط النفس أن الـ «بي.بي.سي» سرّحت عدداً من البريطانيين العاملين في جهازها عام ١٩٥٦ خلال العدوان الثلاثي على مصر، بعدما ثبت انحيازهم إلى سياسة أنطوني أيدن العدوانية. وقد تبين أن هيئة الإذاعة البريطانية كانت أبعد نظراً من حكومة أيدن بإتخاذها ذلك التدبير، لأن الشعب البريطاني أسقط أيدن وحكومته بعد فترة وجيزة من العدوان الفاشل، على الرغم من كون الرجل أحد أبطال الحرب العالمية الثانية.

ولم تكن هذه المؤسسة ذات الإدارة الصارمة في الأمور المسلكية أقل حزماً عندما صرفت بعض المشاهير الثقات من محرري القسم العربي ومذيعيه الذين لم يستطيعوا السيطرة على عواطفهم القومية خلال حرب حزيران ١٩٦٧، فانحازوا إلى مصر وسوريا والأردن في المعركة ضد إسرائيل عبر نشرات أخبارهم وتعليقاتهم. وقد تم تسريح هؤلاء في حينه، ثم اعيدوا إلى مراكز عملهم بعد أن هدأت الخواطر واندملت إلى حد ما جراح الهزيمة في النفوس، لأن غيابهم ترك فراغاً هائلاً في القسم العربي يصعب ملؤه بالأقلام والأصوات الجديدة المتعثّرة.

ومهما يكن من أمر، فإن الرأي العام البريطاني يعتبر الـ «بي.بي.سي». لؤلؤة نادرة في تاج المملكة المتحدة. وفي كل مرة كانت ترتفع أصوات في مجلس العموم مطالبة بتصفيتها أو تخصيصيّة فروعها وأقسامها أو خفض موازنتها السنوية البالغة ٤ مليارات دولار، وهو مبلغ يرهق الخزانة العمومية، ولا يقابله أي مردود إعلاني، لأن المؤسسة لا تقبل الإعلانات من أي نوع كانت، خلافاً لما يجري في إعلام القطاع الخاص... في كل مرة كان البرلمان يبحث هذا الأمر، كانت الصحافة البريطانية ومن ورائها الرأي العام ومراكز الفكر والثقافة والعلم والفن والهيئات الاجتماعية والاقتصادية كافة، تهبّ مدافعة عن الـ «بي.بي.سي». رافضة اي انتقاص من أعتماداتها أو مساس بحرمة كيانها.

ذلك أن ما تقدمه بريطانيا لهذه المؤسسة هو كناية عن هبات مادية زائلة، أما ما تقدمه المؤسسة لبريطانيا فهو تراث معنوي خالد لا يزول.

* * *

كان هرم بن سنان أحد أثرياء العرب وأجوادهم في الجاهلية. وكان الشاعر زهير بن أبي سلمى يمدحه فيجزل له العطاء. وصدف بعد وفاة الرجلين أن إلتقى كعب بن زهير أحد أبناء هرم. فقال هذا لكعب مستكبراً: «لقد

أعطينا أباك مالاً كثيراً مقابل شعره!».

فأجابه كعب: «لكن ذهب الذي أعطيتموه، وبقي الذي أعطاكم»...

١٥/ ١١/ ١٩٩٧

تأديب الحاكم باغتيال الشعب
تحية عسكرية أميركية لصدام

عندما قرر الرئيس صدام حسين ضم الكويت إلى العراق مدعياً أنها المحافظة العراقية التاسعة عشرة سنة ١٩٩٠، أخطأ خطأ تاكتيكياً جسيماً، للأسباب الثلاثة الآتية:

* أولاً: لأنه - حتى ولو تم التسليم جدلاً بأن الكويت جزء من العراق، تاريخياً وجغرافياً وبشرياً - لم يقدّر أن احتلالها يشكل سابقة خطرة ومرفوضة من شأنها أن تزلزل النظام العالمي وتستتبع تبدلات فوضوية مخيفة على خريطة الجغرافيا السياسية الدولية التي اكتسبت مناعة الأمر الواقع بمرور الزمن.

ولو سلم المجتمع الدولي في ذلك الحين بضمّ الكويت إلى العراق، لكان لبنان اليوم جزءاً من سوريا، والسودان وليبيا جزءاً من مصر، وإمارات الخليج جزءاً من السعودية، وسلطنة عمان جزءاً من اليمن، والنمسا جزءاً من المانيا، ودول البلطيق جزءاً من روسيا، وكورسيكا وترييستا جزءاً من إيطاليا، وبلجيكا ولوكسمبور وموناكو جزءاً من فرنسا، وقبرص ومقدونيا جزءاً من اليونان، وتراقيا الشرقية جزءاً من تركيا، وحتى جنوب العراق جزءاً من إيران، إلخ...

* ثانياً: لأنه - أي الرئيس العراقي - لم يقدّر خطورة مغامرته باعتبارها وقعت في بحر النفط، وليس في البحر المتجمد الشمالي مثلاً، أو في بقعة مجهولة من صحارى القمر... والنفط هو الدم الأسود الذي يجري في عروق الصناعة... والصناعة هي مصدر الحياة الذي اختاره العالم المعاصر بديلاً عن الأرض والعرض والله والأخلاق وكل متاع الدنيا والآخرة، وليس العالم المعاصر مستعداً للتفريط بمصدر الحياة هذا أو الإخلال بتوازن ريعه تلبية لمطامع الأقوياء الذين تمرسوا بإحتكاره أو نوازع الضعفاء الذين تكرّسوا بإزدهاره.

* ثالثاً: لأنه أخطأ الظن في قدرة الشعوب العربية على تجاوز حكامها، وتصور بإندفاع طفولي غير مكتمل الرشاد، ان هذه الشعوب ستهب دفعة واحدة بجماهيرها المتلاطمة أمواجاً من عجاج الحضر إلى فجاج المدر، فتقلب العروش والحكومات وتزحف إلى قلب

المعركة لترد التحالف الزاحف على العراق ولو تآلف من ألف دولة لا من ثلاثين، هارعة إلى النجدة والفداء، في حرب رخيصة الدماء عديمة الرجاء، وصفها الرئيس العراقي بلا تحفظ ولا استحياء بـ «القادسية الثالثة» و«أم المعارك».

ولعل أكبر من خطئه ذاك في إتكاله على تجاوز الشعوب العربية لإرادة حكامها، إغفاله أن العرب اليوم، ومنذ أكثر من أربعين سنة، أصبحوا هملاً منسياً، لأنهم فئتان: قلة لا تجد في جوفها الصغير مكاناً لاستيعاب ما تأكل، فتذهب خيراتها هباءً في العراء، كثرة لا تجد من الخيرات ما تملأ به جوفها الكبير، فتذهب هي نفسها من عض الفاقة والجوع هباء في العراء، دون أن تعني لها القادسية ولا اليرموك، ولا فتوحات ابن الجراح وابن الوليد، ولا العروبة وأمجادها شيئاً.

لماذا رفضوا ان يزول؟!

نعم. لقد فشل صدام حسين تاكتيكيا في غزوه الكويت سنة ١٩٩٠، وكان فشله ذريعاً، لكنه نجح استراتيجياً في المقابل عندما قرر فك الطوق الدولي المصطنع الذي فرض على الشعب العراقي بحجة تأديب الحاكم وتغيير النظام.

وبمقدار ما أساء الرجل التقدير في غزوه الكويت، فقد أحسن التوقيت في رفضه الخضوع «إلى الأبد» لرقابة دولية تفرض حصاراً إبادياً على شعب بريء كي تتسنى لها مطاردة أشباح والتحقق من إفتراضات.

أشباح الأسلحة الكيميائية والجرثومية أولاً. وهي أسلحة يؤكد خبراء الأمم المتحدة أنفسهم أنها زالت من العراق نهائياً. ولو فرضنا إنها مخبأة تحت الارض، فقد أصبحت - كما يقول طارق عزيز استناداً إلى معطيات العلم - غير ذات فعالية على الإطلاق بعد مرور سبعة أعوام على تخزين جراثيمها وغازاتها السامة.

... وأشباح البطاريات الصاروخية ثانياً. وتشهد تقارير الخبير الدولي الأشد والأدهى رالف ايكيوس الذي تعتبره بغداد عدوها اللدود، إنه لم يعد لها وجود في العراق.

... ثم أشباح التقنيات النووية ثالثاً. فهل يعقل أن يتمكن العراق من صنع قنبلة نووية بعد أن مني بأبشع هزيمة في التاريخ، وهجره علماؤه ونبذه العالم بأسره، فتداعى كيانه تحت الغزوات والإجتياحات، كما انهارت وحدته الوطنية، وتسيبت قواه النظامية، وتضور شعبه اليائس جوعاً؟!... وهل يعقل أن يحقق العراق وحده مثل هذا الإنجاز الخارق الذي عجزت عن تحقيقه دول مانعة البنيان وافرة المصادر كتركيا وإيران واليونان ومصر وسوريا وحتى

إسبانيا وإيطاليا؟!

أما الإفتراضات التي لا ينفكون يتحدثون بها، فأهمها أن صدام حسين عازم فور تحرره من أصفاده، على التحول بين ليلة وضحاها، إلى غول يبتلع الكويت وإمارات الخليج، وحتى السعودية وسوريا وإيران!

وهل يستطيع ذلك كله، مع صدره الخاوي وكشحه الطاوي وابنه القعيد وبيته الشتيت وجهازه المخروق وجيشه المهزوم وشعبه المظلوم؟

فوالله، لو كان قادراً على مغامرة بهذا الحجم، لوجب إعتباره من طبيعة الآلهة لا من طينة البشر...

ولكن شتان بين ما يفترضه الأقوياء، وما يؤمنون به ويخططون له...

فالإدارة الأميركية تقول - وقد تكون على حق - إنها لا تثق بصدام حسين، لأنه جبار عنيد لا يؤمن جانبه. ولو رفعت عنه القيود الرادعة، لما عدم وسيلة ما، في غضون سنة أو سنتين أو عشر من السنين أو عشرين، تتيح له الإنقضاض على مصالحها، وإفتراس جيرانه، وتهديد الشريان الحيوي للنفط، وتحويل الخليج بحيرة عراقية يحكم السيطرة عليها فيتحكم بمصير العالم.

ويردف الخبراء الأميركيون الذين عجموا عوده ونكّسوا بنوده، إنه قادر على التحالف مع روسيا أو الصين أو أعدائه الإيرانيين، أو حتى مع الشيطان، لتنفيذ أهدافه، سلماً أو حرباً، وأنه لا يملك أي ضمير يمنعه، إن هو استحصل على سلاح للإبادة الجماعية أن يجرّبه في أي مكان ضد أي كان.

ولو سلمنا بصدق هذا الإدعاء الأميركي واعتبرناه صحيحاً لا جدال فيه ولا مراء، فمن حق المنطق السليم على أصحابه أن يُسألوا:

لماذا لا تزيل الولايات المتحدة هذا الرجل من الوجود وتخلعه بالقوة؟!

وهل كانت عاجزة عن إزالته عام ١٩٩٠ في إبان هزيته وإنهيار دولته وآلته الحربية؟!

وهل كانت عاجزة عن ذلك أيضاً يوم دبّر مؤامرة لاغتيال الرئيس بوش خلال زيارته الكويت عام ١٩٩٣، وقد وصلت صواريخها إلى مركز المخابرات العراقية في بغداد وابتعدت مسافة ضئيلة عن محل إقامته؟!

وهل هي عاجزة اليوم عن الإقتصاص منه شخصياً دون أن تقتص من شعب تحمّل فوق ما يسع أي طاقة بشرية أن تتحمّل من ضروب القهر والذل والتنكيل؟

ما من إنسان على سطح هذا الكوكب يصدّق أن أعظم قوة في العالم غير قادرة على إزالة رجل فرد من الوجود، وهي تخصص عشرات المليارات

لمخابراتها، ومئات المليارات لجيوشها، وتحصي حجارة المريخ بآلات تديرها من الأرض...

فلماذا فضلت واشنطن التي تفاخر وتباهي بدفاعها عن حقوق الإنسان، إبادة الشعب البريء على التضحية بالحاكم والنظام اللذين تقول السيدة أولبرايت أنهما يشكلان خطراً على الإنسانية جمعاء؟!

إنه السؤال المركزي يتردد في الأذهان منذ قيام حرب الخليج، وقبل ذلك عندما بدأت مطامع صدام تظهر للملأ، وقد داخ في أعقاب الحرب العراقية الإيرانية بخمر انتصار مشكوك في حجمه ومداه، وأُوحِيَ إليه بمقدار ما أوحى إلى نفسه أنه بصفته أنه يحمل براءة ذمة من مليون شهيد عراقي سقطوا في تلك الحرب المشؤومة بين دولتين إسلاميتين شقيقتين، يستطيع تنصيب نفسه ملكاً على الملوك والأمراء في الشطر العربي من الخليج، ويتصرف بالمصائر القومية على هواه.

وثمة سؤال آخر يطرحه المؤرخون والباحثون في غمرة ما ترتب على حرب الخليج من عواقب وتداعيات مادية ومعنوية، هو باختصار: هل كان القضاء على قوة العراق العسكرية يحتاج إلى كل ذلك الحشد الذي لم يعرف له التاريخ مثيلاً، فتجيش ثلاثون دولة قواها البرية وأساطيلها البحرية والجوية، لإرغام بدوي مغامر على الإنسحاب من واحة مطمئنة أخذها عنوة واغتصبها بلا مقاومة ثم أبقاها في غرفة العناية الفائقة أشهرا قبل أن تشفى شفاء ناقصاً؟!

وهل كانت تلك الهيزعة العنترية والغزوة الجاهلية بحاجة إلى إسراج الخيول وقرع الطبول وتعبئة جيوش العالم بأسره لإخمادها؟... أم أنه كان وراء الأكمة ما وراءها من مشاريع الإبتزاز، وخلف التدخل الأكبر مدخل أصغر إلى نهب منطقة غنية وتحويلها محمية دولية بإختراع قضية؟!

العبرة في العدوان الثلاثي على مصر:

كل هذا أصبح من الماضي في أي كل حال. وإذا كان ما مضى فات، فلا يعني ذلك أن في وسعنا إهماله كلياً، كما لا يعني أن بالإمكان استنساخ ما هو آت من دفتر الماضي ومحضر وقائعه دونما اكتراث للظروف الموضوعية الراهنة.

وقد سبق وقلنا في ضوء هذا الإحتساب المبدئي للتبدلات التي طرأت على الأوضاع الإقليمية والدولية، أن الرئيس العراقي يلعب اليوم ورقة رابحة لأسباب عديدة، أهمها الإنقسام الظاهر بين الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن، وبروز تيار فرنسي روسي صيني قوي يتبنى في المطلق تخفيف القيود المفروضة على العراق وإزالتها تدريجياً،

فيما تميل الولايات المتحدة وبريطانيا إلى مزيد من التشدد إنطلاقاً من فقدان الثقة بالنظام العراقي.

وإذا كان الحد الأدنى المطلوب من حكام بغداد على صعيد التزام القرارات الصادرة عن مجلس الأمن، قد حصل على تزكية المجتمع الدولي بأسره بعدما تجسد في القرار ١١٣٧... وإذا كان هنالك شبه إجماع في الهيئة الدولية على إعتبار قرار بغداد طرد المفتّشين الأميركيين وإتهامهم بالتجسس في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) الماضي، خطوة تصعيدية غير مستندة إلى دليل ثبوتي مشهود... فإن مجرّد التلويح الأميركي بالرد العسكري، وتحريك الآلة الحربية الأميركية والبريطانية في الخليج، كان في المقابل موضع استنكار ورفض عالمي واسع، حتى من جانب الكويت التي نالها من صدام حسين وهبواته القتالية الشرسة ما لم ينله أي من جيرانه وأعدائه.

ذلك أن القضية اليوم هي قضية شعب العراق وليس حكام العراق. فالرأي العام العربي والعالمي، وفي عداده أهل الحل والعقد من الرؤساء والقادة والزعماء... هذا الرأي العام الذي هاله أن تأخذ القوة الأعظم شعب العراق بجريرة المتسلطين عليه، سوف لن يسكت أبداً عن جريمة جماعية ترتكب ضد ذلك الشعب بتدخل عسكري محكوم عليه سلفاً بالفشل والعجز عن إسقاط شعرة واحدة من رؤوس الذين جعلوه رهينة بين أيديهم ومتراساً بشرياً يلطون وراءه لحماية كراسيهم. وقد دلت استطلاعات الرأي، حتى في الولايات المتحدة وبريطانيا، أن الأغلبية العظمى ترفض أي ضربة عسكرية للعراق يكون ضحيتها المواطنون العراقيون الأبرياء.

لذلك يعلّق المخلصون أملاً كبيراً على نجاح المساعي الديبلوماسية التي جعلت الرئيس العراقي يتراجع عن موقفه في اليومين الأخيرين، لكنهم ينظرون بقلق إلى الشكوك الأميركية في مدى هذا التراجع.

وأخشى ما يخشاه المراقبون الذين يتّعظون بسوابق التاريخ، هو أن تستغل الصهيونية الحاقدة أصلاً على العراق وقيادته وشعبه، والتي تتوجس خيفة من خطره على إسرائيل وليس على جيرانه العرب... إن تستغل الغضب الأميركي الناتج عن تحدّيات صدام وأسلوبه الفظ في الدفاع عن حق ربما أضمر من ورائه باطلاً، فتشجع البيت الأبيض على إتخاذ قرار خطير غير محسوب العواقب يسيء إلى الولايات المتحدة وزعامتها العالمية فوق ما يسيء إلى العراق ورئيسه ونظام حكمه.

ذلك إن إسرائيل التي استطاعت أن تقنع واشنطن على مدى خمسين عاماً، بجاذبية الغانية الغرارة وإيقاعها بالغرير

الشبق، بأن امتناعها عن تطبيق أي قرار عادل من قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن هو دعم لمصالح الولايات المتحدة في المنطقة وتثبيت لسيطرتها الإستراتيجية وتفوقها العسكري، وان امتناع أي دولة عربية أو إسلامية عن تطبيق أي قرار دولي جائر هو طعن في كرامة الولايات المتحدة وإعلان حرب عليها..

إسرائيل هذه ذات العنجهية التي تعترف لله عز وجل بإختيار مزعوم دون فضل مشهود، ولا تقبل منّةً من أحد، حتى من الله الذي تخاف بطشه ولا تؤمن برحمته... ربما كانت تخطط للإيقاع بالدولة الأعظم في يومنا هذا، مثلما أوقعت في الأمس القريب بالدولتين العظميين بريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٦، وزجّتهما في حملة عسكرية على مصر باسم القضاء على جمال عبد الناصر ونظامه...

ذلك أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عندما أمّم القناة في ذلك الحين، كان يحاول فك حصار السلاح وحصار الغذاء الذي فرضه الاستعمار القديم على مصر، وهو ما يحاوله الرئيس العراقي اليوم بالنسبة للحصار الذي يفرضه الاستعمار الجديد على بلاده، مع الفرق الشاسع بين شخصية الرجلين وإختلاف الجنات الكيانية لكل من البلدين.

وقد حاول الرئيس عبد الناصر من جهة ثانية أن يتصدى لتعبئة قوى الاستعمار القديم ضد مصر، بتعبئة الأمة العربية عن طريق التوسع باسم القومية العربية من المحيط إلى الخليج، وهو ما حاوله رئيس العراق في خلفية حربه ضد إيران ثم في احتلاله الكويت، مع الفرق الشاسع أيضاً بين دعوة عبد الناصر العقائدية التي دفعت الشعوب العربية كالبحر الهادر لتحطيم الحواجز واجتياح الحدود، وبين أسلوب صدام حسين الإفتراسي الخطير الذي بدأ باجتياح الحدود، وعمل من حيث يدري أو من حيث لا يدري، والله أعلم، على ترسيخ الحواجز التي يدعمها الاستعمار الجديد وربيبته إسرائيل بين شعوب المنطقة من جهة، وبين حكوماتها من جهة ثانية.

ولا يجهل أحد في أي حال، أن المغامرة العسكرية التي زجت الصهيونية في وحلتها كلاً من بريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٦، أدت إلى سقوط ايدن في لندن، وغي موليه في باريس، وإلى ترفيع صقور الحرب في إسرائيل، كما اعتبرت في تقارير الباحثين نقطة تحول تاريخية قضت بتقلص الامبراطوريتين العسكريتين الكبيرتين وزوال الاستعمار القديم في العالم بأسره.

فهل يتنبه المسؤولون الأميركيون الذين يتأثرون دائماً بنصائح اليهود، كما

كان الأسد يتأثر بنصائح دمنة في كتاب ابن المقفّع، إلى كون أيّ محاولة تأديبية للنظام العراقي في هذا الظرف بالذات، سيؤثر سلباً على الحكم القائم في الولايات المتحدة نفسها، وقد يستتبع إنفجارات داخلية في أميركا، وتطورات إقليمية ودولية يصعب احتواؤها، ويكون حاصلها خلع الإدارة الأميركية عن العرش الذي تحتله في سدة الاستعمار الجديد، كما خلعت فرنسا وبريطانيا من إدارة الاستعمار القديم بعد معركة غير متكافئة العناصر القتالية بينهما وبين مصر عبد الناصر؟..

إن ما تفكر فيه المخابر الصهيونية بالتأكيد، بعد تفشيلها المقصود لمؤتمر الدوحة، وفشلها المكتوم في تسويق نتنياهو لدى البيت الأبيض، هو توريط الولايات المتحدة في خطأ استراتيجي أكبر بكثير من جريمة تاكتيكية، يتمثل بضربة عسكرية للعراق.

وفي السباق القائم الآن بين الحل الديبلوماسي والحل العسكري، يتوجس القارئون في دفاتر الأيام من حدث مفصلي على غرار «بيرل هاربر» تفتعله المخابر الصهيونية المذكورة لدفع الولايات المتحدة إلى مغامرة أقبح بكثير من مغامرات صدام حسين وأخطر من عملياته الكيفية المحدودة...

ولو تحقق مثل هذا الإحتمال، لا سمح الله، فلن يجد العالم اليوم قوة أعظم تأمر القوة العظمى بالإمتثال العاجل والإنسحاب الآجل، كما فعل الرئيس ايزنهاور عام ١٩٦٥ حين أرغم فرنسا وبريطانيا على إنقاذ ماء الوجه بالإنكفاء الخجول. لذلك يخشى أن تفضي الحالة المأساوية الراهنة إلى مسلسل تدميري رهيب تنتقل بعده الولايات المتحدة، مثلما انتقلت سابقاً فرنسا وبريطانيا، من سدة حكم العالم إلى سجل عضوية الشرف في نادي الإمبراطوريات المتقاعدة.

٢٢/ ١١/ ١٩٩٧

تعويم النظام بتحطيم الأرقام وتعميم الظلام

نفذ المقدَّر، يابا لُبِسنا البرنيطة...

عمر الزعنّي

لو فرضنا أن المساعي الدولية نجحت في إحلال السلام العادل والشامل بين الدولة العبرية وجيرانها، فانسحب الجيش الإسرائيلي من الأراضي اللبنانية تنفيذاً للقرار ٤٢٥، ولم يبق هنالك ما يبرر وجود القوات السورية في لبنان، فانسحبت هي أيضاً كما انسحب الفلسطينيون والإيرانيون وكل مسلح غير لبناني، وتولت قوانا الذاتية من جيش وقوى أمن حماية الحدود وسلامة المواطن وحقوقه في ظل عهد جديد من الطمأنينة والاستقرار والازدهار...

لو فرضنا أن هذا الحلم شبه المستحيل تحقق... هل تنتهي المشكلة؟

العارفون بدقائق المسألة اللبنانية وأزماتها المستعصية وفصولها المأساوية من ١٨٤٠ إلى هذا اليوم، يجيبون: كلا!... ويقولون ان العلة تكمن في نظام الحكم الذي فرضته الزعازع التاريخية على بلد متعدد الجنات السوسيولوجية كلبنان، وان الحالة الأمنية الشاذة التي يتخبط فيها البلد هي النتيجة الطبيعية لهلهلة النظام وفساده وتداعيه، وليست هي السبب المباشر أو غير المباشر لذلك كما يزعم أصحاب النظرة السطحية إلى الأحداث.

ويرى هؤلاء أن النكبات اللبنانية تعود إلى عام ١٨٤١ وهو تاريخ زوال الإمارة الشهابية التي سارت على خطى الإمارة المعنية في نهج التوحيد بين الدروز والموارنة في الجبل، وسائر الطوائف اللبنانية في الأقاليم الأخرى.

ففي سنة ١٨٤١ عينت الدولة العثمانية للمرة الأولى في تاريخ الجبل حاكماً أجنبياً في سدة الإمارة الشاغرة هو الكرواتي المستترك ميشال لاتاس المعروف باسم عمر باشا النمساوي. وكان هذا فاسداً زرع التفرقة بين الطوائف فثارت عليه جمعاء وحوصر في سرايا بيت الدين ثم أقيل سنة ١٨٤٢ وحل محله نظام القائمقاميتين الذي فتح الطريق أمام الصراع الطائفي إلى يومنا هذا.

وقضى هذا النظام الأزدواجي الخطير بأن تكون للنصارى قائمقامية عاصمتها بكفيا تمتد من حدود طرابلس إلى طريق الشام بين بيروت ودمشق، وأن

تكون للدروز قائمقامية عاصمتها بعقلين تمتد من طريق الشام إلى صيدا.

وفي كانون الأول ١٨٤٢، بلّغ وزير الخارجية العثماني صارم افندي هذا القرار سفراء كل من إنكلترة وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسية، فتظاهروا بالاعتراض قائلين أن هذا التقسيم هو «مشروع فتنة». لكنهم عادوا فأعلنوا موافقتهم عليه لأنه كان يخدم مصالحهم. كذلك تظاهر العثمانيون بإرضاء أبناء الجبل بعد تجربة عمر باشا النمساوي الفاشلة، فعينوا أمراء لبنانيين من آل أبي اللمع في قائمقامية النصارى، ومن آل أرسلان في قائمقامية الدروز، وخرقوا سلطة الفريقين في كل من القائمقاميتين بواسطة متسلّم تركي لبلاد جبيل أخضعوه لوالي طرابلس، ومتسلّم تركي آخر لبلدة دير القمر أخضعوه لوالي صيدا.

وكان من جراء هذا التفتيت المصطنع الذي ابتكره العثمانيون لإخضاع الجبل على أساس مبدأ «فرّق تسد»، أن امتدت أصابع الدول الأوروبية المتصارعة على النفوذ إلى كل من القائمقاميتين والمتسلِّمِيَّتين، فتداخلت المصالح، وتعاكست النوازع الطائفية، واندلعت أحداث ١٨٦٠ الدامية التي أفضت إلى نشوء متصرفية جبل لبنان بناء على بروتوكول ١٨٦٤، وقد فصل عنها وادي التيم وسهل البقاع وطرابلس وصيدا وبيروت وعكار وجبل عامل، وأوكلت إدارة المتصرفية إلى حاكم مسيحي غير عربي من رعايا السلطان يعاونه مجلس إدارة محلي من ١٢ عضواً.

المرحلة الانتقالية وشريعة الغاب

هكذا يتضح إن نظام الحكم الذي اختاره العثمانيون بالتوافق مع الدول الأوروبية الكبرى وبضغط مباشر منها، كان نظاماً إدارياً أقل من سياسي وأكثر من إجرائي أدى إلى شرعنة الواقع الطائفي والمذهبي في المجتمع اللبناني، كما أدى إلى توسيع نفوذ الأجانب وتضييق رقعة الولاء للسلطنة حتى في عمق ولاياتها، وفتح باب العمالة والتكسب والرشوة والفساد على مصراعيه في القطاعات الخاصة والعامة كافة، الأمر الذي دفع ثمنه الشعب من عرقه ودمه حتى افتقر وانعدم.

وثمة مرحلة انتقالية بين الحكم العثماني والانتداب الفرنسي عقبت ذلك ولم يولها المؤرخون ما تستحق من اهتمام، اللهم إلا من خلال تركيزهم على جرائم قائد الجيش العثماني الثاني جمال باشا الملقب بالسفاح. وتنقسم هذه المرحلة إلى فترتين: الأولى من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ تولى السلطة خلالها متصرفون من الأتراك، والثانية من ١٩١٨ إلى ١٩٢٦ تولى السلطة خلالها

متصرفون من الفرنسيين.

وكما أن جمال باشا أعلن الأحكام العرفية وعطّل النظام المدني في الفترة الأولى من المرحلة المذكورة، فنصب المشانق وفتك بالأهالي في متصرفية الجبل والولايات تجويعاً وتقتيلاً وتنكيلاً، كذلك حكم الضباط الفرنسيون من صقور الاستعمار القديم بعد انتقال السلطة إلى الدولة المنتدبة، حكماً ديكتاتوريا صارماً عطّل النظام المدني وفرض الأرهاب قبل إعلان دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ وبعده، حتى إعلان الدستور سنة ١٩٢٦. وعلى أن ارتكابات هؤلاء وجرائمهم لا تقاس حجماً وضخامة بارتكابات جمال باشا وجرائمه، إلا إنها لا تختلف شكلاً ونوعاً.

وقد سهّل الحكم العسكري الفرنسي خلال تلك الفترة الثانية من المرحلة الانتقالية المشار إليها، انقلاب العادات وأنماط الحياة الشرقية، ونبذ التقاليد، والإخلال بالآداب العامة والأخلاق التراثية، كما أطلق الحرية الجنسية وغيّر ملابس الناس وأزياءهم، وفعل كل ما يستطيع لمحو الأثر العثماني من البلاد، ما عدا العاهتين الأساسيتين الموروثتين عن حكم العثمانيين، وهما فساد الإدارة والطائفية السياسية والاجتماعية، فقد حافظ عليهما بكل أمانة ورسّخ جذورهما في النفوس.

ويمكن القول أن لبنان عاش هذه المرحلة الانتقالية الفوضوية بشقيها العثماني والفرنسي، بلا دستور ولا نظام حكم واضح الأصول يرعى الحقوق ويحدد الواجبات، بل خضع في عبودية قلّ مثيلها طيلة اثني عشر عاماً لشريعة الغاب وضريبة السيف والنار.

انتفاخ النظام حتى الانفجار

ومع انتهاء المرحلة الانتقالية المذكورة، كان لا بد للفرنسيين من إيجاد نظام حكم مدني توحيدي يلم شتات البلاد الممزعة ويحل مشاكلها الدهرية، فاستنسخوا لها نظاماً دستورياً على صورة جمهوريتهم يساعدهم على اقتحام العالمين الأسيوي والإفريقي اللذين كان يزاحمهم فيهما الإنكليز، بنموذج لبناني فرنسي الطراز قابل للتطبيق في مستعمراتهم وبالتالي إرضاء طموحات شعوبها انطلاقاً من مبادئ ثورة ١٧٨٩ الفرنسية الكبرى وشعاراتها الداعية إلى الحرية والإخاء والمساواة.

وفي ضوء هذا التوجه وهذه المعطيات، باشر الانتداب الفرنسي بناء «دولة الظل» الفرنسية في لبنان. ولا شك في أن هذا النظام المستمد من نظام الجمهورية الثالثة الفرنسية، والذي تواصل من ١٩٢٦ إلى ١٩٤٣، ولا يزال إلى اليوم ساري المفعول بقوة الاستمرار، حقق للبلاد منافع جمة وعاد عليها بفوائد شتى،

على صعيد الحقوق المدنية، ومركزية السلطة، وتقليص الفوارق الثقافية والاجتماعية، وتوسيع التعامل والتفاعل الاقتصادي، وبرمجة مناهج التعليم، وتعزيز الانتماء الوطني، إلخ... لكنه بقي في نظر اللبنانيين جميعاً عمارة شرعية أجنبية تفتقر إلى روح، ومعطفاً أوروبياً لا ينطبق على مواصفات العباءة المشرقية العربية شكلاً وحياكة، وظل هذا النظام ضابطاً قانونياً يعيش في المطلق داخل برجه العاجي بعيداً عن تقاليد الشعب وشخصيته القومية وطباعه المميزة، بالرغم من أن الناس وجدوا فيه منجاة من الفوضى التي انطبعت بها الحياة العامة طيلة عقود.

ولكن النكبة الأعظم حلت بلبنان بعد حصوله على استقلاله سنة ١٩٤٣ يوم سقطت الحماية الكبرى للنظام السياسي الاصغر وأخذ البلد يتخبط تخبط الولد الصغير في إرث والده الكبير، فلا يعرف كيف يتصرف بنظامه، ولا كيف يمارسه ويطوره بحيث يلائم طبيعة المرحلة الاستقلالية.

ففي عهد الانتداب لم تكن للبنان سياسة خارجية، بل كانت تتولى ذلك فرنسا، ولم تكن له سياسة اقتصادية أو مالية مستقلة عن الدولة المنتدبة، ولم يكن له جيش مستقل عن «جيش الشرق» الفرنسي. بل كانت الجمهورية اللبنانية دولة بالاسم وإدارة محلية بالفعل. أما الخطأ الجسيم الذي وقع فيه رجال الاستقلال بعد سقوط الانتداب، فهو تثبيت نظام الإمبراطورية الكبرى وترسيخه في الجمهورية الصغرى. وبدلاً من أن يطوروا تلك الإدارة المحلية ويؤسسوا للبلاد نظام حكم خاص على قياسها ينبثق من تراثها وتاريخها، ويأخذ في الاعتبار مساحتها الجغرافية وعدد سكانها وخصائص مجتمعها ومواردها الاقتصادية وثروتها الطبيعية إلخ... جمحوا دفعة واحدة وجنحوا إلى التشبه بالدول العظمى، وما برح السياسيون والمشترعون، من عهد الاستقلال الأول إلى يومنا هذا، يضيفون مداميك جديدة إلى عمارة هذا النظام، حتى انتفخ وتضخم كالضفدع الساعي إلى اكتساب حجم الثور، ويكاد اليوم أن ينفجر في أية لحظة.

وعوض أن يعيد الحكام والمسؤولون النظر في الأساس، فيقتلعوا الفساد الإداري والانحراف الطائفي من جذورهما العائدة إلى القائمقاميتين والمتصرفية والولاية العثمانية، أمعنوا منذ البداية في ترقيع جبّة الإدارة المهترئة وتوسيعها، كما جعلوا الانحراف الطائفي طريقة حكم وأسلوب حياة، حتى لقد أصبح الخطأ جريمة، وبات علاج المرض بالمسكنات الآنية والتدابير الاستلحاقية التي نشهدها اليوم في

مسألة الديون وغيرها من المسائل المستعصية، أقرب السبل إلى قتل المريض والقضاء عليه.

ولعل أغرب ما يصدم النفس ويصدع الفكر السليم، هو «الحل العبقري» الذي قيل إن الرؤساء توافقوا عليه مؤخراً فيما يتعلق «بمداورة الوظائف العليا بين الطوائف دونما استثناء طائفة أو وظيفة»! فلا أعرف هرتقة بهذا الحجم ولا زندقة بهذا المستوى في أقبح النظم والدساتير المعمول بها في اي زمان أو مكان.

ذلك إن الاستمرار يشرط الاستقرار قبل اي عامل آخر. ومما يؤسف له أن يكون حكامنا وجدوا في تناوب موظفي الفئة الأولى كل سنتين أو ثلاث سنوات أو خمس على قطاعات يتداولونها فيما بينهم تداول الشقق المفروشة بين السياح الأجانب، منجاة لهم من ضغط المزايدة الطائفية والمذهبية التي يرعاها أصحاب الدكاكين الناشطة في السياسة باسم الدين، والحكام إياهم غير مبالين ولا مكترثين لما قد يصيب القطاعات الحيوية المشار إليها من كساد أو فساد بتطبيق هذا التدبير العقيم، وما قد تتردى فيه من قهقرية وخمول بفعل انقطاع التواصل القيادي وانعدام التكامل العضوي، عندما تختلف الأيدي العابثة بها والرؤوس المتالبة عليها والاتجاهات السياسية والعقائدية المتصادمة في كياناتها وملاكاتها وعبر كوادرها البشرية المصعوقة بانفعالات التغيير المتربص والتبدل المرتقب.

لماذا لا نعود إلى حجمنا؟

وبعد. إزاء هذا الورم الذي عطّل نظامنا القعيد، وأرهق خزانتنا العمومية، وعرقل العمل الإجرائي بشبكة قوانين متناقضة، غير محصية ولا مفهرسة، بل متراكمة تراكم العفن في الدواوين منذ عشرات السنين، وقد استعصى تشذيبها وتبويبها على أدق الحواسيب الإلكترونية... وإزاء كل الفساد والهدر وتضارب الصلاحيات وتداخل المسؤوليات وسوء توزيع الاختصاصات... يطرح المواطنون طائفة لا متناهية من الأسئلة على الشكل الآتي:

* ما هي الأسباب الموجبة لوجود وزارة للخارجية في لبنان، ترعى عشرات السفارات والقنصليات والمستشارين والملحقين في أطراف المعمورة؟! وهل للبنان سياسة خارجية عليا ذات أثر فاعل في المجتمع الدولي تستدعي كل هذه التعبئة وهذا الحشد، كسياسة الولايات المتحدة مثلاً أو الصين الشعبية أو فرنسا وبريطانيا وروسيا وغيرها؟ ثم ألا يكون أجدى وأوفر وأكثر ملاءمة لواقعنا أن تتحوّل هذه الوزارة التي تنفق الأموال

بسخاء على المآدب والأسفار والبعثات والوفود والمباني والموظفين، إلى إدارة للعلاقات الخارجية في مجلس الوزراء تكتفي بمكاتب محدودة وممثلين في العواصم الكبرى وبعض العواصم الإقليمية ودول الاغتراب الرئيسية؟

* ولماذا لا تقدم دولتنا فوراً على إلغاء وزارة المغتربين المستحدثة التي لا فائدة عملية من وجودها، وتدعو قوى الاغتراب الرئيسية إلى مؤتمر عام يؤسس بتمويل اغترابي وكالة للبنانيين المنتشرين في العالم على غرار الوكالة اليهودية تنضم إليها الجامعة الثقافية المتعثرة وتعمل بالتنسيق مع إدارة العلاقات الخارجية المشار إليها أعلاه على تعزيز التعاون وتفعيله بين لبنان المقيم ولبنان المغترب؟!

* ولماذا لا تستغني الدولة عن وزارة السياحة السائحة في المفاسد والتوافه والتنفيعات، وتسلّم هذا القطاع الحيوي إلى مؤسسة سويسرية متخصصة مثلاً، وذلك طبقاً لتعاقد مدروس يحفظ حقوق الجانب اللبناني وينمي مرافقنا السياحية إنماء مثالياً، على أن توزع عائدات المشروع بنسبة ٢٠ في المئة للمؤسسة صاحبة الامتياز، و٦٠ في المئة لإنعاش القطاع السياحي الوطني الخاص، و٢٠ في المئة فقط لدولة الهدر والدّين؟

* وما هو المبرر لوجود وزارة اعلام في لبنان، وقد ألغيت في جميع الدول المتطورة التي أنشأت مجالس وطنية بديلة للإعلام المكتوب والمرئي والمسموع، بمشاركة الصحافة الحرة والإذاعة والتلفزة والترقيمية (أي وسائل الإعلام والبلاغ الرقمي الإلكتروني كالأنترنت وما قد ينشأ عنها) ودور النشر وشركات الإعلان، ودمجت القطاعين الخاص والعام في مؤسسات مشتركة تقدم للمجتمع أفضل نتاج إعلامي ممكن بإشراف خجول من الدولة لا يشجع المسؤولين والنافذين المتموّلين على تأسيس إقطاعية إعلامية مرادفة للإقطاعية السياسية التي يمارسونها؟

* وهل تخسر البلاد شيئاً لو ألغيت وزارة المالية، ووزارة الاقتصاد الوطني، ووزارة النفط، ووزارة الصناعة، ووزارة الشؤون الاجتماعية، إلخ... وانشئت في المقابل «المؤسسة الوطنية للمال والاقتصاد والعمل والإنتاج» المؤلّفة من البنك المركزي وجمعية المصارف والهيئات الاقتصادية والنقابات وقطاعات العمل والإنتاج، وذلك بناء على دراسة علمية حديثة تجد الحلول النهائية الملائمة عبر أجهزتها المختصة وجباياتها الدقيقة وعلاقاتها العامة المميزة في الداخل والخارج، لتغطية عجز الموازنة في أجل مسمى، وإيفاء الدين العام وخدمته في مرحلة اضطرارية مؤقتة ومحدودة،

وتوسيع أبواب الدخل والاستثمار، وتلبية الحاجات الملحّة لذوي الموارد المحدودة، وتنشيط الحركة الاقتصادية في مختلف الميادين، وتأمين الأموال اللازمة محلياً وإقليمياً ودولياً لمتابعة الإعمار؟

ويقتصر وجود الدولة في هذه المؤسسة، بعدما تبين من سوء إدارتها - أي الدولة - وتبذير موجوداتها، على مفوض حكومي يرفع تقاريره الدورية إلى مجلس الوزراء حول نشاطها وأعمالها، وصندوق حكومي مركزي يتلقى الريع المخصص له من المؤسسة المذكورة وسائر المؤسسات التي تخدم القطاع العام من موقعها الخاص أو المشترك، وينفق على الآلة الحكومية التي تدير البلاد.

* والسؤال الذي يفرض نفسه كذلك، يتعلق بوزارة الدفاع الوطني التي يصعب تبرير وجودها بمواصفاتها الإدارية والعملانية المكلفة على غرار الدول ذات الطموح العسكري. فلبنان بلد لا يستطيع، أياً كان مستوى إعداده الحربي أن يقف وحده أكثر من ٤٨ ساعة أمام عدوه الإسرائيلي الشرس. وهو في الوقت نفسه لا يفكر ولا يمكن أن يفكر بمهاجمة أحد. فضلاً عن أن رقعة أرضه التي لا تتجاوز مساحتها ١٠,٤٠٠ كيلومتر مربع، تكاد لا توازي بحجمها الجغرافي وعدد سكانها ربع المنطقة التي يرعاها بوليس لوس أنجلس أو باريس وضاحيتها، أو طوكيو وسان باولو وبيجينغ وبيونس آيرس.

كذلك يبدو مثيراً للدهشة والعجب أن يكون الأمن الداخلي في بلدنا الذي يمكن لأي عدّاء ماهر أن يجتازه في أقل من ٢٤ ساعة، منوطاً بأجهزة متعددة، تشكو التضارب في صلاحياتها والتزاحم في مواقعها.

أفلا يكون أفضل، والواقع المرّ كما نعرفه جميعاً، أن نلغي هذه الوزارة ومجموعة الأجهزة المستقلة عنها نظرياً والتابعة لها عملياً، والمتنافرة فيما بينها شكلاً وانتماءً واختصاصاً وتدريباً، ونبادر إلى إنشاء مؤسسة عُليا للقوات المسلحة اللبنانية تكون مسؤولة عن أمن الحدود ومراقبتها، ومسؤولة في الوقت نفسه عن الأمن الداخلي، على أن تتألف من أربع وحدات: الجيش اللبناني النظامي، والدرك الوطني المنجد، والشرطة المدنية، وإدارة المباحث، ويرعاها مجلس أعلى برئاسة قائد الجيش الذي يعود مع أركانه في القرارات الأساسية المهمة إلى مجلس الوزراء؟

* وبعد إجراء هذا التطوير الأساسي للقوات المسلحة، لماذا لا تنتزع مسؤولية الأمن من وزارة الداخلية وترتجع هذه إلى اختصاصها الأصلي وحجمها الطبيعي، فتتولى الأمور الإدارية والخدمات المنوطة بها والمتعلقة

بالإشراف على أعمال البلديات والمؤسسات الأهلية في المدن والقرى، ثم تلحق بها وزارة الشؤون البلدية والقروية المتعطلة، ووزارة الصحة، ووزارة البرق والبريد والهاتف أو ما يسمى اليوم بالاتصالات السلكية واللاسلكية لتغطية اختراق العدو لبيوتنا ومجالسنا وتنصته على مكالماتنا عبر الهاتف الخلوي الذي يجري تحليل أشرطته المسجلة في مخابر الموساد، كما تضم إليها وزارات أخرى وإدارات ومؤسسات ومجالس تستهلك المدى الحيوي في طول البلاد وعرضها دونما إنتاج ولا إنجاز؟

وهل ستكون وزارة الداخلية عاجزة، إن هي تحررت من ضواغط الأمن ونفسية محاكم التفتيش، عن إقامة علاقات عضوية بين مؤسسات بلدية واجتماعية لبنانية وأخرى عربية وأجنبية على أساس برامج توأمة وتعاون مدروسة مع الخارج، فتلقي بأعباء التمويل الإنمائي على دول صديقة في العالم الكبير الذي يتحرّق في توق دائم إلى مرقد عنزة في الوطن الصغير، وهو يتسابق إلى المرجعيات الدينية، مسيحية أو إسلامية، للإعراب عن كونه راغباً في المساعدة الإنسانية والانخراط الطوعي في إحياء لبنان، مهملاً حتى الآن أي اتصال بالسلطة الحاكمة، إلا في مجال الاستطلاع والدرس وما يهدف إلى التجسس لا أكثر ولا أقل؟

* ثم لماذا قضينا على أنفسنا في هذا البلد أن تكون لنا سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية موسعة ومعقدة كالتي هي قائمة في بلدان مترامية الأطراف يحتسب سكانها بعشرات أو مئات الملايين؟ ولماذا لا يقتصر الأمر في بلدنا على رئيس للجمهورية ينتخبه الشعب مباشرة، كائناً من كان ولأي طائفة انتمى، وعلى وزير أول ينتخبه الشعب أيضاً، كائناً من كان ولأي طائفة انتمى، ويكون الوزير الأول نائباً لرئيس الجمهورية في الوقت نفسه، ويعملان معاً في مكتب واحد متواضع لا شأن له بالقصور والسرايات، فيوفران بالتالي الملايين التي يغدقها النظام الأخرق على الحرس والأزلام والمحاسيب والمؤلّفة قلوبهم؟

ولماذا لا يكون المجلس النيابي مؤلفاً من ٢٥ نائباً فقط يمثلون أقضية المحافظات، فيتولى الرقابة على الحكومة المصغّرة بسهولة، ويقوم بأعباء التشريع، مع تكليف الأمم المتحدة تعيين هيئة مشتركة من خبراء دوليين وعلماء لبنانيين في القانون والإدارة، تضع «المجموعة الموسوعية الكاملة للقوانين اللبنانية» بعد تحريرها من نوافلها وشوائبها وتناقضاتها، وذلك على غرار الموسوعات المعروفة في العالم المعاصر، والتي يزاد عليها كل سنة مجلّد يتضمن ما أسقط وما أضيف من القوانين المرعية الإجراء؟

ولماذا لا يكون رئيس هذا المجلس التشريعي المصغّر، كائناً من كان ولأي طائفة انتمى، منتخباً هو أيضاً من الشعب مباشرة؟

* وأخيراً، لماذا لا يكون عدد الوزارات في لبنان، بناءً على ما تقدم سبع وزارات فقط: وزارة الداخلية، ووزارة الصندوق الوطني، ووزارة الأشغال العامة (بما فيها الموارد المائية والكهربائية)، ووزارة الثقافة والتعليم والتنشئة الوطنية (بعد وضع الأنظمة الملائمة لتحريرها من الفوضى وضبط عملها واختصاصاتها وصلاحيات فروعها)، ووزارة الزراعة وإنما الريف، ووزارة البيئة والخدمات العامة، ووزارة التخطيط والتصميم والدراسات (ومن ضمنها هيئات الرقابة، مع تقليص حجمها وتعزيز مكانتها وتنشيط فعاليتها)؟

أما وزارة العدل التي فاتنا ذكرها، فلا حاجة لوجودها هي أيضاً في الزمن الانكفائي الراهن. والسؤال البديهي الذي يتبادر إلى الذهن، هو لماذا لا تخضع للمجلس النيابي المنبثق من الشعب، دون أي سلطة مستقلة، على الأقل في الظروف العصيبة الحالية التي لا تسمح بالترف الديموقراطي، ريثما تكون البلاد قد خرجت بقدرة قادر من غرفة العناية الفائقة؟

* * *

إنها مجرد أفكار لا أدّعي من خلال عرضها العفوي اختصاصاً إدارياً ولا هدفاً سياسياً ولا طموحاً إصلاحياً. وأمنيتي الوحيدة عبر هذه المقالة في «مفكرة الأيام» هي أن ينتفض الرؤساء الثلاثة وينهضوا إلى تطوير النظام وتحديثه ورده إلى حجم لبنان، عوض أن يتجاذبوا أطراف جثمانه أو يعالجوه بالمخدرات الموسمية، وهو في مستنقع بعيد الغور والجوف قد يبتلعهم في أجل مسمّى كما ابتلع لبنانهم...

فالقضية هي أن نكون أو لا نكون.

القضية أن نبني وطناً نعيش فيه بكرامة واحترام، أو أن نواصل هذا التصرف الانتهازي الغبي المستخفي بتركة القائمقاميتين التقسيمية والمتصرفية الفاسدة والانتداب الجشع والاستقلال المريض الذي وصفه بيار صادق في عيد الاستقلال بـ«الاستغلال».

القضية أن نكون وطناً صغيراً بفعل كبير، لا أن نكون إمبراطورية عظمى بالعدسة المكبرة، وحشرة صغيرة في واقع الأمر زاحفة إلى المجهول في شارع مترادف الأحذية لو قيّض لها أن تفلت من وطء نعاله اليوم، فلن تفلت غداً.

١٩٩٧/١١/٢٩

القمة الإسلامية وأهمية التعاون الثنائي

تنعقد القمة الإسلامية الثامنة في طهران بعد أيام ثلاثة للبحث في جدول الأعمال الذي وضعه الخبراء في اجتماعاتهم بين ٢ و٥ كانون الأول (ديسمبر) الحالي، والذي يلقي عليه الاجتماع الوزاري المنعقد اليوم وغدا اللمسات الأخيرة قبل رفعه إلى الملوك والرؤساء للمناقشة والتوصيات.

ويمكن للباحث الموضوعي أن يقرأ نتائج هذا المؤتمر في مقدماته ويطالع أثره في تقرير المصائر الدولية من خلال النظر في الأزمات الإسلامية الحاضرة وإمكانات حلولها.

فالعالم الإسلامي ليس عالماً قومياً عنصرياً كالعالم الجرماني أو السلافي أو التركماني أو اليهودي أو غيره، يدّعي أنه موثق العرى بأواصر الدم. ولا هو عالم مؤتمن على مبادئ روحية غير متصلة - ظاهرياً على الأقل - بحركة الحياة، كالفاتيكان أو الكنائس المسيحية عموماً. ولا هو عالم إمبريالي يتوجه فقط بالمصالح الاقتصادية المادية، كالإمبراطورية الرومانية القديمة أو الإمبراطورية الأميركية الحديثة. ولا هو عالم يحكمه اللون، كالعالم الأصفر في استقوائه والعالم الأسود في استخفائه.

إنه عالم يحمل كل هذه النقائض في نظام وجودي دنيوي يأتمّ بهدي سماوي وشرع إلهي. ولذلك واكبته منذ نشأته مشكلة أساسية لا يزال يكابدها إلى اليوم، وهي صعوبة التوفيق، إن لم تكن استحالته، بين المثل الإلهي الأعلى والطموح البشري الأدنى.

وانطلاقاً من هذه الحقائق نميل إلى الاعتقاد أن مؤتمر القمة الإسلامي سيكون كالمؤتمرات الإسلامية السابقة، ناجحاً في المطلق على الصعيد الخلقي والعاطفي، وأقل نجاحاً في الواقع على الصعيد السياسي والمصلحي.

وبعيداً عن احتمالات الفشل والنجاح، وفي معزل عن نوعيتها وماهيتها، نتوقف عند ظواهر متصلة بالأوضاع الدولية من شأنها أن تساعد المؤتمرين، فيما لو أحسنوا النيات واتزروا بالحكمة والتؤدة دون التبجح والمزايدة، على استثمار قناعات جديدة بدأت تظهر في العوالم الأخرى، دونما حشر لهذه العوالم بأسلوب التحدي في

مأزق الاختيار الصعب بين أن تكون مع المسلمين أو ضدهم، والاكتفاء مرحلياً بأن تكون فقط قادرة على فهمهم.

ونوجز هذه الظواهر والقناعات المترتبة عليها في النقاط الآتية:

* ١ - بالرغم من كل ما يبدو على الساحة الإقليمية من توتر ناشئ عن تطرف بعض الأنظمة الذي يقابله تطرف أشد وأدهى من جانب الإدارة الأميركية، فإن العمق الائتماني على المسؤولية الدولية في الولايات المتحدة بدأ يميل مجدداً، بعد فشل النظام العالمي المفروض بالقوة، إلى الأخذ بمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، على أنه أسلم عاقبة وأكثر واقعية من منطق القوة في تحقيق العولمة الاقتصادية لصالح واشنطن. وهو أمر سوف ينعكس في المدى المتوسط ميلاً أميركياً إلى الاعتدال في التعامل مع القوى الخليجية المناوئة.

* ٢ - لا شك في أن إيران ستكون المستفيد الأول من هذا المؤتمر الذي تحضره ٥٤ دولة، خصوصاً إذا تمكنت الجمهورية الإسلامية من السيطرة على أزمة السلطة التي ذرّت قرنها بين القيادات. ذلك أن العالمين الآسيوي والأوروبي اللذين يشكلان العمود الفقري والمنبع الثقافي للولايات المتحدة وكيانها الخلقي والإنساني، ينظران إلى إيران نظرة الصبي إلى أمّه، لأن ما قدمته بلاد الفرس للتراث البشري، هو في خلفية ذهن الأمم جمعاء دَيْن كبير يضاهي ما تدين به الإنسانية لليونان ومصر القديمة وفينقيا وروما والعرب. ومن هنا تبدو مسألة نظام الحكم الإيراني في نظر الفكر التراثي الإنساني مسألة محدودة في إطارها التاريخي. وإيران تبقى إيران. هي اليوم إسلامية، وكانت قبل أعوام بهلوية، وقبلها في الجاهلية كسروية، وقبل ذلك قورشية، إلخ... لكنها ما برحت منذ آلاف السنين قاعدة الاتصال الرئيسية بين العوالم في العمق الآسيوي، ومصفاة التفاعل الوجودي المتواصل بين الشرق والغرب في القارة التي يجمع المؤرخون والعلماء على أنها مهد الحضارة.

* ٣ - رغم الصورة السيئة التي دأبت بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة على ترسيخها في الأذهان منذ بضعة أعوام، كما دأب الإعلام الصهيوني على تظهير ملامحها الكاذبة الشائهة عن حقيقة الإسلام والمسلمين بالعدسة المكبّرة، فإن الرأي العالم العالمي بدأ يتلمس حقيقة أساسية في تكوين حكمه واقتناعه، وهي أن الإرهاب الدموي الذي تمارسه مجموعات منفصلة هنا وهناك، لم يقوَ على نسف البنية المتسامحة المتوازنة للمجتمع الإسلامي، مع العلم إن فساد الأنظمة السياسية في معظم الدول الإسلامية لا يساعد هذه البنية المهددة

على التماسك والصمود.

* ٤ - إن سلاح «المطالبة بالسلام» الذي تشهره سوريا والسعودية ومصر في وجه نتنياهو، وهو يطلب الحرب ويهدد بها كل يوم، عكس الأدوار للمرة الأولى في تاريخ النزاع العربي الإسرائيلي. فبعد أن كان العالم يتعاطف مع إسرائيل كي لا يلقيها العرب في البحر، أصبح يتعاطف مع العرب كي لا يلقيهم نتنياهو في الصحراء. وقد لا يكون مفيداً في هذه المرحلة بالذات، والرجل يواجه حصاراً دولياً مطبقاً حتى من جانب واشنطن، كما يواجه انقساماً في الداخل ينذر بما يشبه «اللبننة» في المجتمع الإسرائيلي، أن تضع بعض القوى الإسلامية غير العربية سيفها في موضع الندى، فتعتمد المواقف الحماسية التي تشد أزر هذا العدو الشرس بدلاً من إحباطه، في وقت يحتاج فيه العرب والمسلمون إلى اعتماد الروية والتزام التقية، مع ترك الرجل يتخبط في صراعه الداخلي والخارجي حتى يتلاشى.

* ٥ - إن ترتيب العلائق الثنائية بين دول إسلامية مختلفة الأنظمة والتوجهات السياسية، على غرار ما هو حاصل بين السعودية وإيران، أو بين مصر وتركيا، أو بين سوريا والعراق، إلخ... يخلق تكتلات مزدوجة مترادفة داخل العالم الإسلامي تملك مرونة أكبر في التحرك وفعالية أكبر في التأثير على العوالم الأخرى. ذلك إن المسالك الضيقة التي يستطيع المثنّى أن يلجها كثيراً ما يستحيل ولوجها والخروج منها على الجمع. وفي هذا الأسلوب من البراعة التاكتيكية ما ينجي من العثرات الستراتيجية الكبرى ويدرأ مخاطر الازدحام في النفق الطويل.

٦/ ١٢/ ١٩٩٧

الإسراء والمعراج

احتفل العالم الإسلامي منذ أسبوعين بذكرى الإسراء والمعراج، فاقترنت هذه المناسبة الدينية بندوات ثقافية وخطب ومحاضرات ركّز معظمها على الأصرة المتينة والعروة الوثقى بين الحرم المكي والحرم القدسي انطلاقاً من الآية الكريمة: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لِنُرِيَه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[1].

ولا شك في أن تركيز المراجع الدينية الإسلامية على العلاقة الروحية الجوهرية بين الحرمين الشريفين في مكة والمدينة وثالثهما في بيت المقدس أولى القبلتين، هو من أولويات الجهاد والتعبئة النفسية والمعنوية ضد العدو الإسرائيلي الذي انتهك حرمة الأقصى وسائر المقدسات الإسلامية والمسيحية في مدينة الله.

ولكن للإسراء والمعراج، بالإضافة إلى هذا الامتياز الديني في قلوب المسلمين، منزلة لا ترقى إليها منزلة أخرى في الحضارة الإنسانية أدعو الإعلاميين العرب والمسلمين إلى إيلائها ما تستحق من اهتمام في برامج الإذاعة والتلفزة وأفلام السينما، بحيث يقدمون صورة للعالم مختلفة عن الصورة التي يجتهد الإعلام الصهيوني كل يوم في تلقينها الرأي العام العالمي، من أن الثقافة الإسلامية تنبت القتل والسفك وأنهار الدماء، على نحو ما هو حاصل في الجزائر ومصر، وما قد يحصل مثله غداً أو بعد غد في أي بلد إسلامي آخر.

فقد أعددت للنشر في الأعوام الأخيرة باللغة الفرنسية، دراسة جامعة في صحائف متواضعة لا تتجاوز المئة حصراً، عنوانها «تأثير إسبانيا العربية الإسلامية والوسيطة في نهضة أوروبا»[2] زودتها بأكبر عدد ممكن من المراجع لأقل عدد ممكن من الصفحات، إغراء للقارئ المعاصر الذي ينفر من المطالعة ويختزل الزمن بالتزّهات.

وتبين لي في سياق هذا البحث أن التراث الأدبي العالمي مدين لقصة الإسراء والمعراج بآثار خارقة خالدة يحق معها للمسلمين أن يطالبوا العالم الغربي بتعويضات لا حدود لها مقابل تلك الملكية الأدبية الثابتة.

ففي كتب السيرة أن الملاك جبريل أتى النبي محمداً وحمله ليلاً على جواد مجنّح يقال له «البراق»[٣] ركبه أنبياء الله قبله، فأسرى به من داره في مكة إلى القدس حيث أطلعه على آيات الله وعجائب خلقه، ثم عرّج به على السماوات السبع حيث التقى آدم ونوحاً وإدريس وإبراهيم وموسى وعيسى والملائكة وعاين الجنة والنار، إلخ...[٤].

وقد تبارى المؤرخون القدامى في وصف تلك الرحلة بين الأرض والسماء وأسهبوا في تشخيص دقائق المرئيات النبوية، حتى اختلط الوحي بالأسطورة وامتزج الخيال بالحقائق المنزلة، وكان في عداد الشارحين والمفسرين من قال إن النبي أسرى بروحه لا بجسده، ومن قال إنه أسرى بروحه وجسده معاً، ومن أطال الشرح وأغرق في التفاصيل والجزئيات حتى أفرغ الموضوع من دلالاته الرمزية ومعانيه السامية.

إلا أن هذه القصة الرائعة لانتقال النبي المصطفى من العالم الدنيوي إلى العالم النوراني العلوي، وما انكشف له في رحلته من بهاء الجنة وبلاء جهنم، ظلت خلال قرون مصدر تأمل ونبراس خيال للأمم الغربية التي انفعلت بالحضارة الإسلامية في الأزمنة الوسطى، لا سيما وإن معظم الآثار الإسلامية الأساسية كانت قد ترجمت إلى اللاتينية بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر وأصبحت قيد التداول في أوساط العلماء والأدباء وأقطاب الفلسفة واللاهوت.

* * *

وكان الشاعر الإيطالي الكبير «دانتي أليغييري» (Dante Alighieri) أول من تأثر بالإسراء والمعراج في ملحمته الشعرية الرائعة «الكوميديا الإلهية» (La Comédie Divine) التي صدرت بين ١٣٠٩ و١٣٢٠م. وترجمت فيما بعد إلى جميع لغات الأرض. ويروي الشاعر في هذه الملحمة رحلته الخيالية إلى جهنم. ومنها إلى المطهر، ثم إلى الفردوس حيث يلتقي الاعلام الكبار من شعراء اللاتين والإغريق القدامى، بالإضافة إلى شخصيات إنجيلية وتوراتية بارزة وأنبياء ورسل وآلهة وثنية، ويعاين العزة الإلهية في نهاية مطافه مع الأخيار في جنة الخالدين.

ويقول الشاعر والمستشرق الإسباني «ميكل آسين ديل پالاسيو» في دراسة نقدية شهيرة للكوميديا الإلهية نشرت في مدريد سنة ١٩١٩[٥]، أن دانتي أليغييري استوحى موضوع ملحمته من قصة الإسراء والمعراج التي كان أبو العلاء المعري قد سبقه إلى استلهامها أيضاً في «رسالة الغفران» حيث يقوم «ابن القارح»، وهو الشخصية البارزة في رسالة المعري، بجولة خيالية في طباق الجنة، ويصادف هناك الشعراء العرب الأولين وعباقرة

الإنس والجن.

ويجري پالاسيو مقارنة بين الأوصاف التي أوردها دانتي بتفاصيلها الدقيقة لصورة الفردوس والسماوات السبع وجهنم وسائر مشاهداته في رحلاته، وبين ما ذكره المتصوف الأندلسي محيي الدين بن عربي المرسي (١١٦٤ - ١٢٤٠م) في كتاب «الفتوحات المكية» من تفاصيل رحلة النبي في الإسراء والمعراج، فيثبت أنها متطابقة كلياً.

وقد نشأت مناظرة، بل مشادة عنيفة، دامت أكثر من ربع قرن بين الإسباني پالاسيو ومعظم الباحثين الأوروبيين الذين أزعجهم أن يكون أعظم أثر أدبي في القرون الوسطى وعصر النهضة الأوروبية نابعاً من التراث الإسلامي، حتى تمكن ذلك المستشرق الحيادي المنزّه أن يثبت بالأدلة والقرائن الحاسمة أن دانتي آليغييري تعرّف إلى أهم الآثار العربية والإسلامية في قشتالة التي عيّن سفيراً لبلاده لدى مليكها آلفونسو العاشر المقلب بـ«العالم» سنة ١٢٦٠م. وذلك بواسطة أستاذه وصديقه العلاّمة «برونيتو لاتيني» (Brunetto Latini) الذي كان يجيد العربية ويلمُّ بنتاجها العلمي والثقافي، فاطلعه على «رسالة الغفران» وقصة الإسراء والمعراج. ومعروف أن الملك آلفونسو العاشر كان قد نقل إلى اللغة اللاتينية ولغة قشتالة معظم الكتب العربية الرئيسية في ذلك الحين، ولا بد أن يكون دانتي ألمّ بالكثير من محتواها خلال سفارته في بلاط قشتالة.

* * *

ثم إن الشاعر الإنكليزي الخالد في التراث الكلاسيكي العالمي «جون ملتون» استوحى بدوره الإسراء والمعراج، فاصدر سنة ١٦٦٧ نشيده الملحمي الذي ترجم هو أيضاً إلى معظم لغات الأرض بعنوان «الفردوس المفقود»، وقد أملى هذا النشيد على بناته وهو كفيف يغالب المرض والشيخوخة. ويتنقّل ملتون في هذه الملحمة الشعرية بين الأرض والجنة والجحيم، فيروي بأسلوب خيالي رائع سقوط آدم وحواء من جنّات عدن وتدخُّل إبليس في سلوك الإنسان الذي عصى خالقه ونقض إرادته.

وسرعان ما يكتشف الناقد في ملحمة «الفردوس المفقود» جمهرة الأوصاف والمشاهدات التي تنسبها الرواة والمؤرخون إلى النبي في رحلته الفردوسية المعجزة. ويذهب فريق من الباحثين في عدادهم الدكتور طه حسين، إلى أن ملتون الذي تعلّم الفرنسية والإيطالية واللاتينية بعد تخرُّجه من الجامعة واعتكافه من ١٦٢٩ إلى ١٦٣٨ في دارته العائلية بإمارة باكنغهام، ثم قام برحلة دراسية إلى فرنسا وإيطاليا حتى سنة ١٦٤٠، اطّلع اطّلاعاً دقيقاً على التراث

العربي والإسلامي المترجم، وتلقف باهتمام بالغ قصة الإسراء والمعراج في الترجمة الثلاثية التي وضعت لها باللاتينية والقشتالية والفرنسية في عصر الملك المستنير ألفونسو العاشر الأنف الذكر، والتي نشرها الباحث الإسباني خوسيه مونورز سانديو (Jose Munorz Sandino) سنة ١٩٤٩ بعنوان «معراج محمد» (Escala de Mohamad).

* * *

ولا بدّ لي في سياق هذه المداخلة الأدبية التاريخية التي أملاها الاحتفال السنوي بذكرى الإسراء والمعراج، من التنويه بأن معظم المؤلفات المسرحية والملحمية الخارقة التي صدرت في الغرب من القرن الرابع عشر إلى مشارف القرن الحادي والعشرين، تختص بنكهة روحانية مميزة عائدة على قصة الإسراء والمعراج، بما في ذلك مسرحية «فوست» لشاعر ألمانيا الكبير غوته، والعديد من نتاج الروس والفرنجة والإسبان والإيطاليين والأميركيين.

وأقدّم هنا نموذجين لأعمال فنية متفوقة في الزمن الذي نعيشه، مشبعة بروح الإسراء والمعراج عكساً وطرداً، سواء في صعود الكائن الأرضي إلى رحاب السماوات أو هبوط الكائن السماوي إلى الحياة الدنيا.

* النموذج الأول هو كتاب ريتشاد باخ أحد الشعراء الطيّارين في سلاح الجو الأميركي المتحدر من سلالة الموسيقي الشهير جان سيباستيان باخ، وعنوانه «جوناثان ليفنغستون ذي غويلاند» (Jonathan Livingston the Goeland). وقد أخرجه للسينما هول بارتلت سنة ١٩٧٣.

ويروي الكتاب حكاية طير عظيم الأجنحة يقال له «الغويلاند» تعلم في منتدى قومه وعشيرته ألا يحلق فوق مستوى معين وأن يطير فقط لتأمين قوته وقوت عياله. لكنه خرق هذا التقليد واندفع بشجاعة فائقة نحو الآفاق البعيدة والسماوات العريضة، ضارباً في المجهول وفاتحاً في المدى لمعرفة الأسرار الفوقية الخفية.

وفي الرواية أن ذلك الطير نبذه قومه وكفّرته جماعته، فلم يثنه ذلك عن هدفه، وما انفك يضرب المثل في التحليق وارتياد الأعالي حتى اقتدى به أفراد عشيرته وحطموا قيود الاعتكاف ومعوقات الانطلاق.

وغنيٌّ عن الإشارة ما لهذه الأسطورة الرائعة من صلة رمزية برحلة النبي الذي تفلّت من مادة الوجود وانطلق مؤتزراً بأجنحة جبريل نحو العوالم المحجوبة عن الرؤية فاقتدى به قومه وآمنوا بالله والملأ الأعلى.

* أما النموذج الثاني، فهو الفيلم

الذي أخرجه الألماني فيم فاندرز سنة ١٩٨٧ بعنوان «أجنحة الرغبة» (Les Ailes du Désir)، وهو أيضاً متأثر بالإسراء والمعراج، ولكن على نحو عكسي، بمعنى أنه يشخص نزول ملاك من السماء إلى الأرض، وليس صعود نبيّ من الأرض إلى السماء. وفي مقابل انضواء النبي الصاعد إلى سدرة المنتهى في جنات الخلود مع الأنبياء والرسل والملائكة، ينخرط الملاك الهابط إلى الدقعاء في الحياة الإنسانية، فيتحول إلى بشر يفرح ويتألم... يحب ويكره... يهرم ويموت.

* * *

الإسراء والمعراج ظاهرة فريدة لا مثيل لها في تاريخ الحضارات الإنسانية والديانات الإلهية. فهلاّ تنبّه المسلمون إلى أهمية هذه الآية المثلى، فانشأوا مركزاً للأبحاث يرصد ويراقب ما تقتبسه العبقريات العالمية من رموزها وكنوزها الروحية والجمالية الفائقة، وأفادوا بالتالي من تعميق دراستها على الصعيدين الإعلامي والثقافي؟!

١٣/ ١٢/ ١٩٩٧

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

(٢) L'Influence arabo-musulmane de l'Espagne medievale dans la Renaissance européenne.

(٣) البراق: هو الاسم العربي الذي يطلق على حائط المبكى في القدس الشريف. ويؤمن المسلمون إنه المكان الذي حطّ فيه جواد النبي خلال إسرائه.

(٤) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام، دار الجيل، بيروت، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص٢٤٢ ـ ٢٥٥.

(٥) Miguel A.del Palacio. Eschatologie musulmane de la Divine Comédie-Madrid 1919.

حدود الإثارة في ذمّ الدعارة

القضية الأخلاقية المتداولة في الأوساط الإعلامية والسياسية قضية مركّبة يزيدها التبسيط تعقيداً والارتجال استعصاءً. لذلك يتعيّن تحديد معطياتها وفك الارتباط بين عناصرها المتداخلة بالتشخيص الدقيق والتشريح الواثق المحكم قبل المباشرة بعلاجها واقتراح الوسائل الكفيلة بإنقاذ المجتمع من أخطارها.

فهي في الحقيقة ليست قضية واحدة، بل ثلاث قضايا متفاعلة فيما بينها تندرج تحت العناوين الآتية:

* ١ - أزمة الأخلاق السياسية والاجتماعية في لبنان، والأسلوب المتيسّر للحد من تفاقمها في إطار القانون.

* ٢ - الإباحية الجنسية وظواهر الانحراف والشذوذ، وكيفية حصرها ومنع استشرائها.

* ٣ - حدود الحرية الإعلامية، والإطار الصالح لقيام دستور خلقي إعلامي يخدم المجتمع والأهداف الوطنية العليا.

* * *

في مسألة الأخلاق السياسية والاجتماعية التي سبق وعرضنا لها مراراً وتكراراً في «مفكرة الأيام»، يخطئ من يعتقد أن انحرافنا الخلقي القائم على استباحة أموال الدولة، وشرعنة العمولات في القطاع الحكومي، وتحليل الرشوة والإثراء الاحتيالي، وحتى التلاعب بالاعتمادات وتزوير التواقيع والوثائق والمستندات... يخطئ من يعتقد أن هذا الانحراف هو ماركة لبنانية مسجّلة نمتاز بها وحدنا. ففي كل بلدان العالم دونما استثناء، من الصين الشيوعية إلى الولايات المتحدة إلى حاضرة الفاتيكان، تعتبر هذه الآفة من الأمراض المزمنة الملازمة لكل سلطة، حتى أن أحد الأمثال القاموسية الرائجة في اللغة الفرنسية والتي يتعلّمها الناس منذ القرون الوسطى جيلاً بعد جيل، يقول بالحرف الواضح: «من سرق الدولة ليس بسارق» (Voler l'état n'est pas voler).

ولكن هذا العيب، أو هذه اللطخة السوداء، تزداد بروزاً كلما تقلّصت مساحة البلد وضاقت، تماماً كما تظهر الذبابة بأجلى مظاهرها على القميص الضيق الأبيض، وتكاد العين ألا تراها على

الجدار الواسع.

ولا يعني ذلك في أي حال أن المجتمع المدني النظامي يجب أن يستسلم لهذه الظاهرة ويترك الأمور تجري في أعنّتها، حتى ولو كان دون الحد من شأوها محاذير. فلا شك أن مراكز القوى النفعية التي تمارس هذا النوع من السرقة والابتزاز سرعان ما تنقض على المحاولات الإصلاحية فتخنقها في مهدها. ولكن التجارب التي مرّت بها دول أخرى كبيرة وصغيرة أظهرت أن تحجيم هذا الفلتان الانتفاعي يمكن أن يتم في إطار ديموقراطي سليم، عندما يستنيب البرلمان الذي يمثل الشعب هيئة قضائية مختصة عليا لإجراء التحقيق والملاحقة والمحاكمة والتنفيذ، مع إيلائها صلاحيات مطلقة في حدود القانون وضمن فترة زمنية معينة، شرط أن يقترن ذلك بتدابير احترازية صارمة تحول دون أي تدخل سياسي أو ضغط من أي نوع كان في شؤونها. والمثل الأقرب في هذا المجال هو المثل الإيطالي وما يجري على غراره بأساليب أقل جرأة وتحدياً في فرنسا وبعض الدول الأوروبية الأخرى.

ولا يجوز من جهة ثانية، تحت أي ذريعة أو ملق سياسي أن يسلّم أمر على هذا الجانب من الدقة والخطورة إلى أي دكتاتورية عسكرية أو مدنية، حتى ولو كانت واعية مستنيرة ومنزّهة، لأن ذلك يؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى نشوء طبقة جديدة من أصحاب التجاوزات أكثر انحرافاً وضراوة من الطبقة الأولى.

* * *

أما الإباحية الجنسية وظواهر الفسق والشذوذ، فهي تنمو بنمو الحضارة وأسباب الرخاء في كل زمان ومكان. ويكفي أن نقرأ تاريخ الرومان في أوج قوتهم واتساع إمبراطوريتهم، وتاريخ العرب في عصورهم الذهبية أيام العباسيين والفاطميين وغيرهم، وتاريخ معظم الأمم القديمة والحديثة في الشرق والغرب، للتثبت من هذه الحقيقة الراسخة.

كذلك تنتشر الجرائم الجنسية والممارسات المنحرفة انتشاراً واسعاً في سياق الحروب وبعدها، لوجود علاقة سببية مباشرة بين الرعشة الجنسية ورعدة الخوف، على ما يؤكده فرويد وسائر علماء النفس.

ولكن هذه الجيوب الإباحية في كيان المجتمع لا تعني أن المجتمع كله فاسق منحلّ. فهنالك حيويات دفاعية عائدة إلى الدين والنظم التراثية والعادات والتقاليد وثوابت الحياة العائلية والأوضاع الاقتصادية الفردية وغيرها، تعمل تلقائياً على كبح هذه المفاسد. والردع لا يكون على الإطلاق بالتشدد والتزمت والعنف والرجم والصلب على طريقة محاكم التفتيش وأنظمة العصور البدائية، بل

بأنظمة تربوية متطورة وتنشئة علمية وخلقية سليمة تنبه إلى الأخطار الجسيمة الكامنة في استهلاك الجسد واستنفاد الطاقة النفسية بإهدار الحواس وإعتاقها من سيطرة العقل والإرادة.

ويرى فريق من المختصين في علم الاجتماع أن «تنظيم» العلائق الجنسية غير الشرعية يساعد على احتوائها أكثر من أي رادع تأديبي. ففي آخر المستجدات التي تداولتها الصحافة العالمية بين مؤيد ومعارض، أن الزعيم الإفريقي نلسون مانديلا أمر بإعادة فتح أسواق البغاء في جوهانسبورغ بعد إغلاق دام أعواماً بقرار من الحكومة العنصرية البيضاء التي سبقته. وقد علل مانديلا هذا التدبير باعتبارات ثلاثة:

* **الأول:** إن إغلاق بيوت الدعارة وأسواق البغاء، نقل المفاسد الجنسية، ليس في أفريقيا الجنوبية وحدها بل في جميع دول العالم التي نذرت العفة بهذه الطريقة الزائفة، من أطر محدودة مغلقة تخضع لرقابة السلطة وتنظيمها، إلى داخل البيوت والعائلات والمكاتب والمتاجر والمزارع والمؤسسات والمدارس ومعاهد العلم، وحتى أماكن العبادة! فأصبح المجتمع كله يبدو وكأنه سوق دعارة.

* **أما الاعتبار الثاني:** فهو أن تنظيم هذا القطاع وحصره في مواقع معينة، مع إخضاع مؤسساته وعناصره للمعاينة الطبية الدورية والرقابة الصحية المتواصلة، يحد إلى أبعد مدى من انتشار الأوبئة والأمراض الجنسية على أنواعها.

* **وأما الاعتبار الثالث:** وأهيب بالوزير السنيورة أن يأخذه في الاعتبار، فهو تأمين مداخيل وافرة للدولة عن طريق الضرائب التي يمكن فرضها على البغاء المنظم دون أن تطال الشعب.

ولا بد من التذكير بالمناسبة أن تجارة الجنس كانت منتظمة ضمن إطارها القانوني في لبنان طيلة عهد الانتداب وفي عهود الاستقلال، ثم تلاشت بفعل الأحداث الدامية. ولا أعرف ما الذي يمنع دولتنا الحريصة على الأخلاق الاجتماعية من إعادة تنظيم هذه التجارة التي تعتبر أقدم مهنة في التاريخ، ما دامت تبحث عن مداخيل، وتبحث في الوقت نفسه عن وسائل تحمي المجتمع من الفساد دون الإساءة إلى الحرية الفردية. فقديماً قيل إن «البغايا سياج الحرائر...».

* * *

وأخيراً نصل إلى قضية الإعلام التي تفرض نفسها، فأقول بصراحة، وأنا إعلامي شبَّ في مهنة المتاعب وشاب: إنني لم أكن أتصورّ أن يصل الإعلام يوماً في لبنان إلى هذه الدرجة من ازدهار الوسيلة وانحطاط المادة.

فقد تيسّر للإعلام المعاصر بوجه

عام، وللإعلام اللبناني في إطاره، وسائل تقنية معجزة مدهشة، حرفاً وصوتاً ولوناً وصورة وحركة، وبدلاً من أن تشرّف المؤسسات الإعلامية هذه الوسائل بالمواد الإبداعية الخارقة، حشدت لها سقط المتاع، وحشرت فيها بضاعة شائهة أو كاسدة، فظهر إفلاسها الكبير أخلاقياً وثقافياً ووطنياً.

ولا أحمّل أي قطاع إعلامي أو إعلاني مطبوع أو مسموع أو مرئي هذه المسؤولية منفرداً. بل إن المسؤولية تقع على الجميع، وتعود إلى ضعف الثقافة الكلاسيكية عند الإعلاميين المسؤولين عن دوائر الإنتاج، وانعدام التحسس الوطني والقومي عند الكثيرين من الإداريين والفنيين أصحاب القرار، مع تفاقم هاجس الكسب المادي بأي طريقة، وشهوة قنص الفرص الطارئة لتحقيق السبق وإحراز الامتياز لدى الرأي العام ولو بابتزاز عواطفه وتملّق غرائزه، يضاف إلى ذلك قلة الاحترام لمعاني الكلمات وتعابير الصور والمشاهد وفقدان أي تقويم لردود الفعل المتوقعة من جانب الذين يستقبلونها، وأخيراً سوء التفهم والتقدير لمبدأ الحرية الإعلامية ومداه.

كل هذا التخبط وهذه الفوضى يصب مع الأسف في خانة المؤامرة الصهيونية الكبرى على بلدنا الممزّق. ومعظم الإعلاميين عندنا يجهلون أن الصهيونية اخترعت لأوروبا شعاراً رفعته على أشلاء ٥٠ مليون قتيل بعد الحرب العالمية الثانية يقول: «جامع ولا تحارب» (Make Love not war)، فظلت قارة بأكملها غارقة في الموبقات طيلة عشرين عاماً حتى تمكن منها الأخطبوط الصهيوني وهي إلى الآن عاجزة عن تقطيع حبائله...

فلا نستغرب إذن، والمثل في دول أوروبية كبرى ظاهر للعيان، أن يكون كل ما ينشر ويُذاع ويملأ الأسماع من توافه «الثورة الجنسية» في بلدنا الصغير اليوم، وقد أفرغته الحرب من قِيَمه، وأسهمت دولته إلى حد بعيد في إحباط شعبه، هو من صنع عدوه، ولخدمة ذلك العدو الذي يسعى بكل وسيلة لتخنيث شباب لبنان وتعهير نسائه وتعقيم رجاله بالمسحوق الجنسي السحري الذي يسرع الإنحلال التام.

كذلك فكلّ ما يجري تظهيره وتكبيره إعلامياً، مما يسمى «فضائح»... من أب يشتبه في أنه اغتصب ابنته، إلى شركة وطنية ذات سمعة عالمية يتمرّغ المسؤولون عنها في حضيض الشكوك، لا لأنهم خاضعون لاستجواب قضائي، بل لأن وقائع ذلك الاستجواب تنشر وتعمم بلا حسيب ولا رقيب... إلى هذه وتلك من الجرائم والمآثم والمفاسد والصفقات التي لا يسلم أي مجتمع من آفاتها، لكنها تصل

عندما تحل في بلدنا إلى بلدان العالم بأسره عبر الأقمار الاصطناعية قبل أن يسمع بها حتى المتهمون أنفسهم بارتكابها... كل هذا وما يليه من تشكيك وتوجس معنوي وقهقرية مناعية واضطراب عصبي ونفسي إنما يخدم فقط طرفاً واحداً طامعاً فينا هو العدو الإسرائيلي الذي يهمه أن يقول العالم بأسره تعليقاً على سلمنا الأهلي ما قاله السيئ الذكر وزير خارجية أميركا الأسبق جورج شولتز تعليقاً على حربنا الأهلية سنة ١٩٨٦: «لا تدخلوا هذا البلد الموبوء، وافرضوا عليه الكرنتينا»!

هكذا تحقق إسرائيل مبتغاها، فيهرب المال وهو جبان، وينكفئ أصحابه عن التوظيف والاستثمار في بلد ابرص يأكل لحمه بيديه في برية مقفرة، كما تهرب السياحة وتهرب الحماسة للبنان من قلوب أصدقائه وتهرب الثقة من قلوب إخوانه أقرب الناس إليه.

بعد هذا أسأل نقابتي الصحافة والمحررين وسائر النقابات المختصة بالطباعة والإعلان والتلفزة والإذاعة والفن والتصوير والنشر، لماذا لا تأخذ المبادرة فوراً على طريقة النقيب عفيف الطيبي رحمه الله يوم قرر في الستينات فرض الرقابة الذاتية على الصحافة؟!

فليكن للإعلام أحلى الأمرَّيْن، وهو أن يراقب نفسه بنفسه حفظاً لكرامته وحرصاً على الحد الأدنى من حريته، قبل أن يثور الناس أنفسهم لمطالبة الدولة بكمّ الأفواه وتقطيع الأشرطة وفرض الظلام!

إنني أقول هذا مستشعراً خطر الاستمرار في هذه السياسة النعامية البغيضة اللامسؤولة من جانب أهل الحل والعقد في الإعلام الخاص... وأقوله في «النهار» جريدة الحرية التي ما زالت تسطع في رأد الضحى منذ ستين عاماً حاملة مشعل الثورة على الظلم والكبت والطغيان... فقد آن الأوان لتحرير الحرية من الفوضى، لأن المصباح في مشكاته الطبيعية يتألق وينير، لكنه لو تنزّل في الهشيم اليابس والمتاع البائر الداثر لأحرقه فوراً وأضرم النار في البيت كله بما فيه ومن فيه.

* * *

وقفت حفيدتي سيمة البالغة من العمر سبعة أعوام أمام التلفزيون هذا المساء، وهي تنظر بعينين جاحظتين إلى إعلان عطر يقال له «سكوربيو»، وسألتني بفضول بريء: ماذا يفعل الرجل الذي يطوق المرأة وعلى صدره عقرب؟!

هل أقول لها إنه يصلّي؟!

٢٠/ ١٢/ ١٩٩٧

قصّة حقيقية من لبنان

الميلاد عام ١٨٧٧

في قصر جرجس التويني

مهداة إلى الجيل الذي لا يقرأ، ويستغني عن جدّية الحياة بأفلام الوحوش على شاشات تحيله عبداً يجتر سمومها بعقله وحسّه وشهوته، دون أن يكون له رأي خاص في اللذة والقوة والعبقرية.

حدثتني الشاعرة والأديبة البيروتية الكابرة إﭬلين بسترس، رحمها الله، ابنة جرجس التويني وزوجة جبران بسترس الذي تسكن وزارة الخارجية اللبنانية اليوم في قصره، بهذه القصة الميلادية الرائعة سنة ١٩٥٦، وكانت لا تزال تكذّب نفسها عن مطاوعة الشيخوخة بالأنفة الموروثة والبهاء الأصيل، وقد ناهزت الثمانين وائتزرت بوشاح يتناغم فيه الجمال والجلال استعداداً لعبور جسر النازحين إلى الضفة الأخرى.

وأنا أنقل هذه الواقعة الحقيقية إلى قرّاء «النهار» وخصوصاً إلى الأجيال الجديدة عسى أن تجد فيها متعة وعبرة. كما أرجو أي مواطن لبناني يعثر في خزائن قومه وتراث آبائه وأجداده على حكايات واقعية من هذا النوع تعلم الأخلاق وتبتعث روح الوفاء والمحبة والصدق والكرامة والتضحية في مجتمعنا المريض، أن يبادر إلى تزويدي بهذه التحف النادرة التي نحن بأمسّ الحاجة إليها في زمن التهافت والتردي.

* * *

بيروت ١٨٧٧

كان عيد الميلاد يقترب يوماً بعد يوم في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٧، وأوراق الخريف تحبو وئيداً على الأدراج الرخامية في واجهة القصر(*)، والضحى المتثائب يعقد الغمام الإربد على رؤوس الشجر، وسكينة الفراغ الموحش تملأ الحديقة المترامية حيث لا ورد ولا بنفسج ولا ياسمين. فقد طمر العشب اليابس كل مُفترٍّ من الزهر، وترك الغصص في قلوب النحل والخيبة في حناجر الطير.

زهرة واحدة لم تنل أصابع الخريف من ربيعها الثالث عشر، ولا ابتلّت ملامحها برطوبة نسيمه، بل خرجت في زيّها

الباريسي المطرّز وحذائها الذي يحمل صفاً من الأزرار كأنها عساكر الطليان في انتظامها على ظهر الدارعة الرابضة في ثغر بيروت... خرجت تخطر بين الأسدين الجاثمين عند الباب، ثم تتجه وهي تصفر لحناً فرنسياً من ألحان «مونمارتر» إلى معانقة كلبها «ميدور».

وفيما كانت إڤلين تتجه بجاش الثالثة عشرة في المعبر المرصوف بالحصى البحري نحو بيت كلبها الذي حمله خريستو أفندي من بلاد اليونان هدية إلى أبيها جرجس التويني، كانت عيون الخيل في الإسطبل تسترق النظر إليها وتصهل فرحاً بقدومها، وأصابع السائس إبراهيم تتفقد الشكائم والمرابط باهتمام، خشية أن تقطعها الجياد وتنطلق باتجاه الأميرة الصغيرة للتعبير بأسلوبها الاقتحامي الرهيب عن الولاء والشغف والحب. أما كوفية البستاني أيوب، فكانت تتمسح بعرق جبينه لذة وارتياحاً.

لم تسلّم إڤلين على إبراهيم وأيوب خلال تلك الحنجلة بين القصر وبيت الكلب. فهي لم تتعوّد هذا التنازل تجاه العاملين في بيت أبيها. وكلما كان غندور الإسكاف يدخل عليها ليقيس الحذاء الجديد على قدمها الثلجية ذات الخفوق العصبي الأرستقراطي، ويقول بعد مغالبة النعل وتطويعه لاستقبال تلك الأنامل الوردية الرخوة: «مبروك يا ستي»... كانت إڤلين تحار بماذا تجيب. فهي تدرك في قرارة نفسها إن كلمة «مرسي» الفرنسية لا يمكن أن تعبّر عما يبتغيه الإسكاف الحاذق من جواب له الوقع الدافئ في قلبه الحزين، ولم يكن في وسع مربيتها الفرنسية أن تعلّمها أكثر من هذا التعبير عن الشكر الذي كان يكتفي به أستاذ الكمان الإيطالي المشرف على ثقافتها الموسيقية عندما يفرغ من إملاء درسه. وكانت إڤلين تخشى أن تشكر الإسكاف بعبارة الخادمة حنة التي تقول له: «يسلمو ديّاتك يا معلّم غندور. الله يعطيك العافية». ذلك إن كلام أهل الدساكر لا يجوز لأهل القصور، وعبارات السوقة لا تصلح لبنات الناس!.. هذا على الأقل ما كان يحدثها به الطاهي فريدريك الذي خدم في بلاط آل هابسبورغ، وهو يروي حكاية الأميرة «آنا» التي عطفت على الحوذي، فافتض بكارتها ثم خنقها واتفق مع كلاّس المحطة على دفن جثتها في جدار الكاتدرائية!.

* * *

في ذلك الزمان، لم يفكر جرجس التويني لحظة واحدة أن حبة قلبه إڤلين قد لا تكون مثال أمه تواضعاً وانكساراً ورفقاً بعباد الله، أو أنها قد تختلف عن عمته أولغا التي ظل الفقراء يقبّلون رداءها امتناناً، حتى دفعها إنكارها للظلم وعجزها عن استئصاله وإزالته، إلى الزهد في الدنيا، وإنشاء دار للأيتام شرّفتها قيصرة

الروسيا برعايتها السامية.

لقد أنعم الله على جرجس بالمال والكمال. وكان شيخ تجار بيروت، يستورد البضائع من سلانيك وأوديسا وجنوى ومرسيليا وسبتة ولشبونة، ويؤم داره أشراف الدولة العثمانية، ويخطب ودّه الوالي، كما يحسده المجتمع الراقي على ما يتمتع به من يسر وجاه.

ولم يصرف المال ذلك الرجل عن وجه الله. فقد عرف بالفضل والتقوى، حتى أنه كان أول من يدخل كنيسة القديس نقولاوس عند قرع الجرس لتلاوة «السحريات»، وآخر من يغادرها أيام الآحاد والأعياد. ولم تخلُ يوماً جعبته من زاد الخير يتفضل به على المعوزين.

وكان جرجس بك يحب إڤلين حباً لا مزيد عليه، وقد نصحه أصدقاؤه من علية القوم أن يربيها التربية العصرية، ويثقّفها بالعلوم والآداب الأوروبية، فضلاً عن الثقافة العربية الشرقية التي اختص بها شيخ وقور من آل طبارة يعلمها الشعر القديم والمقامات والموشحات ويقوم لسانها بالفصيح من كلام العرب وآي الذكر الحكيم.

إلا أن محاضرات الشيخ الجليل ومزامير الكاهن الأرثوذكسي الذي كان يروي لها تاريخ الكنيسة ويتلو عليها أناشيد رومانوس، لم يتمكنا من هدم سور القصر. فقد ظلت الفتاة الأرستوقراطية رهينة الحياة المغلقة التي مهرت شخصيتها بالكبرياء، وجعلت حكايات الخدم أرسخ في ذهنها وأكثر ملقاً لخيالها من مهارات بديع الزمان وتباريح دوكاس في رثاء قسطنطينية.

* * *

ما أن وصلت إڤلين إلى كلبها ميدور حتى أخذته بين ذراعيها وبدت كأنها تعانق حلماً جميلاً، حتى إذا نالت منه ما تبتغي ضماً وتقبيلاً، صرفته عنها في ضجر، فتململ وانبسط خائباً حتى ليخال الناظر إليه إنه يبغي الوقوف على مخطمه وهو يحرك ذيله حركة لسانه، يمضع الهواء بالذنَب والريق باللسان، ثم تباطأ وتمطى واستوى أمام الطفلة محدّقاً في عينيها والجوع في عينيه.

ومدّت إڤلين يدها إلى حقيبة الخيزران التي تحمل باحثة عن غذاء ميدور، فإذا بجرس الباب الخارجي يقرع مرتين قرعاً شديداً.

تركت إڤلين حقيبتها واندفعت يحدوها فضول الطفولة باتجاه باب السور وهي تضحك لانقضاض ميدور على قطع الجبن واللحم التي أخذ يفترسها بنهم. وقبل أن يصل أي من الخدم، فتحت إڤلين الباب. فإذا رجل في الخمسين رثّ العباءة ذو لحية بلقاء يبادر بالتحية:

- صباح الخير يا بنتي.

لا يعرف أحد ما الذي انتاب إڤلين

في تلك اللحظة فلم تحر جواباً. كانت أشبه بتمثال من الشمع وهي تحملق في الزائر الغريب وقد تلجلجت بكلام غير مفهوم فضح ارتباكها المحتبَس من خلال الصفرة التي علت شفتيها الدقيقتين. لكن تلك المناظرة الصامتة بين جيلين وطبقتين وحضارتين لم تدم إلا ثواني معدودة قفزت بعدها إفلين من حالة الخبل التجريدي الجامد إلى حالة عصبية ليست من خصائصها ولا من طباعها في شيء. فقطعت استغراب الرجل وحيرته البادية مما اعتراها وهي تقهقه وتعربد في نزق مفتعل حين قالت له فجأة:

ـ من أنت؟ وماذا تريد؟

قال: محسوبك أحمد سليمان الفقيه، وأرغب في مقابلة شريكي جرجس بك.

تفحّصت إفلين الرجل من رأسه إلى قدميه، ثم حوّلت نظرها بقرف عن مداسه الريفي المغروز بالمسامير الصدئة وقد علاه الوحل وانتشرت فيه الرقاع حتى أفقدته شكله الأصلي، وأطلقت سخطها واشمئزازها في عبارة: «الله يعطيك».

لم يكن يخامر إفلين أي شك في أن ذلك الرجل متسوّل أو دجّال. فهل يمكن أن يكون لأبيها شريك من هذا النوع؟ وهل يمكن أن يدخل القصر الجميل في الحي السرسقي إلا سراة القوم ممن تسبقهم عطورهم إلى أنوف الخدم، وصهلات خيلهم إلى آذان الكلاب؟!

«الله يعطيك». ذلك التعبير كان أكثر مما يجب أن يُعطى في رأيها لشحاذ طارئ يجوب الآفاق.

وبعدما صكّت الفتاة الباب في نفور وكادت تصدم وجه الشيخ به، أسرعت نحو كلبها الذي كان يعيث في حقيبتها ويلغ في محتوياتها شماً وقضماً وتخريباً، وتذكرت في سياق تلك الفجاءة حديث رئيس الخدم الحاج مصطفى الذي أخبرها أنه يوم كان في جهاز الشرطة صادر من كهف أحد المتسولين مجوهرات ونقوداً ذهبية تساوي نصف الأموال التي يدفعها تجار بيروت لخزانة الباب العالي.

وفيما عادت الطفلة إلى مداعبة الكلب تحت رذاذ المطر المتساقط وئيداً كأنه دموع الطبيعة في نهاية عمرها، كان الشيخ أحمد لا يزال واقفاً بالباب حائراً خائباً.

لقد قرع الجرس مرتين، ثم أردفهما بثالثة بادية العنف تعبيراً عن غيظه واستنكاره، لكن أحداً لم يجب! ذلك أن الفتاة كانت قد بادرت إلى إعلام السائس إبراهيم والبستاني أيوب بإشارة من يدها أن الطارق غير مرغوب فيه، وتلكأ إبراهيم الذي أعياه الفهم أول الأمر، فصاحت به غاضبة: «إنه شحّاذ».

* * *

تلمس الشيخ أحمد رداءه الذي ابتلّ بالمطر ومسح القطر البارد المتساقط على جبينه ولحيته، ثم هزّ رأسه مرتين وفكّ

رباط حماره وجماله متوجهاً إلى ثغر بيروت.

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً، وقد علا ضجيج العجلات في المدينة وصفرت مراكب في الميناء. فمرّ بساحة البرج، واشترى بعض الجرابات والقمصان والحلويات والأقلام والقرطاسية والفستق السوداني والحلبي لأولاده. وأحسّ بالجوع إلا أنه لم يشأ أن يصرف وقته في الأكل وقد آلمته معدته مما أصابه، فآثر أن يتوجه قبل ذلك إلى محلات جرجس التويني لإبراء ذمته وتسديد ما عليه.

وسرعان ما وصل أحمد إلى رصيف الميناء حيث لفحته رياح البحر الباردة، فالتفّ بعباءته وربط حماره ودوابه بعمود المصباح الأغبر، ثم صعد الأدراج الدهرية إلى مكتب جرجس بك طالباً مقابلته.

نظر الحاجب إلى الطارق بارتياب أول الأمر. لكنه بعدما استوثق من هويته وغايته، استمهله ريثما يخبر صاحب المؤسسة بقدومه. وما هي إلا دقائق، حتى خرج جرجس التويني إلى قاعة الانتظار مرحباً ومصافحاً:

ـ يا هلا أبو محمود. طوّلت الغيبة يا شيخ. أوحشتنا جداً. كيف أحوالك؟ إن شاء الله بخير.

ـ الحمد لله يا بك. ألف نعمة كريم. وأنتم كيف أحوالكم؟ ما شاء الله يا جرجس بك. كل مرة أزورك أراك فيها تجدد شبابك.

ـ والله يا بو محمود صرنا تعبانين. لا تنغش بالمظهر. الرأس كثير الأوجاع.

ـ سلّم راسك يا سيدي. وجع الرأس هيّن عند وجع القلب!

وغصّ أبو محمود عند هذا الكلام فطفرت دموع مرّة من عينيه الغائرتين مسحها بكمّه مكابراً متماسكاً.

ـ شو القصة يا بو محمود؟ شايفك مقهور. حدا مكدّرك لا سمح الله؟!

ـ ابنك محمود يا بك، عطاك عمره من شهرين! مات «بالشكة»!.

ـ شو عم تحكي يا شيخ؟ شوها الخبر المشؤوم؟ ضيعان الرجال! محمود مات! مش معقول. أنا لا أصدّق!...

ـ والله حصل يا بك، بليلة ما فيها ضوّ قمر، ودّعنا ببيت عتابا! حط راسو على حضن إمّو وقال:

رماني الدهر بالداء وبَلاني
من بعدما كان جرّبني وبلاني
وإذا عُزّ اللئيم قالت بلاني
بْتِسْقي تربتي دموعِ الحباب

ـ يا لطيف. بيكفي يا بو محمود. الله يصبرك ويقويك.

ومسح جرجس التويني هو أيضاً عينه الدامعة بطرف منديله، ثم هدّأ من

روعه وأشعل لفافة تبغ وأردف:

ـ انشالله العوض بسلامتك يا بو محمود. الله يجرّب خائفيه ويختار محبيه. محمود استراح من هالعالم الظالم. خسارة شبابه، جرحك عميق. لكن بعرفك رجّال...

وخيّم على اللقاء وشاح السكون، فمرّت لحظات من التأمل والعبرة قطعها الشيخ أحمد بعد فترة وجيزة بقوله:

ـ جئنا بالغلال يا بك وما عرفنا وين نفرّغها!

ـ ولو، يا بو محمود ما بتعرف طريق البيت؟!

ـ اعرفها جيداً، لكنهم ظنوا إنني شحاذ، فلم يسمحوا لي بالدخول.

ـ ومن فعل ذلك؟

ـ بنيّة صغيرة أظنها إبنتك يا بك. سبحان الله خلقها مثل مهرة محجّلي.

أطرق جرجس التويني لحظات مشوبة بالكآبة، ثم طلب من شريكه أن يتريث بعض الوقت حتى يتم المعاملات التي بين يديه، ويصحبه بعدها إلى الأشرفية، كما أمر له ببعض المرطبات والسكاكر يتسلى بها إلى أن يحين موعد الانصراف.

* * *

وبعدما يقارب الساعة توجه جرجس إلى منزله في مركبته الفخمة، وتبعه أبو محمود يسوق جماله المحمّلة بخيرات «المونة» من أرض البقاع الخصبة حيث كانت لشريكه مزارع يتولاها بعناية ويأتيه في كل موسم بنصيبه من غلاتها.

وما أن وصل الموكب إلى القصر حتى نبحت الكلاب وفتحت الأبواب، وتسارع القائمون على خدمة البيت الكبير وجيرانه إلى التحية والمساعدة، فأنزلت الأحمال ورتّبت في مخازنها، وسيقت البهائم إلى الإسطبل حيث أمدّها السائس بالماء والعلف.

ودخل جرجس بك إلى القصر ومعه أبو محمود الذي خلع حذاءه عند الباب، وعبر مع شريكه القاعات المرمرية الفسيحة وقد فرشت بالسجاد العجمي وأنسجة الأوبيسون. وبعد استراحة قصيرة في الصالة الشرقية، توجه الرجلان إلى غرفة الطعام الفاخرة حيث كان الغداء قد وضع على الخوان. وكان أبو محمود قد صلّى ركعتين في الاستراحة المجاورة ثم انضم إلى الجالسين حول المائدة. فتلا جرجس التويني صلاة قصيرة أردفها بدعاء: «اللهم ليكن فضلك علينا بقدر اتكالنا عليك».

وقد تحلّق أهل الدار جميعاً حول المائدة بمن فيهم والدة إقلين وموظفو القصر، وجلس معهم أبو محمود الذي كانت الفتاة تراقبه خلسة وهي لا تكاد تصدّق أن هذا الرجل الذي طردته لمنظره الكريه ينعم بضيافة أبيها واحترامه.

وقبل أن يبدأ الجمع بتناول الطعام،

قال جرجس التويني لشريكه بحزم لا يقبل الاعتراض: أرجوك أن تأتي إلى هنا بحذائك الذي تركته عند الباب.

قال أبو محمود: يا بك. الحذاء مكانه معروف، ولا يجوز أن أدخله هذا المكان، أنا لا أرضى ولا أوافق.

قال جرجس: تأتي به أو لا تكون شريكي. فلي في هذا الأمر هدف تجهله.

فنهض الرجل إلى باب القصر وحمل حذاءه ودخل به القاعة مرتبكاً، فتناوله جرجس التويني من يده ووضعه على طاولة قرب المائدة!

لقد ظنّ من بالمكان في تلك اللحظة أن ربّ البيت فقد عقله. لكنه بعد لحظات نادى على إڤلين، فوقفت حائرة مضطربة، وسرعان ما بادرها بالسؤال الذي كانت تنتظره: لماذا منعت أبو محمود من دخول البيت؟!

قالت: ظَننت أنه من المتسولين أو قطّاع الطرق.

قال جرجس: يا بنتي. كثيرون هم المتسولون الذين يلبسون الريدنغوت، وقطّاع الطرق الذين يجلسون في أرائك الحكم. وكثيراً ما يعرف اللص الكبير من بريق حذائه وأنيق ردائه. أما المداس الموحل المرقّع الذي أمرت اليوم بوضعه قرب المائدة، فهو مصدر خبزنا وطعامنا، فلا تنسي أبداً أننا بفضل هذا الحذاء نحصل على هذا الغذاء...

٢٧/ ١٢/ ١٩٩٧

(*) المقصود هو قصر جرجس التويني والد إڤلين الذي لا يزال قائماً في حي الأشرفية إلى اليوم.

فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزين

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللاّم

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

بعون الله تعالى
تمت طباعة هذا الجزء
من «مفكرة الأيام»
في ٣١ / ١٢ / ٢٠٠٢
الموافق له ٢٧ شوال ١٤٢٣هـ



صاحب المفكّرة

• هو الصحافي الباحث والأديب الشاعر رفيق عيد المعلوف ولد في كفرعقاب (المتن الشمالي – لبنان) سنة ١٩٣١ وامتهن الصحافة فبرز في مضمارها، ناقدا معلقا ومفكرا سياسيا ومناضلا حرا في الميادين الوطنية والقومية.

• شارك في تأسيس عدد من الجرائد والمجلات، وتولّى رئاسة التحرير في صحف لبنانية رائدة ما يزيد على أربعة عقود.

• كتب في صحف ومجلاّت عربية وأوروبية بارزة، وله محاضرات ومناظرات ومؤلفات متنوعة في الأدب والشعر واللغة والتاريخ صدر بعضها، وسيصدر بعضها الآخر تباعاً.

• نشر سنة ٢٠٠٠ الجزء الأول من ديوان شعره «حداء وادي الشجن» في ٥٠٠ صفحة تميّزت بالإبداع الفني والطباعي، وأجمع النقاد على اعتباره المنقذ من ضلال الحداثة الفوضوية، والعائد بالشعر الى أصوله التراثية النابعة من عبقرية اللغة العربية وبيانها المعجز.

رفيق المعلوف

مفـكّرة الأيــام

كتابات صحفية مختارة

في أدب السياسة وثـقافة الرأي والفكر

٥٠ سـنة في ٩ أجزاء

١٩٥٢ - ٢٠٠٢

الجزء الثاني

فهرس

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة